

ترحال في صحراء الجزيرة العربية

الجزء الثاني - المجلد الثاني

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتي

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/ 927

ترحال في صحراء الجزيرة العربية
(الجزء الثاني - المجلد الثاني)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٢٧ / ٢

- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج ٢، مج ٢)

- تشارلز م. دوتى

- صبرى محمد حسن

- جمال زكريا قاسم

- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى – المجلد الثانى)

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج ٢ - مج ٢)، تأليف:
تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة
وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط ٢ - القاهرة، المركز القومى
للترجمة، ٢٠٠٩

٤٥٩ ص؛ ٢٤ سم

١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات

٢- الرحلات العلمية

٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات

أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)

ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)

٩١٥,٣٠٠١

ج- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٦

الترقيم الدولى: 6 - 192 - 479 - 977 - 978

طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7 الفصل الثانى عشر : عنيزة
57 الفصل الثالث عشر : الحياة فى عنيزة
 الفصل الرابع عشر : طرد المسيحى الغربى عن عنيزة ، واستدعاؤه مرة ثانية
107
147 الفصل الخامس عشر : حروب عنيزة ، طرد القحطان من القصيم
185 الفصل السادس عشر : مغادرة القصيم ، مع قافلة الزيد المتجهة إلى مكة ..
235 الفصل السابع عشر : الطائف ، الشريف ، أمير مكة
277 الفصل الثامن عشر : وادى فاطمة
313 الكلمات العربية عند دوتى

الفصل الثانى عشر

عنيزة

نفود (القصيم). ممر وادى الرماح. النصرانى الذى تخلى عنه الرفيق، يلقى كرما؛ ويدخل عنيزة. وصف المدينة. الأمير زامل. عمه على. أهل المدينة. عبد الله الكنينى. منزله ودراساته. الإفطار مع زامل. النصرانى يجرى إخراجه من دكان الطبابة بواسطة الأمير على. متشدد. الإفطار مع الكنينى. أمراض العيون. الجدرى فى المدينة. شوارع عنيزة. الحياة الدينية والهادئة لهؤلاء الناس. النساء لا ترى. عبد الله البسام. غداء فى منزله. أقارب البسام. نصير السمرى. النهار فى عنيزة. جنة. مزرعة الكنينى. حامد الصافى، عبد الله البسام، الأصغر، والشيخ بن عايض. شيخ عجوز من عتيبة: التشدد. الضعيف والمهترئ. أصدقاء النصرانى. حكاية عمر، الخليفة الأول. الآثار. الكنينى. شريف المدينة الوغد يصل الى عنيزة. البسام الطيب.

وصلنا إلى نفود واسع شاهدت الرمال فيه على شكل سلسلة من الضفاف الطويلة: والناس هنا يطلقون على رمال النفود الخفيفة المتحركة اسم عدنات adanat أو كتيب kethib ؛ والجوردة Jurda اسم يطلقه أهل هذه المنطقة على الضفاف الرملية الناتجة عن عملية الطقس، كما يطلقون على الضفاف الرملية التى تكون فى اتجاه الريح اسم لوغراف، بمعنى [لحاف lahaf] . والجوردة Jurda ويصح فيه أيضا جُرْدَة Jorda [وجمعه جراد Jerad بكسر الجيم ، وجيراد Jerad بمد الألف] اسم يطلق على الكتيب أو التل، الذى تكون له حواف من الصلصال، الحجر الرملى، والذى قد تنمو عليه الأدغال الصحراوية. الطريق إلى عنيزة، عبارة عن طريق عميق منجرف فى صحراء النفود غير المستوية؛ ولكنى لاحظت فى الرمل (الذى أثرت الريح والمطر عليه مؤخرا)

عدم وجود أى أثر لأقدام الإنسان أو الحيوان! - وبالتدريج راح حسن يحول ناقتنا عن المسار الطبيعى، لتمشى وتمر خلال الكثبان الرملية: وبذلك قل احتمال مرورنا على البدو المعادين لبريدة. والقبائل الكبيرة (التي فى هذه المنطقة هى المطير، وعتيبة، وهما حليفتان لزامل، أمير عنيزة. - زامل ، هذا الاسم كان له وقع طيب فى أذنائى: ولقد بلغنى وذلك على لسان أعداء زامل من قبيلة حرب، أن ذلك الرجل كريم المحتد بحق، كما بلغنى أيضا أن: "ولد مهنا" (الذى انضموا بسببه، قبل عامين، إلى جانب ابن الرشيد فى عدائه لعنيزة) كان فظا مستبداً: وعداء قبيلة حرب هذا ، هو الذى جعلنى لا أبداً مسيرى إلى عنيزة من منازلهم.

النفود هنا تغطيه نباتات برية يدرجها الأعراب ضمن النباتات غير الصحية؛ مما جعلنى أضرب ناقتى كى أبعداها عن الاقتطاف أو الأكل من تلك الأعشاب السامة، ولكن حسنا قال: " لا؛ إيل الحضر تأكل من هذا العشب، لأنه لا يوجد شىء سواه." شاهدنا أيضا صبيا بدويا مترحلاً كان يرعى الغنم: وسألت رفيقى، متى ينبغى أن نصل إلى عنيزة؟ - " عند غروب الشمس." كان ارتفاع الأرض هنا عن مستوى سطح البحر لا يزيد على ٢٥٠٠ قدم. وبعد مسير ثلاث ساعات ، عدنا إلى الطريق المعتاد، ورحنا نسير بجوار بعض أشجار الطرفاء الضخمة. قال حسن: نقيل Negil بمعنى سوف ننزل هنا عن راحلتنا ونستريح فى هذا المكان طوال فترة الظهيرة. شاهدت حفرا تحت هذه الأشجار، قام بحفرها صيادو الجراد. سألت " هل عنيزة بعيدة عن هنا؟ - عنيزة لم تعد بعيدة عن هذا المكان." - " قل لى بحق أيها الرفيق: هل تحملنى فعلا إلى عنيزة؟ - "أنت لاتصدقنى ؛ انتبه!" (ثم أخرج لى حزمة من الرسائل - ومع ذلك كانت تلك الرسائل تبدو قديمة وبالية). قال: كل هذه رسائل من التجار ومطلوب منى تسليمها لأصحابها اليوم فى عنيزة؛ ثم أحضر البضاعة من هناك. - لم يسبق لى أن رأيته وهو يتسلم رسالة فرانكلين الصغير الموجهة إلى عنيزة! وجد حسن شيئاً ما فى كلامى ، لأنه لم يتوقف ومضى قدما فى طريقه؛ قد تكون المسافة التى بيننا وبين عنيزة قرابة عشرة أميال. هذه هى التربة قد بدأت تبدو أمامنا على شكل رفوف؛ وعثرت تحت أشجار الطرفاء على قليل من الماء الذى ينبعث من الأرض. وسرعان ما نزلنا

إلى قاع وادٍ من الوديان، لم يكن ذلك القاع مغطى بالحجر؛ وأثناء عبورنا قاع ذلك الوادى رحنا نخوض خلال الماء! سألت: "ما هذا الحوض أو المجرى؟" - الإجابة: "الوادى" - بمعنى أننا كنا (فى منتصف) وادى الرماح. وخضنا خلال الماء (مالغ المذاق) إلى أن وصلنا إلى غابة غير مسورة من غابات النخيل، وجدنا فيها حفرا تشبه المقابر عمق الواحدة منها قامة واحدة تقريبا، ومحفورة بجانب مجموعات من النخيل الصغير إلى بداية المياه الجوفية. هذا النخيل الصغير يرويه الناس طوال العام أو العامين الأولين، إلى أن يضرب جذوره لتصل إلى الأرض المالحة الرطبة.

هذه الغابة من النخيل طولها ميل، ولا يرى خلالها سوى قلة قليلة من جنوع النخل (كبيرة السن) التى تبرز منعزلة عن بقية النخل الصغير؛ والسبب فى ذلك أن تلك المزارع النائية تكون أول الأشياء التى يجرى تخريبها وتدميرها أثناء العمليات الحربية. شاهدت من خلال أشجار النخيل جدارا فنائيا عاليا، يحتوى به المزارعون فى حالة الخطر؛ كما أرانى حسن جزءاً مفتوحا وسيعا من تلك الأرض، خيم فيه ابن الرشيد ، عندما كان يقف إلى جانب ولد مهنا فى مواجهة قبيلة عنيزة. لم نلتق سوى عاملين زنجبين؛ وخلف النخيل كان الطريق يدخل أيضا ضمن صحراء النفود، وبعد مسافة قصيرة على الجانب الأيمن، كانت توجد بعض الممتلكات المسورة وأوقفنا راحلتنا أمام غدير من الحجر، أو إن شئت فقل: سبيل Sebil ، بناء صاحبه فى السور الصلصالى وربطه بالسوانى (السواقى) عن طريق قناة: كان الغدير جافا نظرا لأن أحدا لم يمر بذلك المكان قادما من بريدة أو ذاهبا إليها. سمعنا الصوت الصادر عن السواقى، كما سمعنا أيضا أصوات عمال الحصاد فى الحقول. قال حسن، وهو يضع أشياء على الأرض: هذا هو مكان الراحة: استرح فى ظل هذا الجدار، إلى أن أنهب وأسقى الناقة. وأين قريبة الماء؟ حتى يمكن لى أن أحضر لك ماءً للشرب؛ فلربما تشعر بالعطش قبل دخول المساء، وذلك عندما يحين موعد دخولنا المدينة، - على حد قول عبد الله؛ وعليك أن تتنبه وتفتح عينيك تحاشيا للبدو وخوفا منهم. تركت الرجل يذهب لما أراد ولكنى جعلته يترك رمحه معى.

بعد أن عاد حسن إلى بقربة الماء، أبلغني أنه أطلق الناقة ترعى؛ "والله يا خليل ، لا بد أن أتابع الناقة، انتبه! مخافة أن تضل الناقة طريقها. أعطني رمحي وسوف ألاحق الناقة وأعيدها، وإلا فإنها ستضل منا في النفود." - "أذهب لما تريد، ولكن الرمح سيبقى معي." يا الله أتشك في رفيقك، هل يصح أن أمشي بلا سلاح ؟ أعطني حربتي، وسوف أعود لك خلال فترة وجيزة جداً . "خطر ببالي أن هذا الرجل لو كان خائناً، واضطررته أنا إلى نقلي إلى عنيزة، فلربما كشف أمرى إلى الحضر المتشددين في المدينة: 'هذا النصراني!' - "ستضيع ناقتنا، لا تعطلني." - "ألن تتخلي عني هنا؟" - "لا والله ، وحياة هذه اللحية!" رميت له رمحه على الأرض فوق الرمل، وبعد أن تناول الرمح قال: "أثناء غيابي ،إذا ما احتجت أى شيء ، اذهب إلى نهاية السور من هذه الناحية؛ وعندها ستري أرضاً مزروعة بالنخيل، ورجالا يشتغلون. ارتح حالياً في الظل، وصلح لنفسك شيئاً من المريسى، لأنك صائم؛ وغط هذه الجوالات والخروج؛ لا تسمح لأحد برؤية هذه الجوالات. عنيزة تقع على بعد مسافة قصيرة خلف ذلك العدن *adan* (كثيب)؛ ويوسعك رؤية البلد من ذلك المكان: سوف أجرى الآن، وأعود إليك ثانية." تركته يذهب لحال سبيله، وراح حسن يعدو خلف الناقة، ثم اختفى بين كثبان الرمال. خطر ببالي في ذلك الوقت، ذلك الذي يمكن أن يحدث لهذا الرجل، ورميت عني عباءتي (بشتى) ورحت أجرى حافى القدمين في النفود؛ ومن فوق واحد من الكثبان الرملية شاهدت حسناً وهو يركب الناقة ويمضي قدماً - لأنه تخلى عني بالفعل ! دار دورة حول نخيل الوادى في اتجاهه إلى موطنه. وهنا عرفت أنهم خانوني وتخلوا عني بناء على إيعاز من عبد الله ، وخطر على بالي كلامه عندما قال متسائلاً: " من الذى سينقل النصراني إلى الوادى؟"

كان ذلك هو أتعس المواقف وأسوأ حظ لى في الجزيرة العربية !عندما تخلوا عني هنا وتركونى خارج بلدة من البلدان الرئيسية، فى وسط نجد شديدة التعصب من الناحية الدينية. لم يكن يتبقى معى سوى ثمانية ريالاً، التى ربما نقلتني على أقصى تقدير إلى أقرب السواحل إلى هذه المنطقة. عدت إلى أشياءى وسلحت نفسى؛ وقطعت خرائطى إلى قطع صغيرة، - مخافة أن يقبضوا على ويسألونى أمام مواطنين متعلمين يعرفون القراءة والكتابة.

جاءنى رجل وامرأة زنجية من بين النخيل وكانا يحملان حطبا ويتجهان صوب عنيزة: لقد رأينا أثناء مرورنا، وسألانى سؤالا سانجا، " أين رفيقك وأين الناقة؟" - بعد ذلك واصلت مسيرى بجوار الجدار الطينى، فى اتجاه صوت السوانى (السواقى)؛ ورأيت مزارع النخيل وبیت فى بستان . كان الباب مغلقا بإحكام: وعثرت على باب آخر بعد الباب الأول؛ ونظرت من خلال الثقوب وشاهدت صاحب المزرعة وهو يقود الإبل التى تجلب الماء من الآبار. كان وجه ذلك الرجل بشوشا. دفعت بوابة ذلك الرجل ودخلت عليه فجأة، وقلت له: "السلام عليكم؛" وطلبت منه شربة ماء. توقف ذلك الرجل الطيب برهة كيما يتحقق من الغريب! ثم طلب من ابنته الصغيرة إحضار السطل، ثم أوقف إبله كي يتحدث معى. "إشرب - إذا ما أردت، ولكننا ليس لدينا ماء عذب." كان مذاق الماء مرًا وغير صالح للشرب؛ ولكن مع ذلك سيكون كأس الماء هذا عهدا بيننا أى بينى وبين هذا الرجل الطيب.

طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يقرضنى ناقة أو حمارا يحمل أشياءى إلى المدينة، على أن أدفع له أجراً نظير ذلك. حكيت له أيضا كيف وصلت إلى هذا المكان ، - بواسطة جمال من بريدة؛ والذى تخلى عنى بينما كنت أنال قسطا من الراحة بالقرب من بوابته: وقلت له أيضا: إننى حكيم، وإن كان هناك مرضى فى هذا المكان فإن لدى من الأنوية ما يمكن أن يشفى هؤلاء المرضى. - "حسن، انتظر إلى أن يعود ولدى ومعه الناقة: - (قال لابنته) : سأذهب أنا مع هذا الرجل؛ هذا هو مشعابى! خذيه، ولا تجعلى الإبل تتوقف. - من أنت، غريب، وأين تركت أشياءك؟ لعلك لا تكون تركت تلك الأشياء بعيدا عن مدى رؤيتك وبلا حراسة؛ ماذا لو لم نعثر على هذه الأشياء؟ - الأشياء كانت فى مأمن؛ وحملت الأكياس الكبيرة على كتفى، ورحت أتجه صوب بوابة ذلك الرجل الطيب فى النفود؛ كنت فرحا فى داخلى، لأننى أحمل معى الآن كل ما لى فى هذه الدنيا. طلب الرجل الطيب منى الجلوس (فى الخارج)، فى الوقت الذى ذهب هو فيه لإحضار حمار. - "هل ستدفع لى قرشا ونصف القرش (أى ثلاث بنسات)؟" وهنا توافد علينا ثلاثة أو أربعة رجال كبار كانوا قادمين من المزارع، وكانوا متجهين صوب البوابة المجاورة كي يشربوا قهوة العصر استوقفهم الرجل الطيب وقال لهم:

" هذا غريب، - ولا يستطيع البقاء هنا، ونحن لا يمكن لنا استقباله في بيتنا؛ وهو يطلب من ينقله إلى البلدة." وردوا عليه، بأنه ينبغي عليه إحضار الحمار وتوصيلي إلى عنيزة." ومن أنت؟ (قالوا لي): - نحن ذاهبين حاليا لشرب القهوة؛ هل سمع أحدكم الأذان؟" شخص آخر: "لقد أذنوا للصلاة في البلدة، ولكننا لا نسمع الأذان يوما؛ - ألم تصل الشمس بعد إلى موعد العصر؟ ثم نصلي جميعا هنا مع بعضنا." اتخذوا وضع الصلاة، ودخل مضيفي ضمن الصف؛ ونادوني أنا أيضا "هيا، تعال وصل معنا!" لقد صليت بالفعل. "تعجبوا من كلامي، وبدءوا التلاوة والركوع والسجود. ويعد أن انتهوا من الصلاة جاء إلى مضيفي عابس الوجه: قال : "أنت لم تصل!"، واكتشفت من نظرات هؤلاء الرجال، أنهم مقتنعون بأنني لم أكن مسلما. قال كبيرهم: "حسن، اجعلوه يمضي قدما، ثم دخلوا من البوابة.

وضعوا جوالاتي على حمار. ومشينا في طريقنا: ويعد أن تعدينا العدان adan (الكتيب) الأول، ومثلما قال لي حسن من قبل، أصبحنا أمام بداية حقول القمح؛ وظهرت لنا أشجار الفاكهة، كما تراءت أمامنا بعض البيوت من بين البساتين البعيدة. - قال رفيقي [وقد كان خائفا!]: "المسافة بيننا وبين البلدة (عنيزة) طويلة، وأنا لا أستطيع الدخول إلى البلدة هذه الليلة؛ ولكني سوف أتركك مع رجل هنا، اسمه ابن ibn جواد Juad ، وهو ولد نعمة؛ وفي الصباح سيقوم بإرسالني إلى عنيزة." - اقتربنا من طريق واسع وغير مسور، ومضينا إلى أن استوقف رفيقي الحمار أمام بوابة بدائية؛ هذا بيت من بيوت البساتين، وطرق رفيقي باب ذلك البيت وراح ينادي بصوت عال "إبراهيم!" وجاء إلى البوابة والد كبير السن، وفتحها إلى منتصفها ثم وقف ينتظر - وعندما وجد أن ملابسي قد تمزقت (بفعل اللصوص في بريدة)؛ ونظرا لأنه لم يكن يعرف أي شخص غريب يمكن أن أكونه - ولكنه خمن أنني ربما كنت جنديا هاريا من الحرمين أو من اليمن، والسبب في ذلك أن كثيرا من أمثال هؤلاء الجنود سبق أن مروا على عنيزة في الفترة الأخيرة. وهنا تكلم صاحب الحمار نيابة عني؛ وبعدها استقبلني رب هذا البيت. أنزلوا جوالاتي إلى بيته المبنى من الطين؛ وأدخلوها في مخزن من المخازن وأغلقوا عليها الباب؛ وعليه وبدون أن يتكلم أشار إبراهيم

لى بيده، واقتادنى بعد ذلك ، خارج البيت، إلى البستان، حيث وصلنا إلى "الديوان"
(أى مكان الجلوس النظيف المفروش بالرمل ، فى أى حقل من الحقول) ؛ وتركنى
إبراهيم فى ذلك الديوان.

كان منظر الأرض المزروعة يسر خاطر، إذ كانت جذامة نبات القمح ما تزال فى
الأرض، إضافة إلى أحواض البازلاء الخضراء، التى يطلقون عليها هنا اسم 'جت' Jet،
والتي تستخدم علفا للإبل؛ كما كانت توجد أيضا بعض نباتات الصَّبغ، الذى تستعمل
الحضريات زهوره الصفراء فى تلوين خصل شعرهن. وعندما أوشكت الشمس على
الغروب، خطر ببالى وقت صلاتهم التعيس! وهنا دلفت بسرعة إلى الجانب البعيد من
منطقة أشجار النخيل؛ ولكن خطوط النخيل المنتظمة لم تسترنى: وعندما عدت إليهم
عند الشفق، سألونى، "لماذا لم أصل ؟ ولماذا لم أكن معهم أثناء الصلاة؟" ثم راحوا
يكررون على أسماء المذاهب الأربعة فى الإسلام ، ثم سألونى بعد ذلك ، "إلى أى منها
أنتمى؛ أم أنتى (من عقيدة مارقة) أى 'رفضى' rafuthy على حد تعبيرهم؟" - وكلمة
'رفضى' هذه تجرى على ألسنتهم وهى محمّلة بالعداء. لم أرد عليهم ، وبقوا مندهشين.
وأحضروا لى عشاءاً، عبارة عن شىء من القمح المسلوق، ومعه سطلا أو سطلين من ماء
الآبار؛ هذه هى أقصى مراحل الكرم فى هذا البيت البسيط. كنت أتخوف من هواء
الواحة (الرطب) وسألتهم عن مكان المقهى أو غرفة القهوة إن صح التعبير. الإجابة:
"ليست هنا قهوة، ونحن لا نشرب القهوة." جلسوا صامتين، وراحوا يركزون أنظارهم
على الغريب، الذى لم يؤدى الصلاة.

كان ذلك الذى أحضر لى السطل (وهو ليس واحداً منهم) رجل شاب صغير ،
صاحب سلوك غريب؛ وكان كلامه يكشف عن تفاهمه الممتاز. طلبت منه أن يتناول معى
العشاء. - "لقد تعشيت بالفعل." - "كل حتى ولو لقمة واحدة، على سبيل العيش والملح
بيننا" ، وفعل الرجل مثملاً قلت. بعد ذلك، وبعد انصراف الجميع، حكيت له عن حقيقة
أمرى، وسألته عن البلدة. قال: حسن، أنت معنا هنا الليلة؛ والمسافة التى بينك وبين
عنيزة قصيرة، وسوف يوصلونك إلى عنيزة فى الصباح؛ وأنا أحسب، أنه لا خطر عليك

من ذلك - لأن الزامل رجل طيب: يضاف إلى ذلك، أنك مجرد عابر لبلدهم. قل للأمير في الصباح، وعلى مرأى ومسمع من الناس، أنا جندي من بلاد Beled عسير el-Asir (عسير هذه منطقة جيدة من مناطق اليمن أحتلها الأتراك مؤخراً) (*). - وبينما كنا نتحدث سوياً انطلق صوت أذان العشاء قادماً إلينا من اتجاه البلدة! ووقفت في مكاني على وجه السرعة؛ ولكن أبناء إبراهيم الثلاثة أو الأربعة، جاءوا إليّ مرة ثانية، وبدءوا يصطفون لأداء الصلاة! ونادوا علينا، ونادوا عليّ أنا الغريب، بصفة خاصة وبإلحاح، كي ندخل معهم في الصلاة. وأجبتهم: "أنا مرهق تماماً، وسوف أذهب للنوم." - العيش والملاح أيها الصديق: "نعم - نعم، الغريب يقول الحق، إنه قادم من رحلة طويلة؛ دلوه على المكان الموجود في الخارج، الذي يمكن أن يرقد ويرتاح فيه." - "سوف أنام في البيت وليس هنا، خارج البيت." - "لكن قليلاً أولاً؛ هو! يا أنت، تعال وصل معنا، هيا، تعال!" - الصديق: "أتركوه وشأنه، ودلوه على المكان الذي سينام فيه."، "ليس لدينا سوى بيت الخشب." - "حسن، إذن، اذهب إلى بيت الخشب، ودعوه ينام على الفور." اصطحبني واحد منهم، إلى عتبة باب من الأبواب: كانت أرضية المنزل غائرة مقدار قدم أو اثنتين، وسقطت داخل مكان مليء بأغصان نبات الطرفاء الحلوة. وبعد أداء الصلاة جاء إليّ كل الأشقاء: وجلسوا أمام الباب في ضوء القمر الضعيف الخافت وغمغموا، أنا لم أصل! - وهل يمكن أن يكون ذلك مسلماً؟ ولكني تظاهرت بالنوم؛ وبعد أن راقبوني مدة نصف ساعة انصرفوا لحال سبيلهم. هذا التدين جديد علينا تماماً، من خلال تصرف هؤلاء الشباب الوقحين! ولكن الدين السامي Semitic - شديد البرودة، ذلك النبات الغريب، على التربة (الوثنية) في أوروبا، يشبه العاطفة الدافقة، عند أتباع كل من موسى (عليه السلام) ومحمد (عليه السلام) قبل طلوع النهار بساعة، سمعت واحداً من أولئك الأشقاء يقترب من غرفة الخشب - كان الهدف من مجيئه التجسس على الغريب وهل سيقوم لصلاة الفجر أم لا! وعندما طلع نهار الغد كان الأشقاء الأربعة يقفون أمام الباب؛

(*) الإشارة هنا إلى الحملة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية في عام ١٨٧٢ ونجحت بواسطتها في السيطرة على اليمن. (المراجع)

وصاحوا في قائلين، ما ma صليت Sulleyt ، بمعنى أنت لم تُصلِّ ! - أيها الأصدقاء، لقد صليت. - "أين توضع إذن؟" - أنا لم أتوضأ، لأنني لم أكن منافقا. جاءني شقيق آخر من هؤلاء الأشقاء ليستدعيني ؛ وأخذني معه إلى درج (سلم) المنزل، حيث أوصلني إلى غرفة صغيرة نظيفة: كان يفرشها بالحصير، ثم وضع أمامي طبقا من التمر الممتاز، معه سطلا من شرش اللبن ؛ وطلب مني أن أتناول طعام الإفطار وهو يقول بلهجتهم المحلية: فك Fuk الرقيق er-rig بمعنى 'أجرح صيامك:' (والبدو يقولون rig "ريج" بدلا من rik (رقيق) . اشرب !" قالها، وهو يرفع إلى يداي سطله الذي يدل على الكرم. - ثم أحضر الحمار بعد ذلك ، وحمل عليه جوالاتي، لينقلها إلى البلدة (عنيزة) . مشينا في الطريق المسور نفسه، وتجاوزنا بوابة عتيقة وبدائية من بوابات عنيزة . وهنا بدأت تطالعنا جدران كثيرة من جدران البلدة: هذا السور أو إن شئت فقل الجدار ، لم يكن سوى قشرة نحيفة فيها كثير من الشقوق. هذا الجدار المبنى من الصلصال يمكن إصلاحه خلال أيام قلائل، وعنيزة لا يمكن الاستيلاء عليها عن طريق التجويع؛ نظرا لأن أسوار المدينة الواسعة تحيط بحدائق النخيل داخل البلدة: كان أهل عنيزة ينتظرون أو يتوقعون نشوب حرب بينهم وبين بريدة.

مررنا على البيوت الأولى وكانت لأناس فقراء؛ وقال الشاب إنه سيتركني أمام باب من هذه الأبواب، حيث يعيش واحد من خدم (الأمير) الزامل. وطرق الباب عن طريق الحلقة المثبتة فيه [والتي كما هو الحال في دمشق] ، والتي يستعملها الناس في طرق أى باب من الأبواب؛ وهنا فتحت الباب لنا زوجة زنجية ؛ كان زوجها ذلك الرجل الطيب (الذي يمتن الجزيرة) في السوق. كان زوجها حارسا عاما من حراس الزامل: وهذه الأعمال الخشنة لا يختار لها سوى الزنوج (وهم أناس ليسوا من معدن أصيل). وضعوا أمتعتي في فناء الإبل الصغير، الخاص بكوخهم الصغير المبنى من الطين ولكنه نظيف. جاء على رب البيت الزنجي على الفور بعد وصولنا ؛ وعندما وجد غريبا واقفا في حوش بيته، أقبل على الضيف وقبله، واقتادني إلى داخل قهوته الصغيرة؛ وفي الحال تجمع حولنا، على إثر سماع صوت هاون طحن البن، عدد قليل من الجيران السود أيضا. صلح على القهوة، نظرا لأن القهوة تقدم في البيوت الفقيرة في عنيزة .

وبعد تناول القهوة أحضر المسكين لنا صينية عليها إفطار طيب: هذا الكرم كان كبيرا قياسا على ضعف موارده وتواضعها؛ ثم جلس ليأكل معي. - هؤلاء الزنوج الذين ولّوا في الجزيرة العربية، يفيدون من عادات الجزيرة العربية! فقد رأيت أمام الكوخ مكانا خرباً يطلقون عليه اسم 'الجد' el-Gd ؛ ورأيت في ذلك المكان الخرب، أو إن شئت فقل 'الجد' خيمة أو خيمتين من خيام البدو البائسين: هذه البقعة أو إن شئت فقل: المكان تركه صاحب المنزل، شاغرا من باب الإحسان ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الجد كان يتزود بالماء عن طريق قناة متصلة بالسوانى التابعة لمالك الأرض . وعندما تعرفت عليهم بعد ذلك ، وبعد أن راح ولده يستشير النصرانى ويطلب نصيحته، كيف يمكن الاستفادة من هذه الأرض على أفضل نحو ممكن ؟ - نظرا لأن المخلفات التى فى ذلك المكان ، كانت ضاره بالصحة ؛ - 'أجبتة ، 'حول هذا المكان إلى حديقة عامة؛ ولكن ذلك كان أمرا لا يرقى إليه فهم هؤلاء الناس.

كنت أخرج وأذهب لمضيفى على طلبا لزيارة الأمير زامل؛ وبالرغم من أن الوقت كان مبكرا جداً، على حد قول مضيفى الزنجى : إلا أن هذه هى بداية شوارع المدينة ، وقد فتح الناس بعض محلات البيع والشراء ؛ والطرق هنا، فى عنيزة، نظيفة. وهذا هو السوق يبعد عنا حوالى ٤٤٠ ياردة تقريبا ، ويكتظ (فى هذا الوقت من اليوم) بأهل المدينة الذين يتنقلون وينتشرون هنا وهناك ، فى كل أنحاء السوق: الناس فى السوق كلهم من الرجال، والسبب فى ذلك أن البنات والزوجات لا يخرجن من بيوتهن إلى هذه الأماكن العامة. - وعند مفترق الطرق قابلنا شابين صغيرين . " ها! قال أحدهما لعلى، هل الغريب الذى معك نصرانى؟" - واستدار الشابان إلى وقالا: "تعال باكر يا خواجه:" رددت عليهما ، " أنا لست خواجه، ولكنى إنجليزى ؛ وكيف تعرفتما على ؟" - "وصلتتا - بالأمس أخبار قدومك من بريدة: وأنت يا على ، إلى أين أنت ذاهب بهذا النصرانى؟" هذا الرجل المسكين ،الذى بدت عليه الدهشة، رد عليهما بعد أن سمع أن ضيفه نصرانى "أنا ذاهب إلى زامل." - " زامل ليس فى المجلس حاليا؛ ولذلك أحضر النصرانى ليشرّب معنا القهوة فى بيتى. قالوا: نحن من جدة ومعتادين على رؤية كل أنواع النصارى هناك." اقتادانا إلى الدور العلوى من بيت كبير، يقع بالقرب من ميدان السوق، والناس

هنا يطلقون على ميدان السوق هذا فى القصيم اسم 'المجلس' el-Mejlis : وكانت غرفتهما مفروشة بالسجاد الفارسى.

كان هذان الشابان تاجرين عزيزين فى مدينة جدة. أرانى أحدهما بندقية من طراز ونشستر (تتسع لسبعة عشر طلقة) ! (وكذباً) أن هناك خمسين بندقية أخرى من هذا الطراز فى عنيزة: ووجود هذه البنادق فى أيديهم جعلتهم لا يخشون العمليات الحربية [التي كانوا يظنون أنها قد تنشب من جديد] بينهم وبين ابن الرشيد: وقد سبق لهذين الشابين أن انضموا إلى صفوف المجاهدين فى جدة بعد إعلان الجهاد. وأضافا قائلين: وإذا ما نشبت الحرب بيتنا وبين بريده، ألن تكون أنت قائداً لنا؟

تركنا هذين الشابين على الفور. واقتادنى على بعد ذلك إلى ميدان السوق (المجلس بلغة القصيم): ومن قبيل الحظ السعيد تصادف أن يكون الأمير موجوداً هناك؛ ومجلس الأمير يقع تحت مدخل مسقوف لميدان السوق، وهذا المدخل يقع على ناصية الشارع المؤدى إلى منزل الأمير المبنى من (الصلصال)؛ هذا المجلس يواجه شارع (سوق) القماش. ومجلس الأمير له جانبان مبنيان من الصلصال أيضاً؛ أحد هذين الجانبين مفروش بالسجاد الفارسى، وقد جلس عليه زامل وبجانبه سيفه. وزامل رجل صغير الحجم يوحى وجهه بالبشر، كما توحى عيناه بسرعة البديهة والذكاء: وعندما اقتربت منه كان الاعتدال يبدو على وجهه. وعندما وقفت أمامه نهض زامل بعض الشيء من مكانه وأمسك بيدي وقال لى فى شيء من الود: "تفضل بالجلوس، اجلس!" وجعلنى أجلس إلى جواره. قلت: "أنا قادم من بريدة، وأنا حكيم، أنا إنجليزى، ونصرانى ومعى هذه الأوراق؛ وربما توافق على نقلى إلى الساحل." نظر زامل إلى ذلك الذى وضعته فى يده: وبينما كان يقرأ الأوراق ظهر عدم الارتياح على وجهه، واستمر ذلك مدة لحظة واحدة؛ ولكنه نظر بعد ذلك إلى الأعلى، "ورد على قائلاً: حسن؛ فى الوقت نفسه لا تحاول نشر نفسك على الناس هنا؛ أنا نصرانى؛ قل لهم، أنا ana عسكرى askry ، بمعنى أنا جندى (عثمانى) هارب. وأنت يا على، عد إلى البيت مع خليل، وأحضره بعد صلاة الظهر إلى القهوة فى بيتى: ولكن حذارى من التمشى فى الأماكن العامة."

مررنا من سوق القماشين ونحن فى طريقنا إلى المنزل، كما مررنا أيضا من خلال سوق اللحامين أو إن شئت فقل القصابين. لم يلاحظنا أحد من المواطنين الذين كانوا مشغولين بأعمالهم؛ ولكن رجلا أمسكنى من كم ردائى؛ وعندما استدرت وجدت ذلك الرجل واحداً من أهل الجزيرة العربية الذين يشبهون النساء، وأجسامهم نحيلة، ورأيت أن عينيه كانتا مكحلتان ، وكان يرتدى الزى البغدادي . قال الرجل : أنت، من أين min eyn من أين أنت؟ وهل أنت نصراني؟ أجبتّه "إى: ومع ذلك ، كان كلما سأل أحد علياً، من الذى معك يا على؟ كان الزنجى يرد عليه رداً قاطعاً، غريب، رجل ذاهب إلى الكويت." - كانت عنيزة تبدو بلداً طيباً، وعامرة بكل الأشياء التى يحتاجها الناس هنا فى حياتهم المدنية: مررنا على مسجد جيد البناء ولكن المسجد الكبير كان فى الميدان العام - المباني كلها هنا من الصلصال (الطين) فى هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية.

فى تلك الأيام كان الناس يتحدثون عن الجدل والشقاق الدائر بين عنيزة وبريدة (*): وبالرغم من أن ولد مهنا كتب لزامل مؤخراً يقول له: أنا ana ولدك weled-ak ، بمعنى أنا ابنك (أخدمك وأطيعك)؛ وبالرغم من أن زامل كان قد سبق له أن كتب لولد مهنا يقول له : "أنا صديقك." قال على أثناء الدريشة حول وجار القهوة: والله، إن التنقل بيننا وبين بريدة يكاد يكون متوقفاً؛ ولكن، فى خلال أيام قلائل، سيصل إلينا حلفاء زامل قادمين إلينا من شرقى البلاد، ومن الجنوب، وبالذات من منطقة وادى الدواسر. ثم قالوا لى بعد ذلك: أتنى ينبغى أن أنتبه أثناء مرورى خلال هذا الشارع الذى يعج بالرجال المسلحين.

بعد أذان الظهر قصدنا إلى بيت زامل (الجميل)، الذى يقع فى طريق مسدود بالقرب من المجلس . كان مقهى زامل مفروشا بالحصير المصنوع من الأعشاب (فقط)؛

(*) تعد بريدة وعنيزة من أهم بلدان القصيم ، ويرجع سبب الشقاق الذى كان قائماً بينهما إلى موالاة بريدة للسعوديين على عكس عنيزة التى امتنع أميرها عن دفع الزكاة لهم . ومن ثم استعان السعوديون ببريدة ضد عنيزة مما كان سبباً فى تأجيج الصراع بينهما . (المراجع)

وكان يجلس معه قلة قليلة من البشر. كان ولد زامل الأكبر عبد الله، يجلس خلف وجار القهوة، ليقوم بتصليح القهوة. ووصلت أنباء مفادها أن بعضاً من حمير أهل المدينة قد جرى الاستيلاء عليها في النفود بواسطة العتبان (وهم من البدو الرحل الأصدقاء)؛ - وأرسل زامل في طلب واحد من مسلحيه الراكبين: وسأله، "هل كان جملة في البلدة؟" - "الجمال جاهز تماماً - إذن، خذ معك رجلاً آخرًا، وقص أثر هؤلاء العتبان، لعلك تلحق بهم اليوم!" - ولكن ماذا لو خسرت الناقة - ؟" (واحتمال سقوطه في أيدي الأعداء). رد عليه زامل، "سيكون على نصف الخسائر المترتبة على ذلك؛" وهنا خرج الرجل. كان زامل يتكلم بطريقة ودية، وكان يبدو عليه أنه لا يحب الأوامر؛ ولكن هذا من قبيل اعتدال شيوخ العرب الفطري. - على، عم الأمير، دخل علينا مسرعًا! كان زامل قد عين علياً قبل سنوات عدة أميراً تنفيذياً في البلدة؛ وكان من عادة زامل أن يترك علياً نائباً في عنيزة، عندما يقوم زامل بأعمال حربية أو ميدانية. على أصلاً واحد من تجار الإبل؛ وليس لديه سوى قلة قليلة من الأصدقاء المتشددين. أفسح الجالسون له مكاناً، وجلس ذلك الرجل العظيم في أعلى جزء من المجلس. جلس زامل، الأمير والمضيف في ذات الوقت، متكئاً على مخدة في مواجهة الجميع؛ في حين جلس ولده عبد الله وهو يدخن غليوناً من التبغ بجوار القهوة؛ - ولكن التدخين أمر لا يمكن الصفح أو العفو عنه في الشارع. جهزت القهوة، واتجه ذلك الذي حمل الدلة والفناجيل، نحو زامل ليصب له الفنجان الأول؛ ولكن الأمير أشار بتواضع بتقديم الفنجان الأول للأمير على. وبعد أن انتهينا من شرب القهوة، قال زامل لعمه: "هذا الغريب حكيم، وهو رحال من الشام؛ وسوف نرسله، حسب طلبه، إلى الكويت." - هذا العلي، الذي كان مشبعاً بالتشدد الوهابي لم يكن متحمساً حتى لمجرد النظر إلى. قال: أخ! بلغنى أن ذلك الرجل نصراني؛ هل توافق على بقاء نصراني في عنيزة؟" زامل: "إنه رحال؛ قد يبقى معنا أياماً قلائل، ولا ضرر من ذلك!" رد على، "أخ! وبعد أن أنتهى من شرب فنجالى القهوة، وقف غاضباً وانصرف لحال سبيله. وكان ولد زامل نفسه من رأى جده الوهابي أيضاً، وكان عمر ذلك الولد يقدر بحوالى عشرين عاماً؛ كان وجه زامل يوحى بالجرأة والشجاعة، وكان محياه يوحى بأنه من نسل الشيوخ، ولكن كلامه، كان يوحى

بأنه مَيَّال للزئوج. وهنا وبصوت ضخم يوحى بالعداء سألنى ولد زامل - لأن ذكائه لم يسعفه بأكثر من ذلك، "ما اسمك؟" وعندما انصرف الجميع، أطلعنى زامل على ساعديه الملتهبين والمصابين بمرض الهرش الذى يعانى منه منذ عشرين عاما! - لقد شاهدت هذا المرض فى قلة قليلة من الأفراد فى عنيزة. وقال الرجل، بطريقة العرب: "وأنت إذا ما استطعت شفائى من هذا المرض، فسوف نعطيك فلوسا ! Fulus .

جاء إلى، على وجه السرعة، بعض الناس الذين كانوا يودون مقابلة الحكيم، وذلك عندما عدت إلى بيت على؛ وعرض على واحد منهم دكانا dokan خاليا، أو إن شئت فقل: محلا صغيرا فى شارع جانبى قريب من السوق. - وأحضر على حمارا ينقل عليه زكائى وجوالاى: وقبيل الظهر كنت أجلس فى دكان الطبيب: وخطر ببالي، هل سأجد الراحة هنا، فى هذا المكان، من الجزيرة العربية؟ وعندما أذن المؤذن لصلاة العصر؛ سمعنا أقدام قطع من البشر، والجيران الذين راحوا يتوافدون على المسجد الموجود فى نهاية الشارع . - نعم، هذا اليوم هم يبادرون بالذهاب إلى المسجد كما لو كانوا من أصحاب النبى (ﷺ)؛ قفلت دكانى مثل بقية الدكاكين الأخرى، وجلست بالقرب منه؛ كنت أحسب أن ذلك الإغلاق يمكن أن يحمينى من تشدهم الدينى. - وانطلق صوت مؤذن البلدة يقول: " الله Ullahu اكبر akhbar (*) ! " الله Ullahu أكبر akhbar ! " .

بعد صلاة العصر تدخل البلدة فى فترة راحة وفراغ؛ وهنا تذهب الشخصيات الرئيسية لشرب قهوة ما بعد العصر مع أصدقائهم. وبعض المواطنين الذين كانوا يمرون من ذلك الشارع توقفوا لرؤية النصرانى، ويسألونه عن أدويته؛ والسبب فى ذلك أن العرب كلهم تقريبا مصابون بالأمراض ، أو يتوهمون أنهم مرضى أو مسحورين. كان سلوك هؤلاء الحضر يتسم بالهذوء، كان الكثيرون منهم من الأطفال ومن الأشخاص العاطلين؛ ولكن كلام زامل كان يقضى بالألا يتعرض أحد للحاج خليل أو بضايقه، - وعليه فإن الكثيرين من الرجال الطبيبين الذين سمعوا أننى ذهبت مرات

(*) akhbar لفظها المؤلف 'آخير' بدلا من 'أكبر' akbar ، وهذا راجع إلى أن صوت الخاء يصعب لفظه على الإنجليز لعدم وجوده أصلا فى لغتهم . (المترجم)

عدة للقدس، (أى ، أورشليم) راحوا يستدعونى، لأن ذلك كان يزيد من رصيدى وسلامتى بين الناس. هذا السلوك المتحضر لمواطنى جزء من أجزاء وسط الجزيرة العربية، يختلف عن السلوك (البدوى) لسكان حائل من الحضر، الذين كانوا يرتعدون خوفا من ابن الرشيد: المواطنة هنا حرة فى ظل حكم الأمير الطبيعى، الذى يتحدث كما لو كان رجلا من الشعب، ويحكم مثل شيخ كبير ومهيب، من شيوخ العرب، بين أخوانه من البشر.

زامل ينحدر من السُّباع، الذين يعدون أصحاب المستوطنات البدوية الأولى التى أنشئت فى هذا القاع الغرينى من النفود. وإلى يومنا هذا، فإن عدد هذه الأسر يعد قليلا فى عنيزة؛ وأسر السبيع هنا هى التى فيها الإمارة، ولذلك فهم يقولون: هنا hen-na الأمرا el-umera ، بمعنى 'نحن الأمراء'. ومن حيث العدد، فإن أسر بنى خالد أكبر من السبيع؛ وبنو خالد هم أولئك الأمة القبلية البدوية القديمة، التى كان اسمها فى نجد هو الاسم الأعظم والأعرق قبل الوهابيين (*): ولكن أكثر من نصف سكان عنيزة من بنى تميم. وفى عنيزة (كما هو الحال فى أى مكان من الجزيرة العربية) هناك بعض المناطق التى يحكمها بعض الشيوخ عن طريق الوراثة؛ ولكن هؤلاء الشيوخ لا يشكلون أحزابا أو طوائف مناوئة، - وكل هؤلاء الشيوخ يخضعون لزامل عن طيب خاطر. هؤلاء الناس الذين تجمع بينهم الوحدة ويعيشون فى ظلها، لا يخشون العدو الأجنبى .

مر علينا أيضا بعض من الأشخاص المهمين أثناء عودتهم من بيوت أصدقائهم إلى بيوتهم. - اقترب منى واحد من هؤلاء ، وقال: "هل لديك معرفة بالطب؟" شخص هذا المتكلم، وملامح وجهه، جعلتنى أتذكر على الفور محمد على الجزائرى، الذى التقيته فى مدائن صالح! ولكن ذلك الشخص الذى يقف أمامى هنا هو ابن طيب من أبناء

(*) بنو خالد : كان تنظيم بنى خالد من أقوى التنظيمات القبلية فى القسم الشمالى من الخليج العربى حيث سيطروا على الأحساء وامتد نفوذهم إلى نجد . غير أن الصراع بينهم وبين السعوديين أدى إلى الإطاحة بنفوذهم فى عام ١٧٩٥ . وعلى الرغم من المحاولة التى بذلها محمد على بعد قضائه على الدولة العثمانية لإعادتهم إلى الحكم ومحاولة الدولة العثمانية إعادتهم هى الأخرى إلى حكم الأحساء إلا أن تلك المحاولات لم يقدر لها الاستمرار وانتهى الأمر بخضوع الأحساء لعبد العزيز بن سعود فى عام ١٩١٣ . (المراجع)

تميم، الذى سبقنى نجمه الحسن، اعتبارا من ذلك اليوم وحتى نهاية رحلتى ، إلى كل أنحاء الجزيرة العربية! أمسك ذلك الرجل بيدي، وهذا دليل من دلائل حنان العرب وحنوهم، وقال : "هل تفضل بزيارة أمى المريضة؟"

اصطحبني ذلك الرجل إلى بيته الذى لم يكن بعيدا عن دكانى؛ ودخل هو من باب جانبي ليجيئ من الداخل ويفتح لى الباب الرئيسى: وداخل المنزل وجدت صالة كبيرة لشرب القهوة، مفروشة بحصير مصنوع من الأعشاب، التى يجرى جلبها من منطقة الأحساء. كانت جدران تلك الصالة مزينة بشبكة من الجبس مثل تلك الشبكة التى سبق أن شاهدها فى بريدة. وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة أمام الوجار، لتكون بمثابة مكان يجلس فيه الضيوف؛ وجلس هو بنفسه إلى الوجار لتصلح القهوة. كان ذلك هو عبد الله الكينى el-Kenneyny الابن الحظيظ سليل أحد البيوت الفقيرة. لقد خرج من عنيزة شابا صغيرا؛ وبعد أولى مخاطر الحظ، ازدهر حاله ليصبح واحداً من أكبر التجار الأجانب. كان عبد الله الكينى يتاجر فى القمح فى مدينة البصرة Bosra ، وكان يحيا حياة هائلة فى الخارج؛ لأن صدره لم يمتلأ فى عنيزة، التى كان يحتقر فيها التشدد والتعصب الوهابى. وهو فى هذه الأيام ترك تجارته فى البصرة فى رعاية شقيقه (صالح، الذى قالوا لى : إنه لا يشبهه تماما)، وأن عبد الله جاء ليقضى إجازة مدتها عام فى موطنه؛ أملا فى تحسن صحته المعتلة بفعل هواء نجد.

عندما نظرت فى وجه ذلك الرجل ابتسم ابتسامة حانية. - قال: هل أنت إنجليزى؟ ولكن لماذا تقول ذلك للناس، فى هذا البلد المتشدد تشددا وحشيا؟ لقد أمضيت سنوات كثيرة فى بلاد أجنبية، فقد عشت فى بومباي، التى تخضع لحكم الإنجليز: تستطيع أن تقول ذلك الذى تقوله لى أنا، ولكنك لا يمكن لك قوله لهؤلاء الناس الجهلة الأغبياء؛ - يا لها من سذاجة! واستغربها تماما عندما تكون من رجل أوروبى. وهل نحن هنا فى بلد تحكمه حكومة؟ لا، إننا فى بلد من بلاد الأعراب، التى يعد فيها اسم النصارى شيئا مقبولا ومكروها. هم يظنون أن النصرانى ابن من أبناء الشر، و(من ثم) فهو يستحق الموت: ونصف سكان عنيزة وهابيون. - "ألا ينبغى ألا أقول

الحق هنا، كما لو كنت في بلدي تماما؟" عبد الله: "نحن لدينا أو لنا لسان يخدمنا نحن وأصدقاءنا ويصلي أعداءنا؛ وواقع الأمر أن الكذب أكثر من الصدق في كثير من الأحيان. - ألا تخاف أن الله سوف يعاقبك إذا ما توافقت معهم من حيث المظهر؟ أليس الخير والشر موجودان في كل شيء من الأشياء؟" [بما في ذلك الكذب والتفاق]. - "أنا هنا للعام الثاني، في هذه البلاد الخطرة، ولا ألقى نقدا لاذعا أو قاسيا. ألم تسمع المثل الذي يقول: الصدق يمشى في الدنيا كلها بلا سلاح. - "ولكن الإنجليز ليسوا على هذا النحو! لا، لقد وجدت الإنجليز مليونين بالسياسة: في العمليات الحربية الأخيرة التي دارت بين عبد الله وسعود بن سعود أرسل مقيمهم في الخليج سرا مئات من جوانات الأرز إلى سعود (*) [الجانب المعتدي؛ وبالتالي فإن عبد الله يكره اسم الإنجليز]. - أنا أعرف أنك لن تقتنع بما أقوله! ومع ذلك أتمنى لك الإبقاء على حياتك: ولكنهم لن يطيقوا مقامك بينهم! سوف تطرد من مكان إلى آخر. - "هذا البلد، عزيزة، بدا لي مكانا مسالما، كما أن أهل هذا البلد متشددون جداً؟" - "كما أن الكثيرين، من أهل هذا البلد، الذين سبق لهم السفر، ليبراليون، أي غير متشددين أو متزمتين؛ أما باقي السكان فهم غير ذلك. ألا، يصح الآن أن نذهب إلى أمي؟"

أدخلني عبد الله في غرفة من الغرف الداخلية في البيت، ومن تلك الغرفة صعدنا إلى الطابق العلوي. كان عبد الله قد اشترى هذا المنزل (الصلصالي) الجديد في العام السابق، نظير مبلغ ألف ريال، ما يقرب من ٢٠٠ جنيه إنجليزي. الأعمال المبنية من الطوب اللبن في جزيرة جيدة، وجدران البيت المبنى بهذه الطريقة يمكن أن تصمد مدة مائة عام. كان الإيجار الذي يدفعه لبيت من هذا القبيل، قبل عام واحد يقدر بحوالي خمسة عشر ريالا؛ والناس هنا في الجزيرة العربية ينظرون إلى الممتلكات العقارية باعتبارها نقودا مدخرة، وليست فيها أية شبهة من شبهات الربا، - هي من الممتلكات الشرعية المؤكدة. كانت الفائدة السنوية لكل ١٠٠٠ دولار في جزيرة تقدر بحوالي ١٢٠ ريال؛

(*) كان للإنجليز دور في الصراعات التي نشبت في الأسيرة السعودية عقب وفاة الإمام فيصل بن تركي في عام ١٨٦٥ مما كان سببا في إضعاف الدولة السعودية الثانية وبداية تصاعد نجم آل رشيد. (المراجع)

ومن ثم فإن الخسارة التي تلحق بعبد الله كل عام كانت تقدر بحوالى ١٠٠ ريال. ولكن إحساس الناس هنا وهم يسكنون فى منازلهم الخاصة، يجعلهم يتمتعون بنوع من الأمان: بالرغم من سرعة تحلل الجدران، وأن ذلك لن يكون فى حياة أبنائهم. كانت هناك غرف جيدة فى الطابق العلوى من منزل عبد الله، ولكن تلك الغرف كانت شبه خالية من الأثاث من وجهة نظرنا، نظرا لأن المنقولات فى تلك الغرف كانت أقل بكثير مما لدى البدو: كل ما كان داخل بيت هذا الرجل يمكن تحميله على ظهور ثلاثة من الإبل! والبلاد العربية لا تعرف مشتملات أثاث غرف النوم؛ والناس هنا ينامون على الأرض؛ والأغنياء منهم، هم وميسورى الحال لا يفرشون تحتهم سوى مرتبة نحيفة، ويتغطون بلحاف ليس إلا: ولم أر سوى القليل من الصناديق التي كانوا يضعون فيها ملابسهم. ومنازل الناس هنا، فى هذه البلاد المشمسة، يدخل الضوء إليها عن طريق ثقوب طويلة يصنعونها فى أعلى جدران المنازل. ولكن عبد الله لم يكن يعيش فى البصرة فى بيت بسيط من هذا القبيل؛ والسبب فى ذلك - أنه فى جانب العالم الكبير العظيم ، تكون غرف كبار التجار العرب مزودة بالكراسى: وكان تاجر *tajer* عزيزة (شأنه شأن بقية التجار) يجلس على تخت *takht* أو مقعد خشبى مفروش بالسجاد داخل غرفة المحاسبة.

أخذنى إلى غرفة رأيت فيها أمه العجوز ، جالسة على الأرض؛ وترتدى - شأنها شأن كل النساء فى الجزيرة العربية، لباسا من القماش مصبوغا باللون النيلي. وغطت العجوز وجهها، عندما دخلنا الغرفة، بقناع ! ابتسم لى عبد الله، ونظر ليرى "رجلا من أوروبا" وهو يبتسم. "قال: يا أمى ، أنا أحضر لك الحكيم؛ قولى: ما الذى يتعبك، وأسمحى له بالنظر فى عينيك : "وبيد حانية راح يرخى عليها قناعها." قالت: أوه! رأسى يؤلنى؛ وهذا الجانب كله يؤلنى بشكل لا أستطيع معه النوم، يا ولدى." عبد الله ربما كان فى الأربعين من العمر؛ وبالرغم من ذلك كانت أمه تشعر بالخجل، من - أن ينظر رجل غريب إلى عينيها. - عدنا إلى غرفة القهوة صديقين حميمين. "قال : أمى امرأة مسنة، ومريضة ، أنا أحزن عندما أراها هكذا: وأنت إذا ما استطعت مساعدتنا، فإن ذلك سيكون عونا وعزاء كبيرا لى."

- أردف عبد الله قائلاً: " أنا الآن فى حيرة! من أنك يتعين عليك أن تعلن فى هذا البلد، أنك إنجليزى؛ إذ كيف لك - أن تمضى هنا يوماً واحداً فى أمان ! لقد عشت مع البدو؛ نعم، ولكن الأمر هنا مختلف فى حياة المدن." - " أنا أزعم ، أن الأخطار التى من هذا القبيل لا تنطوى على شىء أكثر من الحماقة." - " هذا يعنى ، أنك لن تعمل بالنصيحة المفيدة! ولكنك ينبغى أن تثق بى تماماً من هذه الناحية: فأنا الذى سوف أحرسك، وأحذرك من أى تغيير قد يطرأ على عنيزة." سألت، "وماذا عن الأمير؟"، - "يمكنك أن تثق بزامل أيضاً؛ ولكن زامل نفسه قد يعجز فى بعض الأحيان عن السيطرة على حشود الناس."

- فى غرف العرب المبنية من اللبن ، والتى لها نوافذ لا تفتح مطلقاً، يكون الهواء حلواً وجافاً، تماماً مثل هواء الحقول المفتوحة الوسيعة؛ كما يفوح من تلك الغرف عبق حياة إنسانية مضيافة، لا تعرف السطحية الخادعة: ومع ذلك لا تكون الحياة الإنسانية هنا كاملة أو صحيحة، إذ ما بدأنا ندرك بصورة متدرجة غياب المرأة عن هذه الحياة. يضاف إلى ذلك أن الجدران المكشوفة للرياح لا تسر الخاطر: الصور - تلك الصور الجميلة التى تزين أفقر منازلنا، ليست هنا سوى أشياء دنيوية وتافهة من منظور التقشف الإسلامى. هؤلاء العرب، الذين يجلسون على الأرض، يرون العالم رؤية تكاسل أكثر منا: وهم يتعين عليهم الوقوف وهم يتكئون على أجسادهم. - كانت كتب عبد الله موضوعة فى طاقة بالقرب من موقد النار. أصبحنا أنا وهو أخوين، ورحت أتصفح تلك الكتب الواحد بعد الآخر: كان هناك مجلد ضخم موضوع أعلى الكتب: قرأت عنواناً عربياً دائرة معارف البستاني، بيروت - هذا البستاني (الذى ولد فى أسرة مسيحية فى إحدى القرى اللبنانية) كان طباعاً، وصحافياً، وناظراً للمدرسة، وأديباً أيضاً فى بيروت: وهو فى كل عام يضيف جزءاً جديداً إلى دائرة المعارف، ولكن المشروع الذى من هذا القبيل يستغرق إنهاؤه زمناً طويلاً. سقطت نظارة عبد الله على موقع كان يتناول الآبار الارتوازية: كان ينظر إلى ذلك الموضوع كل يوم بحثاً عن بعض وسائل رفع الماء عله يستفيد منها فى رى أرضه الزراعية بون اللجوء إلى استعمال الإبل فى رفع الماء.

بعد أن أثرى عبد الله من الخارج، اشترى مؤخرًا في بلده بيارة من بيارات النخيل وحقلًا من حقول زراعة القمح؛ ونظروا لعدم رضاه عن البئر القديمة، قام بحفر بئر جديدة يعمل فيها ثمانية من الإبل في رفع الماء من البئر. قلبت صفحة أخرى ووجدت "جبل المحرق" وصورة لجبل وبركان أطنة (*) Etna .

وقد سعد عبد الله عندما استمع إلى وأنا أتحدث عن العرب القدامى الذين اغتصبوا أرض صقلية، وأن ذلك الجبل مازال حتى الآن مسمى بلغتهم ، إذ يقال له جبَلُو Gibello (وهي مأخوذة من كلمة 'جبل' العربية). قلبت الصفحة بعد ذلك على كلمة "تلغراف"، وتعجب عبد الله، "أه أوروبا بلد الاختراعات! يا لهذه العبقورية العجيبة التي كان عليها ذلك الذي اكتشف التلغراف!" وعندما سألتني طلبًا لمعرفة المزيد عن مهنة الطب التي أمارسها؛ قلت له: "أنا تمامًا مثل حداديكُم من الصلّوبة - أحسن من لا شيء ، أي لن تجلوا من هو أفضل مني." ومع ذلك عبد الله يؤمن بأن مهارتي أكبر من ذلك بكثير، والسبب في ذلك أن كل مرضى المعقولين شفوا من كل ما كانوا يعانون منه؛ ولكن أمه بصفه خاصة.

وبينما كنا نتحدث سويًا جاءنا اثنان من مواطني عنيزة الذين يعيشون في بلاد أجنبية، هذان الاثنان كانا مواطنًا ثريًا هو وخادمه، وكانا يرتديان الملابس البغدادية ، أو إن شئت فقل: ملابس بلاد الرافدين، وكانا يضعان على رأسيهما عقالان، يشبه كل واحد منهما العمامة الكبيرة، ومصنوعان من وبر الجمال. كان الرجل جملاً Jemmal ، أي من العاملين في مجال النقل بالإبل في حركة النقل بين العراق وسوريا، - أي على طريق التجارة الطويل الذي يدور حول حلب؛ ولكن بعد ضياع القافلة، التي سبقت الإشارة إليها [في الجزء الأول] - ونظروا أيضًا لعدم قدرته على مواجهة تلك المخاطر، باع الرجل إبله واشترى بثمنها حقولًا وأراضى زراعية. وهو اليوم واحد من كبار المزارعين في مستوطنة زراعة القمح الجديدة، في منطقة العمارة el-Amara .

(*) أطنة : في إيطاليا وهو يمثل أعلى بركان في أوروبا وأعلى جبل في جنوب إيطاليا إذ يصل ارتفاعه إلى ١٠٤٧١ قدمًا، وهو يقع في إقليم كتانيا شرقي جزيرة صقلية . (المترجم)

(التي تقع على النهر على مقربة من شمالي البصرة)، فضلا عن كونه أيضا زبونا من زبائن الكنيني - والكنيني هذا واحد من كبار تجار الحبوب في مدينة النهر. وسرعان ما سخلت علينا صينية الغداء الذي قدمه لنا ذلك التاجر. وهنا وقفت كي أرحل عن المكان؛ ولكن عبد الله جعلني أجلس ثانية كي أكل معهم، بالرغم من أنني كنت معزوما في مكان آخر. - أمضيت ذلك اليوم الوحيد الطيب في الجزيرة العربية؛ أما الأيام الأخرى فكانت أياما سيئة والسبب في ذلك هو تشدد الناس. وفي الليل نمت في شرفة الكوخ الذي كان يعيش فيه مريض فقير، هو جار من جيران علي؛ ولم أفضل الدكان غير المكتوس في النوم، وبحيث لا أكون بعيدا عن الأصدقاء.

جاءني علي مع شروق الشمس، قادما من عند الأمير زامل، ليعزمني على تناول الإفطار - الخبز والملح المقدم (للمسيحي والفرنجي) الغريب، من الأمير اللطيف الفيلسوف. شربنا قهوة الصباح، ونحن جالسين حول وجار القهوة؛ ثم قدمت لنا بعد ذلك صينية الإفطار، وجلسنا حول تلك الصينية في وسط أرض الغرفة، وكنا ثلاثة الأمير، والنصراني، ثم علي: لأن المقامات والدرجات لا تراعى عند العرب أثناء تقديم الطعام وذلك من منظور حياتهم المنزلية وحياتهم الدينية أيضا. - طعام الفطور في عنيزة عبارة عن خبز مخمور حار [وهو مر المذاق إلى حد ما بالنسبة لي، ومع ذلك فهم لا يلحظون هذه المرارة، وربما كان ذلك بسبب طحن قليل من الملح مع القمح، على حد قول عبد الله]: ومع ذلك الخبز كان هناك شيء من التمر، وسطل من زبد (البقر) الحلو. وسطل من لبن خض البقر؛ حتى يتسنى للمفطرين أن يشربوا منه بعد تناول الطعام، عندما يقومون لغسل أيديهم؛ ولغسيل الأيدي كان هناك إبريق من المعدن ووعاء. ويجري صب الماء على الأصابع؛ وهنا يستأذن المفطرون ويذهبون لحال سبيلهم: وبذلك يبدأ اليوم.

ذهبت إلى دكانتي وجلست فيه، حيث أرسل لي زامل بواسطة علي فخذة ضأن أتى بها من سوق القصابين، كي أتعذى غداءً طيباً. لحم الضأن طيب في عنيزة: ولحم الإبل يباع للفقراء في عنيزة. وفخذ الضأن الصحراوي، الذي يمكن أن يصل وزنه

إلى خمسة أو ستة أرطال يباع بما قيمته ستة بنسات : هذا اللحم، إذا ما أحدثنا فيه بعض الثقوب، وعلقناه فى الشمس الحارقة طيلة يوم واحد، يظل جيداً طوال ثلاثة أيام. والبدو يأتون بحيوانات الغزال حية فى المدينة؛ والتى غالباً ما يشتريها المواطنون لى يربوها ليلها بها أطفالهم: والغزال الصغير يباع بحوالى ثمانية بنسات.

لم أبق فى الدكان فترة طويلة، إذ حضر إلى شخص لى يخرجنى منه! كان يصيح ووجهه كظيم - أخرج هذه الأشياء! "وهنا صاح الزنجى من جديد،" النصرانى هنا وزامل عنده علم بذلك؛ هل ستتصارع مع زامل! الآخر (الذى كان علياً الثانى ، أو إن شئت فقل الأمير التنفيذى) راح يغمغم ويتكلم بكلام غير مفهوم ، " زامل قال: أخ! - الدكان دكانى، وأنا أقول أخرج منه! أوخ ! أخرج من دكانى، أخرج ، أقول أخرج! " ولكن الزنجى صاح بصوت عال مثل الشخص الآخر، " زامل هو أمير هذا البلد، ومن أنت؟" - "أنا أمير." احترم الأمير على شخصى - ولم يوجه لى كلمة واحدة، وكنت على استعداد لإقناعه؛ قال: إن الدكان دكانه. ولكن أصدقائى لم يتصرفوا بالطريقة الصحيحة كى يجعلونى أستقر فى ذلك الدكان وقد يؤدى عنف الأمير على الوهابى، والذى تجلى فى احتقاره للأمير زامل الليبرالى ، إلى استئارة المتشددى فى البلد على النصرانى. - كانت تلك كوميدىا العليين. فقد سارع على الأبيض إلى الباب وأغلقه بالملزاج ؛ وفى اليوم نفسه الذى أخرجنى فيه من الدكان، أخرجنى أيضاً من البلد دون علم زامل بذلك. بقيت مع أشياء فى الشارع، وجاء المارون فى الشارع ينظرون إلى؛ ولكن على الزنجى هدد تهديداً شديداً بأن زامل سوف يفقأ عينى من يضايقنى وسوف يقطع لسانه أيضاً!

اقتربنا من وقت الظهيرة؛ وعندما أذن المؤذن لصلاة الظهر كنت مازلت جالسا بجوار أشياء فى الشارع، على مرأى ومسمع من الناس ، الذين كانوا يتوافدون على وهم فى طريقهم إلى المسجد. - "الله! هذا هو واحد من الذين لا يصلون،" على حد قول كل أولئك الذين كانوا يمرون على. بعد هؤلاء الناس جاءنى صبي صغير من البلدة، وكانت ملامحه تدل على أنه يضمراً شراً! وكان يحمل قضيباً غليظاً طويلاً فى يده:

مما يدل على تعصبه الدينى - أى أنه كان يضمّر حقداً غير إنسانى وقسوة غير إنسانية أيضاً! وكانت مهمته ضرب أولئك الذين يتأخرون عن الذهاب لأداء الصلاة. هاهو قد أمسك ببعض الصبية الذين تسكعوا وراحوا ينظرون إلى النصرانى، ثم صاح، "صلوا! أريككم الله!" وراح يسوق أولئك الصبية أمامه. ثم هدد عليا، الذى بقى واقفاً بجانبى؛ وعندما سمع ذلك المسكين اسم الله يتردد، كان لابد من إطاعة النداء. وفى النهاية وقف ذلك الصبى أمامى مكشرا عن أنيابه، - ورفع القضيب الذى كان يحمله فى يده! والذى لا شك فيه أن ذهنه كان عامراً بفكرة توبيخ الكافر وتعنيفه، إرضاء لله (سبحانه وتعالى): ولكنه سرعان ما أنزل القضيب مرة ثانية، - أليس النصرانى مشهورين بأنهم مبارزين كباراً؟ فى ذلك الوقت من أوقات الصلاة، خرج بعض البدو [ربما كانوا من القحطان] من منزل قريب منا وراحوا يحملون إبلهم المباركة. وذهبت للحديث معهم ومعرفة لغتهم: ولكن البدو عندما يكونون فى المدينة يتحولون إلى حضر، ويتحولون إلى أعداء أثناء الرحلات - ؛ ولكنهم طلبوا منى الابتعاد عنهم وهم يقولون: "ما هى العلاقة التى تربطنا بكافر من الكفار؟"

كان على يود منى مفاتحة زامل فى موضوع الدكان. وجدت زامل فى فترة العصر أمام باب منزله: وقال، بصوت معتدل: "لن ندخل، لأن القهوة مليئة بالبدو" [شيوخ المطير، جاءوا للتشاور مع المدينة، حول قيامهم بحملة مشتركة على القحطان]. سرت معه فى حارته، وجلسنا سوياً فى ظل جدار على تراب الشارع "هل ضاع منك الدكان؟ قال زامل: حسن، أطلب من على أن يجد لك دكاناً آخرًا.

- بالأمس جرى السطو على بعض تجار عنيزة وهم فى طريقهم إلى البدو على طريق بريدة وأخذ اللصوص منهم حمولة ثلاثة إبل من السمن - ما يقرب من نصف طن، وهو ما يساوى ٢٠٠ ريال تقريباً: وكان اللصوص الذين سطوا على هؤلاء التجار من القحطان. هؤلاء القحطان المعتدون كانوا من القصيم ويدخلون ضمن تحالف بريدة؛ وأرسل زامل رسالة إلى بريدة يشتكى فيها من ذلك الضرر. ورد عبد الله أمير بريدة، على زامل أمير عنيزة "إن ذلك حدث بواسطة البدو الهمج ولا تجعلنا مسئولين عن

الخطأ الذى ارتكبوه هم." وهنا قام زامل بإرسال ثلاثين رجلا من شبان عنيزة، ومن الأسر الطيبة، التى تمتلك نياقا فى البلدة، أرسلهم للبحث عن اللصوص فى النفود - [وعادوا بعد ستة أيام إلى عنيزة، دون العثور على أى شىء] . لم يتكلم زامل كثيرا عن ذلك الموضوع فى مجالس البلدة: ولكن ذهنه كان مشغولا تماما بذلك الأمر؛ وقيل عنه أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام.

عثر على لى على دكان بائس تماما، إلى حد أن أصدقائى كانوا يتعجبون" هذا بيت للفئران! وليس بيتا للسكنى." ورد عليهم الزنجى ، إنه بحث هنا وهناك، ولكن الجميع كانوا يرفضونه وهم يقولون: " هل سيسكن نصرانى فى بيتى؟" كان صاحب ذلك البيت الخرب رجلا بائسا كبير السن، واحد من المرضى الذين عالجتهم، والذى طلب فى اليوم التالى إيجارا يوميا مبالغا فيه، بالرغم من أنه حصل منى على الدواء بالمجان. وفى صباح اليوم التالى استطاع على إقناع جار زنجى شاب، كانت لديه غرفة علوية صغيرة، خالية؛ بتأجير تلك الغرفة ليقيم فيها الحكيم، ووعده بأن النصرانى سوف يشفى والده الذى يكاد لا يبصر. - ذهبت للإقامة فى تلك الغرفة: وكان الوالد المسن قد حصل على حرите من بيت يحيى (الذين أصبحوا بعد ذلك أصدقاء لى). المضيف الزنجى كان نقاشا؛ إذ كانت مهنته تزيين غرف القهوة وصالاتها بأعمال من الجبس الأبيض. ونحن نكاد نرى، حتى فى أحط وأفقر مناطق الجزيرة العربية مدى ولع الناس باللون الأبيض ؛ إنهم يحيطون نوافذهم المبنية من الصلصال بأقاريز من الجبس الأبيض: واللون الأبيض عند أهل الجزيرة العربية معناه الضوء والبهجة، كما أن السواد عندهم يعنى الحزن والكرب. ["تهارك أبيض!" هذه العبارة يرددها الناس فى مناطق الحدود لتحل محل "صباح الخير": يضاف إلى ذلك أن المسلمين السوريين يطلون مقابرهم باللون الأبيض. - وبولس (*) يصبح قائلا: فى هذا المعنى، "أنت بيضت الجدران!"] .

(*) Paul أو بولس ، هو رسول الأميين (الذين ليسوا من اليهود) يدعوهم إلى رسالة المسيح . (المراجع)

قال الزنجى الشاب، عندما دخلت مسكنه، الآن ! دعهم يدغدغون ويثرثرون ستين ألف مرة، لأنه وافق على استقبال الكافر من أجل عيون والده المسن. وسرعان ما امتلأ مقهى ذلك الزنجى الشاب بأناس من أهل المدينة؛ وكان البعض منهم من الشخصيات الكبيرة. وكان شرفا لذلك الرجل الفقير أن يقدم لهم القهوة، ومن النوع الممتاز؛ وهذه العملية فى ذلك اليوم تكلف ذلك الشاب الزنجى شلنا واحداً، حرصت على أن أعيده إليه. كل هذه الشخصيات جاءت لتكلمنى عن أمراضها وأوجاعها الغريبة، نظرا لأن هذه الاستشارة لن تكلفهم شيئا؛ كانوا يتمنون أخذ ألويته دون أن يدفعوا لها ثمنا، كما كانوا عاقدين العزم ومصممين على ألا يكونوا حسنى النية مع النصرانى . وأنا بدورى كنت راغبا فى مساعدتهم، بقدر استطاعتي، دونما نظر إلى أية اعتبارات أخرى.

مع شروق شمس اليوم التالى ذهبت لتناول الإفطار مع الكنيى: هذه الساعة الباكرة فى ذلك البلد المشمس والمناخ الحار لا تعد من قبيل التبكير المفرط؛ إذ يكون ضوء النهار فيها مشوبا بشئ من الجمال والوقار؛ يضاف إلى ذلك أن الأشخاص الأثرياء يستيقظون لتجديد مباحج الصلاة اليومية، ومباحج شرب القهوة، ومباحج حديثهم الودى عن حياتهم السهلة الخالية من التعقيد. وقد جرت العادة أن تكون مواعيد تناول الوجبات فى الأوقات التى يمكن خلالها لساكن الجزيرة العربية التخفف من أعباء الضيافة. ولكن ساعات ومواعيد عمال الحقول تخضع لمواعيد ومواقيت الصحراء: فالإفطار يقدم عند الظهر، ويكون من بيت رب الأسرة، وهم يتناولون العشاء عند غروب الشمس. يضاف إلى ذلك أن كل أسرة هنا لديها بقرة حلوب.

فى كل صباح، وعندما كنت أمشى فى السوق، كان بعض الأصدقاء الذين كانوا مرضى من قبل، يقومون بجذبى من عباءتى، ويقتابوا الحكيم إلى بيوتهم؛ حيث كانوا يقدمون لى صينية الإفطار وعليها خبزا مخمورا ولبنا. وبذلك كنت أفطر بواقع مرتين أو ثلاث مرات يوميا، وكان عجبى يزيد وصحتى تتحسن . أكثر الأمراض انتشارا بين الناس هنا هى أمراض العيون؛ واقع الأمر أنى فحصت المئات من هؤلاء المرضى؛ وذلك طوال مقامى فى عنيزة. وحادقة العين تغطيها سحابة بسبب المياه البيضاء والمياه

الزرقاء الناتجة عن الإصابة بالجدرى: والكثيرون يفقدون بصرهم فى عين أو العينين معا، وهم أطفال وذلك بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا آخر من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا ثالثا من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة ويصيب جانبا من جانبي جبهة الرأس - هؤلاء الناس ليس لديهم دافع إلى التجربة والتجريب؛ ولكننا نسمع أيضا عن وخّاز العيون فى الجزيرة العربية: ولكن الناس هنا لا يعلقون على أولئك الوخّازين آمالا كبارا. هذا هو معالج من معالجي العيون بالإبر سمعنا عن قدومه من شجيرة *Shuggera* (شقراء) (*) فى العام الماضى لعلاج أمراض العيون فى عنيزة. ومن الأمراض الشائعة أيضا بين الناس هنا أمراض الأنف، وحمى الواحات، وكذلك مرض الطحال: وقد وجدت أن هذا المرض منتشر بين الأطفال. - كان الجدرى فى المدينة أيضا: هذا المرض الذى غاب عن الناس فى هذه المدينة طيلة سبعة أعوام عاد لينتشر بين الناس هنا بسبب بعض الأطفال العبيد الذين جرى إحضارهم مع قافلة الحج أثناء العودة من الحج. كان بعض العاملين فى تلك القوافل يشترون بالريح الذى يتحقق لهم فى مكة، أطفالا عبيدا من جدة، ليبيعوهم بعد ذلك فى القصيم، أو (بأسعار أكبر) فى بلاد الرافدين. وبذلك كانوا يحققون مكسبا على شكل ريات قليلة: ولكن عنيزة خسرت، بسبب ذلك، وأثناء مقامى فيها، وبخاصة فى عملية التطعيم، خسارة كبيرة! - "خسرت خمسمائة طفل" من أطفالها الأحرار! بالرغم من ذلك فإن العدوى لم تنتقل عبر الوادى إلى بريدة، ولا إلى أية قرية من قرى النفود القريبة من عنيزة. استدعوني إلى بعض البيوت التى كان فيها أطفال مصابين بالجدرى، ووجدت هؤلاء المرضى يرقدون فى الظلام؛ وقد جرت العادة هنا على عدم إعطاء الدواء لهؤلاء المرضى، "مخافة أن يفقدوا نور عيونهم وبصرهم". وبذلك تمكنت من دخول مساكن بعض أولئك المقرطين فى التشدد: أما الأمراض التى كان يصاب بها

(*) شقراء : تقع بلدة شقراء فى ناحية الوشم وكانت مركز الحكومة فى أيام إغارة عبد العزيز بن سعود ١٩٠١ - ١٩٢٥ . (المراجع)

المرضى الآخرين فكانت عبارة عن نزلات البرد. - معظم بيوت هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية نظيفة جداً وتشرح الصدر وكلها مبنية من الصلصال (اللبن).

دكاكين التجار مؤثثة تأثيثاً جيداً. الطعام العادي رخيص في بريدة عنه في عنيزة، وفي عنيزة "البن المكى" [وهو أصلاً من اليمن] أرخص من بريدة، والملابس الخليجية في عنيزة أرخص من بريدة. والتمر الذي يباع بالوزن في القصيم، نوعية ممتازة جداً؛ ويباع بمعدل ثلاثين رطلاً بريال واحد.

وملابس الناس الخارجية هنا توحى باليسر - والناس هنا ملامحهم طيبة وودودين. وهم يحيون بعضهم البعض بكلام كثير، شأنهم في ذلك شأن البدو، وكلامهم فيما بينهم فيه شيء من الرقة واللفظ؛ والسبب في ذلك أن كثيرين ممن يعيشون في بساتين بعيدة عن البلدة يندر أن يجيئوا إليها. ولكن شوارع المدينة تغص بالزائرين في أيام الجمع؛ حيث يصل إليها كل أهل البلد، وعمال الزراعة عند الظهر، لأداء الصلاة في المسجد الكبير، ويستمعون إلى تلاوة القرآن والخطبة: يضاف إلى ذلك أن يوم الجمعة هو أيضاً يوم السوق في المدينة. والفقراء من السكان يذهبون إلى عنيزة وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس الأعراب؛ كما أن غترهم يلفون حولها عقلاً مصنوعاً من الحبال. هؤلاء المواطنون يقصون شعرهم ويقصروه - ولا تجد لأحد منهم خصل الشعر التي يرببها البدو: والأثرياء من هؤلاء السكان يلبسون على رؤوسهم (على حد قول الناس) طربوشاً يلفون حوله شالاً فضفاضاً من لون مرج؛ وهم لا يلبسون ذلك الطربوش إلا عندما يكونون مسافرين خارج محال إقامتهم. أما فيما يتعلق بالهجو haggi أو إن شئت فقل: حزام الوسط الذي هو عبارة عن شريط رقيق مصنوع من الجلد [والذي يطلق الناس عليه في القصيم اسم هاجوب hagub أو بريم brim] والذي يلبسه الأمراء في حائل، كما يلبسه أيضاً سكان كل من المدينة المنورة ومكة الذين هم أصلاً من الجزيرة العربية، هذا الحزام لا يلبسه هنا في عنيزة سوى الحريم. والأثرياء من الناس هنا في عنيزة يسافرون وهم يرتدون عباءات (بشوت) مصنوعة من الصوف العراقي الخفيف أسود اللون: والأعيان الصغار ينفقون بسخاء على ملابسهم وبشوتهم

(عباءاتهم)، تكون لها ياقات مطرزة بخيوط معدنية. والمطرزون يكونون فى الأغلب الأعم من النساء ، اللاتى لهن مهارة تركيب مثل هذه الخيوط الإنسيابية، ولهن مهارة أخرى تتمثل فى انسجام وتناغم أعمال الإبرة - مثل الأعمال التى نراها على السجاد الشرقى. الأشخاص نوى الحيثيات يمشون فى الشوارع وهم يمسكون فى أيديهم عصى طويلة اشتروها خصيصا من مكة كى يتمايلون بها أثناء سيرهم فى الشوارع.

الحريم هنا مغطيات، وسلوكيات الرجال هنا طيبة ولا تسفر عن متاعب أو اضطرابات: وربما يكون ذلك راجعا إلى أن المجتمع الآسيوى هو مجتمع رجولى بالدرجة الأولى ولكنه أقل فحولة عن المجتمع الأوروبى. الرجال هنا يحيون حياة دينية منضبطة على مدى الأيام: والناس هنا لا يعرفون سوى القليل عن اللذات التى تكون فى مستحلباتنا المضطربة، والتى فى ديننا الأجنبى . عقيدة محمد خفيفة الدم هى التى أفتدتهم من دراسات العالم السطحية، وهى أيضا التى افتدتهم من النبيذ المكروه؛ وعقيدة محمد هى أيضا التى طهرت أجسادهم من كل مظاهر الإفراط فى الحياة: وهم يتفوقون هنا فقط، ويتفوقون على الشرق كله فى شرب القهوة. والزواج هنا سهل اعتبارا من بلوغ الفتى سن الشباب؛ والزواج عندهم لا يقوم على روابط عقيمة، تجعل الواحد منهم يتحمل هموما كثيرة. وصدر المسلم وسيع، وهو يجد قلة قليلة من الأغصان البرية التى تنمو فى بستان زوجته، - هذه الأغصان تتمثل فى ذلك العامر بالروح مثل اللغة العربية. ونبل الفضيلة الدينية يسود هنا بين الناس، وليس هناك ما ينغص الحياة بينهم، ولكن الكراهية تكون للكافر: قلة قليلة من الناس هم الذين يجدون صعوبة فى حيواتهم. - ولكن المرأة هنا مسترقة، وقلبها لا يعرف الترفيه أو التسرية عن النفس. والمرأة لا تشاهد فى الشارع أثناء النهار؛ ولكن فى المساء (عندما يجلس الناس لتناول القهوة) يمكنك أن ترى كثيرا من الأشكال المحجبة وهن متجهات صوب منازل صديقاتهن الثرائيات: وهن سرعان ما يعدن عن طريق السوق الخالى من البشر ، مع دخول صلاة العشاء، وذلك عندما يكون الرجال يؤنون الصلاة فى المسجد.

بعد يوم أو يومين من مقامي في عنيزة جاءني شاب من أعيان المدينة يعزمني على تناول الغداء بناء على طلب من والده؛ وذلك الرجل الطيب يقولون له: عبد الرحمن البسام، وهو تاجر من تجار جدة، وعميد بيت البسام في عنيزة. كان عبد الله البسام هو وعبد الله الكنيني صديقان وفيان، يقطران ويتناولان طعام الغداء سويا، ويزوران بعضهما بعضا لشرب القهوة يوميا؛ علاوة على أنهما كانا فيلسوفين Filasufs مع زامل. وبالإضافة إلى الكنيني وجدت هناك أيضا الشيخ نصير Nasir السمرى es-Simry ، رجل شديد السمرة ومتقدم في العمر، وهو واحد من الوهابيين المتشددین في الدين؛ وكان هو أيضا تاجرا من تجار عنيزة في جدة. كان نصير السمرى قد عاد مؤخرا - بالرغم من عدم ثرائه ثراء كبيرا، ليعيش في منزل مستأجر في محل إقامته ؛ وكان شريكا للكنيني كل عام في شراء عدد قليل من الخيول من البدو الرحل، وكانا يشحنان هذه الخيول إلى بومباي لبيعها هناك.

أهل البسام - الذين هم حاليا في مقدمة أثرياء عنيزة، جاءوا إلى هنا قبل ستين عاما، وافدين على عنيزة من قرية العروض el-Aruth [عند بلينى Pliny نجد أن كلمة بسامنا Besasmna عند البدو تعنى البرود el-Barrud ، وهي قرية تضم ثلاثين بيتا، تقع جنوبي شقراء على الطريق إلى مكة]. بعض من هؤلاء الناس استوطن جدة في السنوات الأخيرة واستقر فيها ، والتي يعرف فيها أهل شرقي نجد باسم البسام el-Bassam [علاوة أيضا على تسميتهم باسم الشرقيين es-Sherrkyin بمعنى 'أهل الشرق' أو orientals بلغة الإنجليز] ! عبد الله البسام، وهو من بنى تميم واحد من تجار الجزيرة العربية المكرمين الذين يحظون باحترام كبير في هذه البلاد، بالإضافة إلى أن اسمه يحظى بالشرف والتكريم أيضا في كل أنحاء نجد؛ وطبيعة هذا الرجل من النوع المرح، وهو متيم بأعمال الخير والأعمال الطيبة. وعندما هاجم ابن الرشيد عنيزة قبل عامين، وقف إلى جانب بريدة، قام زامل وشيوخ عنيزة بإيفاد ذلك الرجل عبد الله البسام صاحب الشخصية الفذة للتفاوض مع ابن الرشيد.

كانت المشكلة على النحو التالي: جاء ابن سعود على رأس غزو كبير وصل إلى عنيزة، ثم نزل ليخيم بين بيارة نخيل رشيد Rasheyd الواقعة خارج البلدة ومدينة عنيزة ذاتها. كان هدف ابن سعود يتمثل في الوقوف في وجه بريدة: وهنا جاء ابن الرشيد من حائل للدفاع عن حلفائه. - وهنا قام عبد الله البسام (ومعه كاتبه ابن ابن عايض Ayith) وعبد الله يحيى el-yahya ، الشيخ المساعد لزامل بالاتجاه صوب ابن الرشيد ، الذي كان قد أقام مخيمه خلف الوادي. وقال البسام لأمير الشمر: "يا ولد عبد الله! نحن أهل عنيزة نتمنى على الله ألا يحدث بيننا خلاف يستفحل وينتهي إلى نشوب العمليات الحربية بين المسلمين: ونحن نرغب أن نكون واسطة سلام بينكما." محمد بن الرشيد: "وأنا من أجل هذا جئت إلى هنا، على أمل أن يحل السلام." - في النهاية اتفق الاثنان على أن ينسحب ابن سعود من هذه المناطق؛ ومن ثم يعود ابن الرشيد هو الآخر إلى موطنه. لم يكن حوار الاثنتين خلوا من كلام الفخر الذي ورد على لسان حمود العبيد نيابة عن ابن الرشيد ؛ وفي ذلك الصدد كان ذلك الرجل الذي من سلالة الأمراء يتصرف "كما لو كان بدويا من البدو." - بقي هذا البسام الطيب طيلة أيام ثلاثة ضيفا على الأمير الشمري؛ وقبيل مساء اليوم الذي كان سيرحل فيه أمر الأمير محمد رجلا يدعى مفرج Mufarrij أن يقتاد الفرس الحمراء للشيخ عبد الله! ولكن المواطن الحصيف والمواطن الحق، لم يكن على استعداد لقبول عطية من ابن الرشيد، من هذا القبيل. قال الأمير: "إذن أحضر الناقة، أركب الشيخ عبد الله ! أو قبل عبد الله البسام تلك العطية؛ وهنا كسى الأمير ابن الرشيد الرجلين المجيدين والسفيرين من عنيزة وأعطى كل واحد منهما عباءة قرمزية اللون وغترتين حريريتين؛ ووزع ملابس على كل من جاءوا معهما: ثم عاد الرجلان إلى عنيزة: - كانت العائلات البسامية الأخرى في عنيزة، وبالرغم من اتجارها فترة من الزمن مع الفرنجة في الموانئ (وذلك باستثناء عبد الله آخر صغير، يعد حاليا من بين التجار الأجانب في البصرة) كانت كل هذه العائلات وهابية بحق وحقيقة. قال الناس عن عبد الله : "إنه رجل طيب، ولكن أولاده عفون afun بمعنى (فسقة)" وربما كان ذلك راجعا إلى الملاريا الأخلاقية التي كانت سائدة في - مدينة مكة التي تشبه الميناء، أو ربما يكون ذلك

راجعاً إلى الأشياء التي لا يراعيها كثير من الآباء الأمناء، الأمر الذي يجعل سلالتهم النسبية معيبة من ناحية الأم.

كان الشيخ نصير من عائلات بنى خالد: والبدوانية فى بنى خالد أكثر منها فى بنى تميم. وبالرغم من - آراء الشيخ نصير المتصلبة إلا أنه كان يرد على أفضل من الآخرين، وكانت ربوده تمتاز بالصراحة التلقائية فى ذات الوقت؛ وبخاصة عندما كنت أسأله عن تاريخ وطبوغرافية هذه البلاد: وقام فى بداية الأمر، وباستخدام القلم، باقتفاء أثر ومواقع الحرات الجنوبية، - بنى عبد الله ، كشاب Kesshab التُّراعة Turra ، العشيري Ashiry ، العجيفة Ajefia ، (روضة Rowda ، جهينة Jeheyne ؛) التى جرى وصفها هى والسلسلة البركانية فى هذا الكتاب، هذه الحرات لم يسمع الناس عنها أى شىء فى أوروبا قبل الرحلة التى قمت بها أنا إلى الجزيرة العربية. قبل وقت قصير من قيامى برحلتى كان الشيخ نصير قد أفاد كثيراً من سنوات المنفى التى أمضاها فى مناخ البحر الأحمر، ومعه تاجران آخران من تجار جدة، فى شحن البضاعة إلى الهند. ومعروف أن الأخبار يصعب انتقالها خلال أرجاء الجزيرة العربية فى غير موسم القوافل؛ ولكن ذلك الرجل كانت تصله تلك الأخبار ، فى تلك الأيام عن طريق أناس كانوا يأتون بالمصادفة البحتة من مكة، نظراً لأنهم لم يسمعوأ أية أخبار عن سفنهم منذ إقلاعها! وأنهم كانوا يخشون أن تكون السفن قد ضاعت. هؤلاء التجار الأجانب لا يمكن أن يغطوا مطلقاً أخطار الحريق أو الأخطار البحرية، عن طريق بوالص التأمين، - لأن ذلك فى نظرهم من الأعمال غير الدينية! وفى نفس الوقت كان الشيخ نصير على يقين من أن الله يكون فى عون المسلم الحق.

- كانت تلك أفضل صحبة لى فى المدينة؛ فهذه صينية الغداء قدمت وأعدت وهى موضوعة فوق مقعد مستدير [الطعام يقدم على الأرض فى منازل أمراء حائل - انظر الجزء الأول] ؛ وجلسنا على ركبنا من حول الصينية . وجبة التجار الأجانب فى عنيزة تشبه وجبات الحضر إلى حد كبير وعلى نحو لم أر مثيلاً له فى الجزيرة العربية: وبالإضافة إلى الطلى المسلوق الموضوع فوق كومة من الأرز، قدم لنا عبد الله

أطباقا صغيرة من الجزر المحمر فى الزيد، فضلا عن أطباق الكستر أو إن شئت فقل اللين المطبوخ. ونحن إذا كنا نجلس على راحتنا حول المائدة الأوروبية، ونتكلم أيضا على راحتنا؛ إلا أن مثل هذه الأمور مع الأطباق العربية تعد أمورا غير لائقة وسلوكا غير معقول أيضا! - من يتكلم فى هذه المعركة التى تدور بين الأسنان لا يعد رجلا وإنما قاتلا للغير. وفى أى نوع (وأرجو أن تسامحونى فى ذلك أيها الأصدقاء الأجواد الثلاثة! فى الطقس المقدس الخاص بالعيش والملح) يمكن أن يتلقف كلب أو قط لحمه، دون أن يلتقط أنفاسه، ويطرد بلا فضول، ثم يجرى بعد ذلك ليشرب؛ والعرب يفعلون ذلك، حتى يتمكنوا من الوصول إلى النهاية على وجه السرعة: إذ من العيب عندهم أن يطيل الإنسان النظر إلى طبق الطعام ؛ فى حين هناك أشخاص آخرون أكثر (تواضعا) يتطلعون إلى تناول الطعام عقب الجماعة الأولى. عبد الله البسام الطيب ، لى يكشف لذلك الغريب الأوروبى عن المزيد من العطف والحنان، كان يقطع لقيمات من لحم طليه ويضعها فى يدي بالفعل. - يقول كل ضيف من ضيوف الحضر عندما ينهض واقفا بعد أن ينتهى من تناول الطعام، "يرحمك الله Ullah"، ويقولها بحس دينى وفى شىء من التواضع. كان بسام بنفسه هو وأولاده، يمسكون المنشفة للضيوف، ويقفون خارج الغرفة، فى الوقت الذى يقوم الضيوف فيه بغسل أيديهم. وتعود الجماعة إلى الجلوس أمام وجار القهوة؛ وكان ولده الأكبر قد جلس بالفعل أمام الوجار لتصليح القهوة.

عزمنى الكنينى على تناول الإفطار معه فى صباح اليوم التالى؛ وبعدها نقوم بزيارة بستانه (وهم هنا يطلقون على البستان اسم جنينى jenedny). قال الشيخ نصير، عبد الله سوف يطلب منك طريقة لرفع الماء أفضل من الطريقة التى نستخدمها حاليا فى عنيزة، التى يقطع الجمل فيها مسافة خمس عشرة خطوة من أجل دلو واحد من الماء فى كل مرة! وأنت ، أيها الرجل الأوروبى يمكن أن تساعدنا فى ذلك لأننا نفترض أنك قد تعلمت الهندسة؛ وربما تكون قد قرأت بعض الكتب التى تتناول الماكينات ، العجيبة فى بلادكم. - قد يبذر حقد نصير

الوهابى وغله بنور الشقاق فى أرض صداقتنا، كما أنه جعلنى أتبين حنان الكينى المتزايد! الذى رد بدوره هو الآخر، إنه كان يود أن يسأل خليلا عن رأيه فى هذا الموضوع. كان الشيخ نصير يتخيل الوصول إلى انسياب الماء بما فيه الكفاية لرى قسم كبير من أرض عنيزة! - كنت قد رأيت فى ذلك اليوم عربة يد على عجلات ، أمام محل حداد من الحدادين! وهذا منظر لا يقل غرابة فى بلد من بلدان الجزيرة العربية، عن وجود الجمل فى أوروبا؛ هذه العربة اليدوية جرى صنعها هنا لحساب الكينى. كان الصانع قد ثبت أطراف إطاراته بطريقة غير سليمة، مما أدى إلى تداخلها مع بعضها البعض: ولكن بقية المكونات كانت مركبة بطريقة جيدة؛ وفى نجد كلها (وبخاصة فيما يتعلق بسوانى الماء - التى جرت العادة أن تكون كبيرة) هناك كثير من الصانع المهرة الذين يجيدون هذه الصنعة ويتقنوها. كان تمر عبد الله قد جرى نقله إلى منزله بواسطة عربة اليد، فى موسم الحصاد الأخير؛ وكان الناس يتعجبون كيف يستطيع رجلان أن يحمل ذلك الذى يمكن أن ينقله جملان أو ثلاثة من الجمال.

بعد أن ينتهى الضيوف من شرب القهوة ينهضون الواحد بعد الآخر ويرحلون وهم يقولون: ينعم Yunaam الله Ullah عليك aleyk ويرد المضيف قائلاً: فى Fi أمان aman الله illah . فى الصيف هناك ساعتان من ساعات النهار؛ وفى هاتين الساعتين يتمشى أصحاب الأرض لاستنشاق الهواء وزيارة بساتينهم.

وفىما يتعلق بتوزيع زمن النهار فى عنيزة: فالناس يشترون مؤنهم من على طاولات العرض، فى السوق وذلك عقب شروق الشمس مباشرة؛ ولكن المحلات تفتح أبوابها بعد ذلك بوقت قليل ، عندما يبدأ التجار (وغالبيتهم من الأشخاص الميسورين ملاك الأرض) يتوافدون على محلاتهم بعد تناول الإفطار . هؤلاء السماسرة والوسطاء يصيحون هنا وهناك فى شارع القماشين، وما إلى ذلك من الشوارع الأخرى، وهم يرفعون الأشياء فى أيديهم بعد أن عهد إليهم أصحابها ببيعها بالنقد ، - بنادق طويلة، رماح ، دلال القهوة، العباءات (البشوت) ، وقامات من القماش، وما إلى ذلك . وهم يتأبون على هذه الأشياء بالثمن المحدد لها؛ وإذا ما نادى عليهم أحد من الناس فإنهم يتوقفون

ليعرضوا عليه بضائعهم . قطع الملابس التي يحضرها العاملون مع القوافل، من مدينة بغداد، يجرى في معظم الأحيان تسليمها لأولئك الدالين، كى تباع على الفور وبالنقد، هؤلاء التجار تقل حركتهم المالية والتجارية فى الأيام التى لا يأتى البوف فيها إلى عنيزة: وهم يكتنون مدة ساعة واحدة، إلى ما قبل الظهر، ثم يغلقون محلاتهم ، ويتجهون إلى منازلهم؛ وبالتدريج تخلو الشوارع من المارة. - وعند أذان الظهر يتوافد الناس من كل حذب وصوب على المسجد لأداء الصلاة. ولا يعود إلى السوق من المسجد سوى قلة قليلة من البائعين والتجار؛ وغالبية هؤلاء التجار (شأنهم شأن الأعيان) يذهبون لشرب القهوة فى بيوت أصدقائهم: البعض من هؤلاء التجار، لهم جنائن فى عنيزة، ولذلك فهم يفضلون الذهاب إليها ليجلسوا فى ظلال النخيل.

قبيل أذان العصر، ينهض شاربو القهوة من مجالس القهوة المعطرة، ويذهبون للمرة الثالثة لأداء الصلاة فى المساجد. وبعد الانتهاء من الصلاة يعود التجار إلى السوق؛ ليجدوا طاولاتهم مفتوحة، والدالين واقفين أمامها، ومعهم المتجولون فى السوق. ولكن الأعيان يذهبون إلى منازلهم لتناول الغداء؛ وبعد ذلك بساعة واحدة تغلق الدكاكين أبوابها إيدانا بانتهاء اليوم . - وهنا يبدأ المواطنون فى التمشى خارج أسوار المدينة، ليعودوا إلى بيوتهم مع غروب الشمس، عندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، التى يؤديها الناس فى المساجد.

اعتباراً من تلك الصلاة الرابعة يعود الناس إلى بيوتهم: وهذا الوقت لا يصح فيه زيارة الأصدقاء؛ لأن السادة يجلسون فى ذلك الوقت لمحاسبة العمال الميدانيين، الذين يجلسون معهم فى منازلهم - والسادة يحضرون لمثل هذه الجلسة وجبة من البرغل يقدمونها لأولئك الدالين، أو إن شئت فقل : العمال الميدانيين. ولكن الزراع الذين يعملون فى بيارات النخيل الواقعة خارج البلدة يبقون فى بياراتهم طول الليل ؛ ولما كانوا لا يحتاجون إلى سقف ينامون تحته، فهم يستلقون على الأرض ملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم) ليناموا فى العراء. هناك أذان آخر، يرفع بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين، يدعو الناس لصلاة الجماعة (أى صلاة salat الأخير el-akhir)

أو إن شئت فقل صلاة العشاء. وبذلك يكون الليل قد دخل؛ وكثير من الناس المتعبين يبقون ويذهبون لأداء الصلاة أو قد يكونون في منازلهم. والناس بعد أن يعودوا إلى منازلهم من صلاة العشاء ، يكونون قد أنهوا عبادة اليوم؛ وهنا تبدأ ساعة من ساعات الصداقة الخاصة (ولكن هذه الساعة لا تصلح للتجمعات العامة) في مقاهى الأعيان والتجار الأجانب.

– أرسل الكنينى واحدا من أقاربه المساكين، بعد أن تناولت طعام الإفطار، ليصحبني إلى جنينته، التي تبعد عن هنا مسافة نصف فرسخ؛ وتقع ضمن الدائرة الخارجية لأسوار مدينة عنيزة: ونظرا لأن ذلك الرجل كان ضعيفا فقد راح يتبعنا وهو راكب فوق حمار من الحمير. [وبصحبة هذا الغريب، الذى كان اسمه سليمان Sleyman ، استطعت بعد ذلك عبور الصحراء الكبرى الجنوبية إلى بلاد مكة (المكرمة) مررنا بحارات طويلة من الصلصال ولها جدران من الطين، ومررنا أيضا بين حقول ومزارع، مع نسيم الصباح البارد؛ ولكن (مع هذه الشمس الحارقة) لا تنمو بادرة نباتية واحدة على جانب الطريق (الذى لا يروى بالماء)؛ كانت حقول القمح فى ذلك الوقت عبارة عن جذازات ، فى إثر حصاد المحصول؛ وشاهدت المحصول الذى جرى حصاده مكوماً على شكل أكوام كبيرة استعدادا لفصل الحب عن القش.

وفى منتصف الطريق شاهدنا موقعا بمستوطنة قديمة، يطلقون عليها اسم جناح Jannah ، وقد أنشأها فخذ من أفخاذ القبائل، وأطلق عليها ذلك الاسم من أسماء بنى خالد، قبل إنشاء عنيزة [التي يطلق عليها اليوم اسم أم umm نجد Nejd] . – وكان هناك نزاع مستمر وعداء مستمر أيضا بين هاتين القريتين اللتين لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة ميل واحد. مستوطنة جناح هذه جرى التخلي عنها منذ خمسة وتسعين عاما؛ ولكن كثيرا من الأحياء شاهدوا الكثير من أنقاض المباني القديمة التى ماتزال باقية فى ذلك المكان، منذ أكثر من أربعين عاما؛ والعمال يستخرجون الجبس من ذلك الموقع القديم – الذى هو حقل من الحقول حاليا. وأعراب بنى خالد [الذين كانوا فى الأحساء قبل ذلك؛ ولكن أيام وجودى فى عنيزة كانوا يتجولون فى الشمال

فى اتجاه الكويت)، معترف بهم بأنهم من سلالة قيس ؛ وهم من الياح Yam ، مع مرة Murra ، والعجمان، وبنى حجر، والشمر el-Shamir : والعجمان موجودين حاليا فى الشمال بالقرب من الكويت. الجناح، فى رأى الشيخ نصير، تأسست منذ أكثر من ستمائة عام مضت [أى فى القرن الثالث عشر]، أى قبل ثلاثة أو أربعة أجيال من بناء عنيزة. كانت جناح، مع بداية القوة الوهابية، محكومة بواسطة ثوينى Thueyny المنتفق el-Muntefik، وهو كبير شيوخ بلاد النهر فى الشمال (*)، ولكن عنيزة كانت متحالفة مع الوهابى. وجرى هزيمة سكان جناح من بنى خالد فى الاضطرابات التى تلت ذلك، الأمر الذى اضطرهم إلى التخلي عن المكان: وذهب الكثيرون منهم للعيش فى الشمال، فى حين انسحب من تبقوا منهم إلى عنيزة. (سبق أن قلنا): إن المستوطنين من السبيع es-Sbeya هم الذين أسسوا عنيزة. [ومازال القبليون الرحل من هؤلاء السبيع فى بلدة العروض el-Aruth ؛ كما أن الحائر Hayer واحدة أيضا من قراهم ، وهم منهم البدو ومنهم أيضا المستقرين. وهناك المزيد من هؤلاء القبليين فى وادى السبيع، وفى حدود كل من نجد والحجاز، على بعد أربع رحلات بعيدا عن مكة فى اتجاه الشمال؛ وقراهم هى الخرمة Khorma والرونية Runya] ، وزاد عددهم بعد ذلك بسبب أولئك الذين وفدوا عليهم من بنى تميم، الذين هم مثل قریش من نسل إسماعيل من خلال سلالة إلیاس Elyas ، شقيق قيس. - والمزايينة Mozuyna (فى قبيلة حرب) هم أيضا من سلالة إلیاس : وإلیاس هو ابن ابن موزور Muthur . وقریش ، بنى أسد Assad (الذين كانوا من قبل فى جبل طى Ty) وتميم، بنى خالد، والمنتفق، والمطير، وعتيبة، وثقيف، والسبيع كلهم من الموزور Muthur . - هذا هو ما قرأه على عبد الله البسام من كتابه عن السلالات والأعراق: وقال أيضا: إن بنى صخر انحدروا عن بنى تميم.

أرض الكنيى المزروعة نخيلا وقمحا تصل مساحتها إلى ما يقرب من ثلاثة أفدنة ونصف الفدان، وتربتها رملية. والطرف البعيد من سور المدينة الذى كان يحيط بتلك الأرض إنتهارت منه أجزاء كبيرة: وكل ما هو خارج ذلك السور عبارة عن بحر رمال النفود.

(*) تقطن قبيلة المنتفق فى منطقة شط العرب . (المراجع)

القسم الأكبر من أرض الكنيى مخصص لزراعة القمح، وقد بدأ الرجل يشتل فى تلك الأرض نباتات النخيل الذى جلبه من الوادى: وقد دفع ريالاً واحداً ثمناً لكل شتلة من تلك الشتلات . لم يكن لدى الكنيى من النخيل سوى أربعين نخلة، كانت بطيئة النمو؛ نظراً لعدم اعتناء المالك السابق برى ذلك النخيل. وهذا هو حال الناس الذين يملكون مساحات صغيرة من الأرض فى هذا البلد ؛ والسبب فى ذلك أن هؤلاء الملاك الصغار هم ومساحاتهم الصغيرة فى هذه البلاد (وهذا لا يقل عما هو متبع فى مصر وسوريا) إنما يلتهمهم المرابون الأثرياء الذين يقرضون الناس بالربا. كان عمق بئر عبد الله الجديدة المكونة من فتحتين، حوالى ستة قامات ، وقد وصل الحفر فى تلك البئر إلى طبقة الصخر الرملى؛ وكانت البئر مبطنة ببطانة من الحجر الرملى الذى يجرى جلبه من منطقة قريبة من عنيزة. وقد وصلت تكاليف تلك البئر الجديدة إلى حوالى ٦٠٠ ريال، أى بواقع ما يزيد على ١٠٠ جنيه إنجليزى لكل فدان، وذلك بخلاف ثمن الماء: وتلك كانت أرضاً من الأراضى الرخيصة، التى تقع على بعد مسافة كبيرة من عنيزة: وزراعة القمح هنا كثيفة ولكن السنابل قليلة، وتجرى زراعة القمح فى المساحة نفسها عاماً بعد آخر؛ ومعروف أن القمح شحيح دوماً فى الجزيرة العربية.

شاهدت هنا أربعاً من النياق - والإبل هنا لونها أسود فى عنيزة - وهى تعمل دوماً وبلا توقف فى السانية (الساقية) لجلب الماء: والناقة الواحدة يمكن أن تروى فداناً واحداً من أبار يصل عمقها إلى ثمانية قامات. افتتح الكنيى تلك البئر الجديدة أملاً فى أن يشتري فى الوقت المناسب المزيد من الأرض من الجيران. عبد الله، باعتباره واحداً من الأثرياء، لديه نوعين من إبل جلب الماء؛ هذه الحيوانات تعمل طوال شهرين إلى أن يعتريها الوهن، ثم يطلقها بعد ذلك إلى المرعى مدة شهرين فى الصحراء. ومع كل صباح كان عبد الله يركب دابته ويذهب لاستنشاق الهواء والإشراف على الزراعة فى مزرعته : وكانت تعتمل فى ذهنه فكرة بناء بيت له فى المزرعة، حتى يتمكن من استنشاق هواء النفود، - وذلك عندما يتحتم عليه العودة إلى عنيزة [ولكن أه! لم يكن ذلك مدرجاً فى كتاب الحياة] . تساءل عبد الله، كيف لى أنا "وأنا رجل أوروبى" بالعيش فى هذا الخلاء، أو بالأحرى فى هذه الصحراء؟ وكيف أنى فى تجوالى عبر تلك

الصحراوات الشاسعة، لم أصادف مطلقا اللصوص المترحلين ، الذين يطلقون عليهم هنا اسم الهنشولى *henshuly* ! ففي الصيف الماضى قام عبد الله ، هو وبعض أصدقائه بالخروج ومعهم الخيام، كى يعيشوا حياة البدو الرحل فى جزء من صحراء النفود. وأثرياء المواطنين فى عنيزة لهم خيام تصنع من القماش الذى تصنع منه أشرعة المراكب، وهم يصنعون تلك الخيام مثل خيام البدو، أى على شكل أكواخ، وتكون مفتوحة من الأمام، - وهذه الخيام، من وجهة نظرى، هى الأفضل فى مثل هذا المناخ.

الأرض المنزرعة التى تقع خارج أسوار المدينة ليست مسورة؛ ولكن حدودها معلمة بقطع من الحجر ليس إلا. كان عبد الله البسام ينظر بعين ثاقبة إلى تلك الأرض، التى كان يزرعها على أمل أن ترثها بناته: فقد سبق أن اشترى لأبنائه بيارات فى البصرة. لم يكن يود للرجال (الذين سيكونون من صلبه) البقاء فى الجزيرة العربية! وكان يقول وفى صوته نغمة حزينة: 'أوه! لعله يعيش إلى أن يتعدى أبناؤه سن الحداثة.'

عثرت هنا على بعض أصدقاء عبد الله. كان من بينهم حامد الصافى *es-safy* البغدادي ، وعبد الله البسام الابن الأصغر (لأخيه الكبير عبد الله البسام ؛ كما عثرت أيضا على رفيق زنجى من رفاقهم، هو الشيخ ابن *ibn* عايض *Ayith* ، وهو شيخ كتابى أو إن شئت فقل فقيه فى الدين . وبعد السلام مدوا لى جميعا أذرعهم، - لعل الحكيم يفحص نبضهم! كان حامد وعبد الله، على العكس من قيمتهم الروحية، نحيفى البنية: كان اندفاع دمهما بطيئا، شأنتهم شأن والديهما كبار السن، كما أن هواء المدن الكبرى منحهم أيضا شيئا من الحياة . ابن عايض، الذى كان له محيا إفريقى (يشبه الثور)، كان يبدو غارقا فى التفكير بينما كنت أمسك بمصيره فى يدي! - وسألنى بصوت زنجى صغير: 'ما رأى فى صحته؟' هذا العالم المسكين كان يحسب نفسه مريضا يوما! وبالرغم من أن وجهه لم يكن يوحى بالوهن! كما أن عنقه الطويل، وصدره الضيق، ولا بقية أعضاء ذلك الرجل لم تكن توحى بالضعف أو الوهن أيضا - هذا الزنجى الذى يعرف القراءة والكتابة تحول إلى رجل جديد تماما اعتبارا من ذلك اليوم، الذى سمع فيه كلام الحكيم الذى أسعده وشرح صدره؛ وراح يمشى مرفوع الهامة بين

أصدقائه (وبذلك راحوا يضحكون فى وجهى) ، بينما كان الرجل كسير الخاطر قبل ذلك. يضاف إلى ذلك أن ابن عايض هذا لم يكن متشددا بمعنى الكلمة؛ ولكنه بحكم تحاوره اليومي مع التجار الأجانب، أصبح ذهنه عامرا بالليبرالية. هذا المسكين ، لم يسبق له السفر، اللهم باستثناء - وهذا راجع إلى أن كل النجديين المتدينين لا يعملون أثناء النهار - سفره ذات مرة إلى مكة للحج (مع أصدقائه الأثرياء ،الذين رافقوه فى تلك الرحلة)؛ قال: وأنا إذا ما قدر لى أن أكون برفقتك فسوف أريك كل الأماكن التاريخية. وقد أمضى الرجل شبابه فى التعليم على أيدي بعض الشيوخ المحسنين والخيرين؛ وأن هؤلاء الشيوخ هم الذين كانوا يقومون ، على أمر تعليمه. والرجل الآن يشغل منصب رب العائلة؛ ولكنه لم يكن لديه من متاع الدنيا شئ سوى البيت الذى يعيش فيه. وكانت مائدة عبد الله البسام تتسع يوما لهذا الرجل ؛ وكان فى معظم الأحيان يقوم بدور الكاتب مع عبد الله البسام نظرا لأن الأخير كان يجيد التجارة أكثر من الكتابة؛ وبداية الحكمة العلمية عند هؤلاء الناس تتمثل فى الكتابة وبخط جميل. ولكن ابن عايض لم يكن عبدا لسلوك الخضوع؛ فقد سمعته وهو يقول، بخشونة الرجال: كلمة 'لا' وهو يمسك بلحية عبد الله. الحرية المدنية فى عنيزة تسر الخاطر، كما أن نظرات الحكام هنا لا توحى بالاستعلاء أو التكبر؛ ولكن كثيرا من الرجال (فى ساعة الغضب) يعبرون عن اعتراضهم، علانية، وقد يرفعون الأمر إلى الأمير! - وهم يقولون: ما Ma أبغاك (*) bak خير khey ، بمعنى 'ما أود لك الخير'.

عندما عدت، كان الوقت ظهرا، وكانت الشوارع خالية، والدكاكين مغلقة؛ وكان الأذان يدوى، وخرج الناس يتوافدون على المساجد. ومرّ بى بعد ذلك شيخ مسن من عتيبة، - كان ذلك الرجل فى عنيزة مع بعض رفاقه القبليين الذين جاءوا للتسوق؛ وعندما عرف ذلك الرجل أنني حكيم ، نادانى، وهو يريد نواء للريح rih . ورد عليه واحد ، "قد يكلفك ذلك ريالا واحداً." وماذا لو أن هذا الدواء يكلف ريالا، أيها الحضرى،

(*) أوردتها المؤلف على النحو الوارد فى المتن، والصحيح هو bghak (أبغاك) بمعنى 'أريد لك' والسبب فى هذا الخطأ صعوبة لفظ الغين على الإنجليز. (المترجم)

إذا كانت لدى النقود!" ووقد علينا أيضا بعض المتسكعين، الذين وقفوا بيتسمون بفعل تلك اللغة التي كان يتكلمها ذلك البدوي ويصوت عال؛ وهنا قال شخص لطيف من أولئك المتسكعين، وسط هذا الضحك: هل هو على ما يرام مع زوجاته؟ لا، صاح ذلك القلب العجوز، وأنا أود ذلك، بالله عليك، حتى لا يكون للحريم عذر. - أو هو! اصبر يا أنت! (لأن بعض المتشددین يحرصونه). - ألا تسمع الأذان؟ اذهب للصلاة! - إى! إى، لقد سمعت الأذان، الله يؤسفك! ألا أتكلم مع مداوى؟ - حسن، أنا ذاهب حالا. - ومرت علينا امرأة متشدة: اقتربت تلك المخلوقة من الشيخ البدوي وجذبتة من عباءته (بشنة). تصيح، إلى الصلاة، أيها الشيطان البدوي العجوز؛ أنت واقف هنا والناس يصلون! - وأنت واقف هنا لتتكلم مع هذا الشخص الكافر؟ - إخص ! اسحبى يدك يا امرأة، وأتركينى أذهب لحال سيلى! - قلت لك أنى صليت. وبالرغم من أنه صاح إخص akhs - إخص akhs إلا أنها ظلت ممسكة بملابسه؛ ولم يقو على مقاومتها: ونع ذلك قال لى: أنت أيها المداوى ! ما هو علاجك للأنف السائل؟ - فلتحرق النار هذه المرأة! التى منعتنى من الكلام معك. طلبت منه أن يجىء إلى بعد الصلاة؛ وهنا سمع الشيخ بعض الأطفال يتحونه ويقولون وراك Warak وراك Warak ! لماذا لا تذهب للصلاة؟ قال لى وهو ينصرف: يا أنت ! لا تقاومهم، ولكن افعل ما يريدون؛ والمرء عندما يسافر إلى بلد آخر، يجب أن يتبع المؤلف ولا يجادل - وسيكون ذلك هو الأفضل لك، وإذا ما أردت أن تعيش فى سلام معهم. وهنا داهمنا الضرب بالعصا! - وكاد المطوع أن يقبض على ذلك الشيخ البدوي القادم من الصحراء. أوه! توقف، وأنا ذاهب للصلاه؛ ثم بدأ المطوعون يسوقون ذلك الشيخ أمامهم.

حققت ممارستى للطبابة ربحا معقولا. فقد كان هناك مع طلوع كل يوم قطيع من الأشخاص البائسين الذين كانوا ينتظرون الحكيم فى شقتى الصغيرة (قبل أن يذهبوا لأعمالهم)؛ كانوا يلجؤون على فى مسالة عيونهم الملتهبة؛ وكانوا جميعا يستعملون غسل الأعين الذى كنت أعطيهم إياه. وأثناء قيامى بذلك العمل كنت أستقبل بعض المراسلين الذين كانوا يفدون لدعوتى إلى تناول الإفطار؛ وكنت أترك مرضاى وهم مستلقون على ظهورهم وعيونهم محتقنة. المواطنون الفقراء كثيرو العدد فى ظل تحسن ظروف الحياة

فى عنيزة. وهؤلاء الفقراء يتمثلون فى عمال الزراعة، وعمال جلب الماء من الآبار، وهم يحصلون على أجور شهرية زهيدة لا تكفيهم. والمعوقون وكبار السن لا حول لهم ولا قوة؛ ويتعين عليهم أن يمشوا فى البلدة يستجدون الناس. كنت فى بعض الأحيان أقابل جماعات من هؤلاء الناس وهم يتجولون ويستجدون الناس فى الشوارع الخالية والهادئة قبيل دخول وقت الظهيرة؛ كنت ألتقى أرامل مسنات، ورجالاً مسنين بلا أبناء، ومطلقات معوزات ومعسرات، وأبناء الطبيعة التعساء الأشقياء الذين ليس لهم عائل أو معين. كل هؤلاء يمشون فى العراء كما لو كانوا لعنة سبة فى الدنيا، ويتعين عليهم أن يترقوا الأبواب الواحد بعد الآخر، كى يتبينوا إن كان الله سيعطيهم الخير أم لا؛ وهم يمشون فى الشوارع وينابون فى حزن وغم ويقولون: يا ya أهل ahl الكريم el-ka-rim ! بمعنى 'يا أهل الكرم'. ولكن لم أكن أرى يد الكرم أو العطاء تمتد لهم أو يفتح الناس لهم أبوابهم، إلا نادرا. ذات يوم عندما ذهبت لزيارة الأمير فى الصباح وجدت هؤلاء المساكين يتدافعون أمام بابه؛ ثم خرج ولد زامل إليهم ومعه شىء ما كى يعطيهم إياه؛ ولكنى اكتشفت أن تلك الإعانة كانت أقل من حفنة من التمر التى كان يضعها فى يده! كان ولد زامل يقول: "أبعد عن هنا! وأنت خذ هذه لك". وكان يدفع المساكين ويضطرهم إلى أن يعطوه ظهورهم.

كنت أمضى أمسيات حلوة فى مقاهى الأصدقاء الشباب ومع الجارين حامد وعبد الله؛ وكان حامد وعبد الله يستدعيان ابن عايض الذى كان يسلىنى بالحديث عن الآداب العربية. كان حامد يتحفنا بالنراجيل البغدادية، فى حين كان عبد الله يصلح لنا مشروباً مرطبا محلى بالسكر من تمر tamr الهند el-Hind أو إن شئت فقل: التمر هندى. كانت الصحبة المختارة هى التى تتردد على قهوة عبد الله أثناء النهار، - وتلك كانت أخلاقيات البسام الشاب، التى تسر خاطر. كان هاون طحن البن يدوى فى منزل ذلك الرجل كما لو كان ناقوسا يعلن عن كرمه وحسن ضيافته، وبخاصة عند تصليح القهوة وإعدادها. وهاون القهوة فى عنيزة يشبه الطباق الصغير المجوف فى كتلة من الرخام؛ والهاون الذى يكون له صوت مدو يحظى بسمعة طيبة بين الناس. هاونات طحن القهوة الكبيرة يجرى قطعها من مناطق الرخام التى لا تبعد مسافة كبيرة

عن عنيزة وتقع ناحية الشرق (بالقرب من المذنّب el-Mithnib ، فى اتجاه جبل طويق Tueyk) . ويد الهاون تشبه حرف ا وهى تصنع من الرخام فى عنيزة: والناس هنا يدقون فى الهاونات دقا إيقاعيا (يتناهى إلى مسامع الناس قادما إليهم من وجارات القهوة الخاصة بالعرب). ورب البيت البائس، الذى لا يكون بحاجة ملحة إلى من يشرب معه القهوة، يتعين عليه التخفيف من إيقاعات ذلك الهاون الذى يطحن فيه البن.

كانت تلك هى الروح الشابة التى كانت سائدة فى منازل التجار (الأجانب) فى عنيزة: هؤلاء التجار كانوا يقرءون فى دائرة المعارف، وكانوا يقرءون لشعراء الجزيرة العربية القدامى. هذا هو عبد الله البسام، بعد أن يرحل عنه آخر صديق من أصدقاء المساء - تراه جالسا إلى مصباحه البترولى، وناسيا زوجة شبابه، ومنكباً على كتبه لكى يغذى روحه ويشبعها ويستمر على هذا الحال إلى أن يطلع عليه النهار. أما حامد، الذى تربى فى بغداد، فقد كان لا يصدق فيما يتعلق بالقديم والجديد فى هذه الدنيا؛ ولكنه كان ميالا إلى الدراسات الجديدة. هؤلاء التجار الشبان كانوا يطلبون المشورة الطبية، وكانوا يتعلمون منى بعض الكلمات الإفرنجية، كما كانوا يطلبون منى أيضا أبجديتنا، - والسبب فى ذلك أن نقل هؤلاء التجار البحرى، إنما هو فى أيدي الشاحنين الأوربيين. قلة قليلة من هؤلاء الناس الذين هم من الجزيرة العربية، والذين يعيشون فى الموانئ التجارية فى الخارج، تعلموا بالفعل كيف يظهرون أسماءهم على الفواتير الإفرنجية التى تصل إلى أيديهم، وكانوا يكتبون أسماءهم بالحروف الرومانية. ولد عبد الله البسام الأكبر - الذى هو حاليا فى الهند، ومعه أيضا قلة قليلة من الناس، سبق له ولهم أن تعلموا القراءة والكلام باللغة الإنجليزية: غير أن ذلك، فى اعتقادي لم يكن كما ينبغى أن يكون. تجار آخرون، مثل الكينى، الذين يعيشون فى الهند، كانوا يتكلمون اللغة الهندوستانية. وهذا هو حامد، كتب من شفتى (وبحروف عربية) قائمة طويلة من الكلمات الإنجليزية، - وهى من قبيل الكلمات التى قد يفيد منها أو تفيده أثناء تنقله فى الخليج. كان والد حامد، يقيم فى بغداد منذ ثلاثين عاما؛ ولم يزر عنيزة منذ زمن طويل: - الأمر الذى جعل المدينة، من وجهة نظره، تتوسع إلى حد أن من يزورها بعد غياب طويل، قد لا يصدق أنه موجود فيها بالفعل. قال لى الكينى:

إن حجم عنيزة الحالى يعادل ضعف حجمها قبل خمسة عشر عاما؛ وهو يعتقد أن سكان عنيزة فى الوقت الراهن لابد أن يكونوا ١٥٠٠ نسمة.

كان أصدقائى يرونى من منطلق أنى حكيم حافى القدمين، ممزق الثياب، وقادما من الخلاء (صحراء)، كما كانوا ينظرون إلى باعتبارى هاربا من بريدة. أرسل لى عبد الله البسام الشاب نعله، أرابوا لى أن أحمل عصا طويلة فى يدى؛ ولكنى قلت لهم: من لا يحتاج لا يكون فقيرا: وفقرى شرف لى. قال الكينى لى فى الصباح، عندما كنا على انفراد (وبمزيد من الحنو والتعاطف تمكن من العثور على كلمة إفرنجية): "مسيو Mussu خليل، لو كنت بحاجة إلى النقود - ولو وصل ذلك الاحتياج إلى مائة أو مائتى ريال، فإنك ستجد هذه النقود التى أمل أن تقبلها منى. ولكن الكينى لم يكن يعرف كل احتياجاتى، وكان يتصور أننى كنت أتنقل فى مظهر رجل فقير من باب التكر ليس إلا. شكرته على كلامه الطيب؛ والذى راح يتردد فى مسمعى منذ ذلك الوقت فصاعدا، وكأنى لم أستمع إليه مطلقا. سمعت أيضا أن البسام الطيب حمل على عاتقه مسألة سفرى ومضى قدما إلى الأماكن التى أريد الوصول إليها. كان يعزمنى مرارا على الذهاب إلى منزله، كما كنت أذهب أيضا إلى منزل الكينى فى بعض الأحيان الذى كان يخشى (باعتباره رجلا عصريا) الكلام الوهاى الجارح الخشن. كان ذلك البسام الطيب، كلما التقائى، يدعو الغرب بكلام بشوش، إلى تناول الإفطار مع حلول الصباح: ومع تناول الإفطار كان يوجه لى الدعوة لتناول الغداء معه فى اليوم نفسه، - وتلك إنسانية كنت أشكر الله عليها فى هذه الظروف بالغة القسوة.

كان عبد الله البسام يعيرنى أذنا صاغية فى تساؤلاتى عن الآثار القديمة فى الجزيرة العربية؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يفيض حنانا وعطفا. - قال: ألم يزر النصرانى النبى (ﷺ) فى المدينة المنورة، هو وعمر؟ - عمر، الذى نادى بضبط الدين الجديد (من بعض الشر الذى انطلق فى منطقة جرداء ليتحول إلى حريق كبير على مستوى العالم) ولكن كيف كان عفن وفساد السلطة الرومانية

فى ذاك الوقت؟ هذا فى الوقت الذى لم يستطع جنود الجحافل الرومية القديمة ، الذين كانوا يحتمون بملابس صنعوها من الحديد، الصمود أمام هجوم رجال الجزيرة العربية ضعاف الأجسام غير المسلحين تسليحا جيداً، وهم لا يرتدون سوى قمصان مهلهلة! ولم يكن يربط بين هؤلاء الناس [وهذا هو الرابط الوحيد الذى يمكن أن يربط بين الساميين!] سوى العاطفة الدينية (الجديدة) من ناحية، وجشعهم الذى يشبه جشع اللصوص فيما يتعلق بالغنائم! هذا الشعب الذى سبق لجالوس Gallus أن قاد جيشاً رومياً خلال أرضه، بلا معارك، طوال خمسة عصور، ويعود من هذه الحملة وكله احتقار وازدراء لأولئك السكان الذين يتسمون باللصوصية ولا يعرفون كيف يقاتلون! وسرعان ما اجتاحت المسلمون مصر، بفعل السلاح المرعب لتلك العقيدة الجديدة: وحكى لى البسام حكاية ذلك القبطى الذى جاء يشكو حزنه لأمير المؤمنين فى المدينة المنورة. هذا القبطى وجد (سيدنا) عمر الشهم الشبيه بالبدو، وهو مشغول ، شأنه شأن أى رجل فقير آخر، فى مزرعة نخيله، إذ كان يسوق الإبل التى تعمل فى جلب الماء من البئر؛ وأوقف (سيدنا) عمر ماشيته كى يستمع إلى شكوى ذلك المسيحى. زعم ذلك القبطى أن قائد المسلمين فى مصر تعسف معه، لأنه يود أن يبنى مسجدهم فى الإسكندرية على قطعة من أرض ذلك القبطى، الأمر الذى يحتم هدم منزل ذلك المسيحى، - بالرغم من أنه - هذا المسيحى - كان يرفض دوماً الحصول على الثمن. وراح عمر يبحث فى أرضه إلى أن عثر على قطعة من العظم - فى بلاد العرب، يسهل الحصول على قطع العظم نظراً لأنهم لا يدفنون الحيوانات الأمر الذى يؤدى إلى تبعثر عظامها بعد تحلل أجسادها، ثم طلب (سيدنا) عمر من ذلك القبطى أن يشهد ما يفعله أمير المؤمنين. قام (سيدنا) عمر بقطع رأس العظمة بحد سيفه، ثم سلم تلك الإشارة (العلامة) للقبطى، [ليلفها فى ثيابه] ويسلمها لنائبه فى مصر، وأمره له بالكف والامتناع عن ذلك الأمر. كان كلام (سيدنا) عمر كاف لإزاحة ملوك، بالرغم من أنه لم يكن يعرف سوى قشور ، وأطاع نائبه (العربى) فى الإسكندرية الكلام ونفذه - كان عمر (رضي الله عنه) هو الذى أحرق أدبيات letrers العلم السابق: فقد بدا له حسب فهمه السامى Semetic

أن تلك الأدبيات لم تفد كثيرا في فهم الإله الحقيقي من ناحية، ومن باب إنقاذه للدين من الناحية الأخرى. (*)

لم يستطع البسام أو علماء عنيزة الرد على سؤالي البسيط، " أين توجد جوردة Jorda؟ - التي ورد ذكرها في الموروث (الإسلامي) على إنها 'عاصمة القصيم'. " لم يكن هذا الاسم معروفا لهم ! في البداية وجدوا الرد على سؤالي، بعد عدة أيام، من خلال مقارعتي بكثير من الكتب؛ وعن موقع تلك البلدة، فقد سألوا عنه أولئك الذين اعتابوا على التجوال في النفود. - وهم يزعمون أن موقع هذه البلدة هو الإثيلي el-ethelly (بعض البيوت الكبيرة البعيدة)، بالقرب من مدينة الرس er-Russ في وادي الرماح: حيث توجد مساحة كبيرة من الأنقاض والأساسات : بل إنهم عدّوا جوردة Jorda إلى جرادة Jarada . المتعلمون بين هؤلاء الناس يدرسون لكي يتخصصوا فقط في التعليم القرآني المتعب الأكثر من ذلك، أنهم قد يستخفون بذلك الذي يشده فضوله إلى أن يكتب تاريخا لشئونهم البسيطة في الكلام المبتذل. أسماء الأراضي ربما تكون هي الكتابات القديمة الوحيدة لسكان الواحات. كان كتاب البسام عن السلالات (المزعومة) كتابا مهما، وكان له غلاف مذهب مصنوع من الجلد الأحمر اللون: وقد قرأت في ذلك الكتاب قرايات كل من العمالقة Amalek ومدين Midian ، وغيرها من قبائل الجزيرة العربية الأخرى؛ تلك القبائل التي كانت بدوا ومستوطنين في الموروث الموسوي والعبري. وعندما وجدني ذلك الرجل الطيب مشغولا بتقليب الصفحات، أعطاني كتابه؛ ولكني رفضت قبول الكتاب، - وهو ما أغضبه بعض الشيء .

قالوا لي : 'إن مندوبا من الحكومة العثمانية، جاء في العام السابق، إلى هذه المناطق وكان معه فرمان من السلطان؛ وقام ذلك المندوب بتدوين أسماء البلدان والقرى،

(*) يفهم من السياق أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية ، وهو خطأ تاريخي فادح ، إذ إن عمر بن الخطاب لم يأت قطعا إلى مصر أما إذا كان المقصود عمرو بن العاص فهو أمر لم يحدث لأن الذي أحرق مكتبة الإسكندرية هو يوليوس قيصر في عام ٤٨ ق. م. عند اشتباكه بأسطول بطليموس شقيق كليوباترا وخصمها على عرش مصر . (المراجع)

كما دون أيضا أسماء القبائل التي تتجول في هذه المنطقة! وسلطة السلطان التركي [برغم اغتصابها بحد السيف] معترف بها هنا من كل المسلمين الحقيقيين؛ كما أن بلدية بريدة تدفع مساهمة سنوية للخزانة العثمانية في الحجاز، - وهذه المساهمة لا تتجاوز الألف جنيه. - أما عنيزة فقد جاء ردها على النحو التالي: "نحن لا نتكر الزكاة أو الفدية: أرسلوا لنا وتسلموا الفدية." ولكن الأتراك في ذلك الوقت، لم يكونوا على استعداد للمغامرة في رمال الجزيرة العربية!

كانت أفكار الكنيى كلها تتركز على تربية ولده وتنشئته؛ ذلك الولد الذى سيخوض غمار حياته سابحا فوق أمواج الدنيا ، ومتسلحا بتلك الذخيرة التى سبق له تصورها وتخيلها. كان الكنيى يود لولده أن يتعلم اللغة الفارسية واللغة التركية (اللغتان السائدتان فى منطقة الخليج المجاورة لهم)؛ كما كان يود لولده أن يتعلم أيضا اللغة الفرنسية والإنجليزية. هذا الصبى وهو فى سن العشرين، سوف يبدأ رحلته عبر دول أوروبا، ليرى العالم المتحضر العظيم، ويرى أيضا آلاف الماكينات الجديدة المدهشة، التى أصبحت بمثابة معينات الحياة الإنسانية والبشرية. ذهن عبد الله البسام الواسع ، كان يحتقر الحقد والغيرة الوطنية بكل أشكالها ، كما كان يكره أيضا التزمّت والخطورة الدينية؛ وكان معجبا جداً بالمعرفة الطبيعية، والتمدن والإنسانية، التى هى موجودة حاليا فى الأجزاء الغربية من العالم. كان عبد الله صاحب روح ممتازة أو قريبة من الممتازة: كان الرجل معتدلا، كما كان أيضا متقشفا، ولكن ليس إلى حد الخطأ. سيقوم عبد الله، فى البداية، بإرسال ولده محمد، لمدة عامين، لتلقى العلم فى واحدة من مدارس المسلمين فى بغداد، والسبب فى ذلك أن ولده سوف يتحتم عليه العيش وسط المسلمين. ثم يوفد ولده بعد ذلك إلى مصر أو إلى بيروت ؛ وسألتنى عن المدارس التى فى بيروت [التي كانت فى ذلك الوقت ناظرة مدارس الليفانت] . هذا الولد، الذى كان يشغل بال وفكر عبد الله، كان يبلغ من العمر عشر سنوات، ولم يتعلم بعد القراءة والكتابة. هذا الولد، أنجبه عبد الله، من امرأة هندية، عندما كان فى بومباي: ولقد سمعت عن هذا الموضوع بعد ذلك فى مستوطنة نجد؛ وهم لا يراعون فى تحالفاتهم مسألة الدم الوطنى. كان عبد الله يود لولده أن يذاكر كثيرا حتى يتعلم

الكثير أيضا؛ كان عبد الله يتحرق شوقا لرؤية ولده وهو يتقدم بصورة مستمرة نحو آفاق المعرفة: ولكنى عندما وقفت على ضعف الولد البدنى نصحت والده ألا يلقي عليه كل تلك الأحمال الثقالة. - وبعد أن استمع عبد الله إلى كلامي المخلص الخالي من النفاق، والذي لا يعد أمرا شائعا في عالمهم العامر بالخداع والغش، رد على في النهاية، وهو يتنهد ويقول: صحيح! Sahhih بمعنى 'هذا كلام صادق وصحيح'.

لم يمض عبد الله شبابه في التعليم المدرسي؛ كما أنه لم يواصل تعليمه في الجامعة - ذلك المجرز الذي يوقد الفكر والعقول؛ ولكن فهمه وإدراكه الواسع كان على ما يرام، هذا الفهم نضج في شمس العالم العامر بالمال والأعمال: وعندما دخل عبد الله السباق استطاع في سن مبكرة الحصول على تاج السرعة الإلهية. كان والد عبد الله يتجر في الخيول، نظرا لوجود الكثير من الأنواع الجيدة في البلدة؛ ولكن ذلك الوالد بقى فقير الحال ومات في سن مبكرة. بعد ذلك بدأ عبد الله مغامراته في هذه الدنيا، فذهب إلى بغداد التي (وقد سمعته يقول ذلك) لم يستطع في بداية الأمر، أن يفهم فيها لهجة الشمال الغزبية عليه. بدأ التجارة بعد ذلك؛ وكان اتجاره من نوع [وهو يتكلم مع رجل إنجليزي] قال عنه، ما Ma ينفع yunfa بمعنى 'ليس فيه من النفع شيئا'. - كان عبد الله يبيع العبيد ويشتريهم؛ وكان بسبب هذه التجارة يبحر إلى زنجبار Zanzibar ، التي كان سلطانها (من عائلة عمان (*) Aman الأميرية) من بنى تميم ، وبنى تميم هؤلاء هم من قبليي نجد. كان عبد الله يسافر أيضا إلى موريشوس Mauritius لأنه كان يتجر في السكر! ثم بدأ عبد الله يتجر في الأرز الذي كان يشحنه من بومباي، إلى الموانئ العربية؛ إلى أن ذهب واستقر في البصرة: التي قال لي عنها وهو يتفاخر فخر التجار: إن لديه في مخازن الحبوب (المفتوحة) فيها قمحا تصل قيمته إلى حوالي ٥٠٠٠ جنيه إنجليزي! - وأنه كان يحمي تلك الحبوب بالحصير وأغطية من البوص؛ التي يمكن وضعها فوق أكياس الحبوب في حالة سقوط المطر. وقال لي أيضا:

(*) كانت عمان وزنجبار دولة واحدة على عهد سلطنة اليوسعيد ، ثم انفصلت عن عمان في عام ١٨٦٢ وصار يحكم كل منهما سلطان من نفس الأسرة اليوسعيدية (المراجع)

إن إنفاق أسرته السنوى، بالإضافة إلى ما يعطيه لبعض المقربين منه، يصل إلى حوالى ٤٠٠ جنيه إنجليزى.

قيم عبد الله ثروة أغنى تجار عنيزة بحوالى ٢٤٠٠٠ جنيه إنجليزى؛ وإذا ما حسبنا على هذه الثروة نسبة اثنى عشر فى المئة، إذ كان الإيجار السنوى فى حائل عشرة أمثال رأس مال التجارة فى حائل! (هذا يجيز لنا قبول التقييم الذى جاء به حمود). ولكن بالصغر إنفاق أسرة الجزيرة العربية إذا ما قارناه بألفين أو ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى تنفقها أسرة واحدة!

كان اسم الكنينى يحظى بالتكريم والاحترام فى القسم الليبرالى من البلدة: 'قالوا: الله أعطاه، وهو رجل طيب؛' ولكن الحقد الوهابى كان ينظر إلى أولئك التجار باعتبارهم نحلة فى عشمهم. لم يستطع أن يشتري لنفسه حذاءً 'أصبح واحداً من الأثرياء فى العالم؛ كانوا يربون ' هذه بركة من الله. ' ومعروف أن أسعار سوق الحبوب فى الشرق ترتفع وتنخفض فجأة: وأن فهم عبد الله الجيد هو الذى مكنه من الإفادة من تلك التقلبات بين الارتفاع، والانخفاض، فى مضاعفة ثروته. فى ذلك الوقت كان عبد الله يتجر فى القمح بالجملة، إذ كان يبيع لتجار التجزئة بناء على الثقة، وقال لى إنه كان يفعل ذلك بلا أدنى خوف ؛ لأنه كان يعتقد أنه (بحكم ملاحظته) كان يعرف الحال الحقيقى لهؤلاء الزبائن. - وأنا عندما كنت مقيماً فى دمشق، رأيت بنفسى أن سعر قمح الخبز كان سعره يرتفع فى أواخر فصل الشتاء؛ وتخيلت أنه فى حدود مائة أو مائتى جنيه يمكن افتتاح صومعة غلال صغيرة، تستطيع الأسر الفقيرة أن تشتري منها احتياجاتها طوال العام، بسعر يزيد قليلاً على سعر المحصول عند الحصاد . سألت بعض الأشخاص الحريصين والأمناء؛ ولكنهم جميعاً ردوا على 'إنها تجارة عجيبة وغريبة، أن يتحول فيها تاجر من تجار الجملة إلى مثل هذا الرواج. ' - من هنا وجدت أن أحداً منهم لم يكن على استعداد للدخول معى فى مغامرة من هذا القبيل.

عندما تغدبت مرة ثانية مع البسام، كان ذلك فى حضرة شريف المدينة المنورة! هذا الثعلب العجوز صاحب العمامة كان قد وصل مؤخراً إلى عنيزة، واتخذ لنفسه

مقاما من المضيقة العامة (التي يقولون لها منزل Menzil الشيوخ es-Sheukh) ؛ ولكنه كان يفطر ويتعشى على مائدة البسام الرجل الطيب، والذي تعهد من باب الإحسان، تفسير ذلك الشحاذ الدينى إلى المدينة المنورة. كانت طيبة عبد الله البسام عامة ، بمعنى إنها كانت تعم الجميع وكان الجنود الهاربون عندما يصلون إلى عنيزة يقوم عبد الله البسام، من باب الشفقة بمساعدتهم . بما يمكنهم من مواصلة الرحلة. هذا الرجل بالرغم من أنه كان عميدا لعائلة ثرية ، كان يسارع إلى أعمال الخير، إلا أن رأسماله لم يكن كبيرا: هذا الرجل سكن فى بيت بالإيجار عندما عاد إلى عنيزة؛ كما أن القسم الأكبر من تجارته كان فى تلك السلعة التى كان الآخرون يرونها من أخص خصائص عبد الله. كان يتمتع بقلب شاب بالرغم من أنه كان فى منتصف العمر، وكانت أخلاقياته وسلوكياته الحلوة ذائعة الصيت؛ لم يكن فى عبد الله هنة من هئات الضعف. كان صاحب وجه يسر الناظر إليه؛ كان يمشى فى الشوارع مرتديا أبهى ثيابه، وهو يمسك فى يده عصا الأعيان الطويلة: وفى كل مكان ترى ذلك الرجل ووجهه مبتسم ، سواء أكان يتكلم أم كان صامتا. كان عبد الله البسام يمامة فى عش غريبان التشدد والتزمت : كان يحب إله محمد قبل كل شىء (لأنه ولد على هذا الدين)، ثم من بعد ذلك كل الناس المهمين من أمثاله. وقد رأيت بعينى مدى كبر كرم ذلك التاجر، الكرم الذى اتخذ من الدين أساسا له؛ وفى كرمه كانت حكمته فوق حكمة الدنيا.

الفصل الثالث عشر

الحياة فى عنيزة

شائعات العمليات الحربية. خبر خطير من الشمال. أعراب المطير. العتية. القبض على قحطاني فى الشارع. جريمة كبرى. محاضرة فى مساء الجمعة. المطوع. بسام والكنيني يتحدثان عن الأمم الغربية. مجلة عربية. "محك الحقيقة". الشاذلية. رأى فارسى فى الألبان (السامية) الثلاثة. الإنجليون الأوروبيون فى سوريا. آراء عربى فى السلوكيات الفرنجية (التي لمسها فى الهند). مطعم فى عنيزة. النصراني بلا مأوى. شخصية مثقفة. محمد. العقائد السامية. الشيخ محمد. نواء مسحوق اللودانوم. رسالة من بريدة. خطاب الدين. كلمة يهودى. الجدرى. عائلة يحيى. الأمراض. شفاء قصير لبعض الأشخاص المشتتين؛ قصة الدير المارونى فى لبنان. عمال الحجارة فى عنيزة. بيت عند أطراف المدينة. اقتراض النقود بالريا. الزراعة فى الواحة. سمسار خيول من عنيزة. غريبة جحور النمل طلباً للخبز، بيع الخيول فى الجزيرة العربية، والخيول الشمالية أو خيول الخليج. العيارية. وادى الرماح شمالاً. خالد بن الوليد. الأورشازية صراع حفارى الآبار المعبت. رجل قديم فى الجزيرة العربية. النصراني فيما بينهم خارج على القانون. أفكار عن السفر إلى سدوس والرياض. الكلام العربى فى القصيم .

ذات صباح جاء خبر إلى المدينة، مفاده أن البدو أغاروا على من كانوا يحصدون فى الوادى، وأخذوا منهم حميرهم: فى خلال النصف ساعة الذى تلى ذلك رأيت أكثر من مائة من الشباب من أهل المدينة وقد تجمعوا ومعهم أسلحتهم وراحوا يسارعون فى الاتجاه صوب بوابة بريدة. أما الفقراء البائسون من أهل المدينة فقد سارعوا سيرا

على الأقدام ومعهم حراب طويلة؛ أما الميسورين فقد راحوا يسIRON خلفهم راكبين نياقهم ومن خلفهم أولئك الذين يركبون على الجزء الخلفى من الإبل. ولكن كانت ساعة كاملة قد مضت على ذبوع الخبر وانتشاره؛ وكان اللصوص المسرعون قد قطعوا مسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ.

كانت هناك شائعات عن حرب مع كل من بريدة والقحطان . لو كان الأمر حربا بين البلدين، لما استطاع حسن وأهل بريدة (وهم أقل سلاحا وعددا) المغامرة بقاء أهل عنيزة والتصادم معهم فى النفود؛ وكان الأجدر بهم أن يحموا أنفسهم خلف سورهم الذى يبلغ سمكه شبرا، تاركين حقولهم ومزارعهم تحت رحمة العدو، - مثلما حدث لهم قبل ذلك. ولما كان الخصوم جيرانا، فإنهم لن يفعلوا شيئا سوى ابتلاع ثمارهم، فى حين تبقى البساتين بلا رى: الخصوم ليسوا أجانب حتى يدمروا أعراف النخيل، الأمر الذى يحطم أصحاب هذا النخيل على امتداد سنوات طويلة. - هذا هو ما فعله مضيف ابن سعود فى الحرب مع عنيزة: فقد قاما بتدمير النخيل الموجود فى الوادى: طعم قلب (جُمَار) النخيل لذيد عند أهل الجزيرة العربية، وهم يتشوقون إلى الأكل من ذلك الجُمَار بنهم شديد.

كان القحطان القبليون يعانون الأمرين عندما يأتون للتسوق من عنيزة، إلى أن تصادف ذات يوم، أن كانت جماعة منهم عائدة ذات مساء ومعها إبلا محملة، فوجدت بعض أطفال المدينة غير بعيدين عن البوابة، فى صحرا النفود، وكان أولئك الأطفال يقتادون حميرهم عائدين إلى بيوتهم، وكان معهم عبد abd ، فاستولى القحطان على الحمير، وتركوا الأطفال يذهبون لحال سبيهم: كما أخذوا العبد معهم أيضا، - وكان ذلك العبد واحداً من عبيد زامل.

وصل المدينة (عنيزة) خبر مزعج قادم من الشمال؛ واهتزت عنيزة كلها لذلك الخبر، نظرا لأن الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى ذلك الخبر كانوا معروفين لأهل عنيزة حق المعرفة. مفاد هذا الخبر أن مخيما كبيرا من مخيمات المطير، وهم من صدوق Saduk الأعراب أو إن شئت فقل: "الأصدقاء المخلصين للمدينة ولزامل أيضا"،

(إن جاز لنا القول بأن البدو الرحل يمكن أن يكونوا صادقين وأهلاً للثقة!) قد أقيم على بعد مسير أربعة أيام من هنا، وأن ذلك المخيم كان عبارة عن غزو كبير من القحطان، - لمراعى القصيم، أعدائهم اللدودين. كان حيزان Hayzan هو قائد ذلك الغزو وحيزان هذا لم يراع طقوس الضيافة، إذ سبق له أن هددنى وأنا فى حائل. والبدو الرحل (الذين هم خصوم هاربين فى أية قضية أخرى) ، على استعداد "للقتال حتى الموت" من أجل المرعى والمياه. كان المطير مندهشين فى خيامهم، وكان القحطان القائمون بالغزو أكبر منهم عدداً؛ كما قام القحطان بقتل بعض الأفراد من المطير. ولذت البقية الباقية بالفرار حفاظاً على حياتهم، وكانت معهم حيوانات الحليب المتمثلة فى النياق؛ وخلف المطير وراءهم الماشية بطيئة الخطى، كما خلفوا وراءهم أيضاً خيامهم، ومستلزمات منازلهم، تركوا ذلك كله فى أيدي أعداءهم؛ الذين لم يراعوا دين الصحراء وراحوا يطعنون النساء بالحرا، وجردوهن من ملابسهن؛ وأصابوا اثنين أو ثلاثة من الأطفال الصغار! وكان من بين أولئك الذين سقطوا فى ذلك العدوان واحد من كبار الشيوخ المشهورين فى عنيزة. فقد اخترق حيزان جسد ذلك الشيخ باستعمال الرمح!

انسحب الأعراب عندئذ صوب عنيزة؛ التى اتضح للشيوخ فيها أن أهل المدينة يودون المشاركة معهم فى القتال، لتخليص المدينة من ذلك الطاعون والوباء الخطير. ومن الناحية السلالية، هم ينظرون إلى المطير على أنهم من نسل إسماعيل، لأنهم ينحدرون من كل من قيس، ومن أنمار Anmar ومن ربيع Rubia ؛ والمعروف أن ربيع، وأنمار، ومونور، وإياد كلهم إخوان؛ كما أن ربيع هو والد وائل، الذى يعد عميد العنيزة. والمطير هم من أهل قبلى Gibly القدامى: وموطنهم فى الحرة الكبيرة التى تقع بين الحرمين، ومع ذلك يحتلها القبليون المطيريون. والقرى القديمة فى ذلك البلد، على طريق الدرب Derb الشرقى es-Sherky ، أو إن شئت فقل شرقى طريق الحج إلى مكة، هى الفيرية El-fereya ، وحاذى Hathi ، وسفينة Sfeyna ، والسويرجية es-swegieh ، كل ذلك فى حرة الكشيب el-Kisshub ؛ وفى الهجير Hajjir ؛ ولكن غالبية القرويين فى وادى السويرجية كانوا أشرافاً فى ذلك التاريخ، أو إن شئت فقل من سلالة النبی (ﷺ). والمطير حالياً يعدون من أهل الشمال: والسبب فى ذلك أن هؤلاء البدو الرحل

يتجولون مع طول فصل الصيف، نحو الأعلى لكي يرعوا ماشيتهم في الصحراء الشمالية: وحدودهم تمتد إلى كل من الكويت والبصرة على وجه التقريب؛ وهم يجاورون الشمر في الشمال. والطرفان ليسا أتباعا لابن الرشيد وإنما هم أعراب أصدقاء له. وبذلك تكون مسيرات الصحراء أو إن شئت فقل: مضارب الصحراء الخاصة بالمطير تصل إلى حوالي ٢٠٠ فرسخ ! [والمطير من حيث العدد (بين قبائل الوسط) يجيئون بعد أمة عتيبة البدوية الكبيرة وربما يصل عددهم إلى ما يقرب من ٥٠٠٠ نسمة.] كانت خيام المطير في القصيم أكثر من مائتي خيمة، في ذلك الوقت. والمطير يزورون عنيزة كل عام؛ ويقوم زامل بإهداء شيخهم الكبير حملاً أو حملين من التمر، وذلك حتى يتسنى لقوافل المدينة المرور دون أن يعترض أحد منهم طريقها.

العتبان Ateyban ، هم أيضا من البدو القبليين الذين لجأوا إلى عنيزة (ويقال إن هؤلاء العتبان من سلالة قيس)؛ لم يكن المطير أو عتيبة على وفاق مع بريدة. ومضارب عتيبة عبارة عن تلك الصحراء المرتفعة، بالإضافة إلى مئة فرسخ أخرى؛ وهذه المضارب تقع بين القصيم في الشمال وبلاد مكة: هذه الديرة الشاسعة، التي تعد من أفضل المراعى الصحراوية، ليس فيها أية مستوطنة من المستوطنات! وقبيلة عتيبة ، التي هي واحدة من أكبر القبائل في الجزيرة العربية، يصل تعدادها إلى ما يقرب من ٦٠٠٠ نسمة؛ والعتبان يتميزون بعقلية أكثر ثباتا واستقراراً من عقلية السواد الأعظم من البدو الآخرين؛ وكان العتبان حلفاء (كما سبق أن أوضحنا) بمعنى الكلمة، لعبد الله بن سعود. وهم من الناحية الدينية يغلب عليهم التشدد بدلا من الاعتدال: وهم يسكنون بين الوهابي (*) Wahaby والحرم؛ وهم يتفاخرون بأنهم الأصدقاء الوارثين لأشراف مكة. كان زامل، يفضل الهدوء والسلام ، اللذين فيهما رفاهية الحياة الإنسانية، وفيهما أيضا عبادة الله؛ ولكن في حالة الحرب، فإن أهل عنيزة يعرفون مدى حزم زامل ، كما أن ثقتهم في قدراته كبيرة جداً. ها هو زامل، قد أوفد مائة من راكبي النياق من بين

(*) الوهابي : من المرجح أن المؤلف يقصد أن العتبان يعيشون بين نجد - مركز دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - والحرم المكي الشريف . (المراجع)

مواطنى عنيزة، أوفدهم لاستطلاع النفود، وكانوا يسرون على شكل جماعتين، وجعل يحيى ولد الأمير على رئيسا لهاتين الجماعتين؛ ويحيى شاب صغير تبدو عليه الرجولة، ولكنه مثل والده له أفق وهابى ضيق .

شاهدت قحطانيا ألقوا القبض عليه فى الشارع ؛ كان ذلك الرجل قد جاء إلى عنيزة طلبا للتسوق، ولكن عندما اكتشفوه من كلامه، ألقى الواقفون القبض على ناqqته . كان البعض يحاولون جذبته لإنزاله من فوق عدة (سرج) الناقة، والعربى المغلوب على أمره [بحكم طبيعته الماكرة والمتلونة] سوف لا يقاوم ، إذ أن مقاومته يمكن أن تنزل الخطر بحياته . صاحوا ، " تعال معنا لنعرضك على زامل ، " أجاب، حسن، هيا وأنا معكم. " أنزلوا الأشياء من فوق ناqqته ويركوها وربطوا قدميها الأماميتين: كان البائعون فى الدكاكين المجاورة غير عابئين بتلك المغامرة. - فى حائل، أو فى بريدة، يرى أن الحالات التى من هذا القبيل الذى يقوم بها هم جماعة الأمير، فى ظل ضجيج وصراخ متقد ؛ ولكن عنيزة بلدة حرة، الحفاظ على الأمن فيها متروك للمواطنين كلهم. - وفيما يتعلق بالقحطان، لم يكن زامل قد أعلن بعد أنهم أعداء لعنيزة؛ وبالتالي لم تكن هناك أية شائبة على ذلك البدوى القحطانى. كانوا قد قيدوه ولكن الأمير العادل أصدر حكما بإطلاق سراحه.

الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم فى عنيزة (التي لا يوجد بها سجن) يجرى تقييدهم إلى أن يحين موعد الجلسة التالية من جلسات الأمير. حكى لى الكنىنى أنه طوال وجوده: فى عنيزة، لم يشهد سوى حادثة إعدام واحدة، كان ذلك منذ خمسة عشر عاما مضت. كانت المجرمة امرأة، شقيقة مفرج Mufarrij ذلك الرجل المحترم الذى كان رئيسا لخدم الصالة العامة لأمير حائل: وبعد وقوع ذلك الحادث المؤلم لأسرته، ترك الرجل عنيزة بحثا عن خدمة أخرى فى مكان أجنبى. - كانت تلك المرأة قد أغوت بنتا صغيرة، التى كانت بمثابة الابنة الوحيدة لأسرة من الأسر الثرية المجاورة لتلك المرأة؛ وقتلت تلك الطفلة الصغيرة طمعا فى المصوغات الذهبية التى كانت تعلقها على رأسها، ثم قامت بعد ذلك بدفن جثة تلك الطفلة البريئة. هذا الأب المكلوم لجأ إلى عراف، -

الذى يزعمون أنه أثناء قيامه "بالقراءة" يتنفخ بطن المذنب . [انظر ص ٢٠٩] . هذا العراف، أو إن شئت فقل : المتكهن اقتاد الحاضرين إلى منزل تلك المرأة؛ وأراهم مكانا وطلب منهم الحفر فيه ! - ومن هذا المكان أخرجوا جثة الطفلة الصغيرة ! وحملوه ليدفنوه فى المقابر.

- وقدمت تلك المرأة للمحاكمة، أمام جلسة من الناس ومن الكبراء (المشايخ) الذين اجتمعوا إلى الأمير الذى يمثل السلطة التنفيذية . - فى البلدان العربية، يقيد حرس الأمير القاتل بالأصفاد، ويقدم لأقارب المقتول ، ليفعلوا به مايشاءون . - طلب على من الوالد، " انهض واقتل هذه المرأة الشريرة ، القاتلة التى قتلت ابنته." ولكن الأب الذى كان شيخا متدينا (مطوعاً muttowwa)، ورجلا معتدلا، وفاضلا رد قائلا: "ابنتى الصغيرة ذهبت إلى رحمة الله؛ وأنا بالرغم من أنى سأقتل المرأة فإن ذلك لن يعيد إلى ابنتى!" - يكفى، يا سيدى، لقد عفوت عنها: من ذهبت، ذهبت وانتتهت." على : " ولكن جريمتها لا يمكن أن تمر بلا عقاب، لأن هذه سابقة خطيرة فى هذه البلدة! أنا أقول لك! أضرب يا أنت، واقتلها." - وهنا استل المطوع سيفه وقتلها ! واللصوص هم والمذنبين يجرى ضربهم بعضى من جريد النخل ، الذى يتعين أن يكون أخضرا وليس جافا، والذى يقولون عنه: إنه يكسر العظام. وعنيزة لا تقطع اليد؛ ولكن المجرم المحترف يجرى إبعاده عن البلدة.

بعد ذلك أرسل زامل رسالة إلى شيوخ القحطان فى الصحراء، أنهم إذا ما أعادوا كل ذلك الذى نهبه قبليوهم فإنهم يمكن أن يكونوا أصدقاء لعنيزة: وإذا ما جاءت الإجابة بالنفى، فإنه (زامل) سيناصبهم العدا. بعد أن يكون هؤلاء الناس قد أراحوا ضمائرهم على هذا النحو، فإن هؤلاء الناس (المتحضرين) يוכלون الأمر لحكم الله (سبحانه وتعالى)، وبذلك تكون أيديهم نظيفة من سفك الدماء: وهم (بشكل عام) لا يأخذون غنائم من أعدائهم! وهم يقولون عن ذلك: "إنه ليس من الشرع،" - وبالرغم من ذلك، فقد علمت بكل أسى، أن هناك الكثيرين الذين يقتلون اللصوص فى بيوتهم! ولكن إذا ما قام فقير فى غزوة من الغزوات بإخفاء شيء صغير فى خرج ناقتة،

فهو يخفيه على نحو، لا يكون معه ظاهرا للعيان. - من هنا، فإن أهل عنيزة لا يأخذون سوى الأسلحة فقط ليدافعوا بها عن حرياتهم.

ذات يوم كنت فى زيارة لزامل، ووجدت فى مجلسه جمعا كبيرا من الناس الصامتين الذين لا يتكلمون: كان هناك أربعون فردا من أهل المدينة جالسين ومن ورائهم جدران المقهى. ثم دخل علينا رجل مسن كان شيخا من شيوخ الدين؛ وهمس الجالس إلى جوارى، فى أذنى، بأنهم مجتمعون هنا لحضور محاضرة تلقى بعد عصر يوم الجمعة! وزعت القهوة؛ وشرب الحاضرون من الفناجيل نفسها. والعرب لا يمانعون فى أن يأكلوا ويشربوا من إناء واحد مع أى شخص كائنا من كان. ولم يخطر ببال محمد (ﷺ) فى دين الجزيرة العربية أن يمنع ذلك التواصل الدنيوى فى الحياة الإنسانية: ولكن واقع الأمر أن عاداتهم التى تقضى بأن يأكل الجميع من طبق واحد، ويشربون جميعا من فنجال واحد، تحظى بالثناء أكثر مما تحظى بالصحة والعافية.

كان ذهن الإمام منصرفا تماما إلى قراءة القرآن. لم أسمع فى حديث ذلك الإمام كلمة واحدة تحض على الأخلاق! ثم قال فى النهاية، موجها كلامه إلى: "والكلام عن عيسى بن مريم، - عيسى بن مريم كان صادقا ورسولا من عند الله: ولكن النصارى لا يسيرون فى الطريق الذى سار عليه عيسى بن مريم، - لقد انحرفوا عن الطريق، فى ضوء ارتباك عقولهم، ودخلوا فى الوثنية." ثم وقف الإمام بعد ذلك، ووقف الحاضرون من بعده؛ واتجه كل واحد منهم يبحث عن نعلته.

اعتبارا من ذلك اليوم بدأ أهل المدينة يتسامحون معى، - لأن تلك كانت إرادة زامل نفسه ورغبته. ولكن المطوع، أو إن شئت فقل رجل الدين، كان على العكس من ذلك منذ البداية؛ كما أن هذا الإمام (تلك الهالة، وذلك الرجل الكبير الموقر الذى بلغ من العمر سبعين عاما) كان قد حرّض الناس، فى خطبة الجمعة، فى المسجد الكبير، على النصراتى. قال: إنه كان مثالا سيئا أن تحبذ بعض الشخصيات الرئيسية غريبا كافرا وتشمله برعايتها: ألا يدرون أنهم يغضبون الله عندما يفعلون ذلك؟ ألا يرون أن المطر الموسمى قد منع عنا! - الحياة الخالية من القانون تكون باردة؛ وبدأت ألاحظ

بشيء من الضيق الطبيعي أن الوجوه التي كانت تلتقاني في الشارع كانت غريبة علىّ ، كنت أحس يومياً بعزليتي عن الناس أصحاب القلوب الضعيفة وعن أصدقائي المنافقين. سمعتهم وهم يتقولون علىّ ، لأنني كنت أحي الناس بعبارة سلام Salaam عليك aleyk ؛ التي يرون أنها تحية أتباع الله فقط - أو إن شئت فقل: المسلمين. لم يكن الكنييني ، أو البسام أو زامل من أولئك الذين يمكن أن يحركهم كلام إنسان أهطل يقف على المنبر؛ والذي كانت تتجسد فيه الحكمة الوهابية العمياء (المتصلبة والمتشددة) التي مضى عليها خمسون عاماً (*). لاحظت على السمرى شيئاً من التغيير؛ كما لاحظت شيئاً من التغيير أيضاً، بين أصدقائي من صفار السن، لاحظت ذلك التغيير في عبد الله البسام الصغير، الذي كان أقاربه المقربين من أشياء التزمت والتعصب. كان هناك نوع من الصراع داخل ذهن هذا الرجل، بين رفقته الإنسانية الكريمة، وواجبه نحو ربه ودينه: وكان عندما يجدني وحدي يسألني، "والله يا خليل، هل النصارى يعتنقون كيت وكيت؟ وهذا على العكس من الإسلام ويتعارض معه!" - أحمد الصافي، ذلك البغدادي الصغير لم يكن كذلك؛ وإنما كان قد ضاق صدره من ذلك الدين النجدي (**). المرهق: في بعض الأحيان، كان أحمد الصافي يغلّق باباً الخارجى قبل أن ينطلق الأذان؛ ولكني عندما كنت أطرق الباب كانوا يفتحونه (للدكتور "el-docteur")، عندما يسمعون صوتي. هؤلاء الأصدقاء من تجار عنيزة كانوا يصلّحون شايًا عندما يصل الإنجليزى: فقد تعلموا شرب الشاي في الخارج على الطريقة الفارسية.

كان البسام الكبير يسعد عندما يتكلم معي عن العالم الغربي. - وفي مثل هذه الأوقات كان الكنييني يوافق أيضاً وفي صمت على ما يجري بيننا من حديث؛ لم يكن هناك، في عنيزة، أناس آخريين من هذا القبيل - ولا حتى في نجد كلها. كنت في نظر

(*) مضى على الحركة السلفية وقت رحلة نوتى ما يقرب من مائة وثلاثين عاماً وليس خمسين عاماً كما ذكر في السياق أعلاه . (المراجع)

(**) أطلق المؤلف على الحركة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب «الدين النجدي» وهو خطأ فادح . (المراجع)

عبد الله الكنينى شبيها بالعرب؛ وكان هو الآخر عندى شبيها بالأوربيين! كان البسام قد تجاوز منتصف العمر عندما ذهب، قبل خمسة عشر عاما، للتجارة فى جدة. فيما يتعلق بالأمم الأجنبية كان إعجاب البسام ينصب على الإنجليز: وقد كان يعتبر أن الله (سبحانه وتعالى) هو الذى هيا لحكامنا وشعبنا أن يكونوا حلفاء للسلطان. كان بوسع البسام أيضا أن ينطق أسماء وزرائنا Wazirs العظام ، مثل بالمرستون، ووزرائلى! - وعندما كان يعبر عن أسفه لفساد وظلم الحكم العثمانى قال: الوزير العظيم لا يبقى - أكثر من ثلاثة أشهر فى منصبه فى اسطنبول! - ولكن ما طول مدة احتفاظ الإنجليز بوزرائهم Wuzera ؟ "أجبت، البعض منهم بقوا فى مناصبهم سنوات كثيرة." "ويصيح، هذا عمل طيب، عفارم affarim ! خيرا فعلتم أيها الإنجليز!" كان الكنينى يشبه الأوربيين فى كراهيتهم واحتقارهم للأتراك: كان الكنينى يحتقر فكر هؤلاء الأتراك. قلت: " لقد وجدت الأتراك متكفين فى أحكامهم، بالرغم من أن ذلك التكلفة لم يكن يستند إلى العلم: إن خطابهم ينطوى على الحذر، بالرغم من أن هذا الخطاب ملىء بالحكمة الإنسانية." - "لا! ولكنى التقيت عدیدا من الحكام الأتراك فى مدينة البصرة Bosra . وآخر هؤلاء الحكام - صدق أولا تصدق؟ لم يكن يعرف أى شىء عن قناة السويس! وأنا ، أقول: كيف يمكن لأناس يعيشون فى مثل هذا الظلام الفكرى، أن ينجحوا فى تطوير البلاد التى أرسلوا لحكمها؟ قلة قليلة من الباشوات هم فقط المثقفون والمتعلمون؛ ولكن إحساسهم بالغربة يجعلهم لا يهتمون بالصالح العام. - ألم يسبق لكل واحد من هؤلاء الباشوات أن أشتري اللقب الذى يحملة والمنصب الذى يشغله؟ ولماذا العجب إذن عندما يغتصب الباشا المال، ويضعه فى كيسه الخاص؟ ولكن ماذا لو جاء واحد (باشا) من تلك القلة القليلة الجيدة، وقام بتنفيذ عمل عام؛ الأرجح أنه يسعى لتخليد ذكراه من خلال المشروع، - والسبب فى ذلك أن المنصب فرض عليه! كما أن من يجىء بعد مثل هذا الباشا، يرفض استكمال المشروعات التى بدأها ذلك الذى كان يشغل المنصب من قبل."

- كانوا يتكلمون عن عدااء كل من فرنسا وبروسيا فى أوروبا؛ وقال الكنينى: 'كان عقله يخيفه، من أن ما يقوم به بسمارك، وما يقوم به الإسكندر (سيزار الكسندر)

سيغرق العالم في حمام من الدم! (*) وقال إنه شاهد مؤخرا صورة الإسكندر في البصرة؛ وإن الصورة كانت لذكر thukr بمعنى أنها تعبر عن الرجولة والفحولة؛ وعندئذ سمعت من أفواههم كل أحداث الحرب التركية الروسية، - تلك الحرب التي بدأت وانتهت أثناء تجوالي في صحراء الجزيرة العربية؛ وقال لي البسام بسرور بالغ: 'إن الأسطول الإنجليزي عبر المضيق البحري - وذلك على العكس من كلام السلطان! - كيما يدافع عن اسطمبول.' [الضربات القوية هي وحدها التي تقنع المسلمين؛ طالما أنهم يؤمنون أن العالم ملك لهم، وكذلك العالم الآخر؛ وأن الله (لولا خطاياهم) سيكون معهم وفي عونهم يوما، ضد الكفار. كما أن جهلهم الواضح يغيب عنه تخوفهم من أعدائهم، وذلك منذ أكثر من عشرين عاما] وعند عبور مضيق الدردنيل قام الشيوخ الأصدقاء بدعم الإنجليز في المدينة المتعصبة.

كنت أعجب من سعة علم هؤلاء السياسيين في الجزيرة العربية؛ إلى أن عرفت بعد ذلك أنهم كانوا يحصلون على تلك المعلومات من جريدة عربية (التي تعارض "الباب" العالي في القسطنطينية). - كان المحرر العجوز في تلك الجريدة من أصل مسيحي في جبل لبنان؛ وأن ذلك المحرر عندما كان شابا صغيرا، استخدمه إبراهيم باشا (**) في نشر مجلة لسوريا. وبعد ذلك ببضع سنوات كان ذلك الشاب يتعلم اللغة العربية في كلية الليفانت في مالطة؛ ولما كان ذلك الرجل قد تعلم لغتنا، فقد راح يتجول خلال فرنسا، وإنجلترا وبعض الدول الأوروبية الأخرى؛

(*) بسمارك هو المستشار الألماني للقيصر ولهم الكبير وأدت سياسته إلى إشعال الحرب بين فرنسا وبروسيا لتحقيق الوحدة الألمانية فيما عرف بالحرب السبعينية في عام ١٨٧٠. أما عن الإسكندر فهو قيصر روسيا وأدت سياسته بنورها إلى إشعال ما عرف بالحرب الروسية التركية ١٨٧٧ التي كان يستهدف من ورائها وصول روسيا إلى البحر المتوسط عن طريق مضائق الدردنيل والبوسفور التي تتحكم فيها الدولة العثمانية. (المراجع)

(**) إبراهيم باشا : ابن محمد علي وقائد الحملة المصرية التي أدت إلى تحطيم الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى في عام ١٨١٨. كما كان حاكما لبلاد الشام في سنوات الوجود المصري ١٨٣٢-١٨٤٠. (المراجع)

وطبع بلغة عربية ركيكة مجلداً ضخماً عن أسفاره في الغرب. وفي النهاية استقر ذلك السوري في إسطنبول؛ التي اعتنق فيها دين الأتراك: ويتأيد وعون من بعض الشخصيات الكبيرة، أسس ذلك السوري تلك الجريدة العربية (المتأززة)، التي واصل العمل فيها [لمصلحة المسلمين] . هذه الجريدة يشيع توزيعها في سائر أنحاء البلدان التي تتكلم اللغة العربية: ولقد وجدت هذه الصحيفة في منازل التجار النجديين في بومباي. وفيما يتعلق ببقية هذا الموضوع، فأتنا أرويه مثلاً سمعته في سوريا المسيحية، من أفواه بعض الأشخاص الثقاة، - واللوم يوجه لأولئك الرواة إذا ما افترضوا على ذلك الرجل! يقول أولئك الذين اعتادوا التجوال من بين السوريين: السوريون دائماً كذّابون، وظنانون، ويميلون إلى القذح والذم.

ذاع أن ذلك الشخص نصراني المولد قد سوّد أصابع الكاتب بعمل آخر، مؤلفوه من علماء الإسلام ، الضليعين في علمهم (...)(*) وأن ذلك العمل (الكتاب) ملئ بالإهانات والازدراء، وأن ذلك الكتاب جاء رداً على مقال صغير باللغة العربية كتبه واحد من المبشرين المسيحيين في الهند، وطبع في لندن تحت عنوان ميزان Mizan الحق 'el-hak (...)(**). ولقد سمعت في سوريا، أن كتاب ميزان الحق إذا ما ضبط بحوزة أي أحد من الناس، فإن المسلمين سوف يحرقون بيته فوق رأسه! ذلك أن هذا الكتاب هو والكتب الأخرى اللعينة، كان يجري البحث عنها، أثناء قيامي برحلتى، في المناطق الجمركية كلها. - إن احتقار العلماء وازدراءهم (عندما يريدون على) "صغار القساوسة من النصارى"، يكون عالى الصوت وجمهورياً. - المسيحية السورية التي تعزى إلى يد ذلك الصحفي العجوز والمسيحي السابق من مسيحيي جبل Liban لبنان ، وكذلك الآراء الواردة فيها عن رأى بعض فلاسفة القرآن في الكفر، هذه المسيحية خالية من الخميرة العلمية.

(*) عبارة تم استبعادها لمساسها بالمقدسات الإسلامية . (المراجع)

(**) مقطع من عشرة سطور تم حذفه للسبب نفسه . (المراجع)

المسلمون شأنهم شأن بقية الجنس البشرى كله، يكابون يكونون غير منطقيين فى مسألة الإيمان والعقيدة؛ وقد يصعب عليهم التعثر فى دين له مثل هذا التوافق مع الطبيعة البشرية؛ ومع ذلك فإن المسلمين فى مدنهم (الحرّة)، حيث تكون وجوه الناس أقوى وأشد ملاحظة، وحيث يشاهد هؤلاء الناس مسارب ودروب أخرى من حولهم، يوجد من بينهم من يتطرق الشك إلى نفوسهم. - حكى لى الأصدقاء السوريون، أن كتاب ميزان الحق، تسبب قبل سنوات قلائل فى كثير من المتاعب والاضطرابات العامة فى العاصمة التركية؛ التى تراجع فيها عدد كبير من الأشخاص، ومعظمهم من الضباط العسكريين، عن الدين الوطنى؛ وأصبحوا نحلة شبه مسيحية وراحوا يجتمعون اجتماعات سرية، ليتعبدوا ويستمعوا إلى تلك النحلة. ووصلت أخبار تلك الشائعة إلى مسمع الحكومة؛ وحدث نوع من الاضطهاد: وجرى إغراق بعض من هؤلاء المجددين ونفيهم إلى سوريا عن طريق السفن. - وتزايد عدد هؤلاء المنفيين فى دمشق فى الوقت الراهن؛ هؤلاء المنفيون يطلق عليهم فى دمشق اسم الشاذلية -esh-shazleeh(*) : هؤلاء الشاذلية يقولون عن أنفسهم، بأنهم سيكونون فى يوم من الأيام سادة لهذه البلاد(...) (**) لقد التقيت بعض العمائم البيضاء فى هذه المدرسة الجديدة - وهم مسلمون من حيث المظهر ليس إلا، أما فى المخبر فهم يكابون لا يعترفون بالنبي (ﷺ): ولقد رأيت البعض من هؤلاء الشاذلية وهم يدخلون دكان صديق مسيحى، لكى يشربوا وعلى وجه السرعة من زير الماء الموجود خلف باب الدكان، وذلك أثناء الظم الشديد فى شهر رمضان. - كما عثرت أيضا فى المدينة السورية الكبيرة على مدرسة ليبرالية أخرى ليست من المسلمين المخلصين. ذات يوم وبينما كنا نتحدث عن الأديان، قام رجل فارسى، نو مكانة برسم الشكل التالى على الأرض.

(*) ليست هناك ثمة صلة بين من يطلق عليهم فى سوريا الشاذلية وبين الطريقة الصوفية الشاذلية التى أسسها أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى (٥٩٢ - ٦٥٦هـ) وكان شيوخها على المذهب السنى. (المراجع)

(**) عبارات فى سطرين تم استبعادها لمساسها بالدين المسيحى . (المراجع)

المعرفة الكاملة أو المعرفة السماوية			
حجاب			
[الأ]	ديا	ن الثلاثة	(الرؤيا السامية)
الأرض			

قال ، أديانتنا - سواء أكنّا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، نتجه إلى الله: ولكنها كلها تقف عند حجاب ! Hijab ولا تستطيع أن تتجاوز ذلك الخجاب إلى المعرفة الكاملة أو المعرفة السماوية!"

- سوريا، ذلك البلد القاحل، الذي يمكن أن يتحول من جديد إلى بلد مثمر، لا يعد العقيدة الوحيدة في الإسلام . والنصارى أعدادهم كبيرة في سوريا، ولكنهم أصحاب قلوب واجفة ضعيفة. والدروز المتحالفين يشكلون أعشاباً قوية منبثقة عن السلالة الإسلامية، في الجبل الأوسط وفي الجزء البركاني من البلاد. وفي بعض القرى القريبة من أنطاكية يوجد بعض المسلمين الوثنيين، ويطلق عليهم اسم النصيرية (*) en-Nuseyrieh . وفي فينيقيا (**) والحدود الفلسطينية المجاورة لها هناك مستوطنات ومستعمرات قرورية تدين بالدين الفارسي . [انظر ص ٢٨٤] - والانقسامات الدينية المتأصلة في هذا الإقليم تضر كثيراً بالحكم الضعيف للحكام الأتراك في هذه المنطقة.

(*) النصيرية : فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام على بن أبي طالب (ر) ، وقد زعموا أن الله تعالى حل في على في بعض الأوقات وأنه حل فيه يوم فتح خيبر ، ويعتقدون في نظرية الفيض الإلهي الذي حل في شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام على . (المراجع)

(**) إقليم قديم في شرقي البحر المتوسط يتكون بشكل عام من الأراضي الساحلية لسوريا الحديثة ولبنان ويقع إلى الشمال من جبل الكرمل. وسكانه من الفيتقيين الساميين كانوا منظمين على شكل ولايات كان يحكمها ملوك عن طريق الوراثة وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أصبح أولئك الفيتقيون بحارة بارزين وتجار بارزين في منطقة البحر المتوسط. (المترجم)

كان الأوروبيون المبشرون بالإنجيل بمثابة الملح فى التربة السورية على امتداد خمسين عاما؛ ولكنهم لم يكونوا يتكلمون - خوفا من الموت - إلى أى أحد من المسلمين! ويجب أن نعتزف أن أولئك المبشرين لم يحققوا أى نجاح إلا مع خمسة أفراد فقط هم الذين غيروا دينهم. هل يمكن للمسيحيين أن يتحولوا اليوم إلى يهود؟ وكيف يمكن أن يتحول المسلمون إلى مسيحيين؟ هؤلاء المبعوثون أصحاب المعاطف الطويلة والذين يحصلون على رواتب سخية (فى ذلك البلد الصيفى)، والذين يتبعون الكنائس الأوروبية، لا يتكلمون إلا مع المسيحيين فقط، ويحولونهم، من مرارة إلى أخرى، ومن اسم إلى آخر تحت راية المسيح العريضة. وهم ينظرون إلى الشعب العربى على أنه مثل الماشية؛ يضاف إلى ذلك أن أتباع ومريدى هؤلاء المعلمين، هم من جانبهم، أصحاب قلوب جريئة وقساة أيضا ويتفخرون على الفرنجة، - ذلك التفخر السامى Semitic الذى يعد خطا قويا فى التشدد الإسلامى! هؤلاء المبعوثون جديون فى كل شىء اللهم باستثناء التواضع الجم للمسيح: يضاف إلى ذلك أن مكرهم الوطنى يصطبغ بصبغة إفرنجية (إيطالية)، وفرنسية، وإنجليزية)، وبهذه الصبغة يمكن التعرف على أولئك الريفين الذين يصدقونهم - أو إن شئت فقل: أولئك البشر الذين لم يعانون كثيرا زد على ذلك أن أولئك الذين تلقوا تعليما حراً بلا مقابل، يتطلعون نوما إلى الحصول - يقال إن البعض منهم يختلس! - من الثرى نفسه (ويظنون أن ذلك أمر غاية فى البساطة والسهولة) الذى هو أوروبا المُحَسَّنة الخيرة، ذلك المعاش بصورة مستمرة: وهم يحسبون أن نكاههم أكثر رفعة raffia من نكاه الفرنجة [السادج] البسيط! - إنهم عبارة عن صور جديدة من تلك السلالة العربية، وهم لا يتحلون بالمعنى الأخلاقى؛ وهم يشبهون مسلمى هذه البلاد (فيما عدا الشجاعة والقيمة الطبيعية). بعض آخر التقيتهم، كانوا مستائين من القسوة (والبخل) الأوروبيين اللذان كانا يتمثلان فى معلميهما الدينيين، كانوا يدعون الله، فى كل يوم، أن يخلصهم من أولئك النظار الفرنجيين، ويعينهم على تربية وإيجاد معلميهما الخاصين بهم: وهم يقولون فى بعض الأحيان: "كل هؤلاء الفرنجة (الذين هم بيننا) جواسيس!" ومع ذلك، فإنهم يجنون رسلهم الذين يقفون معهم، ليتقاسموا معهم صدقات أوروبا. - الفضيلة ليست نادرة جداً، فى هذه البلاد المحيطة سيئة الحكم.

هؤلاء السوريين - الذين يفتقرون إلى الإبداع ، يمكن أن يتحولوا عن طريق المحاكاة إلى وضع أفضل مما هم عليه، فيما يتعلق بالفنون الليبرالية.

- جلسنا حول وجار (قهوة) البسام - ذلك الهيكل الإنساني بالنسبة للأسر العربية! حضر أناس آخرون؛ وقال أحد الشبان: " إنه من بين عادات الإنجليز وأعرافهم التي بهرته [وهو في الهند] أن الأزواج كانوا يفسحون المكان للحريم. [احترام الفرنجة للمرأة ليس أمرا لائقا أو من أعمال الرجولة هنا - بين الشرقيين، وذلك بدءا من اليونانيين.] يضاف إلى ذلك أن الإنجليز يرفعون البرنيطة *bernetta* - وتلك علامة الاحترام والتوقير فيما بينهم ، عندما يلتقون أية امرأة تكون معروفة لهم؛ ولكنهم لا يرفعون هذه البرنيطة (القبعة) للرجال!" كان البسام بكرم المضيف ينتظر ردى على ما يقول. قلت: "حريمتا متعلمات تعليما جيدا؛ وإنه لمن دماسة خلق الرجال أن يكرّموا الطرف الأضعف ويخصونه برعايتهم، وهذا يضيف السعادة على حياتنا على نحو أفضل - ، حياتنا هذه ليست سوى النساء والأطفال. أتعرف ما يقال في الأمثال؟ بلد *Beled* الإنجليز *el-Enqleys* جنات *Jinnat* الحريم *el-hareem* ، وجهنم *Jehennem* الخيل *el-khail* بمعنى 'إنجلترا جنة النساء وجحيم الخيول!' "أحسست بنكوص البسام، من عبارته الأولى؛ ولكن عندما فهم نهاية المثل، التي جاءت عربية، فقد راح يكرر تلك النهاية عشرات المرات في شيء من المرح والقبول. - في حضوري كان عبد الله حذراً دوماً في مسألة كياسة المضيف، حتى يتسنى له تحاشي الخطاب الدينى (الذى لا لزوم له). ولكن عبد الله لم يكن رقيقا أبداً مع اليهود؛ والسبب في ذلك أنه قرأ مؤخراً في جريدته أن بعض التجار اليهود في إنجلترا كانوا أغنى من الملكة صاحبة الجلالة، وأن آل روتشيلد *Rotchilds* (الذين كان يعرف لقبهم لأنهم يرسلون الصدقات كل عام إلى بغداد لكي توزع على الأخوة فقراء الشرق) كانوا دائنين لمصر كلها؛ وهنا فاض به الكيل. ولم يتمالك نفسه وصاح قائلاً: "الله يمسحهم!" قال آخر، يا للغرابة، الإنجليز لهم ملكة، وليس لهم رجل يحكمهم! ما هو اسم الملكة، يا خليل؟" أجبتة، منصوره *Mansura* بمعنى السيد *Lady* المنتصرة *Victorious* : هذا الاسم (إذا ما استعمل في صيغة المفرد) يكون له وقع طيب أيضاً في لغتهم.

بالرغم من عدم وجود أطباء في نجد، إلا أن هناك بعض الحكماء المتواضعين: وقد جرى استدعائي إلى بيت آخر لأسرة من أسر البسام كيما ألتقى بحكيم كان من أبناء عنيزة. ذلك البسام، الرجل متين البنية، كان أكثر التجار الأجانب تجوالاً: فقد استطاع عن طريق الخطوط الحديدية، التجوال في كل أنحاء الهند؛ لقد عاش في الهند، كما أنه يتكلم اللغة الهندوستانية الدارجة المبتذلة. ولكن سفره هذا ورؤيته للأمم الأخرى لم يغير من آرائه المتصلبة ورأسه الخشبي؛ وقد عاد إلى الوطن كما لو كان سفينة خشبية طافت الدنيا كلها وعادت إلى موطنها بالحال التي كانت عليه، ولم يطرأ عليها أى تغيير: المعادن التي من هذا القبيل يصعب أو يستحيل مسخها! صحيح أنه كان قليل الألمعية والذكاء؛ وصحيح أيضاً أن حاله راج بصورة ضعيفة في هذا العالم. كان ذلك الحكيم يجلس بالقرب من وجار قهوة البسام؛ ينتظرني ومحياه يوحى بالاحترام وأنه أيضاً ناظر مدرسة القرية. - قال الرجل بتواضع شديد: إنه حصل على مهارته الصغيرة هذه عن طريق القراءة في الكتب القليلة التي لديه؛ وأنه حصل على تلك الكتب بشق الأنفس. وجه الرجل إلى أسئلة سهلة كثيرة؛ وكان يحنى رأسه احتراماً لإجابتي عن أسئلته البسيطة؛ وأحس بسعادة بالغة للقاءه إياي؛ وقد بدا لي أن ذلك الرجل المسكين كان يتعجب من أن تعليم الأساتذة الأجانب لم يكن تعليماً مظلماً أو صعب المنال!

في تلك الأيام الأخيرة، كان ذلك الحكيم البسيط قد قام بتطعيم كل أطفال البلدة: اعترف، أن كثيراً من الأطفال يموتون بهذه الطريقة - ولكنه سبق له أن قرأ أن التطعيم بجدرى البقر [العذاب el-athab] الذي يستعمله النصارى لا يتسبب في وفاة أى طفل من الأطفال! بعد أن استمع ذلك الرجل إلى، قال: سوف يراقب صباحاً ومساءً الأبقار وهي ذاهبة إلى المرعى في الصباح وعائدة منه في المساء، وسوف يتم ذلك من بوابة من بوابات البلدة؛ ولعله يصادف أو يعثر على ميكروب الجدرى على ضرع واحدة من تلك الأبقار. [وكان العم محمد قد بحث عن ذلك الميكروب من قبل، ويون طائل في خير]. - أشرت على الشيوخ بإيفاد ذلك الرجل المحترم إلى الشمال، كيما يتعلم فن الصالح. العالم؛ وبالتالي يتمكن من تطعيم الناس في هذه الأجزاء من نجد. وبالرغم من إرهاق الشديدي، عرضت عليهم أن أسافر أنا بنفسى إلى بغداد،

إذا ما استطاعوا أن يوفرُوا لى ناقة، على أن أعود إليهم ثانية ومعى الطعم المطلوب. ولكن الرغبة أو الأمل فى المصلحة العامة لا يمكن أن تحرك أهل الجزيرة العربية أو توحدهم: هؤلاء الناس لا يُقدِّرون مطلقا الفكر الإنسانى الاحترازى الذى يرون أنه يشك فى العناية الإلهية. صحيح أن دينهم يحثهم على التداوى، - الذى أوجده الله فى الأرض لخدمة الإنسان ؛ ولكنهم لا يمكن لهم أن ينجوا من الطاعون أو الوباء. بعض التجار الأجانب سبق لهم أن جلبوا معهم ذلك الطعم إلى بلادهم. - وهذا هو ما فعله عبد الله البسام فى العام الماضى ؛ ومع ذلك فإن ذلك الطعم لم يتجاوز جدران منازلهم . - سمعت كلمة جديدة وردت على لسان البسام (وربما جاء بتلك الكلمة من الهند)، " قال: ماذا نفعل فى أرض ليس فيها إلا الديانة dianat المحمدية el-Mohammedia بمعنى 'الدين الإسلامى'؟ والتى اعتاد الناس فيها على أن يطلقوا على تلك الديانة اسم دين din الإسلام. el-Islam " - صاح الكنىنى قائلا: الهند "مشهد عظيم من الأديان!"

قال العم محمد فى خير هو وبعض البدو، إن هناك مرضا يصيب الإبل يشبه ذلك المرض الذى عرفوا منى أن اسمه جدري البقر، الجدري سريع الانتشار . ذات يوم وجدت مضيفتى الزنجية الشابة تولول؛ فقد أحضرت طفلها الصغير وقد أصابه إعياء شديد، عندما كان يلعب فى القاع Ga : وبالتالي مرض طفلهم الآخر. - أنا لن أبقى فى ذلك المكان الضيق، حتى لا أتنفس الهواء الموبوء؛ ولكنى، تركت أشياءى ، وأمضيت الأيام التى تلت ذلك اليوم فى الشوارع: وعندما كان يحل على الليل كنت ما أزال صائما، ولا أعرف أين سأنام. ولكن خطر ببالى، أن مسألة إصابتي بالمرض هنا، يمكن أن تفوق كل الأخطار والمصائب الحالية. لم يكن أحد يعرض على أو يعزمنى على الذهاب إلى بيته ؛ وعندما غلبت على أمرى فى المساء - والناس هنا يطرقون الأبواب بطريقة إيقاعية - فقد قصدت باب مريض من مرضاى، كنت قد سبق لى أن أهديته شيئا من الدواء، وطرقت الباب، وعندما سمعت صوتا قادمًا من الداخل يقول أجلط ugglot بمعنى 'أدخل! دخلت البيت؛ وطلبت ممن كانوا فيه أن يتركونى أنام على أرض الكوخ [المفروش بكمية كبيرة من رمل النفود] . هذا يعنى أن الناس لن تلاحظ أن الكنىنى يأوى نصرانيا: وأنا لم أكن قد شكوت همى للبسام. يضاف إلى ذلك أنى كنت

أتحسب لعطف وحنان أولئك الأصدقاء الذين هم من الجزيرة العربية؛ وذلك حتى يمكننى الاستفادة من ذلك العطف والحنان فى ساعة الضرورة القصوى.

كانت شرفة سطح المسجد المفروشة بطبقة سميكة من الرمال، والمكان الذى ينام فيه الغرباء الذين يفدون على عنيزة، وكان ذلك المسجد يجاور الدكان الذى كنت أمارس فيه الطبابة، ولكن ما هى قدسية المسجد التى يمكن أن تحمىنى أثناء النوم؟ والناس هنا أيضا يعبدون الله بقوة السيف. - ولكنى عند هذا الحد توصلت إلى مخرج لم يخطر على بالى من قبل : كان هناك رجل، ممن استعملوا أنوبيتى ؛ كان ذلك الرجل قليل الكلام ، حاد النظرات، ملون العينين ، ولكنه كان ولد لأم طيبة ، - أرملة ، كان لها دكان تبيع فيه كل الأشياء، وكنت أشتري الخبز منها فى بعض الأحيان . كان ذلك الرجل يعمل بائعا فى سوق القماشين، وكان من تلك القلة، إضافة إلى الأمراء وأبنائهم، الذين كانوا يحملون سيوفا فى عنيزة؛ نظرا لأنه كان من الضباط العاملين مع زامل. قال لى: " أنا أسف لك يا خليل لأنك ليس لك مسكنا تقيم فيه؛ هناك منزل خال قريب منا، فهل تأتى معى لنتفرج عليه؟" - وبالرغم من أنى وجدت أن ذلك المنزل كان عبارة عن غرفة أو غرفتين غير مكنوسيتين ومبنييتين من الصلصال ، إلا أنى انتقلت، فى اليوم نفسه إلى البيت لأقيم فيه: وكان ذلك الرجل هو وأمه جارين طيبين. مع مطلع كل صباح كانت والدته الشاب تحضر إلى خبزها مخمورا، ومعه قليلا من شرش اللبن وشيئا من الزبد، كما كانت تملأ لى قرية مائى: وعند غروب الشمس (وكانت تعرف ذلك تماما - نسيانى الذى لا علاج له - أكون قد نسيت شراء أى شىء من المؤن أو الطعام؛ ويكون السوق قد أغلق أبوابه وانفض)، كنت أجد هذه الأم الطيبة قد أعدت وجهزت للغريب وجبة من القمح فى منزلها، نظير مبلغ ضئيل جدا؛ وفى بعض الأحيان لم تكن تقبل أجرا على ذلك! ولا بد أن ذلك كان بترتيب سرى من زامل . هذه السيدة المسنة كانت تجلس أمامى كاشفة الوجه، وكانت تعاملنى كما لو كنت ولدها: كان وجه هذه المرأة هو الوحيد الذى شاهدته فى وسط نجد، - والبنت الصغيرات اللاتى فى مرحلة الطفولة غير محجبات هناك.

دعيت إلى منزل آخر لواحد من آل البسام المتشددين. كانوا يطلبون نواء لشخص كان يسكن معهم؛ شخص، قيل إنه، يستعد لأن يكون "عالماً" وقيل أيضاً إنه هارب (من عائلة أمير بريدة السابق). رب الأسرة هذا لم يسمح للحكيم بالجلوس؛ وصب له فنجالاً من حثالة القهوة الأخيرة، - كان يجلس في ذلك المكان، ضيفهم، ذلك الرجل الضخم الذي كان يرتدى رداء بنى تميم، كان ذلك الضيف صامتا لا يتكلم؛ وأشاروا لى بأنه يريد نواء منى. صحت فى أذننى ذلك الرجل، وذلك من باب احتقارى وازدراى لأسلوبهم فى التعامل، "هل تسمعنى؟ ما الذى تريده منى؟" أشاح بعينيه ناحية الأرض مخافة أن ينظر إلى الكافر تساءلت، "هل هذا رجل أصم؟" - الناس هنا يجفلون عندما تفاجئهم بالتحدث إليهم، من منطلق أنهم هنا يعرفون أن الفرنجة يتفوقون عليهم من حيث الحماسة وقوة الروح. نظر ذلك الفلاح إلى الأعلى نظرة فيها المزيد من الاعتدال، ومع ذلك لم يكن على استعداد لاستئناف الحديث أو الكلام مع واحد من الوثنيين؛ ولكنى عندما ملت على على الزنجى الذى أحضرنى إلى هنا، كلفه ذلك الفلاح بصوت خفيض، أن يسأل، هل لدى النصرانى نواء للباسير؟ - صاح الزنجى معلناً ذلك الكلام على الحاضرين! رد المتحذلق واجم الوجه قائلاً: "كفى"؛ وبعد أن عدل أحزمته المصنوعة من الجلد، عادت روحه الخبيثة إلى تأملها الطويل، عند بوابات جنة مكأوى Meccawy . - ونحن فى مثل هذا الهرم والخرف لا نجد أى شكل من أشكال الحقيقة! تلك الحقيقة التى تلتصق بطبيعتنا إلى حد أننا نعرفها، حتى من خلال الحجاب الممزق؛ مثلاً يعرف الطفل أمه.

(...)(*)

العقائد السامية متباينة ومتنوعة. والدين المسيحى - الذى هو تأديب للروح التى تدفى نفسها بالحب الربانى - كان يتمنى لو يطوق العالم الإنسانى بذراعيه، رابطاً الناس جميعاً بأخوة واحدة مع قبلة بكر من قبلات التواضع والإحسان. سلسلة الأشياء

(*) صفحة كاملة بها آراء فيها تهجم واضح على الدعوة الإسلامية ومساس بالمقدسات الإسلامية رأينا استبعادها بون إخلال بالسياق العام . (المراجع)

الإسلامية سريعة التصديق تبهج الروح، وتنتشر بينهم تفضيل الله للمسلمين وحدهم؛ وتخرج صواب الرأي (...) (*) لكل الدنيا الموجودة إلى جوارها. - دين الجزيرة العربية القائم على السيف لابد من تخفيفه وتلطيفه بالسيف: ولو قدر لابنة مكة والمدينة أن تقعا فى الأسر فإن المسلمين سوف يتعين عليهم أن يصبحوا مثل اليهود! الإنسان يمكن أن يكون مسلما بحق ، بالرغم من أنه يمضى حياته فى الخلاء (الصحراء) بلا معلمين (علماء). فى البلدان هناك علماء دين - ولكنهم ليسوا قساوسة يتعاملون مع الأسرار : وليس بينهم إكليروس. محمد (ﷺ) مجرد رجل، رب أسرة ، والد عائلة؛ ودينه دين حقيقى : كما أن شعب محمد (ﷺ) يمشون فى طريق كبير، ملئ بعطر اللحم البشرى الطاهر؛ يضاف إلى ذلك أن الجدل الذى يدور بين الطبيعة الحسية وفكرة الربوبية لا يترتب عليه أى خطر أو مضاعفات فى قلوب هؤلاء العلماء المسلمين . - الإنسان نفسه مؤله فى أوروبا الوثنية؛ وكل عمر يفرز أبطالا رباتيين . ما الذى نطلبه أو ننشده نحن من الدين ؟ - أليس هو القانون الكامل للإنسانية؟ - تضميد الجراح، وشفاء أورام والتهابات الحياة الإنسانية؛ وهو المسار الذى نسلكه للوصول إلى السماء (الجنة).

- إذا ألقينا نظرة على الموروث الدينى لبنى إسرائيل، من أرض الصحراء، قد نتصور نشوء ذلك الموروث فى أسرة أيوب، أى من منطلق رؤية البدو الساميين الرُّحل للملوك Meluk . قد نقرأ عن الختان عند كل من هيرودت Herodotus وموسى (ﷺ) وعن خرافة اللحوم، وعن استغلال القساوسة لظلم الإنسان للحيوان ، وقد نقرأ أيضا عن تنظيم الإكليروس: تلك كلها كانت عادات المصريين. صيحة الأنبياء العبرانيين المريرة انتعشت فى كل جيل من الأجيال، وأدت إلى استمرار الموروث (الموسوى) ،الذى أرسى داود أسسه فى النهاية، ولكن الفضيلة، والعدالة والطهارة تنشأ بطبيعة الحال فى الضمير الإنسانى؛ هذا يعنى أن الفضيلة، والعدالة والطهارة إنما يجرى إقراضها للأديان: التى تكون الربانية والعدالة الإنسانية فيها، فى معظم الأحيان، مفترقة على نحو يجعلنا نفكر بعمق فى عصر حجرى فى سمائهم المزعومة!

(*) عبارة تم حذفها بها تعبير غير لائق عن المسلمين .

تلقيت دعوة لزيارة أسرة وهابية أخرى ؛ استقبلت الحكيم استقبالا كريما . رب هذه الأسرة، وهو من ملاك الأرض ، كان لديه أبناء كبار، وسمى نفسه أمامى باسم الشيخ Sheykh محمد: ولكن واقع الأمر أنه لم يكن شيخا ، ولكنه حسبما قال لى الأصدقاء (بحكم غيرتهم من مهابة المشيخة) من min خلق Khulk الله ullah ، بمعنى 'من مخلوقات الله' أى إنه كان مجرد فرد عادى من الناس . كان الشيخ محمد، الذى له بيت كبير فى المدينة ، يكاد لا يبصر ؛ إضافة إلى أن أولاده كانوا مرضى . [وعندما طردونى بعد ذلك من عنيزة، أرسل لى الشيخ محمد أربعة بنسات، ثمنا للدواء، ومن باب إراحته لضميره!] كان الشيخ محمد يعطينى كلاما حلوا وأنا جالس فى صالته : "يا خليل ، أنا أنظر إليك باعتبارك واحداً من أبنائى: ألا تستطيع فى الوقت الذى أنت فيه معنا هنا، أن تجعل نفسك تتوافق مع ديننا، دين الإسلام؟ - أنا أعلم أنكم شعب الإنجيل ، وتعبدون الله، ولكنكم لا تعبدوه مثلما نعبده نحن؛ قل محمد Mohammad رسول Rasul الله، Ullah! وادخل فى زمرة المسلمين . وعندئذ سوف يتمنى لك الخير كل أولئك الذين هم مبتعدين عنك حالياً؛ كما أنك سوف تحصل على ما تطلب، وليتك تبقى معنا هنا وتؤدى فريضة الحج معنا ، أو تواصل رحلتك إلى بلد آخر . " - كانوا يراقبونى بأطراف عيونهم الزائغة؛ عندما كنت أرد عليهم قائلاً: "كل مخلوق رسول ra-sul الله Ullah! ."

ذهبت ذات صباح لتناول الإفطار فى ذلك البيت؛ وكان الشيخ محمد قد عزم نديما له اسمه أيضا محمد، وكان واحدا من القماشين فى سوق القماش ؛ وكانت أمه تعاني منذ سنوات من ألم حاد فى أعصاب الوجه. ذهبنا بعد الإفطار لفحص المريضة، وتركت لها بعض الأوراق التى تحتوى كل واحدة منها على شىء من مسحوق اللودانوم. وفى ساعة متأخرة من نهار اليوم مررت على دكان محمد؛ وأبلغنى أن أمه ابتلعت الأوراق كلها دفعه واحدة! - طلبت منه أن يسارع عائدا إلى المنزل على الفور ؛ وإذا ما وجد أمه نائمة يوقظها ويعطيها دلة قهوة كاملة ويحثها على شرب الدلة كاملة! - "يا خليل ، در بالك على الدكان أثناء غيابى !" - وانطلق الرجل إلى منزله. كنت أخشى من حدوث أسوأ العواقب ؛ ولكن سرعان ما عاد إلى ، وهو يقول (مما شرح صدرى وأراحنى) :

إن والدته على ما يرام . وراح الواقفون يهتئون تاجر القماش ، الذى كان صليب الرأى إلى حد ما لإصراره [أن عرب الواحات يتمتعون بخفة ظل نكدة] على أنه كان يمكن أن يكون سببا من أسباب تسمم أمه!

ذات صباح أرسل الشيخ محمد فى طلبى بصورة مفاجئة! - وجدت بدويين جالسين فى مقهاه ؛ قال الرجل: "يا خليل، وردت رسالة تطلب إليك الذهاب إلى بريدة ؛ وهذان هما الرجلان اللذان سوف ينقلانك إلى هناك، وهذه هى الرسالة التى وردت من عبد الله (الأمير). - وليأت واحد منكما بالقرب منى هنا يا أولادى ! وقرأ هذه الرسالة على خليل. "كتب عبد الله - بعد تحيتهم الرسمية - نسمعوا فى بريدة أن أهل عنيزة وجدوا أن أنوية النصرانى مفيدة؛ وكان يود من الشيخ محمد أن يقنع النصرانى بالعودة إلى بريدة بصحبة المراسلين؛ كى يعالج عينى شقيقته، ويفحص بعض الأشخاص الآخرين. رددت عليه ، كنت فى بريدة، وهم الذين أبعدونى عنهم؛ كما أن عبد الله ، كان سببا فى التخلّى عنى فى الوادى ! " [أنا لن آمن على نفسى مرة ثانية، فى بلد يعد الشيوخ المغتصبون فيه هم أسوأ المواطنين.] كان الرجل كبير السن يحرضنى ويحضنى كما لو كان له سلطان على؛ وقال البدويان (بطريقتهم الآسيوية) : "قف وانهض الآن يا خليل ! واركب معنا . أخ! والله سيعطونك نقوداً كثيرة: سيكون عبد الله حانيا وشفوقا عليك." قال الشيخ محمد: إى ، ثق بى يا خليل ! ما عليك إلا أن تذهب معهما. " وسوف تحمل معك رسالة من زامل تطلب إليهم أن يعيدونك إلى عنيزة مرة ثانية فى غضون فترة محددة. " - "لعل شقيقة عبد الله تأتى إلى هنا ؛ وسوف أعالجها هنا فى عنيزة. " - "يا خليل، أنا أضمن لك، أنك سوف تكسب ثلاثين ريالاً، فى أضعف الأحوال ، من هذه الرحلة!" - "وأنا لن أعود إلى بريدة، حتى ولو أعطونى ثلاثين فرساً، وإلى اللقاء."

فى صباح أحد الأيام كنت فى بيارة نخيل واحد من الأصدقاء ، وذلك أثناء طلوع الشمس: وكنا جالسين تحت أغصان كثيفة من شجرة من أشجار الرمان. وأدى نسيم الصباح العليل القادم من النفود إلى إعمال العقل فى أفكارنا وتأملها؛ ففى هذا الجزء

من الجزيرة العربية ، هنا فى وسط هذه الصحراء الشاسعة، كان يسود الخطاب الأخوى والنزاهة والحيدة، مثلما هما فى أوروبا تماما!" قال صديقى: يا خليل إبنى أتعجب وأدهش، - أنا أشعر بالضيق والاستياء إزاء تشدد الناس وتعصبهم! ما هذا؟ " - "إنهم يعصونى فى مسألة الدين ! ولكن من الذى يشهد لنا فى هذه الأشياء؟ الأشياء التى تتعلق بالعقيدة، والأمل والسلطة التى لا تقوم على أرض صلبة وثابتة." - "وأولئك الذين ينشرون الأديان ويدعون لها كانوا مدفوعين إلى ذلك طمعا فى الدنيا (طمع toma الدنيا ed-dinya) ! " - كل دين من الأديان ، حتى وإن كان فى الماضى وليد الضمير الإنسان ، إنما يكون ناتجا عن احتياجات الإنسان ، والتعبير عن هذه الاحتياجات الإنسانية هو الدين الحقيقى ؛ ونحن سواء عبّرنا عن إعجابنا بالوحدة المطلقة، أو الأب الأبدى السرمدى لكل القوى والحياة، أو إله المرئى والخفى أو (بمعارف روحية موجزة من هذا القبيل) إنما نحنى ركبنا للسيادة الربانية المتشعبة فى كل من الأرض والسموات والأمم تتمسك بأديانها - وهذا صحيح [فى بلدانهم] الذى يقوله كل إنسان : 'وبالرغم مما سبق ذكره فإن حقيقة الأشياء المزعومة لا يمكن توضيحها على هذا الجانب، بوابة الموت. كل إنسان سوف يتمسك بأمله، وسوف يرحل إلى خليج الخلود والسرمدية فى العقيدة المشتركة؛ - وهذا من وجهة نظر الرؤية الأكثر وضوحاً قد لا يكون سوى جدل مظلم يثير الدهشة والاستنكار . ولكن هيا بنا ندخل مبنى معبد العلم الذى لا يدمر، والذى يمكن أن نعثر فيه على الحقيقة." - "إخص ! حقيقة إنهم يمكن أن يضطهدوك: وهل هناك مثل هذا الحقد والكراهية فى الجنس البشرى ! " - "ولكن قل لى: ما الذى يجعل هؤلاء الناس الكفرة والمخادعين يرتبطون بالدين على هذا النحو؟" - "أعتقد أنه الخوف من النار (من جهنم) هو الذى يدهش قلوب هؤلاء الناس! على امتداد حياتهم." - "أليس الموت 'نهاية لكل الشرور؟' ولكن طبقا للعقائد التى من هذا القبيل فإن ذلك العزاء المر الأخير يسحب أيضا من البائسين!" - النار هى القسوة الربانية فى الأديان السامية ! Semitic .

عندما عدت إلى البلدة ثانية، تجمع العاطلون من حولى فى الشارع ، ووقف زميل لطيف من الناس كى يحكى لى الحكاية التالية. - "عندما كنت أمارس التجارة

فى العراق ، كانت لى معاملات مع واحد من اليهود ؛ والذى كان ينعتنى ، كلما كنا نتحدث سوريا بكلمة ، أخوى 'akhuy بمعنى ، شقيقى! ولكنى فى يوم من الأيام صحت قائلاً: أعوذ بالله من الشيطان ! هل أنا ، شقيق ليهودى ؟ ورد على اليهودى ، 'لهذه الكلمة ، فأنا عندما سأراك فى النار (عذاب جهنم) فلن أحضر لك ماءً!'. وهذه هى الثقة، أيها الأصدقاء، التى يعلقها الناس جميعاً على الدين الذى ولدوا عليه. أمل ألا تنهز وتلوم أى غريب من الغرباء ! فلهم دينهم ولنا ديننا. وأنا أقول : إنكم لا تتصرفون جيداً عندما تلاحقون النصرانى بكلامكم غير المتحضر : أليس خليل موجود هنا على مرأى ومسمع من الشيوخ؟ يضاف إلى ذلك أن تلك الأتوية التى يوزعها مفيدة للمسلمين.

تزايد الجدرى وانتشر فى البلدة: وبلغ عدد الوفيات ثلاثين طفلاً. كان أولياء الأمور الذين كانوا يستدعوننى لفحص أطفالهم يعجبون عندما يرون الحكيم يتحاشى تنفس هواء الغرف الموبوءة؛ - والسبب فى ذلك أنهم سمعوا منى، أننى سبق تطعيمى ضد الجدرى ! ويشيع بين الناس هنا فى هذه الأجزاء من نجد، مقولة مفادها: 'أن الإنسان إذا ما جرى تحصينه ضد الجدرى ، فإنه لا يمكن أن يصاب بالعدوى مطلقاً'. وهم يقولون أيضاً: 'إن كل تلك المئات التى جرى تطعيمها بواسطة أبو فارس، أى قبل ثلاثين عاماً، لم يصب أى أحد منهم بذلك المرض: ' - ومن حسن الحظ أن ذلك الطعام يستمر فترة طويلة فى أجسام أهل الجزيرة العربية. أثناء عودتى فى إحدى الأمسيات ، التقيت ولداً صغيراً فى الشارع، - وقال لى بنغمة حزينة: صل Sully على ala ها الغرادة halghrada بمعنى 'صل على هذا الميت'. كان ذلك الطفل يحمل لفافة، بين ذراعيه ، ومتجها صوب المدفن! - فى ذلك الوقت كان هناك خمسة أو ستة أطفال يموتون كل يوم : وفى النهاية 'لم تنج أسرة واحدة من ذلك الوباء'. كان الناس هنا يرفضون أى بواء فى حالة الإصابة بالجدرى. ولما كان الابن الوحيد لواحد من أصدقائى، قد أوشك على الموت ، وكان بوسعى أن أعطيه شيئاً من البواء ولكن والده رد على، 'قد يرضى الله ، وينقذ هذا الطفل هو وعينيهِ'. وخلال يوم أو يومين توفى ذلك الولد: وعندما التقيت ذلك الوالد المكبوم فى الشارع، قلت له : 'هدى من روعك!

سيعطيك الله ولداً آخرًا ؛ وهل مات الطفل؟ - أه! لقد دفنته بالفعل، - لقد ذهب إلى خالقه!

اقتادنى شاب صغير فى عصر أحد الأيام إلى بيت يقع خارج البلدة، لكى أفحص ولد شقيقته المريض؛ كان والد ذلك الطفل من أقارب عبد الله الكينى . وفى الطريق قال لى ذلك الشاب: "أسكن هنا (فى عنيزة) وسوف نوفر البيت اللازم لك ؛ ولتكن والدًا لنا." كان ذلك هو حامد Hamed إلحى Eel-Yahya - الإبن الثالث للوطنى إلحى. وصلنا إلى بيارة من بيارات النخيل وفيها منزل ريفى؛ فى البيت جرى استضافتى بعد ذلك مرات عدة ، وكانت ترحب بى يوما تلك الأسرة التى كانت من أسر أعيان المكان. هذه البيارة التى لم تكن مساحتها تزيد على فدان وربع الفدان ، كانت هى بمثابة الثروة الكاملة التى تمتلكها تلك الأسرة: هذا الفقر النبيل كان كافيا لأن يقوم ذلك الوطنى العجوز، بتنشئة تلك الأسرة التى ليست بالصغيرة تنشئة كريمة. رحبت أم ذلك الشاب الصغير بالحكيم عند بوابة البيت، وجاءت وهى تحمل على ذراعيها حفيدا مريضا أشقر الوجه. - لم أر سلوكا أموميا مثل هذا السلوك ولا حتى سيدة مثل هذه السيدة، فى واحات الجزيرة العربية! كان إلحى قد وصل بزوجه إلى هذا الحال ، لأنه لم يرض أن تكون لأولاده سوى أم واحدة فى هذه الأسرة الواحدة. وراح الكينى يتجول هنا وهناك ويعظم من شأن ذلك الشفاء أمام أصدقائه ومعارفه. أخذنى حامد إلى والده، الذى كان جالسا فى التعريشة: هذا السيد - الذى هو حاليا رجل عجوز أحناء الدهر، ويكاد لا يبصر، نهض من مكانه ليحى النصرانى؛ ولكن الأم والابن ابتسما (ابتسامة مفتعلة بعض الشيء) للغريب ؛ وكأنهما كانا يعتذران عن العجز الذى أصاب ذلك الرجل المحترم. كانت سلطة إلحى ما تزال تُسير الأسرة: يضاف إلى ذلك أن أبناءه تشجعوا ، وكانوا ينفنون الكثير من أقوال والدهم.

وجدت فى أولئك الأصدقاء الجدد أسرة الجزيرة العربية بحق وحقيقة : لم يسبق لهذه الأسرة السفر خارج مدينتهم أو إن شئت فقل بلدهم ، اللهم باستثناء الحملات العربية ، وكذلك الذهاب للحج فى مكة (المكرمة)؛ لم يسبق لتلك الأسر أن امتدت يدها

إلى التجارة والاتجار. ولكن يحيى العجوز كان وطنيا بحق، وشيخا أيضا من شيوخ الخريسي Khereysy ، تلك الطائفة (المسالمة) من أهل مدينته [متلما هو الحال في الواحات كلها] ؛ هذه الطائفة المسالمة ، أو إن شئت فقل: الخريسي ، تعد واحدا من بين ثلاث مستويات في معركة الرجال في عنيزة. وقد وصل ولده الأكبر عبد الله إلى المكانة والاحترام نفسه؛ وعبد الله هذا ابن ليحيى من زوجة سابقة [انظر ص ٣٧٧]، وهى فى هذه الأيام من رفاق زامل؛ وبدون عبد الله اليحيى، لم يستطع زامل فعل أى شىء فى عنيزة . هذا الشيخ الشاب يعمل تاجرا فى الإبل. - فى أسرة اليحيى لم يكن هناك متسع للتعصب : وكان صوت ذلك الوالد المحترم يعلم أطفاله ويعلم الآخرين أيضا أن، "خليلًا من أتباع المسيح وأن كتابهم هو الإنجيل، الذى هو أيضا كلام الله."

ذاع صيت أدويتى فى عنيزة: أم الكتينى - العزيزة عليه جداً، شأنها شأن أمهات الجزيرة العربية عند أبنائهن - شفيت وكانت سعيدة بشفائها ؛ بل إن ذلك الرجل نفسه أُرْدِفَ قائلاً: ' وأن التكلفة لم تكن كبيرة جداً ، بالرغم من أنه اقتسم كل ما كان لديه مع خليل !' - وأهل نجد متيمون بالقهوة، وهم يتفقون فى ذلك على كل سكان الشرق. كان واحد من مُصَلِّحِي القهوة صديقاً من أصدقائى ، وأن ذلك الرجل من خلال تنوقه للقهوة قبل صيها ، كان يشرب ما يقرب من "ستين" فنجالاً فى اليوم؛ يضاف إلى ذلك، أنه كان يزعم أنه كان يدخن "عبداً كبيراً" من غلايين التبغ. طلبت من ذلك الصديق أن يقلل شربه للقهوة بمعدل عشرة فناجيل كل يوم من أيام الأسبوع؛ ونفذ ما قلته له وأكثر . " تعجب الرجل، النصارى لديهم حكمة طبيعية بحق ! هذه الحكمة أكبر من حكمة المسلمين . خليل يستطيع العلاج بلا نواء: وأنتم ترون فى هذا علاج سهل وبواء كامل ، وهو لا يكلف الإنسان شيئاً!"

أُضِفَ إلى ذلك العقاقير والأدوية الإنجليزية يجرى جلبها من الهند إلى مدينة القوافل والعاملين فيها - ضمن تجارة الخليج. وصفت لمريض بالرئة زيت كبِد الحوت؛ وعثر فى اليوم نفسه على زجاجة من هذا الزيت نفسه فى السوق! ولكنهم يعتقدون أن شرب ذلك الزيت لا يكون مناسباً فى أشهر الحر. كانت بداية مرض ذلك الرجل عبارة

عن قشعريرة: فقد فاجأه مطر غزير في النفود، وترك ملابسه المبتلة تجف على جسده. ومرض الالتهاب الرئوي يبدأ أو يتولد عن قشعريرة - وبرودة الصباح ، التي تهبط على - أولئك الذين ينامون في العراء؛ ولكن هذا المرض لا يشيع في هواء صحراء نجد. هذا المرض أصاب الكينيني بون أن يصاب بالسعال ولكنه أخفى ذلك عني : فقد أمضى ذلك الرجل بعد أن ضاق صدره، سنينا طويلة منذ بداية شبابه، في مناخ مداري رطب. - التقيت هنا أيضا مريضا مصابا بالصرع؛ ولم أر غير هذا المريض سوى رجل آخر في الجزيرة العربية كلها. كان ذلك الرجل من بين السود الذين في خير. صادفت مريضا آخر ليس لمرضه وصف في كتب الطب الجديدة؛ كان الرجل "مسحورا" Fascinated . أعرب عن حزنه وهو يقول : "إنها نفس nefs بمعنى روح تتملكني وتحاصرني؛ " وأضاف، ' أن هذا أمر شائع في هذا الجزء من البلاد - إنه من عمل الحريم عن طريق المماريب الخرافية اللاتي يحسبن أنها تولد الحب والعشق، وكذلك المماريب الإجرامية والضارة. - " هناك، هناك! (يصيح الرجل) ، أنا أرى سحرها وشعوذتها ! وهي يوما على هذه الشاكلة أمام عيناى. هذه المرأة كانت زوجتى، ولكنى طلقته في العام الماضي؛ وأنا أعيش في خوف، فقد أعطتني شيئا أشربه؛ وسوف يسوء حالى يوما بعد يوم، على امتداد بقية حياتى. الشبح دائما في رأسى، حتى عندما أتمشى خارج البلاد، - والله ونحن جالسين هنا أراها وهي تسحر وتشعوذ ! " هذا الرجل المسكين، الذى يستحوذ عليه الخيال والتهيئات ، والذى كان يخدم الكينيني يوم أن كان فى البصرة، مصاب بالاكئاب الشديد: كانت فنتازيا حزن ذلك الرجل مثارا للمرح (السرى وليس العلنى) من حامد البغدادى والأصدقاء الصغار.

شاهدت بالفعل علاجاً جاهزاً، فى الشرق، للأشخاص المخبولين، ويجرى ذلك العلاج فى ظل الدين. قبل ذلك بسنوات عدة وعندما كنت أتحول فى أعالى لبنان نزلت إلى وادى عميق - اسم ذلك الوادى بلغتهم هو وادى Valley القديسين Saints ؛ وفى ذلك الوادى توجد كنيسة كبيرة من كنائس الدين السورى. الأخوة المساكين فى الدين هنا يصل عددهم إلى مائة وعشرين فرداً: منهم خمسة وعشرين قساً؛ والبقية لا تعيش حياة سهولة وفراغ ، مثل الحياة التى تخلى عنها الكادحون؛ كل واحد من هؤلاء البشر

يعمل بيديه إسهاما منه فى الحياة المشتركة التى يحيونها فى هذا المكان ، - الغالبية من هؤلاء البشر هم من المزارعين . إشراقة الشمس ، فى كل صباح، هى التى تدعو هؤلاء الناس إلى الذهاب إلى حقولهم؛ وفى تلك الحقول، يخلو المتدينون إلى أنفسهم ويدخلون فى سنة من التأمل فى قدرة الله (سبحانه وتعالى). الحرفيون من بين هؤلاء الناس هم الذين يبقون فى البيت ، وهؤلاء الحرفيون هم على وجه التحديد صناع الأحذية، وأولئك الذين ينسجون تلك الوشاحات السوداء التى يرتديها الرهبان المتواضعون؛ بعض آخر من هؤلاء الرجال يخدمون فى المطبخ ، حيث يقومون على تحضير الخبز المطلوب للدير، كما أنهم هم أيضا الذين يطبخون الطعام البسيط. أما القساوسة فيبقون ، لأداء طقوس العبادة ، فى الساعات المحددة. وعندما يدق جرس الكنيسة، يتوقف أولئك الذين يكونون فى الوادى الموجود أسفل الدير، يتوقفون برهة قصيرة، عن العمل القائمين به، لأداء الطقوس الكنسية أو إن شئت فقل: الصلاة الكنسية. الدير عبارة عن كهف كبير مسور موجود فى باطن الصخرة. ومن غروب الشمس إلى غروب الشمس، وبواقع ست مرات فى اليوم الطبيعى المعتاد، تدق الأجراس لتنبيه الناس إلى مواعيد العبادة: وينهض الأخوة عندما يسمعون صوت الجرس فى جوف الليل، ويتجمعون من أجل أداء الصلاة فى الكنيسة . - وشهور الشتاء تكون قارسة البرد مع هذا الارتفاع الذى يوجد عنده. الدير: والشمس وهى تتحرك خلف قمم ذلك الوادى من هذا الجانب ، لا تسطع عليهم سوى ساعة واحدة. هؤلاء المتدينون لا يأكلون اللحم ؛ والغذاء الذى يعيشون عليه هنا هو الخبز والزيت وأعشاب السلطة، أو إن شئت فقل: الأعشاب التى تؤكل؛ وهم قد يشربون اللبن ويأكلون البيض بواقع مرتين فى الأسبوع . وفى المنخفض الموجود أسفل الدير هناك نهر صغير ماؤه بارد مثل الثلج (هذا النهر ينبع من فوق منطقة أشجار الأرز) وهو الذى يدير الطواحين الخاصة بالدير : البعض من الناس المقيمين هنا فى الدير يمتهنون الطحن؛ كما أن هناك بيتا من الصلصال (اللبن) ، يستخدمه، فى فصل الربيع، بعض من أولئك المتدينين فى تربية دودة القز.

خلايا الدير ليست سوى جدران ليس إلا ، وفى كل واحدة منها نافذة صغيرة مفتوحة ، وأرضية كل خلية من الصلصال وعرضها حوالى اثنى عشر قدما: والذين يعيشون فى هذه الأروقة أناس مساكين، من أصحاب الحواس التى لا تعرف شيئا عما فى هذا المجتمع. هناك ناسكان، يقع مسكنهما بين الصخور فى وادى الحجر الجيرى المعتم: هذان الناسكان يصليان دوما، والذي يحمل إليهما طعامهما عند الظهيرة كل يوم، هو واحد من الرهبان المبتدئين. - وجيل لبنان فيها ثلاثين ديرا من تلك الأديرة: ومن بين هذا الجمع الكبير من الأخوة، وعلى حد قول الناس هنا، يوجد رجلين مباركين يقال إنهما من أصحاب المعجزات. وهناك شماس صغير، جرى ترقيته مؤخرا إلى قس، تتمثل مهمته فى دراسة الأغراب والوفاء بما يطلبه (الزائرون) الغرباء؛ هذا الشماس عندما رأى أعانى من الروماتيزم فى فصل الخريف فى هذه الأماكن المرتفعة، حثى بشيء من التواضع المشوب بالحب، على زيارة واحد من القديسين، الذى لا يبعد ديره عن هذا المكان سوى مسير خمس ساعات فقط، وأنه سوف يطلب من رئيس الدير الموافقة له بمرافقتى فى تلك الرحلة. كان واحد من هؤلاء الناس المتدينين يعالج كل أنواع الأمراض والضعف والوهن؛ قال له، شخص آخر منهم : أنه أعاد الميت إلى الحياة؛ وحكى لى، عن شخص آخر، أنه تسبب فى حمل كثير من النساء العواقر. قال: إنه تعرف على امرأة عاقر رأت ذلك الرجل المبارك : وأنها، على حد قوله، حملت فى طفل ، قبل نهاية العام؛ ولكن أثناء الرحلة التى حملت الطفل خلالها، إليه لتعميده، مات ذلك الطفل. وفى اليوم الثالث لوفاة الطفل جاءت المرأة إلى ذلك القديس؛ وأعاد لها طفلها الميت إلى الحياة! - ذهب رجلان لزيارة ذلك القديس؛ وكان أحدهما ضريرا : ولكن بينما كانا سائرين فى الطريق أبصر الأعمى! وهنا قال رفيقه: "لماذا نواصل بعدئذ مسيرنا ؟ مالذى نريده من ذلك الرجل المبارك؟" - ولكن بينما كان يتحدثان سويا نزل عليه عمى الرجل الآخر!

لم يكن مسموحا للنساء بتجاوز بوابة الرواق الذى يعيش فيه هذان الرجلان. "تساءلت، أليس هناك صعوبة، أن ينعزل رجل دخل حديثا فى الدين، عن الزواج؟" أجابنى، لا فهذا أمر سهل جدا، إنه يكاد لا يشكل أى عائق على الإطلاق: وأنا أنتظر

إلى المرأة مثلما أنظر إلى عمود من أعمدة البوابة الموجودة هنا. " هذا القس الصغير كان مصابا بالصرع منذ الصغر؛ 'وقال: إنه كان من عادته، أن يخطئ مرة كل يوم، إلى أن ذهب إلى القديس الذى عاش معه طيلة أربعة أشهر؛ وبعدها شفى من المرض. - ورد على أنه لم يكن يقرأ فى العهد القديم إلا نادرا؛ وسألنى، 'عما إذا كان الأب السورى [المعلق على الأناجيل بذلك اللسان (اللغة)] ، والمدعو أفرايم Ephraim الموقر، قد عاش قبل المسيح أو جاء بعده؟ وسألنى أيضا هل كان المعبد الذى بناه (سيدنا) سليمان - بخشب من أشجار أرز لبنان، قبل المسيح أو بعد عصره؟' بالإضافة إلى أنه لم يكن يقبل الفكرة أو التخمين الذى مفاده أن النبيذ كان موجوداً فى الدنيا قبل مجيء المسيح! وذلك لأنه لديه فكرة مفادها أن المسيح صنع ذلك النبيذ بمعجزة فى عشاء من عشاءات الزواج. وهو لم يسمع عن أبناء نوح، ولم يعرف كم كان عددهم، ولا حتى أسماءهم. ولكنه كان يسأل باهتمام بالغ عن سيناء ؛ كما سألنى أيضا 'عن ذلك المكان من العالم الذى يقع فيه ذلك الجبل المقدس، - فى الوقت الحالى؟'

وفى النهاية أرانى ذلك القديس بئرا عميقة، كانت فى فناء الرواق، وقال : إن هذه البئر مفيدة جداً لعلاج أولئك المصابين بخلل فى عقولهم : وأن المريض بعد أن يجرى إخراجهم من البئر، يتأكد أنه شفى من ذلك الخل. - المخبول المسكين يجرى إنزاله فى بئر مظلمة، ويجرى غمره فى ماء شديد البرودة! والذى لا شك فيه أن الخوف الشديد هو والبرودة الشديدة يعملان عملهما فى رأب الصدع فى ألياف السواد الأعظم من العقول المخبولة.

المرضى، فى عنيزة، لم يدفع فقراؤهم أو أغنياؤهم شيئا للحكيم مقابل للخدمات والدواء الذى قدمه لهم! بعض الأشخاص اليسوريين ، بالرغم من إنقاذى لحيواتهم، لم يكشفوا عن الجانب الإنسانى تجاه النصرانى، اللهم باستثناء دعوتى لشرب القهوة فى بيوتهم الخالية من العطف. كنت سعيدا بإعطاء الدواء للفقراء: وبالرغم من أنى كنت أواجه المدينين وأطالبهم بما عندهم، إلا أنى كنت راض عنهم جميعا؛ والسبب فى ذلك أنى من خلال أولئك المدينين استطعت أن أتعلم الكثير عن هذا الجزء من نجد.

كان من بين أولئك المدينين فلاح ممن يعملون خارج أسوار البلدة؛ وبالتالي تهيأت لى فرص الخروج إلى ما بعد أسوار البلدة. - وعلى مقربة من بوابة بريدة، أرانى الجيران جزءاً من سور مبنى من الصلصال يصل سمكه إلى حوالى قامة واحدة، هذا الجزء يمثل البقية الباقية من القلعة التى بنيت أيام الاغتصاب أو إن شئت فقل: الاحتلال الوهابى. عندما وصل إبراهيم باشا على رأس جيش مصرى، إلى عنيزة، قامت مدفعيته بقصف تلك القلعة الطينية طوال الليل؛ ومع طلوع الفجر لم يكن يتبقى من تلك القلعة سوى أكوام من الطين والتراب: وفى اليوم نفسه أجبر إبراهيم باشا حامية بن سعود وقواته على مغادرة المدينة والانسحاب منها.

فى ذلك المكان، توجد قطعة أرض من الحجر الرملى، حولها مالكةا إلى بئر للماء؛ وكانت البئر، التى جرى حفرها فى تلك المنطقة، من عمل عمال الأحجار فى عنيزة. والعمل هنا مضمّن (فى ظل ظروف المناخ الذى لا يطاق) ، إلى حد أن أولئك الذين يكونون فى ريعان شبابهم، ويشدهم الأجر العالى، ويجعلهم يربطون مصيرهم بمصير أولئك الذين يقطعون الحجارة، قد لا يصلون سن الرجولة أو حتى منتصف العمر. والناس هنا يقولون من منطلق الحكمة الدينية: "إن ذلك عقاب من الله؛ وأن الشباب يذنبون بلا اكتراث ، ويسلمون أنفسهم للعمل المفرط." هذا المسحوق الحاد المتطاير عندما يستقر فى الرئتين ، ويروح يقطعُهما ويستهلكهما مثل الزجاج ، فإن كل قوى الطبيعة تعجز عن طرد ذلك الغبار أو إخراجه من الرئتين مرة ثانية. - جاءنى شاب ممن يعملون فى قطع الأحجار؛ كانت لحيته على وشك الظهور، ولكنه كان مريضاً مرض الموت : لم يكن يقوى على المشى مسافة بضع منازل صغيرة، لأن قلبه سرعان ما يلهث فى إثر مجهود من هذا القبيل؛ اشتكى للحكيم قائلاً: "صدرى مكسور!" قال الشيخ نصير : "إنهم يموتون هكذا فى سن مبكرة؛ إنهم يموتون فى غضون عامين أو ثلاثة أعوام."

قصدت بيت ذلك الفلاح ، الذى يمتلك مكاناً جيداً بالقرب من بستان الكينى . وترك الرجل منطقة البئر وهمّ قادماً للقائى؛ وأدخلنى إلى مقهاه بعيداً عن الشمس؛

ثم جلس على الأرض لتصليح القهوة! بعد شرب القهوة قلت له: هذا بيت جيد! وأنا أرى في هذا البيت الريفي نخيلا وأرضا لزراعة القمح فضلا عن الإبل ؛ وهذه هي أكوام كبيرة من حصاد القمح والشعير! جاهزة للدرس: خبرني ما الذي يمنعك من دفع المبلغ الصغير المطلوب ثمنا للدواء الذي أعطيتك إياه؟ - " أخ! يا خليل! أنت لا تعرف طبيعة الحال معنا، أنا أتمنى على الله لو أن كل هذه الأشياء كانت ملكا لي، مثلما هي ملكي من الناحية الشكلية! هل ترى الإبل الواقفة هناك؟ - إن هذه الإبل ملك للبسام؛ كما أن هذا القمح كله تقريبا سيكون لهم وذلك وفاءً مني بقيمة القرض الذي حصلت عليه منهم؛ ونحن يتعين علينا أن نقترض منهم كل عام: ووالله، ما يتبقى لي بعد أن أسدد كل ما على سيكون أقل من القليل. هذه الأرض كانت ملكي ، ولكنها الآن ملك لغيري؛ وها أنذا أصبحت كما لو كنت خادما عندهم."

عائلة البسام الثرية تمثل مقرضى المال في عنيزة. معدل سعر الفائدة هو خمسة عشر في المئة لمدة عام، اثني عشر شهرا، وهذه الفائدة تدفع نقدا ؛ ولكن إذا ما قبلت في شكل عيني ، - فذلك يكون من رجل فقير الحال! هذا يعني أن هؤلاء الناس يحصلون على ريال ونصف الريال ، عن كل ريال واحد من القرض، ويكون ذلك مقيما بالقمح أو التمر، ويسعر جنى المحصول وحصاده. هذه الثمار، يخزنها أهل البسام، إلى فترة متأخرة من العام ، كي يبيعونها بسعر مرتفع (للبدو الرجل الفقراء). - قال ذلك الرجل، الذي دخل علينا، وكان من معارفي، وهو يذم الإثم الذي ارتكبه ذلك الفلاح "يارجل ! ألا تخاف الله؟ ادفع للحكيم أجره، أعرف أن الله فوقك. " كان ولد ذلك الفلاح يعمل ضمن قوة العجيل في سوريا، - التي خدم فيها، في فترة من الفترات، على حد قوله لي، نصراني ، كان يعمل تاجرا ثريا للحبوب في الناصرة؛ وقد بالغ في وصف كرم وسخاء ذلك التاجر.

التحزب والمديونية فيهما دمار البلدان العربية. "وهم يقولون: السلف حلوا" [مثلما يقولون عن الكذب]، - إنه يشبه الغنيمة التي يأخذها الناس من الغير، ويوم الرد غير معروف (*).

(*) هذه ربما كانت ترجمة للمثل العامي "السلف تلف والرد خسارة" (المترجم)

الإقراض بالربا، الذي لا يقره القرآن ويرفضه، يُمارسُ هنا في هذه البلدة المتدينة . وهذا هو ما يقضى على القرويين؛ كما أن غالبية البدو يصبحون خالي الوفاض كل عام، لأنهم ينفقون ثلث دخلهم في سداد النقود القليلة التي يحصلون عليها . - والمسلمون ، في سوريا لا يقرضون، وذلك خوفا من ضمائهم، ولكن هؤلاء الناس تلتهمهم الزواحف الأخرى، المتمثلة في اليهود ، وأكثر من ذلك - وهو ما يسيئ إلى اسم المسيح؛ بواسطة النصارى الأثمين الظالمين: فسعر الإقراض السنوى يصل إلى خمسة وعشرين في المئة ، وهذا من وجهة نظرهم سعر "رحيم" للفائدة على النقود. من هنا تصبح الأرض معرضة للحجز: وعندما يقوم ملاك الأرض (المسلمون) الأمانة برهن أراضيهم نظير مديونياتهم؛ وعندما يصبحون مجرد مستأجرين لتلك الأرض بمحض إرادتهم، عند أولئك المغتصبين [لذلك الذى يطلق عليه الدين اسم "التراب"] - والذى كان ملكا لهم، عندئذ يبدءون فى هجر قراهم والتخلى عنها .

- وطوال الفترة التى عشتها بين أهل سوريا؛ وشاهدت خلالها أساتذة أولئك الأساتذة المتخصصين فى الحقد الإنسانى واكتشفت أنهم كانوا أشخاصا متصلين بالقنصليات الأجنبية، لم أدخر وسعا فى توجيه اللوم إلى المذنب ؛ وهو جعل هؤلاء الناس يحسنون بى الظن . "ردوا على قائلين : الأرض مثمرة، وتربتها أحسن من تربة بلادنا : هذا يعنى أن فلاحه الأرض وكلفتها تعد صغيرة وبسيطة." [فى ظل هذا المناخ - وحيث نعيش بمثل هذه الكلفة المرتفعة، وفى ظل زيادة الاحتياجات البشرية إلى الضعف - نحن نبذر الحب بجهد بشرى مضاعف على أمل أن نجنى النصف : يضاف إلى ذلك أن الوقت يكون مضاعفا أيضا!] .

الزراعة فى واحات الجزيرة العربية أقل مهارة منها فى غوطة ghruta دمشق . - الواحات فى الجزيرة العربية تربتها رملية صحراوية؛ وهذه التربة تكون خصبة ومثمرة فى ظل ظروف شمس الجزيرة العربية، وبالذات عندما يتوفر لها الرى. وفى كل عام يزرع الناس هنا المساحة نفسها ، بهذا الحب أو ذاك؛ ومع ذلك لا يقل الحصاد أو المحصول . والمساحات التى تزرع بالحبوب يغطيها الطمى، كما يزيد من خصوبتها

أيضا روث الإبل الذى يطلقون عليه اسم الدمن ed-dimn . والجذامة عندما يجرى حرثها تمهيدا لبذر الحبوب فى فصل الخريف، يجرى تكويمها فى أوعية وفى قنوات الرى - ، التى يحسنون استعمالها : وعندما يجرى فتح بركة من برك الآبار فإن الماء المندفع يجرف معه تلك الجذامة ويغمر بها الحقل كله دفعة واحدة. وفى مزارع النخيل تجد كل ساق من سيقان النخيل واقفا فى مجرى من المجارى المائية، وبالتالي فإن الأرض من حول جنور النخل تكون رطبة، بل إن هذه الرطوبة تتجدد مع تجديد مرور الماء فى ذلك المجرى المائى، وذلك بمعدل مرة أو مرتين فى كل يوم من الأيام المعتادة. [الأمر على العكس من ذلك تماما فى قرية العلا - وقد يقتصر ذلك التقليد على كل من مزارع النخيل فى كل من الحجاز أو المدينة المنورة - حيث تكون سيقان النخيل محاطة بضاف فوق سطح التربة.] .

عندما كنت أسأل أصدقائى عن آثار البلاد، كانوا يحكون لى عن موقع يطلقون عليه اسم العيارية el-Eyarieh ، الذى يقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشمال على هذا الجانب من وادى الرماح: قال الكينى: " نستطيع ركوب الخيل والاتجاه إلى ذلك الموقع . " ذهبت ذات صباح بعد ذلك مع حامد الصافى Assafy لاقتراض حصانين من سمسار للخيول، اسمه عبد الله ، الذى يكونه [وهذه كنية كل من اسمه عبد الله ، وبالرغم من أنه ليس له ولد] أبو Abu نجم Nejm : كان أبو نجم هذا يعمل سمسارا أو وسيطا فى بيع الخيول إلى الهند ، أو إن شئت فقل: فى السوق الهندية. والخيول لا تربي ولا تباع فى أى من بريدة أو عنيزة، ولا حتى فى أية مدينة من مدن نجد؛ ولكن سمسارة الخيول يتولون أمر الخيول الصغيرة فى قبائل الأعراب وهذا النوع من الخيول - ما لم يكن ممتازا بصورة أو بأخرى، تصبح أسعاره عادية جداً بين هؤلاء الأعراب كان مفروضا أن ينطلق الكينى للقائنا قادمة من اسطبل للخيول ، قريب من مزرعته.

عثرنا على خيول أبى نجم قليلة العدد والمعرضة للبيع، ضمن خيول أخرى كانت تجرى تغذيتها على حساب بعض الأصدقاء ، فى حقل يقع بين أشجار نخيل آخر حقل

من حقول نخيل المدينة فى شمالى عنيزة. وجدنا حصانين يتغذيان جنباً إلى جنب من معلف واحد مربع الشكل مبنى من اللبن؛ وجدنا كل حصان من الحصانين مربوطاً من رجله الخلفية إلى وتد جرى دقه فى الأرض. كان العلف الموضوع أمام الخيول من الجلبان الأخضر الذى يقولون له : 'جت' jet : وأن هذا الجلبان الأخضر كان هو الغذاء الوحيد الذى كانت تعيش عليه هذه الأفراس منذ أن قام أبو نجم بإحضارها من الصحراء، خلال أسابيع الصيف؛ وذلك إلى أن يبدأ هبوب الرياح الموسمية على البحار الهندية. فى هذا الموعد تقوم شحنة ذلك السمسار من الخيول باجتياز الصحراء الطويلة من ناحية الشمال ، مع الإبل، التى تحمل الماء اللازم لتلك الخيول طوال رحلة تستمر سبعة عشر مسيرة إلى الكويت ؛ حيث يجرى شحن تلك الخيول بالسفن إلى بومباى فى الهند.

ابتسم الأوروبى عندما رأى انطباعاً طيباً على وجه ذلك العربى الذى كان يتجر فى الخيول ! أعرب أبو نجم الذى أعارنى حصاناً عن رغبته فى أن يرافقنا فى تلك الرحلة إلى ذلك المكان الأثرى. كانت سرجنا عبارة عن برادع بلا ركاب والسبب فى ذلك - أنهم مثل البدو هنا، لا يستعملون الركاب: ومع ذلك فإن هؤلاء الحضر يركبون الخيول، المزودة بشكيمة، كما هو الحال فى الخيول فى البلاد المجاورة؛ ولكن البدو يركبون الخيول بلا شكيمة أو لجام، بل إنهم يجلسون فوق أفراسهم مثلما يجلسون فوق الإبل (وهذا يدل على عدم الخبرة إلى حد ما)، ولا يستعملون سوى مجرد حكمة ليس إلا. لم أسمع عن امتداح أى خيال بين البدو، لركوبه الخيل بالطريقة الصحيحة ، بالرغم من أن هناك بعض الشيوخ الذين يمتدحهم الناس بأنهم رماة رماح ماهرة. أبو نجم هذا، لم يسبق له أن ذهب هو بنفسه إلى الهند؛ ولم يكن يعرف أن النصرانى يستطيع ركوب الخيل بالطريقة السليمة: نادانى بعد ذلك، وطلب منى أن أثبت على السرج، وألف يدي الأخرى على عنق الحصان. وبالتدريج بدأ الحصان يعدو، وأطلقت له العنان وتركته ينطلق على رمال صحراء النفود، - تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: " الله! هل الحكيم خيال Khayyal ؟"

تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: مررنا على الدُّرس ؛ وشاهدت مجموعة من إبل الآبار يجرى اقتيادها على شكل صف مع عشر بقرات وحمار (أى كل حيوانات ذلك الريفى) ، حول وتد، وكانت أقدام كل هذه الحيوانات غارقة إلى ركبها فى سيقان القمح المهشمة. على جانب ذلك الجرن شاهدت الكثير من جحور النمل وشددت سرُّع (لجام) الحصان كى ألقى نظرة على العمل الذى كانت الحريم يقمن به بجوار جحور النمل هذه . - شاهدت الارتباك الذى أصاب النمل فى النهاية (ذلك الارتباك الذى انتاب النمل لأنه من اللصوص) ، - شاهدت مستعمرات النمل وهى يجرى تخريبها ، والنساء يمسكن النمل فى المناخل! ومن (باب الحرص على أسباب معيشتهم) رحن يذرين أمة النمل هذه فى الهواء، وهنا اختلط الناس والمشايخ musheyikh فى صراع على الرمل وعلى الحبوب أيضا . - وهذه هى الزوجات الفقيرات المعوزات كل واحدة منهن قد حصلت على بضع قبضات من حبوب القمح اللامعة، ووضعتهـا على غطاء رأسها المفروود على الأرض.

نحن نرى هنا حلبة طويلة عالية من الصخر الرملى يطلقون عليهما اسم مراقب Mergab الرأفة er-Rafa وتقع على هذا الجانب من البلدة. فى هذه المنطقة يجرى قطع الأحجار وتربيعها حتى يمكن استعمالها فى البناء ، كما تستخدم تلك الأحجار أيضا فى بناء البوابات فى عنيزة. - جاء الكنىنى راكبا حصانا للقائنا ! وهنا دخلنا فى طريق مجوف قديم يمر عبر النفود ويوصل إلى العيارية والأوشازية el-Owshazieh ؛ وهذا أيضا موقع آخر من المواقع القديمة فى هذه البلدة. كيف يمكن لهذه الآثار أن تبقى فى الرمل المتحرك ؟ - على حد علمى، الريح ضعيفة جداً فى هذه البلدان.

جلس عبد الله فوق مهر جميل من سلالة أصيلة، كان ينتقاد بتفاخر شديد لتوجيهاته: وعندما رأى عبد الله عيني الغريب مثبتتين على المهر، " قال صديقى: إى، هذا المهر جيد من جميع النواحي." الكنىنى هو والشيخ نصير اللذان سبق لهما شحن ثلاثة أو أربعة من الخيول العربية صغيرة السن إلى مدينة بومباى فى الهند أخبرانى أنهما يحققان مكسبا من وراء بعض الخيول ، ولكن بعضا آخر من تلك الخيول قد يُقِيمُ فى بومباى تقييما متدنياً تماما، إلى حد أنهما لا يحصلان على ثمن البيع الذى

يغطي ثمن الشراء ومعه مصاريف الشحن إضافة إلى النثریات الأخرى . أما أبو نجم فقد أخبرنا أن مكسبه وخسارته كانتا حسب مشيئة الله؛ وأنه كان يحقق مكاسب في معظم الأحيان ولكنه كان يخسر أيضا في أحيان قليلة جداً . وهم هنا يشترون المهور الصغيرة في فصل الشتاء، حتى يتسنى لتلك الخيول أن تكبر وتزداد قوة ، وتضمن قبل أن يتم شحنها إلى الهند، وحتى يمكن تعويدها أيضا على علف الجلبان الأخضر في الواحات ، وبذلك يمكن أن تتأقلم فيما بعد مع مناخ الهند الأخضر .

فيما بين الجهل المطبق بين المشتريين الأجانب من ناحية ونفاق النجديين الآسيويين أصحاب الاسطبلات العربية في بومباي من الناحية الأخرى، جرت هناك مفارقة أو إن شئت فقل: تمييز فيما يتعلق بخيول كل من عنيزة ونجد ! - مثلما هو الحال عندما نميز نحن بين الخيول اللندنية وخيول ميدل سكس Middlesex . فقد سبق لنا أن عرفنا أن الخيول المعروضة للبيع إنما يجري جمعها بواسطة تجار البلدة ، من min الأعراب el-Aarab ، من القبائل البدوية المترحلة ونظرا لقلّة وجود الخيول في المضارب العربية الشاسعة فإن ذلك يعنى أن تلك الخيول يأتى بها أولئك التجار من مسافات بعيدة. ولقد عثرت على خيول "عنيزة" في اسطبلات بومباي، وكانت تلك الأمهات قد ولدت في اليمن . - وربما ينصرف فهمنا لخيول عنيزة على إنها الخيول التي يبيعها تجار القصيم [وهم من عنيزة وبريدة]؛ أما الخيول النجدية، فهي - خيول الجبل ، أو تلك الخيول التي يجري إرسالها من بلاد بن الرشيد إلى بومباي . وقد بلغنى أن مجموعة خيول سمسار بريدة سبق إرسالها إلى بومباي قبل أيام قلائل من وصولي إلى هناك . وبريدة بلدة وولاية صغيرة من ولايات الجزيرة العربية؛ وأمير بريدة يحكم القرى المجاورة، ولكن لا طاعة له على من يعيشون في الصحراء. ومن ثم فنحن نرجح أن الاتجار في خيول عنيزة هو الأكبر والأقيم . [وأفضل الخيول في اسطبلات بومباي هي تلك التي تأتي من شقراء Shuggera في منطقة الوشم] .

فيما يتعلق بخيول الشمال أو إن شئت فقل: خيول "الخليج" التي يجري تربيتها في ديار البسو الرحل في بلدان النهر - بالرغم من جودة أجسامها و بالرغم أيضا

من سرعتها إلا أنها لا تحظى بمنزلة عالية لدى سكان المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية. ولحوم هذه الخيول مكونة "من العلف الأخضر والماء" هذا يعنى أن تلك الخيول لا تتحمل المناطق التى تكون شديدة الحرارة بفعل تأثير الشمس. والخيول الصحراوية المماثلة لتلك الخيول، والتى تقل عن هذه الخيول من حيث الشكل، ولكنها من السلالة نفسها، الحصان الواحد منها يساوى خمسة خيول من خيول بلدان النهر. - يضاف إلى ذلك أن خيول البيع لا تجرى فرجتها فى ظل ذلك المناخ العربى الخالص: ولكن هذه الخيول تجرى ، فى البداية، تعليمها الوقوف تحت حكاكة جلود الخيل فى الهند . وخيول الجزيرة العربية أعناقها مجوفة مثل أعناق الإبل: والعرب كلهم ينظرون إلى أعناق خيولنا الشامخة على أنها عيوب فى تلك الحيوانات . خيول الصحراء، التى تربت فى الصحراء الجافة فى أراضى السهول الحارة التى تحيط بها الجبال الصغيرة، لا تستطيع القفز، أو إن شئت فقل: ليست من خيول القفز، ولكنها قادرة تماما على تسلق الأراضى الصخرية. هذا يعنى أن تلك الخيول جيدة فى حمل الأثقال: ولقد سمعت أن البدو الرحل يتفاخرون بأن أفراسهم يستطيع الواحد منها حمل أربعة رجال. وأهل الجزيرة العربية يؤمنون إيماننا راسخا بأن الله خلق سلالة الخيول فى أراضيه: وهم يقولون : إن الأصل el-asi ، أو إن شئت فقل: منشأ الخيول، هو فى بلاد الأعراب. وكان الكتيلى يتبنى أيضا هذا رأى الخرافى، هذا بالرغم من أن الحصان يمكن أن يعيش فقط على ما يعطيه له الإنسان فى الصحراء الجافة. [الروماكى Rummaky ، اسم للفرس، كلمة تتردد كثيرا فى القصيم: ويقول لى صالح الرشيد إنهم يطلقون على الحصان الذكر اسم غروق ghrog ؛ ولكن هذا الاسم قليلا ما يردده الناس.] .

قطعنا مسافة ثلاثة أميال ونحن راكبين على ظهور الخيل، إلى أن وصلنا إلى تلة من اللهم الجاف، وكانت تلك التلة تطل على وادى الرماح الذى يتسع فى تلك المنطقة إلى ما يزيد عن الميلىن. وفى الجانب البعيد من ذلك المكان شاهدت قلة قليلة من مزارع النخيل والبيوت الريفية الخاصة بزراعة القمح: اللهم باستثناء أن الهواء فى هذه المنطقة يتسبب فى الإصابة بالحمى، إضافة إلى أن الماء مالمع الطعم فى هذه المنطقة،

فضلا عن أن الزنوج هم الذين يقومون هنا على أمر فلاحه الأرض. ومناطق الوادى القريبة من هذا المكان كانت كلها بيضاء اللون بفعل السبخة Subbakha : وفى وسط الوادى يوجد نوع من اللهم الجيد، الذى تنمو فيه الأدغال الصحراوية وأشجار الإثل؛ ولكن هذا اللهم لا يمكن زراعته نظرا لأن المياه الجوفية هنا على عمق عشرة أقدام، فضلا عن كونها مالحة الطعم. شاهدت فى الأسفل مسورة من مسورات النخيل فيها مناطق من علف الجلبان الأخضر، وفيها مناطق أخرى عامرة بالجذامة المتخلفة عن حصاد محصول القمح، كما شاهدت أيضا كابينة أو اثنتين مبنيتين من اللبن؛ وكانت تلكما الكبينتان مملوكتين للشيخ نصير. فى هذه المنطقة يصل قاع وادى الرماح، تُضحل إلى الشمال الشرقى ويكاد يضم عنيزة أيضا: وعلى بعد مسافة عشر ساعات، أو إن شئت فقل: على بعد رحلة واحدة من رحلات النياق، توجد روضة rautha كبيرة، يطلق الناس عليها اسم الزغربية Zighreybieh ، وفيها أراضي لزراعة القمح، تغمرها مياه السيل فى فصل الشتاء: وفيها ملاح، يستخرج الناس منها الملح فى عنيزة.

الوادى الذى يهبط نازلا خلال الصحراء الشمالية [التي تمتد مئات الأميال على شكل أرض يباب] مسدود فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم الزويرات eth-thueyrat ، والذى يبعد مسافة رحلة واحدة من رحلات النياق، أو ربما خمسين ميلا عن عنيزة، وهذا السد يتمثل فى الكثبان الرملية الكبيرة، التى كبرت وتضخمت ، على حد قولهم، فى هذا العصر. واعتبارا من هذه المنطقة فإن أرض الوادى الأجوف - التى يقع فيها مسار القوافل الشمالية - يطلق الناس عليها اسم الباطن el-Batin ؛ والمسافرون يمرون على المواقع الأثرية فى اثنتين أو ثلاث من تلك القرى: وهناك قلة قليلة من الآبار على جانب الطريق، ولكن الماء ليس غزيرا فى تلك الآبار. هذه الصحراء الشاسعة كانت فى الماضى تابعة لبنى تميم Taamir . وضياف الوادى هى فى أغلب الأحيان عبارة عن قمم من الصلصال والزلط، والمسافة بين القمة والقمة التالية لها قد تستغرق مسير ساعة (أى ما يقرب من ثلاثة أميال) على حد قول عبد الله الكينى . ومجرى الوادى الكبير فى سهل النفود فى القصيم يصعب على أعين الغرباء تمييزه أو التعرف عليه تعرفا تاماً.

وأية جماعة من الجماعات الصغيرة إذا ما تجولت خلال ذلك الوادى يصعب عليها أن تضل طريقها، أو يضيع منها مسارها: هذا يعنى أن مثل هذه الجماعة، لا تذهب إلى مسافات بعيدة فى الصحراء. وانحناءات وادى الرماح كلها، من المنظور التقديرى، لا تستغرق أكثر من خمسة وأربعين يوما، أو إن شئت فقل: مسيرة من مسيرات الإبل (أى ما يقرب من ألف ميل): وهذا الوادى يقع فى أرض يصل عرضها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل، مقاسة من رءوس حرة خيبر إلى المخرج القريب من مدينة البصرة. - ما الذى نعرفه نحن عن هذا الوادى الكبير، الموجود فى أرض لا يسقط عليها المطر؟ هذا الوادى عندما يفيض - وهذا يحدث حوالى مرتين أو ثلاث مرات خلال قرن من الزمان، فإنه ينساب نحو الأسفل كما لو كان نهرا من الأنهار. ويكون المد الناتج عن ذلك الفيضان كبيرا، وفى الأماكن التى لا يكون الوادى فيها مستقيما يستطيع راكب الجمل عبوره، عن طريق الخوض فى الماء، وهذا على حد قول الناس هنا. ولم يتمكن أحد من أولئك الذين عاصروا حياتى من رؤية ذلك السيل؛ ولكن الأجيال الأكبر من جيلنا شاهدت ذلك السيل قبل أربعين عاما، فى موسم هطلت خلاله أمطار غير عادية على كل الأراضى المرتفعة التى فى اتجاه خيبر. أما الفيضان الذى تجاوز عذبة، فقد توقف بفعل الكثبان الرملية التى فى الزويرات، وارتد إلى الخلف، وأصبح مغسلا، يصل اتساعه هنا فى العيَّارية Eyarieh إلى ما يقرب من المليون. ثم شاهدنا بعد ذلك فى نجد مشهدا جديدا لبحيرة! - ربما كانت مساحة المياه الراكدة تقدر بما يقرب من مائة ميل؛ والتى بقيت على امتداد عامين وكانت بمثابة إصلاح لكل الجماعات الجائلة من طيور الماء التى لم تكن معروفة من قبل، أو التى لم يسمع الناس صراخها فى هواء تلك البلدان الصحراوية. والوادى الكبير بعد أن يمتلئ بمياه السيل، يؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه فى أبار كل من بريدة وعذبة؛ وهذا الارتفاع يستمر مدة عام أو أكثر.

عثرنا فى هذه الأرض المرتفعة على بقايا بعض الأوانى والزجاج المكسور - مثلما هو الحال فى سائر الأماكن الخربة أو الأثرية فى الجزيرة العربية، كما عثرنا أيضا على قلة قليلة من أحجار البناء، وصخور البناء أيضا؛ ولكن هذه الانقراض البون شاسع بينها وبين تلك الفنون التى كانت فى بلدان نجد المستقرة! - هذا هو موقع العيَّارية،

أو إن شئت فقل: منزل Menzil عيار Eyar ؛ حيث يشاهدون فيه 'موقع ثلاثة أو أربعة قرى قديمة، فضلا عن مساحة من التربة المأهولة أكبر من مساحة عنيزة؛' وهم يقولون : "إن ذلك الموقع أحسن من موقع المدينة (الجديدة)". نزلنا عن خيولنا وبدأ عبد الله يقول: "والله ، عرب (زماننا) منحلين عن القدماء من جميع النواحي ! - نحن نراهم يعيشون عن طريق ميراث العمل" (المتمثل في الآبار العميقة في الصحارى، وكذلك المرافق العامة الأخرى)!

يقولون، إن سيف خالد بن الوليد [يشوع (*)] الإسلام الجديد، في عهد عمر (رضي الله عنه) [ابتلع العيارية الوثنية وهي واحدة من بلدان بني تميم . والشئ نفسه يقال عن بلدة الأوشازية Owshazieh ، التي تقع على بعد مسير ثلاث ساعات في اتجاه الشرق: وفي تلك المنطقة توجد بعض بيارات النخيل وبعض البيوت البستانية التابعة لعنيزة ومعروف أن عيار Eyar هو وأوشاز Owshaz "شقيقان" في الموروث السامي Semitic . - والشعر القديم الذي قاله شعراء بني تميم (على حد قول رفاقي المطلعين) يذكر أن هؤلاء الناس كانت لديهم مواشى كثيرة؛ وأنهم، في فصل الربيع، كانوا يتجولون مع قطعانهم وماشييتهم في النفود، كما كانوا يسكنون خياما من الشعر مثل خيام البدو الرحل. - وهذا هو ما رأيناه في كل من إيدوم Edom (**) موآب (***) Moab [انظر الجزء الأول ص ٦٣، ٧٨، ٨٢] حيث يتحول القرويون إلى سكنى الخيام في الصحراء المحيطة بهم اعتبارا من فصل الربيع، - وفيما يخص ماشية هؤلاء الناس في فصل

(*) يشبه المؤلف خالد بن الوليد بيشوع الذي ورد ذكره في العهد القديم . ويشوع هذا كان واحداً من الاثني عشر عينا الذين أرسلوا لجمع معلومات عن الكنعانيين ، وعمل ممثلاً لموسى عليه السلام وقاد جماعته إلى أرض كنعان وتم فتحها والاستقرار فيها تحت قيادته . (المراجع)

(**) إيدوم ويصح فيه أيضا إيدوميا Idumea : حى في جنوب فلسطين (إسرائيل) فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

(***) بلد قديم يقع في منطقة الهضبة شرقى البحر الميت، وهو موجود حاليا في غربى الأردن. كان سكان ذلك البلد القديم يشبهون العبرانيين، بالرغم من أنهم كانوا يحاربونهم بصورة مستمرة. والحجر الموءابى الذى - هو من - القرن التاسع قبل الميلاد، جرى اكتشافه في بلدة ديبون Dibon في العام ١٨٦٨ الميلادى يسجل نجاح ثورة ميشا Mesha ملك الموءابيين ضد إسرائيل (المترجم)

الصيف فقد شاهدت عائلات فقيرة فى جايليد Gilead (*) - التى لم يكن فيها خيام على الإطلاق - وكان هؤلاء الناس يعيشون تحت أشجار البلوط الضخمة! وكانت الأغصان كثيفة الأوراق بمثابة غطاء يحميهم من حرارة الشمس أثناء النهار، ومن الندى أثناء الليل. وكانوا يدفعون قطعانهم إلى مكان المبيت مع غروب الشمس، وينامون من حول تلك القطعان.

ولا يتبقى من بلدة عيار سوى تربتها فقط: ترى كيف كانت حيوات تلك الأجيال القديمة أكثر من كونها أوراق مترفرفة أو خفاقة، إن صح التعبير! لقد اندثر تماما ذلك الذى صنعه أيدي هؤلاء الناس واندثرت أيضا أفكارهم وذلك الذى كان يسود فى صدورهم، - 'حبهم'، كراهيتهم، حقدهم! لقد تخلوا عن دينهم؛ كما أن مكانهم لا يزوره أحد شأنه فى ذلك شأن جبانات (مدافن) العصور السابقة: وفى فصل الخريف فقط يوفد ملاك الأرض من أهل عنيزة خدمهم إلى هذه المنطقة، ومعهم الحمير والحفارين، لكى يجلبوا الطمى الذى يستخدمونه سماداً . وأثناء مسيرنا شاهدنا كومتين من خبث الحديد إلى جوار بعضهما؛ وربما كان فى ذلك المكان محل لصانع أو حرفى من الحرفيين القدامى. وعندما تساءلت ، ألم يكتشفوا شيئاً هنا؟ حدثنى الكينى عن بعض حفارى الآبار، الذين جرى استئجارهم لحفر بئر فى الأرض الجديدة القريبة من العيارية [والماء هنا قريب من سطح الأرض ومذاقه عذب] - " وأنهم عندما بدءوا حفر البئر قام أحدهم بإشعال وإضاءة وعاء كبير مصنوع من الطين ! - وضعوا ذلك الإناء على الأرض وفتحته متجهة نحو الأسفل [رأس القبر الأثرى] . وهنا راح كل واحد من الحفارين يصيح بأن الكنز كنزه هو! ولم يستمع أحد منهم إلى السبب الذى دفع رفاقه إلى ذلك - وبالتالي أصبح كل واحد منهم له سببه الخاص. أو بسبب التزيد فى الكلام وصل الأمر بهم إلى حد التشابك بالأيدي؛ وراحوا يضربون

(*) جايليد، فى الأردن وهى منطقة جبلية فى فلسطين القديمة، وهى حالياً فى شمال غربى الأردن، شرقى نهر الأردن، ويصل ارتفاعها فى جبل جايليد أو إن شئت فقل جبل يوشع Yusha إلى ٢٦٥٢ قدم. وجبل يوشع هذا يقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة السلط الحديثة . (المترجم)

ويتضاربون بالمعاول، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى رجل واحد. قام ذلك الرجل بضرب الإناء، وقلبه كله شغف وطموح! - ولكن داخل هذا الوعاء المكسور لم يكن هناك سوى قطعة من الطين! - أردف عبد الله، ' أن وتدا أو خابورا من الذهب جرى استخراجها من هنا، على ما يذكرون. وأن من عثر على ذلك الوند أو الخابور، باعه في المدينة بمئتي ريال، إلى رجل، قام ببيعه هو الآخر، في الشمال بما يزيد على ألف من الريالات.

عدنا: وبعد أن مشينا مسافة ميل أو ميلين استقل الكتيني بنفسه واتجه صوب اسطبل أو حظيرة خيوله؛ التي قال: إنه لديه شيء فيها سيريني إياه فيما بعد في يوم من الأيام. - شاهدت ذلك الشيء فيما بعد، وكان عبارة عن عرق من الرخام يميل لونه إلى الاسوداد، وكان عمقه يزيد على عمق نخلة كاملة، وعرضه حوالى ثلاث ياردات، وكان ذلك العرق موجوداً في الجوانب الصفراء من حفرة من حفر الطمي: وكان واضحاً أن ذلك عبارة عن رماد متخلف عن نار قديمة، كما عثروا في ذلك الوجار القديم على بعض الشقافة! وفوق ذلك الرماد كانت هناك طبقة من الصلصال يصل سمكها إلى قامة كاملة؛ ومن فوق كل ذلك توجد طبقة منجرفة من رمال النفود. - كان في هذا المكان، قبل تسويره مجرى من مجارى السيول؛ ولكن بقايا الأواني الفخارية التي وجدت على عمق قامة من الطمي قد تكون ممعنة في القدم. ترى ماذا كان الإنسان عندئذ في وسط الجزيرة العربية؟ بعض أجزاء من بلدة عنيزة هي وشارع القماشين، مبنية على أرض سيل من السيول القديمة؛ وهذه الأرض دمرت مرتين بفعل الفيضانات الأرضية: وآخر فيضان من تلك الفيضانات حدث منذ تسعين عاماً.

عدت إلى المنزل مع حامد وهناك جاءني عبد الله البسام الصغير. تكلمنا عن الأقدمين، وبوصفهما (متعلمين) راحا يزديان ويستصغران الآراء غير المدروسة عن المردة في العصور السابقة: وبالرغم من ذلك، فهما يعلمان من الكتابة القديمة أن الرجال في زمن شيخوختهم كانوا أقوى مما عليه الناس الآن؛ والسبب في ذلك أنهم اكتشفوا أن ثقلاً معيناً كان معترفاً به على أنه الحمل الذي يمكن أن يحمله أى رجل

من رجال عنيزة، أولئك الرجال الذين كانت قوتهم أكبر من قوة عامة العمال؛ هناك أيضا كثير من الأشخاص الذين طالت أعمارهم في عنيزة، كما رأيت أيضا الكثير من اللحي الرمادية في تلك المدينة أكثر من كل الأجزاء التي زرتها والتي مررت خلالها في الجزيرة العربية.

ولكن عطلتنا التي أمضيناها على ظهور الخيل ونحن في طريقنا إلى العيارية، ولدت بيتنا حديثا طويلا. لم يحدث أن ذهبنا إلى العيارية، ونحن ثلاثة أو أربعة أشخاص، لمجرد نزهة عابرة؛ فالنصراني، لديه في كتب علمه السري بعض التسجيلات القديمة عن هذه المدينة، أو إن شئت فقل: هذا البلد. وبالرغم من ذلك، فإن الليبراليين من أهل هذه المدينة كانوا يعزمونني يوميا، بغض النظر عن كلامهم الغبي؛ وكانوا يضيفون يوما على سبيل المثال العرب el-Arab عقلهم aki-hum ناقص nakis ، بمعنى العرب يوما ناقصى عقل ومع ذلك، كان هذا الكلام يضايق الكنيى، الذى كان يتمتع بروح أسى من الآخرين ، ولم يكن على استعداد لتحمل الإهانات. - وجدت الكنيى فى الصباح جالسا منعزلا عنهم ومستاء: "قال: إخص، يا لهؤلاء الناس غير المحترمين ! ولكن بيتى فى البصرة Bosra ! وأنا أحمد الله! سوف لا أرافقهم بعد الآن! أوه! يا خليل، أنت لا يمكن أن تصدق ذلك الذى يقولونه عني، - إنهم يقولون : "الكنيى بلوى!" Bellowwy - هذه بذاعة صارخة، يندر سماعها بين البدو الرحل ؛ وهم يقولون ذلك عن أى إنسان، عندما تنقلت ألسنتهم. العرب - هم أصحاب أبخس الشفاة وأكثرها تدينا بين البشر! - وهم يلعنون ويسبون كل ما هو تحت السماء عندما يتعارض مع مزاجهم؛ يضاف إلى ذلك أن الحقد الوهابى استثير ضد واحد من أهل المدينة ، لم يكن عضوا فى حزبهم الأعمى، وإنما بدى لهم مساندا للنصراني ومفضلا له. تعجبت عندما رأيت ذلك الرجل الطيب متفعلا فى فلسفته هذه ! - ولكنه ارتعد هلعا وخوفا أمام الدين الشعبى العام؛ هذا الدين الذى يشكل ما هو أكثر من القانون ومن الحكومة أيضا، حتى فى هذه البلدة المتحررة. "يقول الشاعر الشرقى: أشعر بألم حاد فى قلبى، لأن الجماهير المحروقة لم تقدرنى حق قدرى . " كان الكنيى واحداً من أولئك الذين عاشوا من أجل تقديم شعوبهم ، ولكنهم ماتوا قبل الأوان. ولعل الله يجعل الراحة والسلام مصيرا أبديا له!

كنت كلما أرى الوجوه الوهاية العابسة كل يوم، وطريقتهم فى غض البصر أحس أن قلبى الذى بين جنبى خارج على القانون ؛ وبالرغم من أنى لم أفعل لآى أحد منهم سوى الخير، - وهذا فقط من أجل نبى الجليل الشاب ومن أجل الموروث المسيحى! إلا أن ذلك الصنف البسيط من الليبراليين هم الذين كانوا يخشون الحديث معى؛ يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من معارفى السابقين بدعوا يتحاشون رؤية الناس لى وأنا أدخل بيوتهم الصديقة. ولم أكن أعرف أن ذلك كان بناء على إيعاز من المطوع - هذا يعنى (أنهم فى خطب الجمعة) كانوا يحرضون الناس على! قال هؤلاء المطوعون: ليس هناك منطق أو سبب، يجعلنا ، فى الوقت الذى ينشغل فيه سلطان الإسلام بذبح النصارى، أن نقوم نحن بإيواء أى نصرانى كافر فى بلد مؤمن : وأن من يتاصر ذلك النصرانى أو يخصه برعايته إنما يكون مخالفا للمبادئ. - بالرغم من أن الكنىسى هو وبسام الطيب كانا من مستشارى زامل. - ولكنى خطر ببالى، ما هو أقرب موعد ستبدأ فيه أية قافلة رحلتها، حتى يمكننى أن أرحل معها؟ أجابونى ، " انتظر برهة؛ لأنه لا توجد قوافل فى هذه الأيام."

قام أحد المتشددىين بتهديدى بينما كنت عائدا إلى بيتى، إذ خرج على من طريق ضيق ومنعزل: أنت يا كافر ! إن شاء الله سوف تقتل عصر هذا اليوم أو أثناء الليل، أو غدا على أكثر تقدير. ها ! يا ابن الشر، إلى متى سترفض دين الإسلام؟ - لقد أعطيناك فسحة من الوقت كى تتدم وتأسف، وصبرنا عليك كثيرا وعطفنا عليك كثيرا أيضا! - والآن، مت على عماك، فقد مل منك المسلمون. ما لم تقول الشهادة لقتلناك اليوم. لن تحصل على أى معروف بعد اليوم، لأن الكثيرين قرروا قتلك . " الجدل المميت الذى من هذا النوع أصبح بمثابة الشرور المعروفة، على حد قولهم ، فى تلك المحنة الطويلة التى عانىتها طوال أسفارى فى الجزيرة العربية ؛ ومع ذلك ، لم أكن أعود إلى بيتى من طريق واحد مطلقا ، إذ كنت أغير مسارى فى كل مرة ، كما كنت أضبط مواعيد عودتى إلى بيتى لتكون (أثناء الصلاة وشرب القهوة) وذلك حسبما يكون الوقت: صباحا أم مساء؛ وعندما كنت استشعر الخطر كنت أمشى مسلحا بطريقة سرية: وعندما كنت أعود من بيوت الأصدقاء [أثناء الليل كنت أطوى العباءة (بشت)] العربية

حول ذراعى اليسار؛ وكنت أناجى نفسى أنتى طالما عشت هنا مهددا للعام الثانى،
فإنتى يتعين على مواصلة هذه الحياة، ثم أعمل فى النهاية على الهرب من هؤلاء
الناس.

جاءنى فى هذا الجفاف الروحى جمال يدعى إبراهيم وهو من قرية شقراء -Shug-
gera ؛ وشقراء بلدة طيبة تبعد عن هنا مسافة رحلتين من رحلات الإبل، وهى تقع فى
منطقة الوشم el-weshm . عرض على ذلك الجمال أن ينقلنى إلى أى مكان أريده،
مؤكداً لى أنه يعرف الطرق كلها خير المعرفة سواء أكانت متجهة شرقاً أم جنوباً، وحتى
حدود اليمن. ' قال: إننى إذا ركبت إلى سدوس Siddus : فإن المسافة تقدر بحوالى
عشرة مسيرات من مسيرات الإبل، وهو يقسم تلك المسافة على النحو التالى : الرحلة
الأولى إلى المذنب Mith, nib ؛ واليوم الثانى إلى عين Aun السويينة es-Sweyna ، التى
هى قرية صغيرة فى وادى Wady السر es-Sirr [فى هذا الوادى، توجد بعض العيون
المائية وبعض الهجر (الكفور) كما أن هذا الوادى يصرف سيولة فى القاع ga] ؛
وقال: إننا سنصل فى اليوم الثالث إلى الفيثة el-Feythah ، وهى واحدة من القرى
الصغيرة أيضاً ؛ وفى اليوم الرابع نصل إلى برود Borrud ، وهى قرية صغيرة؛ وقال:
إن المحطة التى ستلى ذلك هى بلدة شقراء؛ وبعد ذلك نزميدة Thermidda ، التى هى
مكان قديم مزدهم بالسكان؛ والمكان السابع هو الرية el-Robba ، وهى من القرى
الصغيرة ؛ أما المرحلة الثامنة فهى ثيدك Theydich ؛ والمرحلة التاسعة هى حريملاء
Horeymia ، وهى أيضاً من البلدان المزدهمة بالسكان؛ ثم بعد ذلك سدوس Siddus
التى هى قرية صغيرة فى وادى حنيفة، ومعها أيضاً العيينة Ayena والجيلة Jebeyly :
ومن سدوس يمكن أن نواصل السير إلى الذرية eth-therreyyeh فى نفس وادى العروض
el-Aruth ؛ وإننا فى المرحلة الثانية عشر سنكون قد وصلنا الرياض er-Riath . - وإذا
ما كنت أرى أن ذلك سيكون متعباً ، فإن طريق النياق يصل طوله إلى أربع رحلات فقط
إلى قرية سدوس؛ وأن محطات ذلك الطريق هى - وادى السر، شقراء، حر يملاء.
وعندما سألته عن الأمن والسلامة فى الطريق، - قال: سوف نركب أثناء الليل؛ والسير أثناء
النهار ليس له طرق آمنة: والسبب فى ذلك أنه بعد تكسير أوامر وسيادة ابن سعود،

عادت القبائل مرة ثانية إلى توحشها، وأصبح الغزو ينتشر في كل مكان. - سمعت من الكينيني، أن ذلك الإبراهيم جرى السطو عليه مرتين، خلال الشهور الماضية! وأخذوا منه ناقته والبضاعة التي كان يحملها إلى الأعراب الأصدقاء. ومع ذلك، كان من رأى صديقي أن أغامر بالركوب مع هذا الرجل، على أن أحمل معي رسالة من زامل؛ وأن أعود ثانية.

"إذا كنا سنمشي طول الليل، فأين سنرتاح أثناء النهار؟" إبراهيم: "في القرى." - "وإذا ما سب أحد النصراني أو هدده -!" - "سوف ننزل طلبا للراحة في بيوت صديقة؛ ثم [دق الأرض برجليه] إنهم جميعا تحت عقبي - هكذا! ولا تخش أو تخف من أي شيء طالما أنك تحمل رسالة من زامل إلى عبد الله بن سعود؛ ووالله أن اسم زامل [وهو اسم محترم] سيكون سببا في ألا يسيئ أحد إليك." - ولكني خطر ببالى أن متاعب هذه الرحلة في الظلام ستكون قليلة الفائدة: يضاف إلى ذلك أنني كنت خائر القوى إلى حد أنى ربما أحتضر وأنا على سرج الجمل قبل أن تنتهى تلك الرحلات الكثيرة مرة ثانية في عنيزة. وهنا وجدت أن من الأقيم، أكثر من تأكيدات عبد الله البسام، أن أركب بصحبة ولده إلى جدة؛ والسبب في ذلك، أنني كنت أود التأكد من الطبيعة البركانية في الجزء الجنوبي من البلاد.

كان إبراهيم قد سبق له السفر، في بعض الأحيان إلى اليمن عن طريق وادى اللواسر؛ ولكن ذلك كان منذ سنوات طويلة. وأكد إبراهيم لى، أن الأفلاج، التى هى فى جبل طويق تبعد عن الرياض مسير ست رحلات بالنياق؛ وقال: إن الطريق وعر وخال من القرى. وفى الأفلاج، حدد لى إبراهيم أربعة مستوطنات جيدة من مستوطنات النخيل. والمسافة من الأفلاج إلى وادى اللواسر تستغرق مسير يومين عبر التطبيق tubg، أو المضايق الجبلية. وشمالى الأفلاج يوجد وادٍ ينحدر نحو الحوطة elHauta (تلك البلدة المزدحمة بالسكان من بنى تميم، والحوطة بلدة كبيرة مثل عنيزة)، كما يصل هذا الوادى أيضا إلى الخرج Kharj (ويصح فيه أيضا 'الخرق' Khark). وفى الخرج توجد بعض القرى الجيدة مثل الديلم ed-Dillum واليمامة el-Yamama،

وناجان Najan ، والسُّلُومِيَّة es-Sellummiah ، العَطَّار el-Atthar ثم السَّيِّح es-Seyeh :
وبعد أن يمر ذلك الوادى من بين كل من الرياض وجبال الطبيق يضيع بعد ذلك فى
الرمال. - وفى بومباى، التقيت بعد ذلك شخصا يدعى حامد Hamed النفيس en-Nefis
الذى كان والده أمين صندوق فى الرياض ، قال لى ذلك الشخص: "الأفلاج ستة قرى،"
سياح Siah ، وليطة Leyta ، والخرفة Khurfa ، والرمضة، والبديَّة el-Biddea ؛ -
وفى وادى الدواسر أتى ذلك الرجل على ذكر كل من الحمَّام Hammam ، الشطبية
es-Shotibba ، السُّلَيْل es-Sohleyil ، تمَّيَّره Tammerra ، ثم الدَّام el-Dam ،
(بالإضافة إلى ثلاثة هجر) اللغريف el-Loghrif - الفراع el-Ferra ، الشويق es-Showyg
والعياضات el-Ayathat .

كان هناك بائع كنت كلما مررت على مكانه، يود أن يغمغم ببعض الكلمات التى
توحى بالتشدد والتزمّت . ذات يوم وعندما كان ذلك البائع يمشى فى السوق، توقفت
للحديث مع هذا الشخص نفسه؛ وعندما استمع ذلك الرجل إلى كلامى [المصطبغ
بمسحة كلام البدو] قال: " ها - ها ! ثم صباح، أنا لا يمكن أن أصدق، إلا أن يكون هذا
الخليل عربيا، وليس إنجليزيا ! صدقنى ، لقد تربى فى أرض عربية." وبهذه الروح
والمرح اقتادنى ذلك الرجل إلى بيته لشرب القهوة: كان الرجل يكن لى شيئا من الود. -
وبدءا من تلك الأيام التى أصبحت فيها بلا مأوى، كنت أجلس طريح الفراش؛ ولم
يحضر أى أحد لزيارتى . والعرب يوما على هذه الشاكلة - دائما يفتقرون إلى
الإشارات التى توحى بطبع كريم. كان الناس نادرا ما يرونى فى الشارع . كان
الوهابيون يقولون: "إنه خائف" وسرعان ما بدأ يتزايد عندهم سوء النية وسوء الطوية .

أصدقائى ، الذين كانوا يقرءون الجريدة، ولديهم فضول سياسى، لم تكن لديهم
أية فكرة عن الجغرافيا: تناولت عندئذ فرخ كبير من الورق ثم خريطة لأوروبا؛ وهنا
استدعى البسام كاتبه ابن عايض؛ الذى راح يكتب من فمى أسماء العواصم على
الخارطة. وبعد أن انتهينا من ذلك العمل، أرسله البسام إلى أصدقائه كي يتفرجون
عليه. الساميون - الذين يتجولون فى البلاد على نطاق واسع، تلك البلاد التى يمرون

عليها وهم راكبين على ظهور إبلهم، لا يفهمون ذلك الذي نحيط به نحن، وتتخيله بسهولة ثم ندونه على الخرائط. أنا لم أعثر، على أى إنسان، حتى بين الرفاق الجدد فى سوريا ، كانت لديه فكرة واضحة عن الجغرافيا . فتلك ليست فنون الساميين: الفنون السامية هي الحقد البشرى والحياة الحسية. سألتني الأصدقاء ، هل مررت بالأندلس؟ - ذلك الاسم انذى يتردد فى مسامعهم كما لو كان اسما لعشيقة! كان البسام يود منى أن أقول لهم : شيئا عن كل ما رأيته هناك. تحدثت عن غرناطة، واشبيلية، وقرطبة ؛ وتكلمت أيضا عن الأحداث الكبيرة التى تناولها الشعراء والتى بقيت إلى يومنا هذا ، ولكنهم كانوا يتشوقون إلى أن يستمعوا إلى وأنا أحكى عن المسجد الكبير (الذى أسسه عبد الرحمن) فى قرطبة [والذى هو عبارة عن مساحة فدان من السقف المنخفض المحمول على مجموعة من الأعمدة الرخامية] . رددت عليهم، " إنه يمثل الكنيسة المركزية عندهم الآن." وعندما علموا، أنه كان معبدا مسيحيا، فغروا أفواههم : ولم يتمالك ابن عايض ، ذلك الزنجى، نفسه وراح يتأوه! - والسبب فى ذلك أن فكرتهم مخيفة عن العقيدة المسيحية. وحتى عبد الله البسام الطيب أطرق برأسه فترة وجيزة؛ ولكنه سرعان ما استعاد وجهه البشوش مرة ثانية: يضاف إلى ذلك أن البسام كان بشوشا فى بلد فيه تزمت دينى . - هذا الرجل الميسور بشوش الوجه؛ وقلبه الإنسانى لديه من الأسباب ما يجعله بشوشا؛ ألا تستجيب الوجوه بلامحها البشوشة لما يدور فى القلوب؟ - راح الكنىنى ، يتفحص الخارطة، ثم سألتني عما إذا كنت رساما؟ فقد سبق له أن رأى صورا محفورة للإفرنج أو إن شئت فقل: الفرنجة؛ وكان يرى أن تلك الصور كانت فنا جميلا.

سألت هؤلاء الأصدقاء، عن اللهجة النجدية التى يتكلمها أهل القصيم . "أجابونى، إنها لهجة جيدة جداً إذا ما قارناها ها بلغة كل من سوريا ، ومصر ، والحجاز، وبلاد الرافدين. لغتنا العامية ليست هي لغة القرآن: نحن نتكلم كما لو كان لنا عقل آخر، نتكلم بطريقة جديدة." - وعلى حد ما سمعت فإن البدو الرحل كلهم، بدءا من القبائل التى داخل الحدود السورية والحدود المصرية، وكذلك سكان الواحات النجدية، كلهم يتكلمون رطانة واحدة، ويمكن أن نطلق على هذه الرطانة اسم العربية النجدية،

أو إن شئت فقل اللغة الأم في أراضى الجزيرة العربية المرتفعة. وهم في كثير من الكلمات يقولون إنها تنطق بطريق الخطأ كأن يقولوا على سبيل المثال Yahya يحيى بفتح الياء بدلا من يحيى yehia (بكسر الياء). وهم يقولون 'قُو' go بدلا من 'قوم' Koom بمعنى 'انهض'. وهناك بعض الكلمات الأجنبية الوافدة عليهم عن طريق أولئك الذين سافروا إلى الخارج؛ ومثال ذلك يتمثل في كلمة 'خوش' Khosh التي تتردد في كلام تجار الشمال: وهم يقولون : رجل خوش، ويقولون أيضا: منزل خوش - بمعنى ممتاز أو جيد. والفرد من البشر يقولون له 'آدمي' adamy (وجمعه أوادم Ouadem) ، وهذه الكلمة تتردد في كلام تجار منطقة الخليج.

الفصل الرابع عشر

طرد المسيحي الغريب من عنيزة. واستدعاؤه مرة ثانية

أسرة يحيى. بنو من الشمال. سنوات الجفاف ونفوق الماشية. السرقة واللصوصية في عنيزة. الحرف اليدوية. صخب وهرج النساء المتزلمات والأطفال ضد النصراني. عنف الأمير علي، الذي يطرد الغريب أثناء الليل. رحله ليلية في النفود. وادي الرماح. نزاع مع حادي الجمل. تعال إلى الخبراء في النفود. قهوة الأمير. والد الأمير الضرير. الراكبون المسلحون من بريدة. الباحثون عن الطب. المدينة. عوفى. حادي الجمل يعود من زامل؛ لتوصيل الغريب، مرة ثانية، إلى عنيزة! الوصل إلى الهلالية. البكيرية. واحة الهلالية. رحله ليلية في النفود. النزول في مزرعة خارج عنيزة (خصصت لسكنى النصراني). زيارة عبدالله الكتيبي. - جنايني رشيد. صالح. يوسف خالدي. واحد من أبناء رشيد سبق له أن زار أوروبا! أسرة رشيد. إبراهيم. قناة السويس. عمال الحقول. الوشم. حكايات واحد من العمال. تدمير الوهابي. الحدود الشمالية للمرة وأعراب الجنوب. غزوة من غزوات ابن الرشيد.

كانت عزبة يحيى المسورة بمثابة منتجع طيب خارج البلدة كنت ألجأ إليها في فترة العصر. كنت كلما طرقت باب تلك العزبة، وحدث أن كان داخل المنزل أحد، فإنه كان يستقبلني استقبالا بشوشا ؛ وكان أبناء ذلك الوطنى العجوز يجلسون على الفور لتصليح القهوة. كانوا، في بعض الأحيان، يعزمونى على تناول العشاء ؛ وبدلا من العودة في ساعة متأخرة، في ظل الحرارة الشديدة، كنت أفضل البقاء هناك لأنام تحت نخلة في ذلك البستان ؛ حيث كانوا يفرشون لى سجادة لكى أنام عليها فى أمان الله، شأنى فى ذلك شأن من ينامون فى خيام الأعراب. ذات مساء خرجت إلى خارج

المنطقة بصحبة أهل هذه العزبة، وذلك عندما اتجهوا لأداء الصلاة على رمل النفود. وبالقرب من بئر الماء الخاص بتلك العزبة أرانى حامد نباتا حارا يشبه الفلفل، وسألنى إن كان ذلك بواء أم لا؟ قال إنه أحضر بذور ذلك النبات (البرى) من السيل es-Seyl [أوإن شئت فقل :قرن Kurn المنازل el-Menazil]، والسيل هذه واحدة من المحطات القديمة للقوافل النجدية، فى الجزء العالى من الجزيرة العربية الواقع قبل مكة (المكرمة) (الذى وصلت إليه بعد ذلك بشهور). شاهدت شخصا يتسلق الجدار من المزرعة المجاورة! كى يقابلنا: كان ذلك الشخص هو التاجر الشاب صاحب موضوع البندقية! الذى لم ألقاه منذ تلك الواقعة، ضمن أية صحبة طيبة فى البلدة. كان لسان ذلك الشجاع الشاب حلواً: ولكنه كشف عن عداوته من خلال صوته. كان الشفق قد بدأ يظهر عندما انتهوا من أداء الصلاة؛ وفجأة بدأنا نسمع صراخا فى النفود! وجرى الناس فى اتجاه ذلك الصباح: تسمع ذلك الرجل لحظة، ثم عزمى بعد ذلك على تناول القهوة فى الصباح فى البلدة؛ قال: هأنت ترى ذلك الإزعاج المستمر الذى يصيب بيتنا فى الصحراء!

- فى تلك الأثناء دخلت جماعة من بدو (العنوز) الشماليين؛ كان الرجال ضيوفا على صاحب هذا المنزل . جلسنا حول وجار القهوة، ثم جاء طفل رقيق وجميل فى عمر الزهور! كان ذلك الطفل يتماثل للشفاء من مرض ألم به قال الشاب الصغير الذى كان شقيقا لذلك الصبى الوسيم: قوم Goom حب hubb عمك amm-ak بمعنى 'أذهب وقبل عمك'؛ وقام ذلك الصبى الحلو، الذى كان مثل زهرة رقيقة جداً لا تقوى على صد عواذى ذلك العالم، بتقبيلى؛ ثم قبل البدو بعد ذلك، ثم الجماعة كلها بعد ذلك: وذلك هو حنان ورقة العرب فى بيوتهم. تعجبت عندما سمعت أن هؤلاء القبليين كانوا قبل خمسة عشر عاما سكانا لهذه الديرة من ديار (القصيم)؛ لقد جاؤا إلى هنا قادمين من منزلهم فى سوريا، والذى يقع بالقرب من مياه الحزير Hazzel el- [التي تبعد مسافة كبيرة عن هنا فى شمال النفود]، وقد قطعوا تلك الرحلة فى أسبوعين على ظهور الإبل : وقالوا: إنهم خلفوا وراءهم خيامهم منصوبة هناك، بالقرب من تدمر Tadmor [أوإن شئت فقل: بالميرا Palmyra وقد جاؤا إلى هنا لأمر يتعلق بالاتجار فى الإبل].

إبل الجزيرة العربية تطول قاماتها في صحراء الشمال. كان حامد الصافي قد أرسل ناقته ترعى في أحد الأعوام مع هؤلاء الأعراب؛ وعندما أعادوها إليه بعد ذلك لم يستطع التعرف عليها بسهولة، فقد تغير حجمها، كما غزر وبرها. هذه القبيلة من قبائل العنزي، كان لديها ثروة كبيرة من الماشية عندما كانت في القصيم؛ والسبب في ذلك أن بعض الشيوخ كانوا يملكون ألفا من الإبل؛ إلى أن تعاقب على ذلك البلد عاما بعد عام سنوات كثيرة من الجفاف. إلى أن جفت أدغال الصحراء (التي مرضت بسبب الجفاف السنوي) وأسود لونها ، وهنا بدأت ماشية البدو الكبيرة في النفوق بسرعة شديدة ؛ وهنا كانت الناقة الأصلية تباع بريالين. - وتخلي أولئك الأعراب عن هذا المكان، واتجهوا شمالا [الذي يعج حاليا بقبائل وأنصاف القبائل من العنوز]، واحتلوا أو شغلوا ديرة بين ديار أقاربهم المحبين والمعادين لهم في آن واحد.

ذات يوم، وبعد أن عدت إلى مسكني، اكتشفت أن شخصا ما قد سرق ساعتى كنت قد تركت الساعة مع أبويتي. كانت تلك خسارة قاسية، لأن حظى كان عاثرا في تلك المسألة؛ ولو كنت قد بعث تلك الساعة لحصلت على بضع ريات قليلة ثمنا لها؛ اتجهت شكوكى نحو جار مطمور من جيراني. هذه البلدة ليست متمدنة قياسا على الصحراء! كنت لم يمض على سوى يوم واحد في الدكان، يضاف إلى ذلك أن كل الرياش التي كنت استعملها في التطعيم كانت قد سرقت هي الأخرى: كانت تلك الرياش مصنوعة من العاج وقد كلفتني عشرة ريات ؛ وهذا أكبر مما كسبته (طوال عشرة أشهر) من ممارسة الطبابة في الجزيرة العربية. خطر لبالى من جديد ذلك العرض الذى سبق أن قدمه لى الكينى، والذى كنت قد تناسيته في ذلك الوقت ؛ ودار بخلدى أن الكينى لم يجدد ذلك العرض مرة ثانية! هناك كثير من المصادقات الذكية في الجزيرة : يضاف إلى ذلك أن كل قرش كنت أنفقه على شراء الخبز كان يباعد بينى وبين الشاطىء : وماذا يمكن أن يحدث لحياتى لوأنى، بفعل حادث سيئ ، افترقت عن أولئك الناس المحترمين الذين هم أصدقائى فى الوقت الراهن؟

٢- أصحاب الحرف فى هذه المدينة التى تقع فى وسط نجد (أى الذين ينتمون إلى فئة الصناع)، هم صناع السلاح، السماكرة، النحاسون، الصاغة؛ أما العاملون فى الصناعات الخشبية فهم، صناع الأطباق الخشبية ، وصناع الأقفال الخشبية، وصناع

سروج (عدد) الجمل، وصناع الأدوات الخاصة بإبل جلب الماء من الآبار، هذا بالإضافة إلى النجارين (غير الدقيقين) [نظراً لعدم وجود العدد والأدوات] ؛ أما عمال الأحجار فهم: قُطَّاع الأحجار، ومشكِّلو الأحجار، وعمال الرخام، وصناع هاونات طحن البن وما إلى ذلك؛ بنائو المنازل هم والمليسون. وقد نتطرق إلى أولئك الذين يمارسون أعمال الإبرة، مركبو القيطان ومركبات القيطان، والمطرزون ، وصنَّاع النعال، أو إن شئت فقل الغرازون. والخياطون والخياطات، على حد معرفتي، هم من أولئك الذين ينغمسون في الملذات. زد على ذلك أن الصَّاعَة، في مجالي الذهب والفضة، في عنيزة، ماهرون جداً في المشغولات الخيطية التي تصنع من الذهب والفضة: والبعض منهم الذين اتخنوا من مكة مستقرا لهم يقال إنهم يتفوقون على كل من عداهم في هذا المجال، في المدينة المقدسة. وعدنى الكنيى بأن يرينى شيئاً من هذه الصناعة الدقيقة في الجزيرة العربية؛ ولكن موجات عالمهم المتشدد سرعان ما أبعدتني عن ذلك الرجل.

الباعة، أناس من القماشين الذين يعملون في السوق وهم يبيعون البضائع الصغيرة [التي من بينها العقاقير الخام، وأبوية الإبل، وأرغفة السكر، والتوابل ، والصابون السوري الذي يجلبونه من المدينة (المنورة) كما يبيعون أيضاً البن اللازم لقوافل مكة (المكرمة)، هذا بالإضافة إلى باعة المأكولات . وفي الأحياء النائية توجد بعض الدكاكين الصغيرة العامة - البعض من تلك الدكاكين مملوك للنساء، حيث يبعن في تلك الدكاكين البصل، والبيض والمسامير، والملح، والكبريت (الألماني)، والخبز المخمر] كما أن البعض من تلك النساء الفقيرات قد يبعن شيئاً من الحليب، إذا ما تيسر لهن]. وفي يوم الجمعة، يستطيع الإنسان أن يرى النساء المحجبات وهن جالسات في المجلس ليبعن الدواجن ، وقراب اللبن، وقراب الماء، التي قمن بدبغها وإعدادها. والمهن غير الماهرة هي الزراعية، وتجارة الإبل والخيول. والأسر الميسورة هنا كلها من ملاك الأراضي الزراعية - أما التجار الأجانب الأثرياء في هذا البلد فقد كانوا خمسة عشر شخصاً.

الناس هناك لا يعرفون شيئاً عن الولايم في مدنتنا . والعرب لا يقلون تدبيراً عن الإسبرطيين، ولكنهم سعداء بالاعتدال الإبيقورى في دينهم. وعنيزة بلد متمدين وميسور أكثر من المدن الأخرى في الجزيرة العربية : وروح المثابرة هي التي تميز

سكان هذه البلدة من بنى تميم، بالإضافة إلى التفاهم الواضح - بالرغم من وجود التشدد الوهابي الديني.

عندما وجدت أن قلة قليلة من الناس هنا، هي التي بدأت تتحدى الأطفال وتمنعهم من ملاحقتي والجرى ورأى فى الشوارع، رأيت فى ذلك نذير شؤم لى ؛ ولكن الكينى لم يسبق له أن حذرني، كما أن زامل كان صديقا لى : كان اليوم يوافق أواخر شهر مايو. ذات يوم، فى فترة ما قبل الظهر، كنت عائدا إلى منزلى، ورأيت أقدارا موضوعة أمام عتبة دارى؛ كما قام بعض الأطفال بإلقاء بعض الأحجار على أثناء مرورى فى ذلك الشارع المنعزل. وبينما كنت جالسا داخل دارى، جاء أولئك الأطفال الأوغاد، وراحوا يدقون بابى؛ كان هناك صراخ عال وحاد: والجريئون من هؤلاء الأطفال تسلقوا الحوائط الجانبية إلى أن وصلوا إلى شرفة المنزل؛ وراحوا يلقيون الأحجار على عن طريق فتحه السلم. ووسط هذه الغوغاء سمعت صوت النساء الغاضبات وهن يقلن: " يانصرانى ستموت !- وهم على وشك أن يقتلوك!" مكثت ساعة كاملة دام خلالها ذلك الهرج والمرج : وصمد باب الدار، وبالرغم من كل ذلك الصراخ لم يجرؤ أولئك الأوغاد على النزول إلى المكان الذى يمكن أن يلتقوا فيه الكافر. فى تلك الساعة كان المواطنون المحترمون يستريحون فى بيوتهم، أو يشربون القهوة فى بيوت أصدقائهم؛ يضاف إلى ذلك أنى كنت أسكن فى مكان منعزل. وأخيرا جرى رفع الحصار عني؛ نظرا لأن بعض الأشخاص الذين مروا على بيتى كانوا عائدين من صحبة شرب القهوة، وعندما وجدوا تلك الضوضاء حول باب خليل، أبعدوا أولئك الأوغاد عن دارى، وراحوا يكيلون لهم كل تلك اللعنات التى ترد على السنة العرب.

بعد ذلك ، وعندما كنت أتجول فى البلدة، كان الصبية يجرون مع بعضهم البعض وهم يصيحون ويقولون: إنهم حاصروا النصرانى عند النواصى، وكانوا يلقيون عليه الحجارة من وراء ظهره؛ ولكن عندما كان الكافر يدير لهم وجهه كانوا يولون الأدبار. رأيت واحداً قادما نحوى - شخص ضخم من عامة الناس، والذي كان مريضا من مرضاى فى يوم من الأيام؛ وناديته كى يبعد الأطفال عني - غمغم ذلك الرجل قائلا: " اشتكى لزامل!" هذا الرجل نفسه حاول أن يتقى حجارة الأطفال، بأن دخل ليقف فى مدخل أحد أبواب المنازل، وتخلى عني فى الشارع. لقد استيقنت أنه ليس هناك أمهر

من العرب الذين يشبهون الفجر فى الرمى بالحجارة: كانت صواريخهم تدوى من حول رأسى، عندما كنت أتقدم نحو الأمام إلى أن وصلت إلى نهاية ذلك الشارع الذى كان مفضيا إلى طريق بريدة بالقرب من القاع Ga: مرّبى بعض المواطنين. وبعد ذلك مر خفاش ضخّم من أمام وجهى فاردا جناحيه القويين. توقف أولئك المواطنون وصاحوا "هو!" نظرا لأن الحجارة تساقطت خلفهم؛ ومن بينهم صاح مواطن فى شهامة الرجال، "ما هذا الذى تفعلونه، يا عيال؟ أخص ! أربكم الله! كان هناك حجر، لو لم يستدر خليل لكان ذلك الحجر قد قتله وأودى بحياته، وهو ضيف على البلدة، وعلى مرأى ومسمع من زامل." ولم يفكر أحد فى وصف هؤلاء الأطفال بأنهم أوغاد أو أنذال.

وجدت على الزنجى، وأقنعتة بالعودة معى؛ ويخلى الشوارع المحيطة بمنزلى من أولئك الأوغاد. وفعل ذلك بأن راح يطارد هؤلاء العيال eyyal؛ وعندما غضب وهاج راح يكيل لهم الضربات مستخدما فى ذلك عصاه، التى كان يهش بها فى أغلب الأحيان على الحوائط والجدران. بعض الجيران وجهوا اتهامهم إلى الحريم المتشدات، وإلى على الزنجى، الذى كشر عن أنيابه الزنجية وجرى خلف أولئك الأوغاد عله يضربهم؛ ولكن هؤلاء الجيران، كانوا يرجون علماً، ووعدوا أن يتولوا هم الأمر بأنفسهم. ولكنه رفع عصاه على واحدة من تلك النسوة المتشدات، ويصيح قائلاً: والله، إن لسانها سوف يقطع بأمر من زامل ' قال على بعد ذلك: "ستهدأ الأمور الآن يا خليل" وهنا رحت أشق طريقى متجها صوب المجلس؛ كى أشرب القهوة فى بيت البسام.

كان الكينى فى بيت البسام: كانا جالسين بالقرب من وجار القهوة، بالرغم من ركود الهواء. ولكن أهل الجزيرة العربيه يحسون شيئاً من الانتعاش عند ما ينتهون من شرب قهوة الصيف. ولأنى وجدت فى هذين الصديقين انفتاح القلب، الذى يمثل حياة الإنسان - وبالصغر وقصر ذلك الانفتاح! وجدت من الأوفق ألا أكشف لهما متاعبى، التى كان يمكن أن تدخل الحزن على قلبيهما. كنت على ثقة أن ذلك الضجيج وتلك الجلبة لن تتجدد فى المدينة مرة ثانية: ولذلك كنت فى عجلة من أمرى، ثم وقفت بعد ذلك لأرحل عنهما. لآمانى بعد ذلك لأنى لم أجلس للتحدث معهما، مما كان يجعلهما يلجان إلى زامل مباشرة. وأثناء عودتى وجدت الشوارع محاصرة بالقرب من بيتى، وأن العيال كانوا قد سلجوا أنفسهم بالمقاليع. وعليه اتجهت إلى السوق كى أتكلم مع جارى

رشيد، الذي كان ضابطاً من ضباط زامل- رأيت في دكان رشيد بعضاً من الطلقات الفارغة القديمة المتخلفة عن قذائف مدفعية إبراهيم باشا؛ والناس يستعملون تلك الدانات الفارغة هنا أهواناً لطحن البن، كما يطحنون فيها أيضاً الملح والفلل وما إلى ذلك. قال رشيد: 'لقد بلغ زامل خبر الشغب الذي أحدثه الأطفال في البلدة. وأنه أرسل للأوغاد وحذرهم؛ بل إن علياً قام بضرب البعض من أولئك الأوغاد: وأن الهدوء سيسود بعد ذلك، ويصبح بوسعي العودة إلى بيتي؛- ولكن خطر بيالي أن الأمر لم يكن كذلك. عدت من خلال السوق وأنا ضيق deyik الصدر es-sudr - فما هو ذلك القلب الذي يمكن أن يستقيم حاله، والإنسانية من حوله تجرّمه؟ لقد وصل الأمر إلى أحط مستويات الوحشية! وبخاصة أنني بدأت ألاحظ كثرة أعداد أولئك الذين كانوا يغمغمون في الدكاكين وفي الطريق العام عندما يروني أمشي في الطريق. ومن بين تلك الوجوه الكالحة التي كانت تمر عليّ، وجه ذلك الرجل الذي يدعى علياً، وإن شئت فقل الأمير التنفيذي، (الذي كان يحمل سيفاً بحكم أنه من كبار أبناء بيت الأمير). وهذا هو الشيخ نصير جاء يتحدث إليّ بون احترام أوتحية!- ولكن مرحباً بهذه الخبرة من الحياة الإنسانية. كانت الشمس قد غربت، وكانت الشوارع خالية من الناس، عندما وصلت إلى باب ذلك البيت المهجور؛ ولما كنت صائماً ومتعباً فقد رقدت على الأرض ورحت في سبات عميق.

حسبت أنني نمت ساعة، عندما استيقظت على صوت على الزنجي! وهو يصيح عند البوابة، "يا خليل- يا خليل! الأمير يأمر بك بأن تفتح الباب." ذهبت لأفتح له الباب، ونظرت خارج المنزل. كان الظلام دامساً؛ ولكنني لاحظت من خلال حركة الأقدام أن هناك أناساً كثيرين. على: الأمير يستدعيك؛ وهو جالس هناك (في الشارع)!" ذهبت وجلست إلى جواره: خطر بيالي، هل يمكن لزامل أن يأتي في هذه الساعة من الليل! وبعد أن سمعت الصوت الذي كن يشبهه صوت زامل، عرفت أنه شخص آخر." قال الصوت، إلى أين ستذهب - إلى الزلفي؟(*)"- أنا ذاهب عن قريب جداً مع ولد عبدالله البسام إلى جدة." "لا، لا، لا! (ثم قال وهو يضحك) : كما أن جدة بعيدة جداً : ولكن إلى

(*) الزلفي : بلدة من بلدان السدير من نواحي نجد. (المترجم)

أين ستذهب هذه الليلة؟" - على ، ما هذا الشيخ؟ "إنه على الأمير . وهنا أحضروا ضوءاً :
ثم رأيت وجهه، بصرامته الوهابية، والذي كان يشبه وجه زامل؛ وكان بصحبته بعض
من أتباعه ومعاونيه. "يا أمير على، الله يدخل والديك الجنة! أنت تعلم أنى مريض ؛ وأن
لى بعض الديون هنا فى المدينة، ثمننا للدواء؛ كما أن لم أذق الزاد طوال هذا اليوم .إذا
كنتم ترون أنى استحق ذلك دعونى أستريح فى هذا المكان إلى طلوع الصبح ؛ ثم
رحلونى بعد ذلك بسلام." - لا، جملك جاهز عند ناصية الشارع ؛ وهذا هو الجمال الذى
سيمسأحك : أنهض !وأخرج أغراضك (حاجياتك) وأسرع فى ذلك .هوا! فليدخل
البعض منكم مع خليل كى تعجلوا بالأمر معه." - وإلى أين سترسلنى هكذا بصورة
مفاجئة؟ ، أنا ليس معى نقود!" - ها- ها! هذا لايعنى لنا شيئاً، أنا أقول لك :أخرج." :
وبينما كنت أطيل النظر إليه، ضربنى ذلك الوغد بقبضة يده فى وجهى - ولو خانتى
غضبى لانهاى على الحاضرون بكل أسلحتهم- وكان على قد سحب سيفه من غمده إلى
منتصفه . قلت له: أعد السيف ثانية إلى غمده: هل نحن بحاجة إلى العنف؟"

كان رشيد، ضابط زامل، الذى يتصل بيته ببيتى من الخلف - بالرغم من أنه من
حيث المدخل، كان يقع فى شارع آخر، قد سمع الهرج والمرج فأتى لزيارتى، سعدت
عندما رأيت رشيدا يدخل بيتى، وكان يحمل سيفاً بأمر من زامل. سألته عما إذا كان
أمر على أمرا سليما؟ لأنى كنت أشك فى موافقة أصدقائى على هذا الأمر، وهم من
علية القوم بين المواطنين؛ كما كنت أشك أيضا أن زامل الفيلسوف، قد وصل به الحال
لحد إخراجى من البلدة أثناء الليل ! وعندما أخبرت رشيدا، بأن عليا الوهابى قد
ضربنى، قال لى على انفراد: "لا تستثيره، ولكن عجل ، والذى لاشك فيه أن هذا الأمر
صادر من زامل: لأن علياً لا يمكن أن يأتى من تلقاء نفسه ويضطررك إلى مغادرة
البلدة." نادى الأمير على من الخارج، "قل لخليل يسرع ويعجل بالخروج ! ألم يجهز
بعد؟" ثم دخل على بعد ذلك بنفسه ؛ وساعدنى رشيد فى وضع الأشياء فى الجوالات،
نظرا لوهنى وضعفى . قال للأمير على: إلى أين سترسل خليل؟ "إلى الخبيزة
Khubbera . - الهلالية EL-Helalieh أفضل، أم الرُّس er-Russ؛ نظرا لأن هاتين البلدتين
تقعان على طريق القوافل .- هو ذاهب إلى الخبيزة." قلت: طالما أنك تطردنى، فسوف
تدفع أجر الجمال؛ لأنى ليس معى سوى القليل جداً من النقود." الأمير على: "ادفع

للرجل أجرته، وعجل؛ أعطه ثلاثة ريالات ،يا خليل . " رشيد: " الأجرة إلى الخبيرة نصف ريال: خفض الأجرة ياأمير على. " "إذن فلتكن الأجرة ريالين، وسوف أدفع أنا الباقي. " لكن، قل لى: ألم يتحسن الناس فى مدينتكم بفعل أنويتى ؟ " "نحن لا نود أى شكل من أشكال الدواء. " "ألم أبلى بلاء حسنا وأميننا فى عنيزة؟ أجبنى على سؤالى بوحى من ضميرك. " الأمير على: "نعم، لقد أبليت بلاء حسناً. " "إذن، فلماذا هذه المعاملة؟" ولكنه صاح قائلاً: هل أنت جاهز للرحيل؟ أركب حالا " ! فى نفس هذا الوقت كان معاونوه قد سرقوا نعلتى (التي كنت قد تركتها خارج باب الغرفة)؛ وهنا صاح فى الزنجى الأمين، متهما أولئك المعاوين بالسرقة، "يا أنتم، أعيديوا إلى خليل نعلته! " تكلمت مع الأمير الفظ؛ الذى رد على قائلاً: " ليست هناك نعال: وراح الأمير يضحك على انفراد لذلك الذى حدث للنصرانى [لأن مسألة المعاناة من السير حافى القدمين على أرض الصحراء التى تتوهج فى ضوء الشمس أمر لا يطاق ولا يمكن تحمله] ". يصيح الأمير، هل أنت جاهز الآن؟ هيا، أركب! ولكن أدفع للرجل أجرته قبل كل شىء. " بعد ذلك، لم يعد معى مايكمل خمسة ريالات؛ كما سرقوا ساعتى: وكنت فى وسط الجزيرة العربية.

رحل رشيد : أخرجوا الأشياء وحملوها على الجمل البارك؛ وركبت الجمل. وتابعنى الأمير على هو ومن معه إلى أن وصلت إلى المجلس. " (قلت له): إلى من أنا ذاهب فى الخبيرة؟ " إلى الأمير، ولاتنس أن اسمه عبدالله العلى. " حسن ، أعطنى رسالة له. " "لن أعطيك أية رسائل. " سمعت عليا وهو يتكلم بصوت خفيض مع الجمال من وراء ظهرى ؛ كلام (خصم)، لاخير لى فيه وإلا لكان قد قاله علانية : وعندما ناديت عليه للمرة الثانية، كان قد عاد إلى بيته .كان الزنجى علياً، مضيفى القديم، مايزال معى؛ وسوف يصحبنى من باب الود والمجاملة إلى طرف البلدة. ولكنى رحت فى سنة من التفكير، أين أصدقائى الآن؟ قال الزنجى: زامل هو الذى أصدر أمرا برحيلى فى هذا الوقت، تحاشيا منه لأية اضطرابات أو قلاقل أخرى فى المدينة ؛ يضاف إلى ذلك أن السفر فى الصحراء أثناء الليل آمن منه فى النهار وربما يكونوا قد ضخموا لزامل ضجيج الصباح ؛ وهم على استعداد لفعل ذلك بصورة دائمة .

أخبرنى على أن رسالة وردت من مطوع بريدة مؤخرا إلى زامل وإلى شيوخ عنيزه أيضا؛ تستحثهم، باسم العقيدة المشتركة، بأن يطردوا النصرانى! هل يمكن

الوثوق بذلك الجمال ؟ وهل أهل الخبيرة طيبون؟" أجابني على مؤكدا، وأردف قائلاً: "أكتب لي عندما تصل؛ ولعلمك الخبيرة ليست بعيدة: وسوف تصل إليها قبل طلوع الفجر، وصدقني في كل ما أقول يا خليل، أنا أسف لما حدث لك." وعدني على أن يذهب بنفسه في الصباح الباكر إلى الكني، بطلب مني، أن يرسل تلکم الريالات القليلة التي هي ثمن الدواء: (وحسبما علمت بعد ذلك) لم يذهب على إلى الكني؛ والسبب في ذلك أن ذلك الزنجى تربى بين العرب، الذين لاتعدو وعودهم أن تكون مجرد كلام في الهواء، وأنها تكون لخدمة أغراضهم في وقت الحاجة إلى تلك الوعود. "استحلف ذلك الجمال أن يكون أميناً معي." على: "نعم، تعال هنا يا حسن! وأقسم على كيت وكيت." أقسم حسن؛ ثم رحل الزنجى عند سور المدينة. ومن السور انطلقنا إلى النفود المظلمة؛ وبدأ يلاقينا هواء الليل البراد قادمًا إلينا من الصحراء الرملية. الواسعة؛ مما أنعشني وحثني على الركوب: كنا في ذلك الوقت، في بدايات حرارة الصيف الخانقة في الجزء المنخفض من وادي الرماح.

بعد مسير ساعة بالجمال وصلنا إلى بستان مهجور ومبان مهدمة. هذه العزب توجد بأعداد كبيرة خارج البلدة. كان الليل حالك السواد إلى حد أننا لم نكن نستطيع رؤية الأرض من تحت أقدام الجمل. دخلنا في طريق أجوف من طرق النفود؛ ولكن ضاع منا ذلك الطريق بعد مسير أميال عدة. "قال حسن: هذا أمر طيب؛ لأن ذلك سيجنبنا خطر البدو المتسكعين." هبطنا ناحية الجانب الأيمن، وواصلنا مسيرنا راكبين الجمل عبر أرض سهل من السهول متماسكة التربة - وادي الرماح؛ وهناك شاهدت رذاذ ماء متجمع على شكل بركة، تخلفت عن الأمطار التي هطلت مؤخرًا على عنيزة. بداية الصيف في القصيم تكون على شكل زخات من المطر الحلو في شهر أبريل: كان الجو ساكن الريح بالفعل، وكانت السماء ثقيلة، ولم يسقط منها سوى مطر خفيف منذ بضعة أيام؛ كان بادياً أن ذلك الطقس سوف يستمر حتى شهر يونيو. شاهدت، في الصحراء، في العام الماضي، وذلك على بعد مائة فرسخ في اتجاه الغرب، جفافاً شديداً وأحسست بحرارة شديدة أيضاً في ذلك الموسم؛ كما شاهدت أيضاً (وذلك في فترات العصر) عواصف ورياح محملة بالغبار والتراب.

أحسبنا بالجمل مرة ثانية وهو يمشى فى النفود العميق؛ وواصلنا مسيرنا فى ضوء النجوم الخافت من فوقنا، وعند منتصف الليل، مررنا ببيارة من أدغال الوقود التى يطلقون عليها اسم غوطة ghrotha . وقد امتدح الناس هذا الحطب، الذى هو نوع من خشب الإثل - أخبرنى أصدقائى، وذلك نقلا عن بعض (كبار) شعرائهم؛ "يقولون): نار مشتعلة وحامية مثل نار الغوطة: "ونقلا عن الشيخ نصير، "النار المستورة فى هذا النوع من الخشب قد تنوم شهورا عدة، إذ إنها تحترق ببطئ؛ وهذا هو ما ثبت لهؤلاء الناس على مر الزمن؛ والسبب فى ذلك أن قوافل عزيزة أثناء عبورها الصحارى عثرت على جمار من نيران سابقة بقيت مشتعلة طيلة ثلاثين يوما." هذا النوع من الخشب ناره عبارة عن وهج له لون أحمر صافى؛ والفرع منه يشتعل كما لو كان شعلة؛ والناس هنا يفضلون خشب الإثل على أنواع الوقود الصيفى الأخرى، وقد اكتشفت أن الناس فى خير يقيمون غالبا ذلك النوع من خشب الوقود.

كان حسن، الذى زاملنى فى الرحلة، كراكب خلفى معى على الجمل، يعمل حطاباً. كان حسن يركب الجمل من كوخه أثناء الليل؛ وعند الفجر كان يصل إلى منطقة الأشجار، حيث يقوم بقطع الأغصان الجافة ويقوم بتحميلها على جملة؛ ليصل بها إلى عزيزة قبل دخول الظهر. كان حسن شريكا فى الجمل الذى تركبه - هذا الجمل كان سليما، وكان زامل شريكا فى ذلك الجمل، إذ دفع نصف ثمن الجمل الذى كان يقدر بخمسة عشر ريالاً. كان العائد صغيراً من تلك الصناعة أو الحرفة الخطرة والمؤلة فى الوقت نفسه؛ ومع ذلك كانت هى المهنة التى لم يكن ذلك الحسن يصلح لأى شئ سواها. سألته عن السبب الذى دفعه لأن يأخذ منى مبلغاً لا يمكن له أن يكسبه من حرفته تلك إلا على امتداد ثمانية أو تسعة أيام؛ أجابنى، أن النفود مليئة بالأعراب غير الأصدقاء، وأنه كان يخشى أن يضيع منه جملة؛ وأنه لم يكن له أن يخاطر بغير هذا الطريق، حتى وإن أدى الأمر إلى عصيان أمر زامل ومخالفته. - أبلغنى أن طردى تحدد هذه الليلة، خلال اجتماع للشيخوخ؛ وردد على أسماعهم، ولم يكن بين هؤلاء الشيخوخ أحد من معارفى. استمع حسن إلى كلام الشيخوخ؛ والسبب فى ذلك أن زامل أرسل يستدعى حسنا فى ساعة مبكرة، وطلب منه الاستعداد لنقل الحاج خليل: قال الأمير فى البداية إلى البكيرية el-Bukerieh التى تنهى فيها فرص أفضل لمرور القوافل؛ ولكن بقية أفراد المجلس كانوا يودون نقل خليل إلى الخبيرة.

- نزل حسن حول شيء لم أراه يستعمل من قبل في البلدان العربية، بالرغم من أن مسافري الليل هم والبدو يندر أن ينخدعوا بالأصوات التي تصدرها إبلهم: ولف حسن مقوده حول خطم ذلك الحيوان الضخم الذي يشبه الوحش! الأمر الذي جعل الجمل يتوقف عن الشكوى والعواء. لم يسبق لى أن أضناني الألم مثلما حدث لى فى تلك الليلة، وأنا جالس على سرج (عدة) صلبة وخشنة من هذا القبيل: هذا الخطو المتعب لذلك الجمل، الذى لا يريد أن يحمل سوى الحطب فقط، تولد عنه من خلال ساعات الظلام الطويلة الألم من ناحية والتعب من الناحية الأخرى. ما الذى يمكن أن أظنه فى زامل؟ هل أخطأت، أنا، كثيرا فى تقديرى لهذا الرجل وتقييمى إياه؟

شد حسن فى النهاية مقود الجمل؛ وفتحت عيناي لأرى الشمس فوق كتف النفود: ونزل رفيقى لأداء الصلاة؛ وكشف لى ضوء النهار، ذلك الوجه الغريب الذى يشبه وجه النسناس. كنا قد قطعنا شوطا كبيرا أثناء الليل؛ وهذا الحسن، الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاما، لم يعبر النفود إلى الخبيرة منذ أن كان طفلا. ومن الكثيب الرملى التالى، بدأت تطالعنا أعراف نخيل الهالاية. كان بحر الرمال يتراعى لنا على شكل موجات من الريح، وعلى شكل ضفاف وغدران: وكنا نحن الاثنين نركب كل هذه الأشياء ونسير فوقها؛ وعندما ارتفعت الشمس عن الأرض بدأت تظهر لنا بلدة الخبيرة [ويصح فيها أيضا الخبراء Khobra] بلا نخيل أو إخضرار. لم تكن الأرض المنزرعة على مرمى البصر؛ إنما كانت تقع على بعد خمسة أميال فى قاع وادى الرماح، وكانوا يطلقون عليها اسم القرية geria. [أنظر ص ٢٦٠] وسط هذه البلدة المبنية فى النفود المنخفض، يوجد برج مراقبة عال مبنى من الصلصال حسن: "لا تقل عندما نصل إلى ذلك المكان، أنا نصرانى، لأنهم قد لا يستقبلونك بناء على ذلك." - ألم يسمعوا عن النصرانى، من عنيزة؟ - ربما يكونوا قد سمعوا؛ نظرا لأن حركة النقل تتزايد فى ذلك الوقت بسبب نقل الحبوب إلى آل - البسام، الذين يقرضون المال للناس.

أبصرنا بعضا من رذاذ الماء على بعد مسافة قصيرة من الطريق الذى كنا نسير فيه. قال حسن: "هيا بنا إلى ذلك الماء." نحن لدينا ماء فى القرية، وسوف نصل إلى المنطقة المأهولة بالسكان. وهنا بدأت أرى مرة ثانية، أن حياتى هانت على الناس وأن الوضع هنا سيكون أسوأ مما حدث لى من جمال بريدة (الذى كان يحمل الاسم

نفسه) الذى تخلى عنى بالقرب من عنيزة، ففى عنيزة، كان هناك أمل فى زامل: أما الخبراء، فهى بلدة مسكينة وفقيرة، يسكنها الفلاحون، كما أنها مستوطنة قديمة من مستوطنات القحطان ، وهى تخضع لسيطرة بريدة؛ وكانت تبعد عنا مسافة ميل تقريبا - "سوف تضعننى فى وسط البلدة؛ لأنك أخذت رياتى نظير القيام بهذا العمل." وبالرغم مما قلت برك حسن جملة من تحتنا؛ ونزلت عن الجمل، وجاء حسن لينزل أشياء عن الجمل. منعته من ذلك، وتناولت لفافة كنت أضع مسدسى بداخلها، وهنا شاهد ذلك البائس ذلك الشيء المعدنى فى يدي - "أيها الرفيق، إذا كنت خائفا من دخول البلدة، فسوف أركب أنا بمفردى إلى بوابة البلدة، وأنزل عن الجمل أمامها؛ وعليك أن - تأتى وتأخذ جملك: ولكن أرجو ألا تقاومنى وإلا فتحت النار على الجمل؛ لأنك بعت حياتى." رد على ذلك الوغد، أنا أحمل هذا الرمح لكى يعيننى على أولئك الذين يودون أن يأخذوا منى ناقتى." - وهنا توجهت إلى الناقة؛ وأخذت المقود فى يدي حتى أقتادها إلى الخبراء.

كان هناك رجل من البلدة على مقربة منا؛ وكان ذلك الرجل قد لاحظ خلافنا ، فجاء يجرى نحونا: "أوه! ما هذا؟ (تسأل الرجل)؛ السلام عليكم." حكيت له الموضوع، وحكى له حسن أيضا، ولكنه لم يذكر أنى نصرانى : كما أن ذلك الرجل لم يرانى عندما كنت مسلحا. أفاد ذلك الرجل أن الغريب صاحب حق؛ وعليه ركبنا الناقة واتجهنا صوب سور البلدة. ولكن الناقة غير المدربة رفضت تخطى بوابة البلدة: ونزلنا من فوق الناقة وقيدنا رجليها بحبل، وتركناها ؛ وأجبرت حسنا على أن يحمل خرجه على كتفه، ويمشى أمامى - وعليه وصلنا إلى المكان العام ؛ وأنزل أشياء فى ذلك المكان وكان يمكن أن يتخلى عنى؛ ولكنى لم أطق ذلك. وجاء بعض من أهل المدينة وحكموا أنى على صواب، وأن حسن يتعين عليه أن يحمل الأشياء ويوصلنى بها إلى مقهى الأمير.

سمعتهم يقولون من وراء ظهري: "إنه غريب!" وأن الكثيرين من أهل الخبراء هم من الجمالين بل ومن أولئك الحجاج الذين يذهبون إلى الأماكن المقدسة كل عام، وأنهم شاهدوا كثيرا من الغرباء - دخلنا صالة القهوة ؛ حيث كان يجلس فيها وحده رجل ضريير كبير السن - هذا هو على والد الأمير؛ الذى نهض واقفا عندما سمع صوت القادمين، وراح يتحسس الجدار وبدأ فى تصليح القهوة. جلس أولئك الذين دخلوا من

بعدى كل حسب عمره ووضعه بجوار حائط المقهى فى الجوانب الثلاثة. وبعدهم بوقت قصير دخل الأمير بنفسه ،الذى كان عائدا من الحقول؛ هذا الأمير فلاح حسن المظهر وتبدو عليه الرجولة والشهامة أرسلوا فى طلب رفيقى حتى يشرب معنا القهوة؛ ولكن حسنا بعد أن وضع أشيائى ،تسلل خارجا من بوابة بلدتهم مرة ثانية جلست الجماعة وكلهم صامتين ،إلى أن يتم تصليح القهوة؛ وعندما كان البعض منهم يسألنى ، كانت البقية هى التى تجيب قائلة، " لكن ليس بعد." كان بعض الشباب يتناجون فيما بينهم، وعندما كانوا ينظرون إلى الأعلى فيما بين تهامسهم ،كانوا يطيلون النظر إلى . واتضح لى أنهم عرفونى على أنى ذلك الغريب الذى سبق أن مر على بريدة - أوإن شئت فقل ذلك النصرانى الرحال.

بعد طردى من عنيزة على هذا النحو ،كنت أعانى من إرهاق وضيق شديد؛ ولما كنت هنا بلا نقود فى وسط الجزيرة العربية، رحت أتأمل وأفكر فى كل من الكينى والبسام اللذان كانا صديقين طيبين لى فى الفترة الأخيرة. ترى، هل تخليا عنى؟ هل سيرسل الكينى لى النقود؟ وما طول المدة التى سيتحمل هؤلاء الناس طوالها وجودى بينهم؟ ومن منهم الذى يمكن أن ينقلنى إلى أى مكان بلا مقابل؟ وأنى أصبح يتعين على طلب الثمن من أولئك الذين يقدرون على دفع ثمن أنويتى أى من أولئك الذين ليسوا فقراء : وقد يكفى ثمن الدواء لشراء الخبز الذى قد أحتاج إليه. أما المسكن فيمكننى الحصول عليه بالمجان . وقد لاحظت من النظرات الفاحصة، ومن النظرات الجانبية، عندما ذكرت اسمى أمام الحاضرين ،أنهم جميعا يعرفونى، " غدا سيتم إجراء كل هذه التحريات." سمعت الأمير نفسه وهو يقول همسا، " سيرسلونى إلى الهلالية، أوإلى البكيرية Bukerieh." كانت قهوتهم من أردأ الأنواع: كان يبدو أن مضيفى من أهل الخبراء كانوا من أرباب العائلات الفقيرة.

لم يتبق فى المقهى سوى على العجوز؛ الذى أقترب منى وجلس على الأرض معتمدا على يديه، إلى جوار الحكيم؛ وحملق فى بعينه اللتان لاتبصران، ثم سألنى إن كان لدى نواء يساعده على الإبصار؟ وجدت أن عينيه سلیمتان فقال الأمير، وهو يدخل علينا مرة ثانية: " إى، ساعد والدى! لأنه عزيز على." سألت الأمير، " هل أنا آمن هنا؟". "إذا كان لابد من أن أجيب على ذلك ؛ أبق معنا هنا وعالج والدى، وسوف نرى مايمكن

عمله. ووعده على العجوز بأنه سوف يرسلنى إلى الرس فى أمان - والرس لا تبعد سوى أميال قليلة - ومن الرس أستطيع الركوب مع قفيلة(*) السمن (الملكية) ، إلى مدينة جدة. وأهل الرس يقولون: [الرُس 'er-Russ بدلا من 'الرُس'] وكلهم من عمال القوافل. سألت عن موعد قيام القافلة؟ "قد تبدأ بعد فترة؛ ولكننا سوف نتأكد من الموعد". لم يكن معى مايكمل خمسة ريالات [حوالى عشرين شلناً] بالإضافة إلى هذه الجوالات، فهل هذا يكفى؟ "نعم، أجاب الرجل العجوز، أعتقد أننا سنجد من ينقلك بهذا المبلغ."

بينما كنا نتكلم دخلت علينا، بأصواتها النشاز، وصليل سيوفها، وينادقها جماعة من الغرباء؛ كانت تلك الجماعة من قوات الجمالة التابعة لأمير بريدة، وهذه الجماعة تشبه جماعة الرجاجيل التى سبق أن رأيناها فى حائل. كان هؤلاء الجمالة قد ركبوا أثناء الليل؛ نظرا لكثرة اللصوص فى الصحراء هذه الأيام، ركبوا بنادقهم القتيلية على الجدار، وعلقوا سيوفهم على أعمدة الخيام، وجلسوا أمام وجار القهوة وقد علت وجوههم ابتسامات مقلقة؛ وحيونى أنا أيضا : ولكنى كنت أنظر إلى هؤلاء الرجال الوقحين بشيء من الخوف؛ مخافة أن يكونوا مكلفين من قبل حسن بإساءة معاملتى : وبعد شرب القهوة صعدوا إلى غرفة علوية كى يناموا فيها . وفى صباح الغد شعرت بالارتياح الشديد عندما سمعت أن أولئك الجمالة رحلوا، فى ساعة مبكرة، قاصدين بلدة الرُس : هؤلاء المراسلون الموفدون من قبل ولد مهنا، كانوا يقومون بالمرور على الواحات التابعة [لبريدة] لدعوة شيوخ القرى لحضور مجلس من المجالس العامة.

أعطانى على العجوز بيتا خاليا مجاورا لبيته، كى أقيم فيه، ولكى ينقلوا إليه أشياء وزكائى . وعند الظهر، اقتادنى ذلك الضير بنفسه، وصعدنا الدرج إلى غرفة فى الطابق العلوى؛ حيث وجدت وجبة هزيلة جرى إعدادها لى، وكانت عبارة عن شيء من التمر وخبزا مخمورا ومعها شيء من الماء. كان ذلك الرجل أميرا، أو بالأحرى عمدة الخبراء، تحت حكم بريدة، إلى أن أصيب بالعمى؛ وعندما خلفه ولده، وهو رجل فى منتصف العمر حاليا؛ والذي كان العجوز يحدث الناس كلهم عنه بأنه هو 'الأمير'. كان

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيرا لكلمة القافلة . (المراجع)

الرجل العجوز قد اتخذ لنفسه مؤخرا زوجة شابة، وعندما لا يكون هناك غريبا، فإنها كانت تجلس يوما إلى جوار زوجها العجوز؛ ويبدو أنها كانت تحبه حبا جما. كان لهما ولد صغير؛ ولكن ذلك الطفل كان ضعيف البصر بسبب التهاب أصاب عينيه. طلب العجوز من زوجته أن تجلس مع الطفل في وجود الحكيم؛ وراح يداعب ابنيهما الصغير بيديه المستنتين، ثم وضعه أمام الحكيم.

بدأ على العجوز يحاورني في مسألة الدين؛ محاولا أن يفرض على تسامحه طوال فترة التحاور. وسرُّ الرجل عندما سمع أن هناك حكما مقدسا لحيوات البشر في الدين المسيحي أيضا - "يا الله! أنتم أناس طيبون، ولكنكم لستم على الطريق المستقيم، أي الطريق الذي يرضى الله؛ وبالتالي فأنتم لاتستفيدون شيئا. الله وهبك المعرفة حتى تعرف الحقيقة وتقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله." دخل علينا فجأة رجل أصم أفسد علينا حديثنا؛ وطلب قبل أن يجلس؛ أن أعالجه من مرضه؟ سألته، ماذا ستعطي الحكيم إذا مادلك على الدواء؟ رد الرفيق، "لا شيء بكل تأكيد! هل تود أجرا على مجرد الكلام. ألن تدلني على ذلك الدواء؟" إغ! وبدأ غضب ذلك الرجل يتزايد. على: "يارجل، هذا الكلام لا يليق بك أن تخاطب به الحكيم، الذي سيساعدك إذا استطاع إلى ذلك سبيلا." قلت: أطلب منه أن يصنع قرطاسا من الورق بحيث يكون واسعا من ناحية، ويضع الطرف الضيق في أذنه؛ وسوف يتحسن سمعه." هذا الرفيق، الذي خطر بباله أن النصراني يستخف به، تحمل كلامي على مضض. "قال الشيخ العجوز: لا، إذا كان الأمر لا بد منه، فقد يكون لذلك حكمة أوسببا؛ وما عليك إلا أن تفعل مثلما قال خليل." ولكن ذلك الأصم لم يواصل الجلوس معنا. (غمغم) النصراني الملعون، الذي حياته بين أيديهم، يحتقره على هذا النحو! وانسحب بعيدا عنا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وجاعنى شاب صغير السن، يشتكى لى من بؤس بلاده؛ قال: ليس فيها من شيء سوى الضوضاء والجلبة الناتجة عن سوانى (سواقى) الماء. لى شقيق مستقر ومقيم فى الشمال؛ وأنا أقسم بالله أنى لو كنت أعرف أين هو، لذهبت إليه، وماعدت إلى هنا مطلقا. "وتترك والدك العجوز وأمك يموتان! وتنسى معارفك؟" ولكن أصدقائى سيكونون من بين أولئك الذين أقيم بينهم. هذه هى عقلية الكثيرين من سكان القصيم.

وصل إلى الخبراء فى الصباح شابان كانا يركبان ناقة، جاءا إلى بحثا عن العلاج الذى يقدمه المداوى؛ كان الأول يبحث عن علاج لعينه أما الثانى فكان يبحث عن علاج لأحشائه. كان هذان الرجلان من بيارة نخيل وحقل من حقول القمح الواقعة على أطراف الخبراء، هذه البيارات هى وتلك الحقول عبارة عن قيعان من الغرين (الطمي) وإن شئت فقل: هى رياض فى الوادى ؛ وهذه الرياض تقع فى منتصف الطريق الواصل بين الخبراء والرس. وعندما سمعا، أنهما يتعين عليهما أن يدفعا ثمن الدواء الذى يقدر بإحدى عشر بنسا. وهذا ما يعادل أجر عامل (هو وغذائه) طوال ثلاثة أيام. أثرا أن يبقيا على مرضهما لعدة سنوات أخرى، مرضاة لله، على أن يقامرا ويدفعا ثمن الدواء - "لا، عالجنا، وسوف ندفع لك الثمن بعد اكتمال الشفاء: وإذا ماساعدتنا أبويك على الشفاء، ألن يسارع المرضى بالقنوم إليك من القرى كلها ؟" ولكنى لم ألق بالآ لكلامهما؛ وبعد أن وجها إلى الكثير من التوبيخ واللوم، ركبا الناقة أسفين ليعودا إلى محل إقامتهما.

اكتشفت ذبوع صيتى الطبى فى الخبراء ! نظرا لأن واحدة من مرضاى فى عنيزة كانت من أهل الخبراء: هذه المريضة استطاع غسل النصرانى أن يحسن بصرها إلى حد ما؛ واكتشفت أيضا أن تلك الشهرة ذاعت أيضا فى النفود وسرعان ما استدعيت لزيارة شخص مريض. وعند باب القهوة، طلب الطفل الذى كان يصحب الحكيم الانتظار برهة - وهذا مناقض لعادة الكرم فى الجزيرة العربية - فى حين دخل الطفل ليخبر أهل المنزل بمجىء الحكيم. سمعت الطفل يقول : " جاء الكافر؛ وجاء الرد على الشاكلة نفسها - دخلت بعد ذلك وجلست بينهم؛ ولت رب الأسرة على ذلك الاستقبال والمعاملة غير المتحضرة. ونظرا لأنى كنت محقا فيما قلت، فلم ينبس أحد منهم ببنت شفة، بل ظلوا صامتين ويشعرون بالخجل؛ وسارع مُصلح القهوة إلى صب فنجال لى: ونهضت واقفا وتركتهم جالسين - تعجبت من صمت الناس فى الخبراء! لم أر أحدا منهم فى الشوارع؛ لم أسمع أصوات هاونات القهوة تدوى فى هذه البلدة المبنية من الطين . فى تلك الأيام ، كان السواد الأعظم من أهل الخبراء غائبين عنها، مشغولين بدرس وغريبة محصول القمح: كان موسم الحصاد خفيفا نظرا لأن المحصول أصابته ندوة قبل نضجه بفترة قصيرة. مبانى قرية الخبراء بدائية وغير منظمة ؛ وهذه القرية

لا تختلف عن القرى والبلدان الموجودة في أعالي سوريا. مررت خلال شوارع طويلة لا تسر خاطر وعلى جوانبها أكواخ من الطين وشبه خربة؛ وفيما عدا طاولات القصابين، ودكان الحداد لم أر أية محلات أودكاكين أخرى في البلدة. ومسجد البلدة قريب من المجلس ، وهو مبنى منخفض من اللبن: وبالقرب من ذلك المسجد شاهدت بئرا مذاق مائها مالغ - عمق تلك البئر عبارة عن قامة واحدة تقريبا، والناس هنا يتوضؤون من تلك البئر قبل الصلاة. والبلدة ليس فيها ماء يصلح للشرب، نظرا للوحة الأرض ؛ ولكن ربات البيوت يتعين عليهن الخروج إلى مسافة بعيدة ليملأن قراب الماء. وبرج المراقبة في الخبراء مبنى من اللبن (الطين) - وهو مبنى على شكل غرفة من الأسفل ، ويرتفع مستدقا، وهذا البرج مبنى وسط المجلس الذي تبلغ مساحته ربع فدان؛ وفي هذا المكان (متما هو الحال في بلدان القصيم كلها) ينعقد سوق الجمعة ؛ في الوقت الذي يفد فيه البو الرحل لصلاة الجمعة في المسجد، ويجلبون معهم الإبل والسمن والماشية الصغيرة.

- قبيل الظهر : رأيت ثلاثة أشخاص يجلسون على مصطبة من اللبن، في المجلس الواسع المهجور، فذهبت للجلوس بجانبهم. كان وجه أحدهم يشبه أهل العصر الحجري؛ كانت هناك تكشيرة شرسة تظهر على محيا ذلك الرجل بين لحظة وأخرى. سألت الرجلين الآخرين اللذين كانا جالسين يتتاعبان وغير مباليين: وبدءا هما أيضا يسألاني عن ديني. قال الرجل شرس الملامح متعجبا : " ياليت نحضر الآن سكيننا ونضعه على رقبتك ! هذا والله لو فعلناه سيكون شرعيا، لأن هذا هو رأي المطوع؛ كما أن النصراني لا يعترف بأن لا إله إلا الله ! Ullah ، وقل: بسم الله Bismillah الرحمن er-rahman الرحيم er-rahim ، واقطع رقبتك ؛ وجج juج juج وسيل دم هذا الكافر مثل دم شاة أوجمل عندما تذبحه: سوف أجرى الآن وأستعير سكيننا .- قالوا: لا أنت لا يجوز لك أن تفعل ذلك . سألتهما، "أليس ذلك الرجل بدويا؟ ولكن ما رأيكما يا صديقاي؟ أهذا صح أم خطأ؟" نحن لانستطيع البت في ذلك : هذا من شأن الدين ! يا خليل؛ ولكتنالا نفضل العنف، - نعم، إنه بدوي."- من أي قبيلة أنت، يامن تلبسك الشيطان؟" أنا حربي. (*) "أنت تكذب! الحرييون أناس أمناء:

(*) أي من قبيلة حرب. (المترجم)

ولكنى أعتقد يا صديقاى أن هذا الرجل عوفى. - نعم، وحياة الله! أنا فعلا من عوف؛ كيف عرفت ذلك، يا نصرانى؟ هل النصرانى يعرف كل شىء! - إذن، يا صديقاى هذا الرجل نشال، وسفاح مع الحجاج الذين يذهبون إلى مكة (المكرمة) وهو ملعون من الله ومن الناس! - رد الباقون قائلين: "والله إنهم ملعونون، وأنت تقول الحق: يا خليل، لنا ديننا ولك دينك." ولكن العوفى ضحك ضحكة كبيرة ها ha - ها ha - هى hi هى hi هى hi ! لأنه سمع أنه هو وجماعته يتحاكي الناس عنهم فى العالم. قال العوفى: إى، بالله، نحن سفاحى الحجاج. - ضحكوا منه ؛ وعليه تركتهم وذهبت لحال سبيلى.

عندما شكوت للأمير من كلام العوفى، قال: - وهو يهز العصا فى يده، "لاتخف من أى شىء ! وفى الوقت ذاته عالج الرجل العجوز والدى: ووالله، إذا ما قال أحد شيئا ضدك، فسوف أضربه إلى أن ينتهى منه التنفس!" - قال الناس عن الأمير: إنه فقير ومدين: "والجزء الأكبر من محاصيلهم هنا يزرعونه لحساب البسام؛ الذى يحصل منهم فائدة بواقع عشر أو اثنى عشرة بالمئة: وإذا ما دفعت نقدا فإنهم يأخذون الريال ريالا وثلاث الريال. لم أرى الأمير أو ألقاه بعد ذلك ؛ وقال لى ولده: إنه ذهب إلى البكيرية، ليركب منها أثناء الليل قاصداً بريدة: وهم يسافرون فى الليل تحاشيا للبدو. فى العام الماضى كان عبدالله ومعه خمسة عشر رجلا عائدين من الحج، ولم يكن يتبقى أمامهم سوى أميال قليلة، يصلون بعدها إلى محل إقامتهم، ويعدأن تركوا قافلة بريدة، طلع عليهم اللصوص من البدو وجربوهم من نياقهم.

كان أهل الخبراء الذين عاشرتهم أناسا يشبهون الفلاحين وبخلاء وغير بشوشين. لم يدعونى أى منهم لتناول القهوة، لم أر لهؤلاء الناس شبيها فى الجزيرة العربية، حتى بين أولئك السود الذين كانوا يعيشون فى خيبر: هذا المكان يحتوى على مايقرب من ٦٠٠ بيت. الكثيرون من هؤلاء الناس كانوا يعملون ضمن قوات العجيل فى المدينة المنورة؛ ولكن الرواتب التركية توقفت منذ فترة طويلة، وبالتالي تخلوا عن تلك الخدمة. الخبراء عبارة عن موقع خال من أى نوع من المرافق، والخبراء يحيط بها سور من اللبن: ومن الغريب فى هذا البلد الصحراوى، ألا يسمع الإنسان صراخ السوانى (السواقى) ونعيرها! وكان الأمير هو ووالده العجوز أفضل من التقيت فى هذا البلد.

-خطر ببالي، أن الكنينى لايمكن أن يتخلى عني! ولكن ها هو اليوم الثانى قد انقضى على هنا فى الخبراء. وهذا هو ثالث يوم تشرق الشمس على فيه هنا وقد دخل علينا وقت الظهر؛ وهنا ذهبت، وأنا أشعر بالقلق لنيل قسط من الراحة فى مسكنى. وفجأة سمعت طرقا على الباب، ومع الطرق سمعت بعض الأصوات الشابة أمام الباب، - افتح ، يا خليل! لقد أرسل زامل فى طلبك. فتحت المزلاج؛ ورأيت حسن الجمال واقفا على عتبة الباب! هل أحضرت معك رسالة؟- أنا لم أحضر معى رسائل. أدخلته على على العجوز، لعله يستمع إلى حكايته. لقد استدعانى زامل، ليرسلنى مع القفيلى التى ستتوجه إلى جدة. ولكننا علمنا أن القافلة لن تكون جاهزة قبل مرور بضعة أسابيع! وهنا سألت إن كان بوسعى أن أركب عائدا إلى عنيزة اعتماداً على كلام ذلك الحسن؟ ربما كان من مصلحة ذلك الرجل العجوز أن أبقى هنا فترة من الوقت من أجل رعاية عينيه. قال العجوز، هذا كلام طيب، اذهب يا خليل، ولاتدع الشك يراودك مطلقاً! اذهب فى حفظ الله وأمنه! طلبت من العجوز بعض القوارير، وأعددت له بعض المحاليل التى يستعملها فى غسيل عينيه بعد أن أغادر المكان: كان ذلك السيد العجوز سعيداً بتلك الذكرى الطيبة.

قطعنا مسافة أربعة أميال عبر النفود، إلى أن وصلنا إلى الهلالية: شاهدنا جبل ساق Sag الوحيد، الذى يشبه ثمرة الأناناس، عن يسارنا، وعلى بعد أميال كثيرة. والعرب يقولون: إن صخر هذا الجبل صلب وشديد الاسوداد. وربما كان ذلك صخرا بركانيا على حدود منطقة رملية. وعندما بدأنا نقرب، شاهدت أنواعا أخرى من النخيل، كما شاهدت برجاً عالياً من أبراج المراقبة، على بعد مسافة ميلين؛ كما شاهدت أيضاً واحة أخرى، هى واحة البكيرية: وفيما بين هاتين المستوطنتين يوجد مكان عثر الناس فيه على "عظام بشرية" مختلطة ببقايا جمر منطقي، وعظام بعض من الماشية الصغيرة؛ والناس هنا يعزون كل ذلك إلى بنى هلال - الذين اشتق اسم القرية من اسمهم، والتى وصلنا إليها الآن. والبكيرية عبارة عن محطة من محطات الجمالة؛ وأهل البكيرية يتجرون مع البدو. وبعض من أهل البكيرية أثرياء؛ وكانوا فى بداية الأمر يتجرون بواسطة النقود التى كانوا يقترضونها من البسام.

قرويو كلا من الهلالية والبكيرية (وهما مستوطنتان سبيعيتان(*) قديمتان) يفضلون أن يكونوا تحت رئاسة زامل وعنيزة على أن يكونوا خاضعين لحسن ولد مهنا - الذى يقولون عنه إنه جبار jabbar : وهم يدفعون الضريبة لبريدة بواقع خمسة فى المئة. هذه النسبة يذهب منها الربع لأمير المكان أوإن شئت فقل: عمدة المكان؛ وكان نصف المتبقى من تلك النسبة يذهب من قبل إلى ابن سعود، ومابقى بعد ذلك يمثل دخلا أو متحصلات لأمرء بريدة؛ ولكن ولد مهنا، فى الوقت الراهن، يحتفظ بالنسبة (التي كانت تعطى للوهابى - والقمح فى هاتين المستوطنتين يقيم بالمكيال أما التمر فيقيم بالوزن. والهلالية فيها أبار قديمة كثيرة وهى من "أبار بنى هلال". وبلدة الزلفى thlfa تقع على بعد بضعة أميال فى اتجاه الغرب، وهى قرية قديمة، وبالقرب من منتصف الطريق توجد هجرة (كفر) صغيرة يطلقون عليها اسم الشيهية Shehieh: وهى تبعد مسافة نصف رحلة عن البكيرية، وعلى ذلك الجانب توجد أيضا بعض حقول القمح الشتوى وبعض مزارع بريدة - نادانا رجل ونحن ندخل البلدة، من الذى معك يا حسن؟ - أجابه الرفيق، كلب نصرانى [هذا هو النجدى الوحيد من الجزيرة العربية الذى أهانتى على هذا النحو]، وليس عندى ما أقوله غير ذلك؛ وأنا أتقله مرة ثانية إلى عنيزة حسبما طلب منى زامل. - هذا المخلوق الخبيث الذى يعمل لى جمالا، والذى يتسبب شكله الغريب وملامحه الغريبة فى اضطراب النفس، يسمه الناس هنا المسحور mishur. وأنا عندما شكوت من ذلك الوغد فى قريته - بالرغم من أنه يعيش فى عنيزة منذ طفولته، قالوا لى: "إي، إنه مسحور، ياله من مسكين! Mesquin - مشينا فى الشوارع ونزلنا مكانا دلنا فيه بعض القرويين على مكان القهوة فيه.

دخل معنا رجال كثيرون؛ وتركوا المكان المرتفع للضيف ؛ وهذا المكان يكون بجوار الشخص الذى يقوم بتصليح القهوة. وسرعان ما دخل علينا مضيف مهنم ويبتسم، وهو يحمل شيئا من حبوب البن فى يده: ولكنه سرعان ما وجه لى كلمة مريرة مثل قهوته تماما، "كيف تنتقل؟ أيها العدو adu (بمعنى عدو الله)!" وكلمة 'عدو' من كلمات القرآن ؛ ولكن ذلك المضيف كان من قراء القرآن - أنا رجل

(*) مستوطنتان سبيعيتان : أى تابعتين لقبيلة السباع أو قبيلة سبيع . (المراجع)

أبلغ من السذاجة حدًا لا أستطيع معه إثارة المتاعب مع رجل حكيم كهذا : وهل كل جمل مسلم أيضا؟" أجاب ذلك القروي المتحذلق ، الجمل مخلوق من مخلوقات الله ، مخلوق غير عاقل؛ ولا يمكن أن يكون له دين. - "إذن اعتبرني جملا: وأنا أيضا أدعو الله أن يعطيك شيئا من الأوجاع التي أحسها في عظامي المتعبة ؛ والآن، تغاضى عن أخطائي، أنا الذي جئت هنا لأشرب القهوة. " ضحك الباكون، وهذا مؤشر من مؤشرات السلامة عند العرب؛ ربوا على، "إذن مايقوله منطقي وعقلاني ؛ ولا تضايق خليلا، لأنه مرهق تماما. - ولكن قارئ القرآن أثار موضوعاً دينيا كبيرا: "لماذا لا تتخلى، أيها النصراني ، عن دينك (...) (*)؛ وتتحول إلى الدين الصحيح، دين المسلمين؟ وتعترف أمامنا بأن 'لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله'؟ ويصبح الرجل، ونظراته توحى بالعنف ، أقول لك: أقسم بالارتداد عن دينك، يا خليل. " وجدت أن من المناسب تهدئة ذلك الرجل : بداية الخلاف كانت حزبا من أحزاب الجزيرة العربية، ولذلك فهم يعتقدون يوما أن المسألة سيف ليس إلا. - ما الذي فعله لك اسمك ؛ لأنني يبدو أنني أبلغ من صغر الفهم حدًا لا أتمكن معه من استيعاب أشياءك العالية. " انتفخت أوداج القروي عندما سمع واحداً من أبناء النصاري بمجده. " أردفت قائلاً، لا تقل أكثر مما قلت: إن من ألقاني على هذه السواحل، قادر على تقييم الحياة المستقيمة لمصل يقف أمامه. أما فيما يتعلق بي أنا شخصيا ، ألم أولد مسيحيا، بفعل العناية الإلهية؟ ، إن هذه العناية الإلهية خير؛ إذن فقد كان من الخير أن أولد مسيحيا ؛ ومن الخير لي أيضا أن أعيش مسيحيا ؛ وإن شاء الله أموت مسيحيا : وأنا لو كنت أخشى الموت، لما كنت مسيحيا! " غمغم ذلك المتحذلق ، " ولكن لو كان خليل يعرف القراءة والكتابة - إلى الحد الذي يستطيع معه قراءة كتابه المقدس ، لاستطاع تمييز الحق، ألا وهو أن محمداً هو خاتم الأنبياء ورسول الله. "

استطعت هنا أيضا ابتياع شيء من الراحة بالعلاج الذي كنت أقدمه ؛ فهذا مريض جاء يأخذني لتناول الإفطار. عدنا إلى القهوة؛ وقبيل العصر، انتقلت جماعة هذه القرية التي كان أفرادها يجلسون مثل الذباب الكثيف في أرجاء هذا المقهى سيئ التهوية، انتقلوا ليجلسوا في الشارع فوق التراب، مستظلين بجدار ذلك المجلس طلبوا مني أن أرتاح ؛ وأني لن يحدث لي أي شيء أو مكروه: وعلى حد قولهم، العرب هنا محاكمين muhakimin بمعنى 'يخضعون لحكام'. [العرب لا يحبون أن يحكموا بهذه

(*) كلمة فيها مساس بالدين المسيحي رأينا استيعادها . (المراجع)

الطريقة الصارمة فى الأمور كلها. أذكر أن شابا صغيرا من الوشم، وهو من أبوين طبيين، اشتكى، من أن رجلا من منطقته لم يستطع قتل آخر على الفور، بالرغم من أنه وجده نائما مع شقيقته، ولم يستطع قتله حتى فى بيته: لأن هذا الرجل لا يتعين عليه ترضية أقارب المقتول فقط وإنما سوف يعاقب أيضا طبقا للقانون !] - أخذنى بعض الناس هنا إلى البساتين؛ وجدت أن أبارهم هنا عميقة مثل آبار عنيزة.

ومع ظهور شفق المساء ركبنا ناقتنا ومضيت قدما مع حسن. بدأ القمر يطلع علينا، وتوقف حسن عند مزرعة عند أطراف البلدة؛ حيث كان ينتظرنا اثنان من المطير، سيصاحبانا فى رحلتنا - وكانا يسوقان أمامهما نعجة صغيرة إلى منزلهما بالقرب من عنيزة. قامت أم حسن وبعض أقاربها باصطحاب حسن لتوديعه عند بداية الطريق. كانوا يتكلمون همسا؛ وسمعت العجوز وهى تقول لولدها: عامل النصرانى بما يراه جيدا - لكى يخلص نفسه! - كنت سعيدا برفقة البدو؛ وكنت سعيدا أيضا لسماع أصوات أهل الصحراء، وهم يتسلقون السور، ليقولوا لى إنهم كانوا رفاقا لى - مشينا فى ضوء القمر؛ وجلست وأنا أنظر هنا وهناك، حتى أتمكن من رؤية ظل رمح حسن، الذى جعلته يمشى على قدميه. وعن طريق النجوم عرفت أن مسارنا يتجه شرقا عبر موجات النفود. وبعد ساعتين نزلنا إلى وادى الرماح - كان بصحبة البدو خليط من الأعراب، الذين يعيشون فى هذه الديرة بعد رحيل العنوز عنها. وهم يسكنون هذه المنطقة تحت حماية زامل؛ ويطلق عليهم هنا اسم أعراب Aarab زامل. هؤلاء الناس قبليون من كل من المطير وعتيبة، ولافتقارهم إلى الإبل تحولوا إلى تربية الماشية الصغيرة فى النفود، حيث توجد الآبار فى كل مكان ولكنها ليست عميقة: وهم يعيشون على خدمة الواحات، ويكسبون القليل من المال من عملهم رعاة للسوانى (السواقى) من ناحية ورعاة لإبل القوافل من الناحية الأخرى. منازل هؤلاء الأعراب تتحرك مع بعضها البعض: وهم ليس لهم أعداء؛ وهم يتقدمون بقضاياهم لزامل حتى يحكم لهم فيها.

بعد ساعة من منتصف الليل توقفنا فى مكان عميق بين الكثبان الرملية؛ ونظرا لأننا أصبحنا فى مأمن من خطر الطريق، أراد الرفاق أن يأخذوا قسطا من النوم - استيقظنا قبل طلوع الفجر وواصلنا مسيرنا فى وادى الرماح؛ الذى كان يمتد أمامنا مثل سهل طويل من الرمل الثابت، الذى تغطيه الخضرة جراء نمو بعض الأدغال

الصحراوية من ناحية ونمو عشب الغُرطة من الناحية الأخرى: وهنا تمكنت من رؤية شجرة الغُرطة هذه في ضوء النهار، وهى لاتعدو أن تكون نوعا من أنواع شجر الإثل، أوإن شئت فقل: شجرة الطرفاء. وأعراف تلك الشجرة مرة الطعم، وذلك على العكس من - الإثل الشائع - مالح المذاق : وإبل القصيم ترعى أعناقها إلى أعراف تلك الشجرة كى تقضم منها ما يملأ أفواهها أثناء المسير- وهنا ارتفعت الشمس المحرقة فوق أفق النفود: وهنا انسلخ البدو عنا قاصدين منازلهم؛ وواصلنا نحن مسيرنا فى قاع الوادى، الذى بدى لنا وكأنه سىتنهى بعد ساعة واحدة. هذا يعنى أننا لسنا على بعد أميال كثيرة من عنيزة- سمعت تغريدا صادرا عن طائر صغير، وهو يتنقل بين أدغال الصحراء، ثم راح ذلك التغريد يتصاعد محدثا النغمات كلها! كانت تلك النغمات عذبة وحلوة، على نحو لم أكن أحلم به.

حاولت أن أعرف من ذلك الرفيق الوحشى، ذلك الذى كان زامل يريده منى. سألته، إلى أين سينقلنى ؟، أجاب حسن، 'إلى البلدة' وأنتى ينبغى أن أنزل وأقيم فى ذلك البيت الكبير الموجود فى منطقة القاع ، - أوإن شئت فقل: منزل رشيد، ذلك التاجر الشمالى، الذى يغيب عن عنيزة فى الوقت الراهن. دخلنا واقتربنا وأصبح يتراعى لنا حقلا من حقول القمح الواقعة على أطراف البلدة؛ وهنا قصد حسن إلى مزرعة من مزارع النخيل - التى كانت تقع خلف أرض القمح. وعندما وصلنا إلى مزرعة النخيل نزل عن الناقة كيما يتحدث مع بعض الناس الذين سبق أن سمعنا أصواتهم فى المقهى ، - هذا المقهى عبارة عن حظيرة من العصى ومن جريد النخل، وهى ايضا بمثابة المئوى الذى يحتوى به المزارع. - أبلغهم أن أوامر زامل تقضى بإنزالى فى هذا المكان . لم يكن أهل الحديقة قد سمعوا من قبل هذه التعليمات: وبعد الأخذ والرد فى الكلام، عزمنى إبراهيم، رئيسهم وطلب منى النزول عن الناقة والدخول إلى المقهى، وأنه هو بنفسه سوف يركب مع حسن إلى المدينة للتحدث إلى زامل حول هذا الموضوع . قالوا لى: إن عنيزة يمكن رؤيتها من الكتبان الرملية التى تلى الكتبان التى نحن عليها حاليا. مزرعة النخيل التى نحن أمامها حاليا والواقعة على أطراف عنيزة تقع فى خليج من خلجان وادى الرماح، على بعد مسافة قصيرة (جنوب) العيارية.

كان الناس هنا مشغولين بدرس الحبوب: وأرض الدرس هنا لم تكن سوى قطعة من الأرض المعتادة؛ وشاهدت طابورا مكونا من اثني عشر ثورا تدور من حول محور، مربوط فيه الثور الداخلى من بين هذه الثيران. وهذا يمكن من هرس سنابل القمح وفصلها عن السيقان، ثم يقوم النسوة بعد ذلك بفصل الحب عن التبن عن طريق الضرب بعصى من الخشب . أما الغريلة هنا فلا تعدو أن تكون عن طريق تذرية التبن المهروس فى الهواء، مستخدمات فى ذلك قبضات أيديهن. وكان يجرى تحميل زكية كبيرة من السنابل ومن الحبوب فوق ناقة من النياق، لإرسالها إلى منزل رشيد الموجود فى البلدة، وكانت تلك العملية تتكرر مرات عدة كل يوم.

كان سور هذا الحوش ،أوإن شئت فقل: القصر الموجود فى هذه المنطقة ، عبارة عن مبنى مربع الشكل مبنى من اللبن (الطوب النى)، وكان طول ضلع هذا المربع حوالى ستين خطوة ، وفى كل ضلع توجد أبراج مراقبة منخفضة عند الأركان. وفى المنتصف توجد البئر التى يصل عمقها إلى سبع قامات، ومبطنة بمباني جافة، وكان المسار يتسع لاثنتين من الإبل، كما كان المكان يسمح أيضا باستخدام الأبقار والحمير أيضا، فى جلب الماء، بدلا من الإبل؛ كان هناك مكان لإقامة الحارسة تلك المرأة العبدة هى وولدها، كما كانت هناك أيضا مخازن بدائية فى الأبراج، كما كان هناك بيت أيضا لراعى بئر الماء. كانت تكلفة العمال فى ذلك القصر الذى يشبه القلعة ومبنى من اللبن ، حوالى مائة ريال؛ أما تكلفة البئر فكانت حوالى خمسمائة ريال . ولم يكن لكل هذا المبنى سوى بوابة واحدة كانت تقفل عند دخول الليل. كل هذه التحسسات - التى لا يمكن التغلب عليها فى العمليات الحربية الضعيفة فى الجزيرة العربية، موجودة فى كل الممتلكات التى تقع على أطراف البلدان، كانت حيوانات المزرعة يجرى إعادتها إلى مراوحها عند غروب الشمس.

قبيل العصر شاهدت خيالين وهما ينزلان من النفود. كان الخيالان هما الكينى ومعه الصافى، اللذان جاءا لزيارتي - قال لى عبد الله الكينى: إنه لاهو ولا عبد الله البسام، ولا أى أحد من أصدقائهما أحيط علما فى تلك الليلة برحيلك الاضطرابى عن عنيزة. وأنهما سمعا أول ماسمعا عن ذلك النبأ فى صباح اليوم التالى؛ وذلك عندما انتظرني حامد، الذى كان قد عزمنى على تناول الإفطار، مدة ساعة، وتعجب لعدم

وصولى . وبعد أن ذاع خبر طرد النصرانى أثناء الليل بدأ الناس يتكلمون عن ذلك الأمر فى السوق : وجه الكثيرون منهم اللوم إلى الشيوخ . لم يكن الكنينى أوالبسام قد علما بالأمر كاملا فى ذلك المساء؛ وعندها ذهبا إلى زامل ، وتساءلا، لماذا طردنى بهذه الطريقة، دون علمهما بذلك ؟' رد زامل عليهما، أن تلك كانت إرادة المجلس ، وأنه لم يكن ليعارض تلك الرغبة قال صديقاي: 'لكن لومات خليل، ألن يلقي باللوم على عنيزة؟'. طالما أن النصرانى جرى استقباله فى المدينة. خليل كان ابن جواد Juad ، وأصبح من مسئوليتهم توفير الرحيل الآمن له. وهنا طلب البسام ،الذى لم يكن زامل يرفض له طلبا، استدعاء خليل مرة ثانية. وأردف الكنينى، إنه يمكن أن يقيم فى واحدة من الجنائن الواقعة على أطراف البلدة، هذا إذا تعذر استقباله فى البلدة مرة أخرى [بسبب الحقد والكراهية الوهابية]، إلى أن تكون قفيلة جاهزة للرحيل. وهنا وافق زامل ، وأرسل فى طلب حسن الجمال؛ وطلب إليه أن يركب عائدا ثانية إلى الخبراء لإحضار الحاج خليل مرة ثانية. وهنا طلب صديقاي من الرجل أن يركب ناقته على الفور؛ وحددا لزامل مزرعة نخيل رشيد.

قال عبدالله: إن أحدا لن يسئ إلى أويضايقنى هنا؛ وأنى من حقى أن أنال قسطا من الراحة إلى أن يدبر لى وسيلة آمنة للرحيل : ثم سألتى، عن المكان الذى أريد الذهاب إليه؟ قلت: 'إلى جدة'. قال: 'سوف يبذل جهده لتحقيق ذلك لى أيضا، بموافقة من زامل ؛ كما سألتى أيضا عن احتياجاتى فى الوضع الراهن ؟'. سألته إن كان بوسعى رؤيته مرة ثانية؟' - 'ربما لايسمح الوضع بذلك ؛أنت تعرف السنة هؤلاء الناس!'. ثم طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يعطينى نقودا على سبيل القرض ؛ كان بصحبتي بفتري شيكات، عندما وصلت إلى ذلك الشاطئ ؛ وحررت له شيكا ببضع ريات قليلة. كانت النقود من منظور الكنينى الفلسفى بمثابة، نجس 'nejis الدنيا' ed-dinya؛ وبالرغم من ذلك كان ذلك التاجر يود من حامد(تلميذى فى اللغة الإنجليزية) مواصلة تعلم الشفريات ؛ولكن ذلك كان من باب الود لكى يعلمنى ؛ فقد قال بعد ذلك ووجهه يوحى بالصرامة: 'يا خليل، لا تشق بأى إنسان !أوبى أنا شخصا'. لعله وهو يقول ذلك، كان قد تنكر عادتى غير الحكيمة عندما كنت أتكلم بصراحة ووضوح ؛ حتى فيما يتعلق بمسألة الدين. قال : 'إنى هنا لست فى خطر، بل وفى مأمن من الأمير على: وعندما

قلت لصديقي إن الوهابي العنيد رفسني، "تعجب على، يا الله !يالهذا العلى الشرير!- هذا الشيك الذى أرسله فى الصباح، لكى يحصل على النقود، وصل إلى يدائى، بعد عام كامل فى أوروبا :فقد جرى سداد ذلك المبلغ فى بيروت- والعملة المستعملة فى القصيم هى الكراون الأسباني: تساءلت عن الطريقة التى يحمل بها التجار الأجانب نقودهم عبر الصحراء؟وأجابونى ،"مع قوافل الحج المؤمنة".

مزرعة رشيد هذه تقدر بحوالى فدان واحد وربع الفدان؛ تلت هذه المساحة مزروع بالنخيل ،أما الباقي فهو عبارة عن أرض غير مسورة تزرع بالحبوب، وتقع فى اتجاه الوادى. كانت فى هذا المكان، من قبل، بيارات النخيل التى دمرها الوهابى فى إحدى المعارك الحربية؛ وأوقفت البئر بفعل المحاصرين من عنيزة- ولم يتبق من تلك المزرعة سوى قاع صحراوى ، عندما قام رشيد باحتلال هذه المنطقة، التى زرع فيها نخيلا وحفر فيها بئرين. الأرض وما عليها من النخيل الصغير تقدر قيمتها حاليا بحوالى سبعة آلاف ريال. عندما وصل ابن الرشيد إلى مداخل البلدة قبل عامين أو ثلاثة أعوام مضت، مع بريدة، كانت تلك الجنيئة مخيما لبعض من خيالة بن الرشيد: وجدوا فى ذلك المكان علفاً كثيراً- هذا المكان كان مأهولا فى الماضى : والسبب فى ذلك أن العمال فى كثير من الأحيان كانوا يعثرون على قطع فخارية قديمة وطوب محروق عندما كانوا يقومون بحرث هذه الأرض وعزقها.

فى هذا المكان كان هناك رجل يدعى صالحا Salih، وهو واحد من الباعة الذين يعملون فى سوق القماش ؛ صالح هذا (ينوب هنا عن والده) صاحب الجسم فارع الطول الذى يشبه الفلاحين، والذى كان يأتى إلى هذا المكان يوميا قادما من البلدة- لوكتبوا على ظهر هذا الصالح عبارة بَطال Battal ابن Battal بَطال Battal، لما فشل كل من لا يقرأها ولا يخطئ فهم هذا الكلام. كان ذلك الرجل ملتهب القلب، قليل البديهة، كسير الرأس ؛ وكان يحسب نفسه سكيّرا فى هذه الدنيا - بدأ صالح يقول لى فى المساء وأنا مندهش تماما !أنه سافر مؤخرا إلى أوروبا؛ وشاهد بلاد النصارى العجيبة ! وأضاف ذلك الأفاق، وهو مشدوه! إن تلك الرحلة كلفته "سبعمئة ليرة (أى ٥٦٠ جنيها إنجليزيا)". قال: أبحرنا من البصرة؛ ووصلنا إسطنبول؛ وتجاوزنا جزيرة - أنا لأذكر اسمها حاليا: ونزلنا فى لندن. وبعد ذلك زرنا باريس Baris ، وفيينا، والهند - هذه المدن

الكبيرة من مدن النصارى! أمضوا سبعة أشهر: منها شهر من شهور الصيف في لندرا Londra ، وكانت لندن London رائعة! وفي باريس Baris أمضوا شهرا - وباريس Baris كانت جميلة جداً! ولكن الناس كان يحملقون ويطلون النظر إلى ملابسهم الشرقية! وبعد ذلك بدعوا يرتدون الملابس - على طريقة الطربوش، وغطاء الرأس مثل الأوروبيين.

سألته عن رفيقه؟ وأجابني، يوسف Yusef الخالدي khalidy - تصادف أن كنت قد مررت على فيينا يوم أن كان الخالدي فيها! وكنت قد لاحظت غربيين ساميين Semitic يضعان على رأسيها غطاء رأس حمراويين وهما في الأماكن العامة! وكان ذلك الاسم معروفا لي! لأنهما سبق لهما زيارة المستشرق فون كريم von Kremer : الذي كتب لي ذلك الاسم فيما بعد (باللغة العربية) يوسف الخالدي YUSEE KHALIDY القدس EL-KUDS: وقال لي إنه من العلماء المسلمين، ويقوم بالتدريس في إحدى المدارس [وكان يتباهى بسلالاته النسبية الأصلية وأنه تسبب في ارتداد البعض عن المسيحية] في القدس، وأنه له معرفة ببعض اللغات الأوروبية؛ وأنى في يوم ما قد ألقاه هناك - تناولت من زكائبي مجموعة من الرسائل ؛ وعرضت هذه الكتابة أمام عيني صالح الجريئتين والذي بدأ يقول، بعد أن ظهرت عليه بوادر الانهزام؛ إنه لم يكن هو الذي سافر إلى الغرب وإنما شقيقه هو الذي فعل ذلك - وأن شقيقه هذا يدعى علياً، وهو تاجر ومالك أراضى في البصرة؛ كما أن عدد نخيله يفوق أعداد نخيل عنيزة كلها! [كنت قد سمعت أن عليا الرشيد لم يكن اسماً ذائعاً في البصرة - ويقال: إنه قصر في أسفاره الأوروبية!] وأنه ترك هذا الصالح Salih وصيا على شئونه، أثناء غيابه. وقيل لي أيضاً في عنيزة عن هذا العلي نفسه، إنه حدث أن أحضر إلى هذا المكان (هنا) غريباً من الشمال وأن ذلك الغريب كان كافراً Kafir - ولكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا إن كان يهودياً، أم مسيحياً أم نصرانياً؛ جاوابه لتركيب ترس لمسخة المفروض أن يوفر في تكلفة العمالة. ولكن قبل اكتمال ذلك العمل وصل صبر الوهابيين إلى منتهاه؛ وجرى طرد ذلك الميكانيكى من بينهم لأنه لم يكن من دينهم.

رسخ كلام على العائد من الغرب، في أننى صالح. وراح صالح يحلم بعالم النصارى العجيب، العامر بالاختراعات المذهلة! الأمر الذي جعل موطنه نجد يبدو

لخياله المريض كما لو كان مجرد صحراء جرداء، إذا ما قورن بذلك الذي رآه من خلال عيني أخيه في أوربا - ولما كان خليل أوروبيا، فإن صالحا بدى عليه وكأته يقرأ في أقوال البسيطة أَلغاز (سيدنا) سليمان.

كان إبراهيم متزوجا من أخت صالح - وإبراهيم هذا رجل سمج ولكنه يتميز بظل خفيف، كما أنه مجادل سمج وسخيف ؛ ولكن فيه شيء من طيبة القلب، عندما لا يكون غاضبا : كان إبراهيم يتواجد هنا بصورة مستمرة حتى يشرف على عملية الحصاد. فهد، أحد العاملين وعمره حوالي عشرين عاما وهو الابن الأصغر لرشيد، وكان يشرف هنا على المزارعين. وفهد هذا شخص أكثر أمانة وصدقا من الآخرين؛ ولكن له طبيعة جامدة هي التي حالت بينه وبين تعلم القراءة والكتابة. ومن ثم اضطر والده إلى تقيده في الحقول؛ حتى يمكن للأسرة أن تقيده شيئا من ذراعيه القويين. هذا الشاب الصغير كان وقحا ويأثرا في ذات الوقت غير أنه كان جادا ومثابرا في العمل: وكل ماتعلمه في المدرسة لا يعدو أن يكون ذلك الذي يمكنه من أداء الصلاة.

هذه الأسر الثرية كانت جديدة على هذه المنطقة، وكانت منغمسة في المجون إلى حد ما: كانت سلالتهم من الجزيرة العربية، ولم تكن داكنة البشرة. كان رشيد الكبير في أيام شبابه صبيا مع أحد القصابين! وكان يحمل لحم الضأن ولحم الإبل على رأسه من بيت إلى بيت. ثم تحول بعد ذلك إلى بائع يبيع الملابس القطنية وبشنيقات النساء؛ وسرعان ما تحول إلى تاجر ثرى. ولكن أصواتا كثيرة كانت تتناول مسيرة ذلك الرجل من نواحي مختلفة داخل عنيزة، البعض يقولون: إن "رشيد عثر على كنز في الحجاز، وذلك أثناء عودته من مكة مع الحج؛" بعض آخر يقول: إنها النعمة: "فأله يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء في هذه الدنيا." - كبر رشيد ومارس التجارة في الشمال: وأصبح واحداً من كبار تجار الساحل؛ وتجارته تتركز حاليا في مدينة البصرة. وله أبناء تجار في كل من الزبير والعمارة Amara؛ وله ولد ثالث في الكويت. بالإضافة إلى صهر له يعمل بالتجارة أيضا في وادي الرونيه Runnya في بلاد بيشة Bishy؛ كما أن له ولدا آخر كان يعمل بالتجارة مؤخرا في منطقة عدن. سمعنا أن رشيد الكبير، سيعود مع القافلة القادمة - كانت توجد إلى جوار ذلك النخيل مزرعة لأسرة فقيرة، هي أيضا من النوع المتحرر: ولكن بطريقة تصعب ملاحظتها، من خلال أعين الغرباء، في أضعف الأحوال، وتميزها عن بقية المواطنين الآخرين.

كان إبراهيم واحداً من النجديين الشرقيين الكثيرين، الذين ذهبوا قبل سنوات عدة، للعمل نظير أجر في حفر قناة السويس: يعتقد إبراهيم أن مائتين من رجال القصيم كانوا يمارسون هذا العمل في حفر القناة. وقال أيضاً إنه سبق له أن شاهد في هذا المشروع الشعوب أوإن شئت فقل : الناس النصرانيين. شاهد فرنسيين ، وإيطاليين، ويونانيين(*)، كان يظن أنهم يتكلمون لغة واحدة! وشاهد بعض الطرود التي كانت ترسل من قناة السويس على عناوين الحانوتيين. تَمَعَّن إبراهيم في عمل المرأة الإفرنجية؛ وتفكر أيضاً، على حد قوله، في المرأة - الرجل التي تحمل مسدساً تعلقه في وسطها، وتقوم بدور الرئيس الذي يشرف على العمال أثناء أدائهم لعملهم. كان هناك جمع كبير من أمم مختلفة، خليط من الرجال المعسرين والمحتاجين- هذا القطيع من البشر المهاجرين كانوا يلبسون أثمالا مهلهلة! كان من بينهم مسلمين ومسيحيين- وبخاصة اليونانيين الشرقيين (الروم er-Rum) المتشددين، كل أولئك كانوا مختلطين بعضهم ببعض؛ يضاف إلى ذلك أن المسلمين من هؤلاء البشر كانوا يخشون أن يضلوا طريقهم إلى رفاقهم أو يتوهوا منهم في هذا الزحام. كان إبراهيم يرى في مظاهر العداء الطبيعية هذه نوعاً من حروب الأديان: "إدعى إبراهيم، أن الروم هم الذين كان لديهم أكبر قدر من السلاح - وأنهم هم الذين كانوا يتعاركون مع المسلمين". وقال: إن اليونانيين ملعونين من الإسلام في تلك الأماكن؛ وقد وصل الأمر إلى حد أنني سمعت بين البدو الرحل السيناويين، شخصاً يسب خصمه - مستخدماً الكلمة الإفرنجية ، أنت أبشع من اليوناني! Greco!". كان الجنود المصريون يقضون عني هذه الاضطرابات، على حد قول إبراهيم، بالعدل - والحيادية وعدم الانحياز.

حكى لنا إبراهيم، إنه ذهب إلى السويس ومعه قلة قليلة من الرفاق، وأنهم تربص بهم بعض النصاري السفاحين؛ ولكن وفد عليهم خيال نصراني ؛ وراح يتكلم أمراً أولئك السفاحين؛ وأقنعهم بالرجوع عن غيهم- وأنهم عندما دخلوا السويس شاهدوا

(*) واضح مما ورد في السباق أعلاه أن العمل في حفر قناة السويس لم يكن قاصراً على المصريين وحدهم وإنما كانت هناك العديد من العناصر التي شاركت في ذلك العمل من الجزيرة العربية وشعوب البحر المتوسط كما كان العمل في حفر القناة يتسم بالسخرة والمعاملة السيئة للعمال. (المترجم)

ثلاثه جثث مجردة من ملابسها وملقاة فى الشوارع ، وأن تلك الجثث كانت لأناس مقتولين! وأنهم جرى جلدهم على وجوههم، الأمر الذى كان من الصعب معه التعرف على هويات هؤلاء المقتولين؛ ومع ذلك أمكن التعرف عليهم، من علامة الختان، التى يتميز بها الإسلام.

كان لدى إبراهيم المزيد من الحكايات الجميلة عن السويس: حكى لنا عن صداقاته مع النصارى. حكى لنا، أن بعضا من جيرانهم النصارى، عزموهم ذات يوم لكى يشربوا معهم فى الخيام: ولكنهم اعتذروا عن ذلك، وقد دعاهم النصارى إلى تناول العشاء؛ وكان ذلك العشاء عامرا بالكرم حكى لنا بعض النكات المبتورة بلغته العربية، وحكى لنا أيضا عن بعض معارفه من المسيحيين- حكى لنا إبراهيم أنهم فى ليالى كثيرة كانوا يسرقون عارضة خشبية كى يستعملونها فى طهى الطعام وإعداد القهوة، وكانوا يخفون تلك العارضة أثناء النهار. وعندما قلت متعجبا، لصا! أجابنى، " الخشب برغم تكلفته الكبيرة، لم يكن ملكا لأحد؛ وإنما كان ملكا للكبانية (الشركة)!" **Kompania** عاد إبراهيم من تلك المهمة بعد اثنى عشر شهرا؛ عاد مفتقرا إلى القلب الإنسانى، وثريا بمبلغ يتراوح بين مائة ومائتى ريال. وبالرغم من أنه لم يكن فقيرا أو محتاجا فى بلده، إلا أنه قطع مسافة سبعمائة ميل كى يعمل حفارا فى السويس! ولكن هذا هو حال فقر سكان الواحات فى الجزيرة العربية. إبراهيم هذا كان من السلالة الأصيلة، وكان زوج أخت على، ذلك الرحال العربى. وجدت ذاكرتى هذين الرجلين متأثرتين بقناة السويس؛ وقال لى البعض من الناس: " ألا يمكن عمل قناة مثل هذه القناة عبر نجد؟- كانوا يظنون، أن مثل هذه القناة، ستكون لمصلحة بلدهم.

كان على أن أمضى أياما طويلة فى بيارة النخيل هذه. كان خُص القهوة (الذى يطلقون عليه هنا اسم 'معشوش' **maashush** أو مجبوب **mujbbub**) هو الملاذ الذى أحتمى به من الشمس الحارقة؛ كما كان معلف الجمل المبني من الطين فى منطقة البئر، هو السرير الذى أنام عليه، فى العراء وبلا غطاء أثناء الليل. لم يكن النمل كثيرا هنا فى هذه الجنيحة التى تقع على طرف البلدة؛ ولكن أهل المدينة لم يكونوا ينامون بسبب النمل فى هواء عنيزة الساكن الراكد. كانت تتبعث أثناء الليل، من البئر الأصوات التى كانت تصدر عن صراصير الغيط - وفيما بين منتصف الليل وطلوع

الصباح كنت أسمع انضوضاء الناتجة عن السوانى (السواقى)، كما كنت أسمع أيضا وقع أقدام الإبل؛ كما كنت أسمع كذلك وقع أقدام ذلك الراعى الذى يتتبع تلك الإبل جيئةً وزهاًبا. كنت أجلب الماء لنفسى من البئر بواقع مرتين فى اليوم الواحد، وكنت أذهب لجمع الحطب من النفود، كى أسلق لنفسى حفنة من الأرز؛ وكنت أجد متعة وأنا أراقب ذلك الشئ من الحياة فى ذلك البحر من الرمال. لم أشاهد فى شبه الجزيرة العربية كثيرا من النباتات ومن الحشرات التى سبق لى أن شاهدها فى جزيرة سيناء - سيناء تلك الصورة المصغرة للجزيرة العربية - أقول إن تلك النباتات والحشرات لم أشاهدها فى شبه الجزيرة العربية الكبيرة! هذه هى صحارى القردة وقد ابيض لونها بفعل القواقع الأرضية البيضاء ولكنى لم أعثر على هذا النوع من القردة فى صحارى الجزيرة العربية الجافة. لم أعثر سوى على قليل جداً من البذور التى استطاعت التغلب على تلك الصحراء! ونلاحظ هنا أيضا قصر أطراف بعض المخلوقات. أين منا نباتات الأراضى الواقعة على حدود هذه الجزيرة؟ من الصعوبة بمكان هنا العثور على أى نوع من الأعشاب الفطرية، فى بعض واحات هذا البلد! هناك بعض القواقع المائية تعيش فى غدران الماء الكبرى (فى كل من قرية العلا وخيبر؛ ولكن الضفادع التى نسمع نقيقها فى ينابيع وعيون خيبر المائية الدافئة، لانجد لها وجوداً، ولا نسمع لها نقيقاً هنا على بعد ثلاثين فرسخاً فى المياه المائلة فى كل من العلا وتربة. هذه الضفادع لاوجود لها فى عنيزة وأبريدة، اللتان لا يوجد فيهما سوى مياه الرى، وليس لهذه الضفادع وجود أيضا فى أية واحة من الواحات النجدية التى قمت بزيارتها: كنت قد سمعت نقيق ذلك الضفدع أول مرة، فى مكة أو إن شئت فقل فى (منطقة تهامة). هنا (لم أكن قد سبق لى مشاهدة ذلك من قبل فى نجد) نوع من الخنافس التى كانت تحبو على رمال الصحراء أثناء النهار: وكانت الفريسة التى تلتهمها تلك الخنافس تتمثل فى روث الإبل. صيادو هذا النوع من الخنافس يستخدمون فتوسا قوية؛ ليرفعوا بها كميات كبيرة من الرمل ويحملوه على ظهورهم، ليبعدوه عن تلك الخنافس حتى يتسنى لهم صيدها.

العيال هنا ومعهم صبية آخرون من المزرعة المجاورة ومن قرية العيارية، يتجولون حول النخيل فى ساعات الفراغ ويلهون بالسلاح، وهم يصطادون الطيور. وهم هنا

يأكلون لحوم الطيور على اختلاف أنواعها، ومنها الهدهد بعرفه الملكى ، وقد قالوا لى إن الهدهد كان ملكا للطير فى يوم من الأيام ، وأنه كان خادما (لسيدنا) سليمان؛ الذى أمر الهدهد بالبحث عن الماء فى الصحراء: ولكن أصبح نجسا وغير مفضل . هذا الطائر الذى يعيش فى المزابل، يطير على شكل ثنائيات وثلاثيات فى البساتين هنا، وهو يشيع جداً بين الطيور (الطفيلية) الأخرى التى توجد بأعداد قليلة جداً فى الواحات.

قبيل الظهيرة، وعندما تشتد حرارة الشمس على غتر رعوس هؤلاء العيال، تراهم يعوبون من عملهم الحقل إلى ظلال بعض الأغصان، لى يتناولون طعام الإفطار بشىء من التمر. ثم يجلسون بعد تناول الإفطار، إلى مابعد الزوال، أى إلى ما قبل العصر؛ ولكنهم لا يكونون بلا عمل طوال هذه الفترة؛ إذ تكون أيديهم مشغولة فى عمل مقاود إبل الماء. البعض منهم يقوم بتجهيز ليف النخيل (الذى يكون منقوعا فى الماء)؛ والبعض الآخر يقتلون ذلك الليف كيما يصنعون منه حبالا مفردة، وحبالا مزدوجة. ومن الحبلين المزدوجين يصنعان حبالا واحداً من حبال الإبل؛ هذا الحبل الواحد يمكن أن يفتلوا معه حبالاً آخرًا ليصنعوا منه حبالاً سميكاً من الحبال التى تستخدم فى الآبار. كل هذه الحبال مصنوعة بطريقة بدائية، وبخبرة هؤلاء العرب؛ ولكن حبال الليف هذه تستمر أوتستخدم لفترة طويلة، والتكلفة منخفضة أو تكاد لا تذكر.

كان أول عيّل من تلك العيال شاب صغير من شقراء ، فى الوشم ، والوشم هذه سهل من السهول- [من بين الأماكن الأخرى فى الوشم Weshm أشقير Shujjer، وهى قرية قديمة بالقرب من شقراء وهناك أيضا ثرمدة Thermidda، ومرآة Marrat، والعُزيرية Othe thia، والقرائن el-Geryen، والقصب Kessab، والحريق el-Herreyik، والجريفة el-jerryfa والشجير Osheyjir (التي جاءت منها أسرة البسام)، والفراع el-Ferra. وأهل شقراء هم بنى Beny زيد Zeyd، والسويدة es-Suedda (وهم من أصل قحطانى) . وشمالى البلدة عبارة عن نفود رملية، يطلقون عليها اسم المستوى el-Mestewwy، ومن ناحية الغرب توجد منطقة السرّ es-Sirr، ومن ناحية الجنوب يوجد الإنقىل el-Engli وهى عبارة عن حفرة مأوها "يقلل" أو يحدث فقاعات. أما التويم

El-Toeyم هي عبارة عن هجرة (كفر) في الناحية الشمالية الغربية، وفيها أنقاض مدينة محصنة ذات أبراج مربعة الشكل، بنيت خصيصا لرماة السهام. أما الحاجية el-Hajia أوإن شئت فقل: قرية Garat الحجيج el-Hajji، والتي تقع بين بلدتهم وبلدة ثرميدة، فهي عبارة عن تلة عليها بعض أنقاض مبنى حجرى وبعض الأعمدة: والناس هنا يقولون: إن ذلك كان مكانا من أماكن الحج في زمن الجاهلية]. هذا الشاب الصغير بالرغم من أنه كان يعيش من عمل يده، إلا أنه كان إنسانا صبوراً: كانت إنسانية ذلك الشاب تنساب علينا أثناء جلوسنا في فترة العصر، في الوقت الذي يقوم فيه بقتل الليف وعمل الحبال، وفي رواية الحكايات؛ يضاف إلى ذلك أن صوته كان جميلاً. أى أنه كان من الأصوات الموسيقية التي تنساب في الأذان محدثة صورة من صور الحب والعاطفة الجياشة؛ والناس هنا لا يتسألون كثيراً عن القصص التي تروى، كانت طريقتة في رواية القصص مثل الطريقة التي سبق لي أن استمعت إليها في خير. وفي بعض الأحيان كان يروى لنا حكايات تثبت صحة الأمثال - وبخاصة الأمثال السائدة بينهم؛ والتي منها المثل الذي يقول: "الحصيف هو من لا يفشى اسمه وسط جماعة عربية". ذات مرة، وبينما كان آلاف الحجاج في منى Muna، تناهى إلى الناس صوت، صياح قائلاً: هل إبراهيم Ibrahim الصالح Es-Salih الذي من بلدة الرس er-Russ، موجود هنا؟ وكان هناك رجل من الرس - في القصيم، ضمن الحج، ويحمل هذا الاسم؛ ورد ذلك الرجل (أَمْلا في أن يسمع شيئاً لصالحه)؛ إنه أنا. - واقترب الغريب، ولكنه سرعان ما هجم عليه بالسيف - وأرداه قتيلاً! لأن ذلك كان يثأر لمقتل قريب له! وقتل قروى القصيم بطريق الخطأ؛ لأن القاتل كان من الرس في اليمين! - ويندر في الحياة الصحراوية، أن يسمى شخص روحه ruh-hu (نفسه) أمام غريب من الغرباء!

ولكن ذلك الذي حكاه لي ذلك الشاب الشقري، كان جديراً بالانتباه، فيما يتعلق بالدمار الذي حل بالوهابي في نهاية الأمر - والذي لم تعرفه أوروبا - عندما توفي فيصل ذلك العجوز الضرير، خلفه في الحكم في الرياض ولده عبدالله، الذي كان هو الأكبر سناً من بين ولديه. ولكن ابنه الأصغر سعود، الذي كانت له شعبية، انسحب إلى المن وجمع حوله أتباعاً ومشايخين له من وادي بيشة Bishy ومن وادي الدواسر، ومن بدو

المضارب. ثم عاد ومعه هؤلاء الأتباع والمؤيدين إلى نجد: وحارب أخاه، وأبعده عن الحكم؛ وأصبح عبدالله، الأخ الأكبر، هاربا في بلاد ابن الرشيد(*) [أنظر. هـ]

بعد أن تولى سعود الحكم كان عليه إخضاع قبيلة عتيبة الكبيرة؛ لأن تلك القبيلة كانت حليفة لعبد الله - وبدأ سعود ومعه رجاله المسلحين، ومعه أيضا الحلفاء من البدو الرحل، ومن العجمان، ومن أعراب النواصر، ومن المرأة، والقحطان، والمطير، وكانت كل قبيلة من تلك القبائل تسير تحت لواء (بيرق) بجري تسليمه لها من سعود الأخ الأصغر. كان العتيبان ينتشرون على مساحة شاسعة من الصحراء؛ ولكن وصلت الرياض أخبار مفادها أن مخيما صيفيا كبيرا، كان مقاما بالقرب من مورد من موارد المياه. عجل سعود بالوصول قبل أن تتفشى أخبار مجيئه وتحول بينه وبين ما يريد - كان ذلك في وقت الصلاة، في فترة العصر، وعندها أصبحوا على مرأى من عتيبة؛ أولئك الذين أخذوا على غرة: ولكن البدو نظرا لأنهم كانوا قد وقفوا وأمسكوا بأسلحتهم، كانوا على استعداد لملاقاة أعدائهم. توقف سعود ولم يبدأ القتال في ذلك اليوم؛ نظرا لأن رجاله وحيواناته وصلت إلى المخيم وهي متعبة وكان الرجال مرهقين أيضا، بعد تلك الرحلات الطويلة: وانسحب الوهابيون قبل غروب الشمس؛ ونزلوا بعد ذلك لإقامة مخيمهم.

تصادف أن كان ذلك الشاب الشقيري (الذي أتمر في ذلك العام مع الأعراب بمبلغ مقترض صغير) في منزل عتيبة، ومعه تاجر آخر، وكانا يبيعان الأقمشة. صلى الأعراب الفجر، وعين شيوخهم بعضا من رجال القبائل لكي يحرسوا المخيم أثناء غيابهم عنه - قال المضيف للتاجرين الشابين، أبقيا هنا يا شباب؛ ديرا باليكما على نفسيكما: وسيحدث ما يشاؤه الله.

وتعجل العتيبان وذهبوا لملاقاة الأعداء المتقدمين، الذين كان عددهم يبلغ ستة أضعاف عدد العتيبان. في البداية صد العتيبان المطير وكسروهم؛ وأخذوا منهم بيرقهم. وما الذي حدث بعد ذلك؟ قام القحطان بالهجوم على جانب من جانبي أصدقائهم! وهم

(*) كان الصراع الذي حدث بين ولدي الإمام فيصل بن تركي - عبد الله وسعود - داما للعثمانيين للسيطرة على الأحساء في عام ١٨٧١ بدعوة من الأمير عبد الله بينما اعتمد سعود على مساندة الإنجليز له. وقد أدت هذه الصراعات إلى إضعاف السعوديين ومن ثم تصاعد نجم آل رشيد. (المراجع)

الأفضل من حيث التسليح بين البدو الرحل. وخلال اللحظات التي تلت ذلك، أنزلوا الهزيمة بخيالة ابن سعود، واستولوا على "مائتي" فرس! أي ما يقرب من كل الخيول الموجودة في أسطبل الوهابي، والتي جرى تجميعها منذ زمن طويل. ثم تحول هؤلاء الرجال، الذين كانوا يشبهون الزنابير، وراحوا يحاربون المطير ويقاومونهم! وواصل البدو الذين استحوذت على أذهانهم ذكريات عداواتهم القديمة، القتال فيما بينهم، في تلك المعركة الشرسة القاسية. وأخيرا انسحب القحطان مع ذلك الذي غنموه؛ وبقيت عتية الشجاعة سيّدة في ميدان القتال.

سقط من رجال سعود "ثلاثمائة رجل"؛ وأصبحت خيامه القليلة وماتبقى فيها تحت سلطان عتية: وعاد الذئب الوهابي إلى الرياض. ومع ضياع الخيول، دب الضعف في الحكم الوهابي الذي دام مائة عام؛ ولم تقم لذلك الحكم قائمة بعد ذلك(*) - على حد الرأي العام في نجد في ذلك الوقت! مؤسس الحركة الوهابية، هو شخص يدعى محمد بن عبد الوهاب، أحد المشايخ المتعلمين الكبار، الذي كان يتجول في الدرعية(**) Ther,eyyeh في شرقي نجد؛ ويقال إنه من سلالة بني تميم؛ والبعض الآخر يقول: إنه من العنوز، أي من قبيلة عترة: وقد استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يكسب إلى جانبه أمير المدينة، ذلك الرجل المحارب سعود Saud بن ibn عبدالعزيز Abd_ el-Aziz. هذه القوة الوهابية استقلت وأصبحت هي السائدة في نجد: في مطلع سنوات ذلك العصر استطاع الوهابيون الاستيلاء على الحجاز واحتلاله! وبعدها جاء محمد علي، ذلك الحاكم الألباني في مصر، ومعه أسطول وجيش باعتبار "نائباً للسلطان لتخليص الحرمين الشريفين". وقد عرفنا أن ولده إبراهيم باشا، وصل إلى وسط الجزيرة العربية [أنظر صفحته ٤١٤]. بعد أن غادر إبراهيم باشا عنيزة، استولى على الدرعية ودمرها، ولم يجر بناؤها مرة ثانية بعد ذلك: ولكن الوهابيين أسسوا عاصمتهم الجديدة وبنوها من الصلصال في الرياض er-Riath. وبعد أن أفاقوا من الحملة المصرية، بدعوا يحكمون

(*) الصحيح أن الحكم (الوهابي) ، أو بالأحرى الحكم السعودي لم يلبث أن انبعث من جديد على عهد الأمير - الملك فيما بعد - عبد العزيز بن سعود في عام ١٩٠١ . ومن الواضح أن المؤلف كان يتحدث عن زمن وجوده في الجزيرة العربية بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨ ولم يكن على علم بالتطورات التي حدثت بعد ذلك . (المراجع)

(**) الصحيح هو "الدرعية" ولكنها وردت عند المؤلف بالشكل التي عليه في المتن. (المراجع)

نجد كلها هي وصحراء الجزيرة العربية، ولكن الوهابي لم يفكر في العودة ثانية إلى الحجاز(*) - ووصلتنا شائعة غير مؤكدة مفادها أن منطقة الأحساء الخليجية، التي كان الأتراك يحتلون، قد أعطيت للوهابي من قبل الأتراك (بناء على إتاوة تدفع للأتراك).

علم الحكام الوهابيون البدو الصلاة؛ وها دنوا الصحراء: بمعنى أنهم خلصوا القرى من التحزب والطائفية؛ وبدأ الناس يتعلمون القراءة والكتابة. اكتشفت في عنيزة أن كلمة وهابي تعد سبّة: [كانت هذه الكلمة، في مزرعتنا، للسخرية والاستهزاء في أفواه العيال، الذين كانوا يطلقونها على أي رفيق من الرفاق يكون سيئ الطبع]. - والذي يتبقى حالياً من الممتلكات الوهابية يتمثل في مدينة الرياض بكل ضواحيها والجزء القروي المحيط بها. وهو مايكُون إمارة صغيرة وضعيفة - شأنها شأن بريدة. بلدتهم الكبيرة التي بنوها من الصلصال لتكون عاصمة للجزء المرتفع من الجزيرة العربية، يخيم الصمت عليها في الوقت الراهن؛ وقد تخلوا عن صالة الضيافة الكبيرة [قصر الأمير الوهابي المبني من اللبن أكبر من القصر المقام في حائل]: وها هم خدم ابن سعود يتخلون عن نجمه الأقل ويذهبون (كما رأينا) ليستأجرهم محمد بن الرشيد. ولا أحد من البدو يدين بالطاعة أو الولاء للوهابي؛ وها هي القرى الكبيرة في شرقي البلاد تصد جياة الضرائب التابعين لعبد الله بن سعود، وتردهم خائبين: ولكن الجميع يتعلقون بالدين الجديد(**) تعلقاً شديداً - وهم يقولون: إن عبد الله، زاد حجمه ووزنه ولم يعد يصلح.

لم يمهل القدر سعود بالحكم مدة طويلة. فقد حكم ذلك الوهابي في الرياض مدة عامين ثم مات بعد ذلك: والمعتقد أن سعود مات بمرض من أمراض الشيخوخة. الناس يقولون عن سعود: "إنه لم يكن رجلاً طيباً: وأن كل همه كان يتمثل في الفساد والتلف." ولما كان عبد الله، قد أعيدت إليه كرامته واحترامه، فقد عمل على الحفاظ على

(*) في عام ١٩٢٤ نجح السعوديون في الاستيلاء على الحجاز على أثر انتصار عبد العزيز بن سعود على الشريف حسين في ذلك العام. (المراجع)

(**) الدين الجديد: من الواضح أن المؤلف يقصد بالدين الجديد تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولم تكن هذه التعاليم بطبيعة الحال ديناً جديداً كما ذهب المؤلف. (المراجع)

أبناء سعود، وجعلهم يعيشون ساكنين بلا حراك فى الرياض - بلغنى بعد ذلك بعام واحد أنهم ثاروا عليه.

وقبيلة مرة Morra (أو Murra)، وكذلك القحطان ومعهم بعض أعراب اليمن يتجولون فى اتجاه الشمال فى فصل الصيف، ويصلون إلى الوشم، فى وسط نجد: وقد تعرف الشقىرى الصغير على كثير من أفراد قبيلة مرة، وأناس كثيرين من القحطان الذين كان يراهم كل عام فى بلدته: [أبلغنى جابر أن مضارب القحطان تصل من ناحية الشمال إلى الحريق el-Harrich] كما أنهم يجلبون معهم قرون وعل الجزيرة العربية التى تشبه العصا، والناس يطلقون على ذلك الوعل اسم الوضيحى، الذى يسكن الجزء الجنوبي أيضا من بلادهم والعنابن أمة كريمة ومضيافة، وهم من البدو، ويشيع عنهم أنهم أشد بأسا فى القتال من القحطان؛ وهم لا يخونون بسرعة. وهم لديهم الكثير من الأغنام والإبل؛ ولم يخضعوا لأى أحد، سوى كبار الأمراء الوهابيين. وكانوا يقاومون التحرشات السنوية التى كان يشنها عليهم ابن الرشيد كل عام؛ وكانت الحملات العثمانية، تجرد عليهم بين الحين والآخر، من المدن المقدسة لكى تجمع منهم الخراج بالقوة.

وقد بلغنا مؤخرا أن محمد بن الرشيد قد أطلق إبله فى مضاربهم. وتركناه، والغزو قائم على أشده فى مراعى الشمال، فيما وراء النفود. ومن هذه المنطقة بدأ الأمير يتقدم على شكل رحلات rahlas (نقلات)، على الطريقة البدوية، التى تتمثل فى رعى الماشية، وإقامة المخيمات، إلى أن وصل إلى سوق Suk الشيوخ es-Sheukh على نهري بلاد الرافدين. من الذى يظن أن وجوده هناك هو بنية خطف فريسة من منطقة مكة؟ [التى تبعد مسير شهر بقافلة الحج!] ولكن ليس هناك من أحد غير الأسويين الساميين Semitic الذين يشتهرون بتلك الاحتيالات. فالمرء يبحث عنهم فى عام قادم؛ وهم اليوم معك ومن حوالك! ركب ابن الرشيد ومعه جماعته المسلحة، ومعهم البدو والمؤيدين لهم؛ ومضوا بسرعة عبر الصحارى المرتفعة؛ واستولوا على جزء كبير من القصيم المأهول بالسكان. وأثناء مرورهم، استدعى ابن الرشيد ركاب قبيلة حرب، الذين كانوا متجمعين فى سميراء: وبعد بضع رحلات شاهد ابن الرشيد حرة القشيب، التى تقع على حدود الحجاز! وعثروا على بعض من رجال عتيبة عند مسقى من مساقى المياه -: وكانت الغنيمة "ثلاثة عشر ألف جمل" [ربما كان العدد

١٣٠ ؛ لأن العرب يبالغون دوماً في الأعداد؛ وهذه مبالغة كبيرة وتلك شهامة لا تكلفهم شيئاً؛ هذا بالإضافة إلى الأغنام التي لاتعد ولا تحصى، وأثناء عودته عرج ابن الرشيد على بعض من الحطيم الأحرار، الذين يرتبطون بتحالف مع قبيلة عتيبة؛ وغزاهم أيضاً. أخبرني شيخ من شيوخ عتيبة بعد ذلك، أن ابن الرشيد لم يأخذ سوى فريق من أفراد قبيلته. ونحن نقدر ٢٠٠٠ بيت بما يساوي ثلاثة عشر ألفاً من الإبل، وأن ذلك العدد من الإبل كان يدافع عنه أكثر من ألفي رجل، أو إن شئت فقل أمة عتيبة كلها ! وهذا العدد أكثر من كاف لرد خصومهم الشمر إلى ديارهم وهم سيكون ويولولون. كان ابن الرشيد عندما قام بالغزو، في المنطقة نفسها، في العام السابق، قد عاد بخفي حنين، نظراً لأن أخبار الغزو كانت قد سبقته إلى هؤلاء الناس؛ وبالتالي أنقذ الأعراب أنفسهم بأن لانوا بأرض ابن سعود.

ملحق الفصل الرابع عشر

أعراب عتيبة - عددٌ لى الشريف نصير، جامع الخراج لحساب شريف مكة، والذي رافقنى فى رحلتى إلى جدة، عدد لى مايزيد على ثلاثين فريقاً من قبيلة عتيبة على النحو التالى : -

المزاحمة	الزُّيد	الشُّعادة	الزُّديان	الثبیت
المفیريج	العصومة	الصوطة	الوجيدان	
المراشدة	الروثان	الوثان	الهليسة	
المقوطة	النقوشة	الطيقات	الحصانة	
الجديمة	البراريج	المناجيم	البطعانين	المناصير
الدَّاجين	الدهوسة	الإيالة	الشعبية	الكرزان
الشعابين	المروحة	إربعة	الثُّبات	السيها
				العطيات

أضاف؛ أنه ذات مرة وعندما تجمع أقل من ربع القبيلة ليقفوا فى وجه سعود بن سعود، قام بإحصاء منازلهم - عندما كان يمر فى مكان مستقيم - فوجدها ٢١٠٠ بيتاً. [لقدنا كدنا أن البدو الرحل يضربون العدد الصحيح فى ١٠].

الفصل الخامس عشر

حروب عنيزة. طرد القحطان من القصيم

طرد الحاكم الوهابي على يد يحيى البطل. محاربة ابن سعود لعنيزة. الحرب الثانية. هجمة مفاجئة. نساء عنيزة في الميدان. كلام زامل. انعكاس غريب. كلام يحيى. عزل زامل لأمير سابق مغتصب. حياة زامل المنزلية. ضرائب الأمير. مياه الآبار في عنيزة. إدارة الآبار والرى. أمسيات في البستان. أنواع النخيل. الجراد. وصول قافلة البصرة Bosra. عنف إبراهيم. رشيد يزور البستانى. الحريم. الجدرى. الأسر الثكلى. الجهاد. آراء أهل الجزيرة العربية في أعمال الصدقات الإنجليزية. أعراب المطير ينضمون إلى عنيزة. العمليات الحربية في المدينة، مع المطير، ضد القحطان (المعتدين). هجوم المطير الصباحى. وصول زامل. الإطاحة بالقحطان وهروبهم. قتل حيزان. مخيم القحطان في قوة المطير. إطلاق سراح مغربى كان مستعبدا لدى القحطان. المطير والمدينة يعودان من الميدان. زوجات البدو يولون حزنا على أزواجهن. عندما يجيء المسيح هل سيطلب منا الإيمان بمحمد (ﷺ)؟ شيخ المطير الكبير. رحيل قافلة مكة. حامد اليعنى. النصرانى ينتقل إلى مزرعة نخيل الكينى.

أنا أحكى هنا، عن الحروب التى دارت مؤخرا فى عنيزة، والتى جاءت على لسان أصدقائى، وقد سمعت تلك الروايات من أفواههم. حكوا لى أن جلوى Jellowwy [قالوا إنه كان كان مايزال على قيد الحياة]. شقيق الأمير فيصل بن سعود كان حاكما منابا عن الوهابى فى عنيزة؛ التى كان يضايق الناس فيها يوميا بأعماله الابتزازية المستبدة المبتكرة: فقد كان يطلب تمرا من البعض، ويطلب علفا من البعض الآخر لخيوله - دون أن يدفع عن ذلك أجرا، من النقود الكثيرة التى كان يحصل عليها؛ ولامن تلك النقود

التي كان يحصل عليها على شكل مساهمات ، أوحى من المتحصلات السنوية - كان كبار المواطنين وأعيانهم يتشاورون فيما بينهم في السر؛ وقرروا التخلص من جلوى بخلعه وأن يتولى أحدهم قيادة ذلك المشروع." قال أهل البسام ،لا يمكن له أن يكون واحداً من بيتنا ؛ لأن ذلك يحتمل أن يشجع ابن سعود على إعلان الحرب علينا، على أمل مصادرة ثروات البسام." قال يحيى: "حسن، أنا تركتني صغيرة؛ وأنا على استعداد لتحمل مسؤولية هذا الخطر: ولكن أعطني خمسين سيفاً لأولئك الشبان الصغار (من الخريسي) الفقراء." ومن المسلم به ومن المعروف أيضاً أن العرب يتعجلون التنفيذ: وعلى الفور جرى حمل السلاح الذي سبق تجميعه، علانية في الشوارع؛ ثم جرى وضع ذلك السلاح أمام يحيى الذي كان مع الخريسي في المجلس. طلب يحيى من الشبان الصغار(الخريسي) حمل تلك السيوف: وصاح قائلاً: "من سيكون معنا في تحرير عنيزة، عليه أن يتناول سلاحه الآن!"

قاد الشيخ أولئك الشبان إلى بوابة بيت الحاكم؛ وطرق الباب بعنف؛ورد عليه واحد من العبيد، "من الطارق؟" - "قل لسيدك، إن يحيى موجود هنا ومعه رجاله؛ وهو يقول لك: غادر هذا البلد، في التواللحظة!" - ثم سمعوا بعد ذلك صوت جلوى ينبعث من الداخل، "ماهذا، ياأصدقائي! أليس اليوم هو يوم الجمعة؟ وأننا أوشكنا على صلاة الظهر. هيا بنا نذهب جميعاً إلى الصلاة؛ وبعدها سوف نترككم." يحيى: "ولكني أقسم بالله، أنه عندما يؤذن المؤذن ستكون أنت يا جلوى خارج أسوار عنيزة." جلوى: "هل ستعطيني أربعين ناقة." - "ستأخذ أربعين ناقة." في عنيزة هناك الكثير من النياق المملوكة للناس ويحتفظون بها في حظائر منازلهم. وجرى إحضار النياق، أمام بوابة جلوى. وعلى الفور ركب الحاكم الوهابي هو وحريره تلك النياق ومعهم الخدم أيضاً: ركبوا النياق ومضوا قدماً في طريقهم؛ متجهين صوب بريدة - ووصل بهم الأمر إلى حد التزود بالماء بالرغم من قصر المسافة بين البلدين: ولكن القراب السوداء التي كانت تتدلى من مقدمة (سروج) عدد الجمال كانت مليئة بسمن الأمير الوهابي ! وهل يمكن لمواطن الجزيرة العربية أن يخلف وراءه زيده - أوفلوسه Fulus ؟

تقدم فيصل بن سعود قادماً من الرياض لاستعادة البلدة المتمردة؛ وجاء تابعه ابن الرشيد من جبل الشمر لمساعدته ومؤازرته . وبقيت قوة الحصار مخيمة على حدود

الوادي حتى العام الثاني [هذا هو أسلوب الحرب عند أهل الجزيرة العربية!]; وعندما فشلوا في التأثير على أحياء عنيزة وضواحيها، قام الوهابي بمهادنة مواطنيها، وانسحب عائداً إلى الرياض. هذه الحرب التي يطلقون عليها حرب *harb* الأول *el-awwel*، بمعنى 'الحرب السابقة' حدثت في العام ١٢٦٩ - ٧٠ هجرية(*) (أي قبل مجيئى إلى عنيزة بخمسة وعشرين عاما) كان أمير البلاد في ذلك الوقت هو عبدالله *Abdullah ibn yahya* يحيى بن *ibn سليم Seleym*.

الحرب *Harb* الثاني *eth-thany*، أوإن شئت فقل: 'الحرب الثانية مع الوهابي' حدثت بعد الحرب الأولى بثمانية سنوات. ففي العام ١٢٧٨ هجرى، انهزم القسم الخاص بعبد الله *Abdullah* العزيز المحمد *el-Mohammed* أمير بريدة، والذي كان عدواً للطغيان الوهابي؛ وترتب على تلك الهزيمة هروب عبدالله إلى عنيزة: وعندما أحس بعدم الأمان على نفسه، عجل بالانضمام إلى جانب شريف مكة. ولكن ابن سعود أرسل له بعض الرجال كي يضل طريقه في الصحاري؛ وبينما كان عبد العزيز راكباً ومعه جماعة من مواطني عنيزة، التقاه الوهابيون؛ الراكبين المسلحين، الذين أدركوا خدم ابن سعود واشتبكوا معهم في النفود وهم يصيحون قائلين لهم: "أنتم قتلتم الضيف *eth-thaif* يا أهل عنيزة!" عبدالله مايزال أميراً؛ وكان قد سبق له تعيين زامل (ولد أخيه) أميراً تنفيذياً.

هذا العمل المجيد الذي قامت به البلدة ألب عليهم الوهابي مرة ثانية. فقد قام محمد بن سعود، المطوع وشقيق فيصل، بشن الحرب على عنيزة ومعها "الجزيرة العربية كلها"، وعلى وجه الخصوص القرويين الذين يعيشون في شرقي نجد ومعهم البدو أيضاً، وكذلك القرويين في كل من الأحساء *el-Hasa* وعمان *Aman*(**). كان المهنا هو وبريدة، والقصيم كلها مع محمد بن سعود؛ كما انضم إليه أيضاً الأمير طلال بن الرشيد وعبيد بن الرشيد، ومعهما سكان الواحات وكل البدو والذين كانوا خاضعين لرئاسته. كما شارك معهما أيضاً أناس جاؤا من الجوف. هذا الحشد المسلح خيم

(*) ١٨٥٢ - ١٨٥٣ م. (المراجع)

(**) الصحيح *Oman* وليست *Aman* كما وردت في المتن. (المراجع)

فى النفود أمام البلدة المبنية من اللبن، التى يقدر عدد القادرين فيها على حمل السلاح بما لايزيد على ألف من الرجال- ولكن الجماعات العمانية هى والجماعة الأحسائية لم تكن متحمسة للقتال؛ أما فيما يتعلق بالقصمان فقد تظاهروا بأنهم يقاتلون إخوانهم المواطنين!

وبالرغم من حصار عنيزة إلا أن مواطنيها لم يدب الخوف فى نفوسهم: إذ كان المزارعون مايزالون يعملون فيما بين أسوار المدينة الواسعة. تساعت، ولماذا لم يقم العدو بهدم السور المبنى من اللبن باستعمال دانات المدفعية؟" الإجابة: "لقد كانوا يخشون أسلحتهم أكثر منا- لم يكونوا قادرين على استعمالها؛ ولم تسقط سوى دانة واحدة داخل الأرض الفضاء فى عنيزة، ولم تصب أى شىء أو أى أحد من الناس." وأنا سبق لى أن رأيت دانة مدفع قديمة داخل البلدة، والتى قالوا لى عنها: إنها تابعة للوهابى؛ وربما تكون تلك الكرات الحديدية - التى ليست كاملة الاستدارة! قد جرى إخراجها بأيدي صنّاع الجزيرة العربية.

حكى لى عامل جلب الماء من البئر عن مفاخر السلاح فى الحرب الثانية فقال: عند منتصف ليل واحدة من الليالى أوفد زامل مائتى رجل من حملة البنادق الفتيلية، لكى ينصبوا كمينا بالقرب من عين من عيون الماء فى الوادى، بالقرب من بلدة العيارية." قال: الوهابى قبل طلوع النهار، فتح رجال عنيزة النار عليهم؛ وتناهد الضوضاء إلى مسامع أولئك الذين كانوا فى منزّل العدو. وقد جر ذلك عليهم الخيالة النجديين؛ الذين قتل منهم اثنان بالفعل وصمدت بقية الخيالة: ومع طلوع النهار، وصل عبد الله الحيى ومعه الخريسى. وهنا تقدمت جماعة مسلحة من الوهابيين وصاح عبدالله قائلاً: "اهجموا عليهم يا خريسى" وهنا تقدمت السرايا العنزية، وراحت تفتح نيرانها، وولى العدو الأدبار، واستولى الخريسى على علم (بيرق) من أعلام الوهابيين: ووصل رجال عنيزة إلى الخيام بالفعل؛ وجرى الاستيلاء على المخيم الخارجى - وسقط الكثيرون من رجال ابن سعود صرعى؛ وكانت جماعة كبيرة من أولئك الذين كانوا يجرّون فى اتجاه ثكناتهم، تحولت من الجرى إلى الهجوم على الخريسى الأعداء- العمليات الحربية فى الجزيرة العربية تشبه العمليات الحربية التى يقوم بها الغجر. هذا يعنى أن أهل الجزيرة العربية لايلقون بالا لتسوير منازلهم حتى ولو بساترمن التراب.

تقدمت ربات البيوت فى عنيزة للمشاركة فى المعركة بأن رحن يقدن الحمير وعليها قراب الماء. كن يصبين الماء للمقاتلين العطشانين؛ وكن يتولين أمر الجرحى من المقاتلين. وسقط عبدالله، أثناء قيادته للخريسي الشجعان وهنا قامت الزوجات الجيدات بوضع ذلك الشيخ الشاب على حمار ونقلنه إلى البلدة. أما زامل، الذى كان يجرى هنا وهناك (وهو الوحيد من عنيزة الذى كان يركب حصانا)، فقد صاح مناديا، إمبراك Imbarak إمبراك ! لا تقتلوا la tuktilu المسلمين، el-Moslmin بمعنى بارك الله فينا، لا تقتلوا إخواننا فى الدين!

ولكن سرعان ما حدث انعكاس مؤلم! فبينما كان القتال بين الخيام، دخلت جماعة من كبار الشخصيات إلى قائد المطاوعة، الذى كان يجلس هادئا فى شرفة خيمته: "صاحوا، أنهض أيها المحافظ! وأخرج من الخيمة، حتى يتشجع رجالنا." ردت عليهم تلك الكتلة الدينية، أيها الأصدقاء، أسجدوا معي، وهيا بنا نصلى. وبينما كانوا يصلون، بوصفهم أناسا صارعوا من أجل بقائهم على قيد الحياة، انهمر عليهم المطر. وغطى المطر نصف عرض الوادى! الأمر الذى أدى إلى تلف الكبريت الخاص بؤلك المواطنين الذين انتصروا مؤخرا! وقد بقى هؤلاء المواطنون بلا دفاع إثر تلف أسلحتهم النارية وعدم صلاحيتها للاستعمال، وبسبب بعدهم أكثر من ميلين عن مواطنهم، ومحال إقامتهم. انسحب هؤلاء المواطنون، ولكن الخيالة النجديين لاحقوهم، إذ كانوا يحملون أكثر من ألف رمح: وقتل فى تلك المعركة مائتا رجل من عنيزة: [كان ذلك يعادل خمس أو سدس عدد المقاتلين].

- هناك أنشودة من ذلك الزمن نظمها صاحبها عن والد يحيى البطل الذى كان شجاعا فى الحرب، وحاد البصر وقوى البنية، ومن الرماة الأجواد - عاد ذلك الرجل من الميدان وهو غارق فى التفكير إلى بيارة من بيارات النخيل خارج البلدة: ودخل الذين كانوا يراقبون تلك المنطقة، ماذا كان يريد؟ إنه يوم صيام بالنسبة لى، وآه من العطش! كان من عادة ذلك الرجل المتدين أن يفعل أمرين - أولهما أنه كان يصوم اليوم الثالث والخامس من كل أسبوع؛ وهؤلاء الناس عندما يصومون لا يشربون إلا بعد غروب الشمس - أهذا يوم صيام، عندما ينكسر الأعداء؟ أشرب يا أبا عبد الله، أشرب - "إي، الحمد لله على هذا اليوم بالرغم من أنى أفقد عبدالله، ومعه ولد آخر. التأم جرح

عبدالله - الذى نتج عن طلق نارى على فخذة - خلال شهر من الزمن؛ وتوفرت لعنيزة حياة نبل وعزة. أما فيما يتعلق بأبنائه الآخرين، فإن دمه الوطنى لم يختلط بدماء أولئك الأطفال الذين أنجبهم من زوجته الثانية - هذا البلد لا تجرى فيه للجرحى أية عمليات جراحية وذلك حبا فى الله، أو طلبا للجزاء والأجر الأوفى.

هناك معركتان صغيرتان أخريان جرى تسجيلهما ضمن المعارك التى دامت شهورا فى " كل أنحاء الجزيرة العربية"، وهاتان المعركتان دارتا أمام سور عنيزة المبني من اللبن والذى يبلغ سمكه شبران. مل طلال من طول الوقت الذى انقضى بلا طائل؛ كما أن - الرجال فترت هممتهم بسبب بعدهم عن عوائلهم، فضلا عن تعريض حياتهم للخطر. وفى النهاية، طوى محمد بن سعود المطوع، المخيم؛ وعاد بخفى حنين إلى الرياض. فى جانب البلدة كان هناك أربعمائة رجل من الفلاحين - الحرب الدينية وحدها هى التى يمكن أن تدخل الشجاعة فى قلوب أهل الجزيرة العربية، الذين هم محاربون أحرار، لا يلقون بالا كثيرا لشيوخهم، وتجعلهم يقتحمون الأسوار المحصنة. قلة قليلة من الناس، إلى جانب يحيى، هم الذين سيخاطرون بحياتهم وأموالهم من أجل الصالح العام.

أهل عنيزة يعتبرون أنفسهم أصحاب كفاية، إذ كان مايدور بخلداهم وخذل شيوخهم هو مسألة السيطرة على نجد. وهم يقولون الله هيا لهم أمراء معتدلين وعادلين ومسلمين، ولو قدر لزامل أن تكون له شهية مثل شهية ابن الرشيد، لخضعت البلاد كلها لعنيزة التى تقع فيما بين وادى الدواسر ودمشق. ومع ذلك فقد كان المواطنون العنزيون يقومون بدور الغزاة والمعتدين فى بعض الأحيان؛ مثلما حدث فى تلك الحملة المشنومة التى جربوها على ابن الرشيد، كى يقتلوه" والتى لقيت هزيمة نكراء على أيدي عبيد بن الرشيد؛ الذى قتل الكثيرين من أهل عنيزة أثناء مطاردته لهم فى تلك المعركة التى نَظَم فيها القصائد المحارب تلك القصيدة التى سبق أن أشرت إليها .

كان زامل قائدا حظيظا فى كل العمليات الحربية التى جرت فى عهده؛ وزامل، عندما كان فى بداية عهد رجولته، كان قائدا لقوات عنيزة (ضمن حملة طويلة من حملات الوهابى) فى عُمان Aman، وفى تلك الحملة استطاع ذلك الرجل أن يكشف

عن موهبته الاستراتيجية وعن حبه للعدل والاعتدال، وكلها كانت أمورا طبيعية في ذلك الرجل. وعمر الزامل حاليا، ربما يكون خمسة وأربعين عاما أو أكثر قليلا من ذلك. والناس هنا يقولون: 'إن كل أمرائهم الذين يعيشون في ذاكرتهم، لم يتمتعوا بالقيمة العامة والفهم العام أيضا.' ومع ذلك فقد بلغنى أن واحداً منهم - وقد لا يكون من سلالة الشيوخ، قام باغتصاب السلطة من الأمير. فقد قام ذلك الرجل بزيارة مكة لأداء فريضة الحج: وأثناء العودة، وعندما اقتربوا من عنيزة، نزل الرجل من فوق راحلته لتمضية حرارة الظهيرة تحت ظلال بعض النخيل الواقع على أطراف البلدة. وسمع زامل عن ذلك، وخرج مع أتباعه وعثر على ذلك الرجل، وقتله: وبالتالي نشب صراع دموى ثأرى بين هذا الرجل من ناحية وزامل من الناحية الأخرى - وإذا كانت يدا زامل لم تسلما من سفك الدماء، فما الذى يمكن أن تنتظره من الأعراب الآخرين؟

عنيزة ترفل في النعمة حاليا بعد الجفاف الوهاى ؛ وزامل يجىء على رأس جيل من الوطنيين وفي مقدمتهم: وأنا لم أرفى أى مكان آخر، غير هذا المكان، أناسا يعيشون في مثل هذه السعادة والرضا: ونظرا لأن زامل عاقل وحكيم، فهو يحكم عنيزة حكما هادئا ومسالما، والناس هنا يعلقون كل آمالهم على حكمة زامل في أوقات الشدة والأزمات. وزامل له ستة أوسبعة أبناء ذكور: وولده الصغير، على (الذى عمره حاليا ثلاثة عشر عاما)، يقال إنه يشبهه. وزامل لم يرث المنصب على الفور، وإنما خلف الأمير السابق له، ألا وهو عمه عبدالله: والسبب في ذلك أن وراثة المنصب بينهم، لاتسير على الوتيرة نفسها المتبعة في الحياة الصحراوية، والتي تقوم على انتقال المنصب من الأب إلى الابن. وزامل مسلم بمعنى الكلمة؛ وكان يمكن أن يكون رجلا طيبا ومحترما في أى دين من الأديان. وهو متدين، وتدينه تابع من داخله؛ وهو أكثر صراحة بحكم وضعه كأمير: ولقد رأيت ذلك الرجل وهو ينزل في الحقول ويروح يصلى على انفراد. وزامل حذر جداً ويقظ جداً وهو يتعامل مع الصراعات الفكرية في الحكم؛ وكل شئ في البلد كان يسير بالعدل وبطريقة سليمة. ولم يحدث أن احتكم إليه أحد، بما في ذلك البدو أو العجولين، الذين يتصايحون (في قضاياهم)، والذين كان يسترضيهم بحكمة تقوم على الابتسام والملاحظة، ويصرفهم بكلام طيب، وفي أضعف الأحوال كان يقول: بالخير B,il-kheyer إن شاء الله Ullah بمعنى سيكون كل

شيء على مايرام بمشيئة الله. 'كان زامل خبيراً في تصريف الكروب والأزمات؛ كما كان ذلك الرجل موهوباً - بتلك السمة، التي نطلق عليها نحن في أوروبا اسم 'العقلية المسيحية أي الصبر على الأمور.

وزامل يتناول إفطاره عقب شروق الشمس مباشرة؛ ثم ينسحب بعد ذلك إلى جنيته، من جنائنه القرية لمدة ساعة واحدة: وكان يعود إلى ذلك المكان في فترة العصر، كيما يتحرر بعض الشيء من الهموم والمطالب العامة. ومع شروق الشمس يعود زامل إلى المدينة حاملاً معه سيفه: ثم يتجه إلى المجلس، وهو يلقي السلام على الباعة الجالسين في دكاكينهم، وعلى كل من يلقاه في الشارع . ويتجه الأمير إلى مقدمة المجلس، أو إن شئت فقل: شرفة المجلس، التي لا يجلس فيها، في معظم الأحيان، سوى لحظات قصيرة؛ والسبب في ذلك أن الحياة العامة بالحرية في بلد من البلاد، تقل فيها القضايا والمنازعات: وأنا لم أر المجلس ينعقد يوماً في عنيزة- وهذا الأمير الفيلسوف Filsuf سرعان ما يخلو بنفسه؛ وفي أغلب الأحيان يمكن العثور عليه في ساعات ما قبل الظهيرة أثناء زيارته لجنائن الأعيان الداخلين في زمرة أصدقائه. وزامل يعود إلى منزله لأداء صلاة الظهر؛ وبعد صلاة الظهر يجلس في القاعة المخصصة له أو في القهوة الخاصة بكبار الشخصيات. إذا ما كانت هناك بعض الأمور العامة، والشيوخ يتجمعون في المكان الذي يتواجد فيه الزامل؛ وقد تستمر تلك الجلسة إلى صلاة العصر، عندما يؤذن المؤذن لاستدعاء الناس من أعمالهم العامة الدنيوية، لأداء الصلاة.

والذي يمكن أن يؤخذ على الزامل أنه 'لم يكن ليبرالياً. والرجل الأمين أصلاً، ومن سلالة طيبة ، لا يمكن أن يزيد على جوهرة، وإنما يحافظ على ذلك الجوهرة حفاظاً شديداً: والكنيني يقول: 'الزامل يعرض كل ما عنده مثل mithil التاجر " . tajir هذه السمة كانت شديدة الوضوح في شخصية الزامل، والسبب في ذلك أن عبد الله، الذي تولى الإمارة قبله، كان أحقاً كبيراً ولذلك توفي وهو مدين.

كانت متحصلات الأمير (الزكاة) بواقع اثنان ونصف في المئة، وخمسة في المئة على القمح ؛ وسبعة ونصف في المئة على التمور: أما المنازل، والدكاكين والماشية فلا

تدفع عنها زكاة. أما التجار الأجانب [وقد كانوا أغنى من الزامل نفسه] والذين لهم بيوت فى عنيزة، فكانوا يدفعون مساهمة نقدية معقولة للأمير: وهى تكون بواقع عشرة ريالات سنويا. كان الجزء الأكبر من تلك المتحصلات الكبيرة - التى كانت محطا للحسد - لا يذهب إلى جيب الزامل: إذ كانت هناك مصروفات الخدمة العامة، وبخاصة المضيف - وقد زارنا فى بيارة نخيل رشيد: رجل شرس الملامح من رجال الجمارك، جاء يتجسس على الجنائن ليعرف المزيد عن حال الحصاد.

كانت تلك الأيام راكدة الهواء وخانقة تماما؛ وفى أشد تلك الأيام حرارة كانت درجة الحرارة (داخل تعريشتنا) ٧٩° فهرنهايتية؛ حتى عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم والآبار هنا تترواح أعماقها بين ثلاث قامات وأربع قامات وخمس قامات، حسب درجة انخفاضها فى اتجاه الوادى؛ وخلفه بمسافة تقدر بحوالى مائتان وعشرين ياردة، والماء قريب جداً إلى حد أن حفر شتلات النخيل الصغير قد لا تحتاج إلى الرى بعد العام أو العامين الأولين. وقد أعطانى الترمومتر عندما وضعت فى هذا الماء الذى يبدو لنا بارداً، درجة حرارة حوالى ٨٧° فهرنهايتية. والبئر التى يجرى حفرها عند حافة النفود تعطى ماءً جوفياً عذبا؛ ولكن الآبار التى يجرى حفرها (إلى أعماق أكبر) فى القاع يكون ماؤها مالغا إلى حد ما. والناس هنا يقولون: إن القمح يجود فى الأرض المالغة إلى حد ما، ويقولون أيضا أن القمح الأخضر إذا ما اصفر لونه فى الأرض الحلوة يمكن إعادته إلى حالته الأولى عن طريق رش الملح عليه بين الحين والآخر. والآبار كلها تفوح منها رائحة كريهة أثناء الليل: وعن طريق الترمومتر واللسان يمكن التمييز بين مياه الآبار التى تبعد عنا مسافات قصيرة: والماء الذى ينبعث من الحجر الرملى يكون أبرد من الماء الذى ينبعث من انبعاجات الصخور.

ومن بين كل آبار عنيزة هناك بئر واحدة ماؤها عذب فرات! والشيوخ يرسلون مراسليهم إلى ذلك المكان، خلال موسم الجفاف فى الصيف، لجلب الماء من تلك البئر. هذه البئر تقع ضمن ممتلكات أسرة عميدها الذى يدعى أبو Abu داود Daud، وهو مهاجر من مهاجرى القصمان، وكان يعيش فى دمشق؛ التى وصل فيها حالياً إلى منصب شيخ العجيل، وأبو داود هذا هو أيضا قائد حرس المؤخرة فى قافلة الحج [قال أبو داود، إنه لم يجرى سوى مرة واحدة، طوال خمسة وعشرين عاما، لزيارة

موطنه الأصلي، ولدة شهر واحد فقط! كان الماء يتم رفعه بصورة مستمرة من بئر رشيد بواسطة خمس نياق؛ وكان الماء ينساب إلى قنوات رملية (كانوا يزرعون فيها بنور البطيخ، في حفر صغيرة، مع روث الإبل) إلى بركة صغيرة، هي الأخرى محفورة في الرمل المختلط بالطين. هؤلاء الناس من سكان الجزيرة العربية لم يتعلموا كيف يحرقون ذلك الطين ويستعملونه في عمل القنوات وبناء الخزانات. وبركة الري في القصيم جرى العرف، أن تكون تحت تعريشة من تعريشات العنب؛ الذي إذا مازرع في الرمل باستخدام الماء فإنه سرعان ما ينمو كما لو كان غابة خضراء. لقد شاهدنا تعريشات العنب وهي تستعمل في تظليل مدارات آبار الماء في تيماء. والجمال هنا تؤدي عملها في ظلال جريد النخيل.

تشغيل آبار الماء الذي يبدأ في الساعات الأولى بعد منتصف الليل، يستمر حتى الساعة التاسعة تقريباً، أي عندما تزداد حرارة النهار بالفعل. ومع شروق الشمس يستطيع الناس أن يشاهدوا النساء (اللاتي من أسرة تشغيل البئر) وهن جالسات وأمامهن سلالهن عند نهاية مدار البئر، لكي يطعن الإبل العاملة في جلب الماء ورفعها؛ وهن يخلطن قبضة من الجلبان مع شيء من العلف الجاف الذي يجلبه من الصحراء، ثم يضعن هذه اللقافة في فم كل جمل من الجمال العاملة في جلب الماء. والجمال الذي يعمل في جلب الماء يبدأ العمل من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة السابعة مساءً على وجه التقريب، وعندها يجري إعادة إطعام هذه الإبل من جديد. وعامل بئر الماء الذي يتعين عليه أن يقطع راحته الطبيعية كل ليلة، هو وزوجته التي تحضر العلف وتغذي الإبل، يحصلان على ثلاثة ريالات وقرش واحد - أي ما يقرب من خمسة عشر شلناً، في الشهر؛ ويتعين عليهما أن يتحملا تكاليف طعامهما. كان هناك ابن لذلك الرجل، يقوم على أمر بئر من الآبار الفرعية، وكانت أخته هي التي تتولى إطعام الجمالين. كانا يعيشان معيشة متعبة، ولا يعرفان للراحة طعاماً، في أرض الراحة فيها ناتجة عن البطالة. [وأنا عندما كنت أسأل واحداً من هؤلاء الناس المساكين، عن مدى تحمله لذلك العمل بصورة مستمرة؟ كان يرد على الغريب (وهو يتنهد حسرة)، إنه اعتاد القيام بذلك العمل منذ طفولته، وأن ذلك - من الله Min الله Ullah، وأن الله (سبحانه وتعالى) هو الذي يعينه على ذلك]. ولكن الصبية الذين يعملون في الجنائن كانوا يتغنون بطريقة أحسن؛

وكان الواحد منهم يحصل على أربعة بنسات فى اليوم الواحد علاوة على الغداء: وهم يتقاضون مبلغا أقل من ذلك عندما يعملون بالشهر. رأيت الشقىرى الصغير، عاملا جادا وجيدا، وقد وافق على خدمة رشيد لمدة ستة أشهر نظير تسعة ريالات بالإضافة إلى التعيينات الغذائية؛ كما طلب من رشيد أيضا أن يعطيه لباسا (تونك) بما يعادل ثلثى ريال؛ وقد أجابه رشيد إلى طلبه. كل هذه الأماكن لم يرد فيها أى ذكر للمأوى أو الملاذ؛ ولكن حيثما استلقى الإنسان على الرمل، وفى العراء وتحت نجوم السماء، فإنه يجد مأوى ليلي طيب (طوال القسم الأكبر من العام) فى ذلك البلد الصيفى.

كان الصبية يخرجون للعمل اعتبارا من شروق الشمس: وعندما كانوا يُرْسُون Yurussun الماء el-ma بمعنى 'عندما كانوا يصرفون ماء البركة' إنما يفعلون ذلك من خلال قنوات؛ وبذلك يمكن غمر أحواض الحقل كلها وخطوط النخيل كلها بواقع مرتين فى اليوم الواحد. وكلمة 'رُس' russ هذه هى اسم لواحة الرس er-Russ فى القصيم. والناس هنا يروون الجت Jet (نوع من البرسيم) بواقع مرتين فى الأسبوع؛ وعندما يصل ارتفاع ذلك البرسيم إلى قدم تقريبا يجرى حشه بعد ذلك كل خمسة عشر يوما [مثما هو الحال فى دمشق]؛ - والتربة هنا رملية صرفة. كان العيال يأوون هنا، مثما شاهدنا، إلى تعريشة ظليلة، فى فترة العصر، ويروحون يستمعون إلى الحكايات إلى أن يدخل وقت صلاة المغرب. ثم يقوم واحد منهم بالتأذين للصلاة، ويسارع الباقيون إلى الوضوء، وغالبا ما يستحمون فى البئر. والعجيب فعلا أنى رأيت هؤلاء الصبية وهم يقفزون فى البئر الواحد فوق عتق الآخر، وذلك من ارتفاع ثلاثين قدما! نازلين إلى الماء؛ وكانوا يسبحون فى بعض الأحيان فى تلك الغرفة الضيقة: وكانوا يتسلقون، مثل السحالي، خارجين من البئر، عن طريق الاعتماد على أصابع أيديهم وأصابع أرجلهم بوضعها فى المسافات والفراغات التى بين وصلات الأحجار المستعملة فى تبطين البئر. ويعد أن يؤبوا الصلاة جماعة، يعوبون إلى عملهم من جديد إلى غروب الشمس؛ ويعد صلاة المغرب، وبعد أن يتناولوا طعام العشاء الذى يصلهم من البلدة. والعشاء هو الوجبة الرئيسة فى الجزيرة العربية؛ والعشاء هنا عبارة عن وجبة ساخنة ومشبعة من طعام مضاف إليه القمح، يصلح غذاء للجائعين.

ينتهى يوم العمل مع غروب الشمس، والراحة عندهم يطلقون عليها اسم الكيف keyif: ويعد غروب الشمس بحوالى ساعة أو أكثر يصلون العشاء. والصبية الذين يعملون فى البستان (بلا قهوة وبلا تبغ) يروحون يغنون أغانى المساء؛ قد يروحون يطاردون بعضهم البعض مثل الخيول الصغيرة فى الصحراء المظلمة. وفى الليالى المقمرة يلعب هؤلاء الصبية ويمتد لعبهم إلى بيارات النخيل المجاورة؛ هؤلاء العيال، فى كثير من الأحيان ، يعودون وهم يغنون بصوت عالٍ ويعزفون على الطمبور. كانت الأعمال الهزلية الوقحة التى يأتياها كل من الخدام العرب والمزارعين خالية من العنف؛ وكان الصبية يمارسون ذلك اللعب طوال ساعتين أو ثلاث ساعات: ويعد أن ينتهوا من اللعب يجلسون على شكل حلقة أمام بوابة القصر، وكان الشقيرى يتحف زملاءه بحكايات جديدة عامرة بالمغامرات العجيبة.

كل واحة من الواحات فيها أنواع كثيرة من التمور. وأشهر هذه الأنواع فى عنيزة هى الرطب rotb (هذا النوع من التمر يصلح للحمية الغذائية) ، وهذه الرطب يحصل الناس عليها من نوع من النخيل يطلق الناس عليه هنا اسم الشقرة es-Shukra ويصح فيه أيضا الشقرة Shuggera، التى تنمو فى واحة الوشم. وإلى جانب الرطب عندهم أيضا نوع من التمر الجاف، الرطب حلو المذاق، الذى يحمله الناس معهم فى رحلات القوافل باعتباره قطعاً من المسكّرات Sweatmeat. نخيل البلح هو الوحيد الذى يزرع فى الجزيرة العربية: أما نخيل الدوم dom فهو ينمو برياً فى [الحجاز وفى تهامة] - فى بعض المواقع من المستوطنات القديمة، التى يكون الماء فيها على عمق قريب؛ كما ينمو نخيل الدوم أيضا فى بعض الوديان الصحراوية المنخفضة. ولحاء ثمرة الدوم التى يصل حجمها (إلى ثلاثة أضعاف حجم بيضة الأوزة) يأكله الناس ؛ وكلما جفت ثمرة الدوم يصبح طعمها مثل الخبز الحامض - وأنا عندما ذهبت بعد ذلك إلى الهند وبالذات بومباي، عثرت على صبي عربى من شقراء Shuggera يعمل فى الإسطبلات العربية تجولنا سوياً فى ضواحي بومباي وأريته بعض نخيل جوز الهند، "قلت: ليس لديكم هذا النوع من النخيل فى نجد!" رد على متباهياً، لا، ليس هذا النوع من النخيل : هذا النوع من النخيل ليس فيه بركة baraka! هذه الكلمة قالها الصبي بمعناها السامى Semitic (السرمدى)، "كل ما ليس بخبز فهو غرور."

هذه هي سباطات التمر تتدلى بالفعل من أعراف النخيل الإناث حاملة عساليج البلح: والظروف المحيطة تبشر بمحصول وفير هذا العام بعد الدمار والخراب الذي انتاب ذلك المحصول في عام الجراد. كل عسلوج هنا مربوط فيه عضو من أعضاء الذكر، بعض من الأغصان الجافة الطرية؛ وهذا يحمي تلك العساليج من هجوم الجراد عليها في وقت مبكر. والمزارع النجدي يخسر كل عام بسبب موجات الجراد السابقة واللاحقة، وبخاصة أن تلك الموجات تتربى في أرض الجزيرة العربية وتتوالد فيها؛ كما تنهال على أرض الجزيرة العربية جحافل الجراد التي يحملها الهواء ولكن الناس، وبخاصة المزارعين هنا، لا يعرفون من أين تجيء إليهم هذه الجحافل. هذا العام كانت تلك الجحافل خفيفة وقليلة في ذات الوقت؛ ولكن في بعض الأحيان، وبخاصة بعد طلوع الشمس والرياح الخفيفة التي تعقبها، كانت تنهال علينا أسراب الجراد jarad: وهنا كان الصبية يقومون، وكل واحد منهم يحمل جريدة من جريد النخيل، بهش الجراد ومطارده لإبعاده عن النخيل ونبات البرسيم. كانت حشرات الجراد تجري أمام هؤلاء الصبية وهي ترفرف بأجنحتها! متجهة صوب صحراء النفود. كان أولئك الصبية يحملون جثث الجراد الميت وهم يصيحون قائلين "هذا الجراد طيب وسمين؛" ويجرون إلى العزبة كي يشوون ذلك الجراد وإذا تصادف وكنت هناك، فقد كانوا يعزمونني على تلك الوليمة: وذات يوم، وبعد أن رفض الحكيم أن يأكل من ذلك الجراد المشوى، رفض الصبية أيضا الأكل من ذلك الجراد؛ ولكنهم ألقوا بذلك الجراد المشوى على الرمل، في ضوء الشمس وحرارتها، وراح الذباب يلتهمه. "قلت: الجراد يلتهم البدو، والبدو يلتهمون الجراد!" كان كلامي هذا بمثابة العجائب والمعجزات أمام هذا الجمع الساذج من الصبية؛ وراح صالح يردد المثل الذي قاله خليل، على الناس في المدينة.

كان العمال الذين يعملون في حقل رشيد أصدقاء لي: وقبل انقضاء اليوم الثالث على معهم، كانوا قد نسوا ديني السابق وتسامحوا معي فيه، ويقولون: من يدري، لربما كان دينا سليما مثل دينهم؛ وتمنوا لو أنني كنت أعيش بينهم. قال عامل البئر: نعم، "النصارى أصحاب دين سماوى، وكل مافى الأمر أنهم لا يعترفون بأن محمداً رسول الله؛ وهم يقولون: محمد Mohammed بدوى Beduwy] وخطر ببالي أن هذا الصبي

المسكين لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة، المحمّدية(*) Mohammedism عروبة Arabism فى الدين]: وليس هناك أى خطأ غير هذا ؛ ولقد سمعت الشيوخ وهم يرددون ذلك ويكررونه فى البلدة. - فى بعض الأحيان، كان هناك بولى duli بمعنى 'صبى مسحور' يأتى للعمل هنا فى هذا الحقل ، وكان باقى الصبية ينعتونه بالقحطانى Kahtany - وهذه الكلمة من كلمات السب والتوبيخ بين الناس هنا [وقد يصل معناها إلى 'آكل لحوم البشر'] والسبب فى كل ذلك أن ذلك الصبى العامل كان من الخبراء. العاملان الآخران لم يكونا أمناء، نظرا لأنهما نشلا زكائى أثناء الليل ونحن فى قصر رشيد: سرقوا السكر - تلك الهدية الطيبة التى أهدانى الكنىنى إياها؛ وكانت تلك السرقة فاضحة! إلى حد أنهم أنهوا ذلك السكر خلال أيام قلائل . كان لولد صغير من أبناء رشيد يد فى تلك السرقة. وجرى طرد هؤلاء الصبية بعد ذلك من المزرعة ؛ وبلغنا - أن الأمير على عاقبهم على ذلك بالضرب.

- كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فى إحدى الليالى ، وكان ضوء القمر خافتا ، عندما كان إبراهيم وفهد جاهزين بأخر حمل من أحمال القمح- وعندما جاء إلى إبراهيم وقال: "نحن الآن ذاهبان إلى البيت وسنبقى فى البلدة؛ وسوف نترك الجنينة." كان ذلك خبر مزعج من عرب بخلاء، قبل منتصف الليل بساعتين ، أى فى وقت كنت فيه على وشك النوم! "ماذا أفعل؟" - تعال معنا؛ وسوف نوصلك إلى بيارة نخيل الكنىنى، أو أمام منزله. "وجنينة الكنىنى مفتوحة وليس فيها أحد؛ وأنتم تعلمون أنى غير مسموح لى بالعودة إلى البلدة: فقد أرسلنى الزامل إلى هنا . "عليك لعنة الله أنت والزامل! تعال معنا: هيا ! وإلا سوف أفتح عليك النار من المسدس!" ثم قاما بوضع أشياء فوق حمار من الحمير]. - امش يافهد! هيا! يا خليل، هنا بعض اللصوص ؛ ونحن لا يمكن أن نتركك يحدك فى الجنينة. - ولماذا تبقى إذن فى حقل الكنىنى الواقع على أطراف البلدة؟" - والله! سوف نتركك هنا فى وسط النفود! - "لو كنت قد أنذرتنى اليوم لكنت قد أرسلت خبرا لكل من الزامل والكنىنى : ولكنى يتعين على البقاء هنا إلى صباح الغد، فى أضعف الأحوال . "وهنا خطف العبد عباعى (بشتى)؛ ثم ضربنى على وجهى: ثم

(*) المقصود 'بالمحمّدية' Mohammedism هنا هو 'الإسلام'. (المترجم)

أمسك بحجر ثقيل ، واقترب منى يضربنى بذلك الحجر فى رأسى وكنت أعرف حقيقة مايدور داخل هؤلاء الأشيقاء التعساء، أشد الناس قسوة لا يكونون بمثل هذه الخسة أو الدناءة! وخشيت أن يكلفنى ذلك الحجر عينا من عيناي؛ بل وقد يكلفنى حياتى أيضا ، إذا ما رفع النصرانى يده على واحد من المسلمين ! يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن معنا أحد يمكن أن يشهد على صحة هذه الوقائع ؛ والذى لاشك فيه أنهما كانا قد رتبا لذلك العنف بصورة مسبقة. وبينما رحت أفتش بهدوء فى زكائبى بحثا عن مسدسى، مخافة أن تتطور الأمور إلى الأسوء، تكلمت إلى فهد، أنه ينبغى ألا يغيب عنه شرف أبيه. كان هناك صبي صغير، أوإن شئت فقل : ولد صغير من أبناء رشيد - أوبالأحرى لص السكر، راح ينور حول النصرانى ويوجه إليه السباب؛ وبينما كنت غافلا وغير منتبه فى الظلام، ضربنى إبراهيم من الخلف، ضربة ثقيلة بقبضة يده، فوق وجهى وعلى عنقى. وعند هذا الحد، جاعنا مضادفة شاب صغير، من المزرعة المجاورة. كان ذلك الشاب واحداً من مرضاي؛ وعندما وقف على حقيقة الأمر قال لهما: " هل ستقتلانه أثناء الليل؟ ونحن لانعرف إلى أين! أتركنا خليلٌ هنا إلى الصباح، فى أضعف الأحوال." وعندما أدرك إبراهيم أنى ينبغى أن أكون معه، راح يعتذر عما بدر منه من عنف: كان العبد يدعى أن النصرانى سبّه (وهو مسلم) بأن قال له: لعنة Laanat الله Ullah عليك! Aleyk بمعنى " عليك لعنة الله!" وصاح قائلاً: " لو كنا هنا فى مصر، لقتلته!"- ربما كان يفرغ فى النصرانى العنف الذى لقيه فى قناة السويس.

كانت هناك قافلة قادمة من البصرة ومتجهة نحو عنيزة؛ وكان الوالد رشيد ضمن تلك القافلة. وقبل ظهر اليوم التالى استدعى صالح واحداً من المطير؛ كان ذلك المطيرى يود إرسال بريد للتجار الأجانب الموجودين فى الشمال. ولكن ذلك الرجل، أثناء قدومه خسر كلا من النقود التى كانت معه وناقته أيضاً، والسبب فى ذلك أنه كان يستريح يوماً واحداً فى منزل من منازل المطير، ثم هاجمهم غزو قحطانى أثيم. أخبرنا ذلك المطيرى أن مقدمة القافلة وصلت بالفعل؛ وأن القافلة التى أمضت الليل فى الزلفى Zilfy، سوف تصل عند الظهر. هذا المراسل الذى كان يحمل أنباء طيبة، والذى سبق

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيراً لكلمة القافلة . (المراجع)

أن أرسل على عجل من البلدة، كان قد كلف بهذه المهمة يتحريض منا: جلست مضطرب الأنفاس فى جو شديد الحرارة، ورحت أتعجب من ذلك الجرى الخفيف. قال إبراهيم: "هذا البدوى رشيق وخفيف الحركة، والسبب فى ذلك هو حليب النياق الذى مايزال فى عظامه إلى يومنا هذا !- كانت القافلة [التي تضم أكثر من مائتى جمل] قد غادرت البصرة قبل خمسة عشر يوما؛ كانوا يستريحون تحت المظلات فى وقت الظهيرة.

- يوم عودة أية قافلة من القوافل يعد من الأيام السعيدة فى البلدة. هؤلاء الذين يعوبون، يتوافد أصدقاؤهم ومعارفهم على بيوتهم لزيارتهم؛ ويقدم المضيف لهم وجبة ضيافة فى فترة العصر. هذا هو رشيد يجلس حاليا فى هيبة ووقار داخل ذلك البيت الكبير المبني من اللبن، وقد بنى رشيد ذلك البيت لنفسه ولورثته؛ كان رشيد يستقبل الزامل، فى ذلك المنزل أيضا، عندما كان الزامل يقوم ببعض الزيارات الودية لرشيد. أحضر رشيد معه سبعة عشر حملا (حوالى ثلاثة أطنان) من القماش، من عند ولده فى الكويت، لبيعها فى عنيزة، نظير دين من ديونه - يقدر بحوالى ٣٠٠ ريال - يتعين سداذه لورثة صديقه المدعو القاضى el-Kathy الذى توفى مؤخرا. وقد سارع خدمه القدامى فى هذه المزرعة، إلى الذهاب إلى عنيزة ليقبلوا يد سيدهم القديم: وقبل دخول المساء كانت أجزاء من العشاء قد أرسلت إلى أولئك الخدم، من طعام عشاء الأسرة.

سمعت قصة رشيد من فم عامل بئر الماء. والعرب يرغبون فى إنجاب المزيد من الأطفال؛ وعندما راجت تجارته كان ذلك الرجل يشتري له المزيد من الزوجات؛ وفى معظم السنوات كانت الزوجات الأربع يحملن كلهن فى وقت واحد: وبعد الولادة، كان يجعل أطفاله يرضعون صناعيا، حتى يمكن لحريمه أن يحملن من جديد: وهو يفعل هذا الشيء منذ أربعين عاما. - "هذا يعنى أن أطفال رشيد لابد أن يكونوا قد أصبحوا مائة طفل، وربما أكثر من ذلك !لكن كم طفلا عند هذا الرجل؟" كان عامل بئر الماء مندهشا إلى حد ما عندما رحت أعد أطفال ذلك الرجل؛ ورد على فى بساطة، " ولكن الكثيرين من هؤلاء الأطفال يموتون." هذا الوالد، استطاع عن طريق هذا التصرف، فى سنوات شبابه، أن يصبح حاليا والدا لقطيع من البشر؛ وإلى جانب الأبناء، كان له أيضا خمسة عشر بنتا - هذا يعنى أن أسرة هذا الرجل الكبيرة فى عنيزة كان عددها يزيد على ثلاثين فردا.

فى صباح اليوم الثالث جاء رشيد بنفسه، راكبا حمارا أبيضاً (من حمر بلاد الرافدين) جاء قادماً من عنيزة، ليتفقد نخيله فى نجد. هذا الرجل كبير السن، نزل من فوق الحمار، وهو يرفل فى ملابسه، التى كانت عبارة عن ثوب أصفر اللون، وغترة بغدادية مصنوعة من الحرير، ملفوفة حول جمجمة رأسه. وكان يلف حزاماً حول وسطه - مثلما يعود عابر السبيل قادماً من رحلة طويلة - وكان معه قدّامية، ومسدساً من مسدسات الخيول؛ وربما كان ذلك (نظراً لأن أحداً لا يحمل السلاح فى المدينة) من قبيل التسلح تحسباً للنصرانى! كان رشيد رجلاً بهى الطلعة فارغ القامة، وشديد الاسمرار: كانت عيناه العجوزتان مكحلتان. راح الرجل يتجول على قدميه فى ممرات الحديقة، كما لو كان هدهداً، كيما يتسنى له تفقد النخيل ونبات البرسيم. عاد رشيد بعد حوالى ساعة إلى العزبة، إلى المكان الذى كنت أجلس فيه - لم يكن رشيد قد حيا الكافر بعد؛ وعندما جلس رشيد، (تساعل) هل أنا ذلك النصرانى؟ فقد سبق له أن سمع عنى. "صلحت لذلك الرجل العجوز شيئاً من الشاى؛ وقد أفاد ذلك القلب الحزين من رؤية قطع السكر التى كانت بحجم البيضة فى الفنجال - كنت أحتفل بذلك الرجل على هذا النحو كلما جاء إلى هنا، وسمعت ذلك العجوز يقول فى بيته: 'هذا الخليل رجل أمين؛ والله، لقد صلح له شاىا ووضع فيه كمية كبيرة من السكر'.

قال: مخففاً من تعبى وإرهاقى، سأرحل، بميشئة الله، مع القفيلى خلال وقت ليس بطويل. ثم خلع الرجل ملابسه بهيجة الألوان، وخرج ثانية وهو يرتدى قميصه وغطاء رأسه المصنوع من القطن - وعاد الرجل إلى العزبة فى عز الحر؛ وجلس ذلك العجوز ثم تجرد من ملابسه؛ ولم يبق عليه سوى سترته التى يشدها على جسمه بحزام من الوسط؛ ثم راح يظهر جلد القصاب من ميكروب الطاعون الذى يحتمل أن يكون قد أصاب ذلك الجلد جراء الرحلة التى قامت القافلة بها إلى مصر. وقبل دخول وقت الظهيرة عاد ذلك الرجل مرة ثانية إلى الحديقة، وراح يتحاور مع العمال كما لو كان رجلاً فقيراً حاله من حالهم تماماً. كان رشيد ينظر بدقة إلى كل آلة من الآلات التى يستخدمونها، كما كان يعمل معهم بيديه فى بعض الأحيان؛ وبدأ الرجل فى تنظيف قاع البركة. وعندما عاد وكان يحس بالعطش، اتجه صوب قربتى وشرب منها، وكنت قد علقت القربة فى الهواء على جريدة من جريد نخلة من النخيل؛ وفتح الرجل فم

القربة وشرب منها، شأنه شأن أى جمال من الجمالين الببو ضعاف الحال - صيانة تلك العزبة تكلف ذلك الرجل مائتى ريال فى العام ، القسم الأكبر يدفع أجرا عن الأعمال التى تقوم بها الإبل . ولم تكن الثمار التى تنتج من تلك العزبة تساوى ذلك المبلغ.

كل هذا الازدهار الدنيوى، هو واختلاطه بالناس فى الخارج ، لم يستطيعا أن يخففا من فهم ذلك الرجل المتشدد؛ إذ كان وهابيا بأقصى معانى التشدد النجدى المتصل بهذه الكلمة. كان الرحالة الغربى، واحداً من أبناء ذلك الرجل الذى تربى فى المجازر ونشأ فيها ! وكان له ولد آخر يعمل تاجرا فى عدن، رافقه فى عودته مع القافلة: وفتح ذلك الولد دكانا فى السوق. وراح يبيع فيه تلك الأحمال من القماش التى جاء بها والده. كانت غالبية المشترين فى البلدة من المطير ، وبخاصة القبليين منهم ؛ وكان واحداً من أولئك المطير "الذين يشبهون الجراد" خفيف اليد، مما جعله يسرق عباءة من العباءات التى كان يبيعها رشيد، وتصل قيمتها إلى حوالى عشر شلنات ؛ والتى دفع العجوز ثمنها وعنف أولاده على فقدها وضياعها. هذا الولد جاء ذات مرة من البلدة ليستشير الحكيم ؛ كان ذلك الولد شخصا رذيلًا ومخادعا ، وصاحب وعود كاذبة. وهو سوف يزور عدن مرة ثانية (من أجلى) ؛ وسوف يبحر معى على السفينة نفسها . فقد ترك خلفه هناك زوجته وابنه الصغير ؛ واستطاع تسجيل ولده على إنه واحد من الرعايا البريطانيين: وأنه سوف يرافقنى إلى الهند إذا ماكنت أنا أود ذلك.. تجولت فى مزرعة والده؛ ولم يصلحوا لى أى شىء من القهوة.

- قال واحد من الحاضرين فى صالة رشيد (فى البلدة): ما الذى يجعل نصرانيا يأتى من مدن أوروبا الفخمة إلى هذه البلاد الجرداء من بلاد نجد؟ أجاب التاجر العجوز على ذلك السؤال قائلا: "أنا أعرف أخلاقهم! هذا فرنجى ، ومن المحتمل جداً أن يكون فقيرا من أولئك الفقراء، وربما يكون قد أجر زوجته، نظير المال الذى يساعده على العودة إلى وطنه؛ وأرجو أن تثقوا بى لأنهم كلهم يفعلون هذا الشىء . " هذه الحكاية كان أولاده يتهامسون بها فى الجنيئة: وذات يوم، فى فترة العصر، سألنى الشقىرى عن هذا الموضوع أمام الحاضرين كلهم، وأردف قائلا: "ولكنى لا أصدق ذلك . " تعجبت، هذه التخيلات لايمكن أن تستقر إلا عند جلف من الأجلاف الذين لاتعمر قلوبهم إلا بروث الحيوان؛ كما أن هذا الكلام لايردده سوى عبد من العبيد! " همس الرجل

قائلا: " يا خليل، لا تتكلم بهذه الصورة العلنية، لأن ولده جالس معهم (ولده الذى سرق السكر) ! كما أن الولد يعد ناقلا للحكايات .- وعندما استأذن الشقيرى وانصرف، تساءلت ، " هل أنت برئ من هذه الاضطرابات والمتاعب؟" ورد على قائلا: " هناك زنى وجماع يدور بينهم فى السر."

ويتعين علينا أن ننظر إلى حريمهم على أنهم أقل تواضعا منهم ناضجات . والعرب غيرون وماجنون ؛ وأية امرأة مسلمة ، طالما أنها تعرف أنها يمكن أن تطلق بمجرد كلمة، تخشى وتخاف أن تثير حتى ولو مجرد التأمل فى هذا الأمر. ولم تستطع الصديقات الحميمات إقناع كثير من السيدات الفقيرات، اللاتي ترددن على الحكيم، بالكشف ولو بشيء يسير جداً من القماش الذى يضعنه على وجوههن حتى يتمكن الحكيم من معاينة عيونهن المريضة. وهذه مخلوقة صغيرة من البشر عصبت أمها، ولم توافق على الكشف عن تورم مؤلم فى ركبته. وحتى النساء الزنجيات كبيرات السن [يمشين هنا وهن منقبات]، اللاتي يعانين من مرض الرمد، يرفضن كشف جباههن السوداء عليهن يصيبهن شيء من الشفاء. بل إنهن كن يقلن: ' إنه إن لم يكن ذلك بإرادة الله فإنهن سوف يعود إليهن بصرهن - وهذا الجنس البشرى البائس يتطلع إلى أن يرث ذلك الخير الذى افتقدوه فى هذه الدنيا - فى الجنة Filjinna. كانت زوجة يحيى هى الأخرى، من النوع الحريص : لأنها عندما طلبت من سيدها العجوز، وافقت على أن تكشف من خلال الثوب النسائى الطويل عن الورم المؤلم الذى كان فى ركبته، كي يراه الحكيم. والعرب لهم طريقة غريبة فى الثياب وارتداء الملابس: فثياب النساء فى القصيم فضفاضة بشكل عجيب، إلى حد أن المرأة عندما ترفع ذراعها يفتح الثوب إلى أن يصل إلى ركبته. وهذا يحتم على المرأة أن تكون حريصة ومنتبهة إلى ثيابها أثناء تحركها، وذلك بأن تمسك باكمام الثوب تحت ذراعها ؛ ولكن النساء الحضريات اللاتي يعملن خارج منازلهن وكذلك ربات البيوت البدويات يتعرضن لكثير من الحوادث المفاجئة وغيرا المقصودة. والحريم فقط هن اللاتي يجلسن على هذا النحو عندما يكون الجو حارا؛ ثم يتغطين إذا ما دخل غريب عليهن.

مر على الوقت السابق لوصول قافلة السمن طويلا وثقيلا وبطيئا ومرهقا: فقد أرجأ الزامل الحملة التى كانت المدينة مزعمة القيام بها مع المطير ضد المعتدين القحطان إلى

مابعد وصول القفيلة الشمالية الكبيرة. على الجانب الآخر، فإن القافلة المتجهة إلى مكة لا يمكن أن تستأنف رحلتها إلا بعد تسوية ذلك النزاع والبت فيه. لم يحضر أحد من أصدقائي أو معارفي لزيارتي في تلك المزرعة التي تبعد مسافة ميلين ونصف الميل عن عنيزة. صداقة الناس هنا تشبه صوت طائر عندما يقف بين باقة من الزهور: إذا ماتملكه الخوف أو الفرع لا يعود مرة ثانية إلى تلك الباقة. يضاف إلى ذلك أنى لم تصلنى أخبار لا من البسام أو الكنينى ! يستثنى من ذلك أن بعض المرضى كانوا يلونون بهذا المكان، بين الحين والآخر، طلبا للمشورة من الحكيم؛ هؤلاء المرضى كانوا يقولون لى : إنهم موفدين من قبل الكنينى أو الزامل اللذان يقولان: " إن يد خليل فيها بركة baraka؛ وإن شاء الله يشفيك الله."

كان مرض الجدرى قد أوشك على الانتهاء فى عنيزة. وفقد صالح ولده فى ذلك الوياء، وتحمل صالح الآلام التى ترتبت على ذلك بصبر المسلمين القصير المعهود. كما ماتت أيضا ابنة صغيرة من بنات الكنينى ؛ وبقي الكنينى على غير علم بتلك الوفاة طيلة أيام ثلاثه. إلى أن سأل هو بنفسه عن تلك الابنة: وهنا قال له أهل بيته وأصدقائه: " لقد أخذها الله؛ ودفناها بالأمس ". ولكن عبدالله الكنينى لامهم لوما شديدا وقاسيا؛ "أوه! قال: لماذا لم تخبرونى؟" حتى يمكننى أن ألقى نظرة أخيرة عليها بعد أن توفاه الله. وتأملت أنا أيضا لأنى لم أعلم بذلك ، ولربما كنت سببا فى شفاها.

طلبت من صالح أن يعيرنى كتابا أقرأ فيه: وفى اليوم التالى جاء صالح إلى من عنيزة ومعه مجلد ضخّم له غلاف أحمر، وعامر بالأساطير المقدسة إلى حد أن هذا الكتاب، فى رأى صالح ، " هو الأكثر شيوعا وتداولاً بين الحريم." هناك الكثيرون من الحضر الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى البلدان الوهايبية؛ والأطفال هنا، فى معظمهم ، يوفدهم أهلهم لتعلم القراءة والكتابة: وعلى حد قولهم هنا، إن الطفل عندما يصل طوله إلى طول السيف ، " يجرى تعليمه الصلاة. أعارنى صالح أيضا مجموعة من المجلة العربية الجريئة ؛ التى بلغ عمرها بضعة أشهر فى الوقت الراهن، ولكنها تعد جديدة على هذا الجزء من البلاد، كما أن تلك الجريدة كان يجرى إحضارها عن طريق القوافل. قرأت فى تلك الجريدة عن الجهاد: كان صالح يراقبنى وأنا أحاول القراءة، ثم سألنى فى نهاية الأمر، هل أنا راض الآن؟ لقد انكسر سلطان [الإسلام]؛

كان ذهن صالح المتحجر عامرا بالحقّ الديني، وكان يبدو عليه أن ما قاله ينبغي أن يشرح صدرى ويسرّنى تماما، وهو نفسه، عثر فى جريدة إسطنبول، على الكثير من الكلمات [السياسية، والعسكرية والأوربية] الغريبة، الأمر الذى كان يجعله يقرأ الجريدة دون أن يفهم ذلك الذى يقرؤه.

- قرأت على الحاضرين، كيف أن الإنجليز أرسلوا أنوية وأطباء، وعلى حسابهم الخاص، لعلاج مرضى المسلمين وجرحاهم؛ كما أرسلوا أيضا ملابس وطعاما ونقوداً؛ وأن أعدادا كبيرة من الأثرياء قد دفعوا من جيوبهم الخاصة مبالغ كبيرة جداً [التي تعد مبالغ خيالية فى ضوء الفقر والعوز الذى يعيشه العرب!] وقلت لهم: "حسن، ما رأيكم فى ذلك؟ ألم تكن تلك الأعمال تستحق الشكر والثناء؟ ألم يكن ذلك لصالح المسلمين؟" لا إجابة: "نحن لانشكرهم؛ أريكم الله، هم وكل الكافرين! ولكننا نشكر الله، الذى حرّك الوثنيين وجعلهم يغيثون الإسلام."

بعد أن مضى على أكثر من ثلاثة أسابيع فى تلك الأرض الجرداء، كتبت على قطعة من الورق 'قتلنى Katalny التعب el-taab والجوع' Wa ej-jua؛ ثم أرسلت هذه الورقة إلى الكنيى - كنت أتطلع إلى الانتقال خلال فترة وجيزة، وبموافقة من الزامل إلى بعض مزارع الأصدقاء؛ سواء أكانت مزرعة البسام التى تقع فى الجزء الجنوبي الشرقى من البلدة [حيث يوجد الحجر الأسود black stone، الذى ورد ذكره عند بعض شعرائهم القدامى، والذى 'على حد قولهم،' سميت به عنيزة']؛ أم إلى بيارة نخيل يحيى، ذلك الوالد الطيب، الذى كان متعاطفا مع قضيتى التى لاتشويها شائبة. وصلت رسالتى إلى الكنيى: ومع شروق شمس اليوم التالى لوصول الرسالة جاعنى خادم عبدالله، وكان يحمل معه خبزا مخمورا وزبداء، وقربة مملوءة لبن الخض؛ كان يحمل معه رسالة شفوية يطلب إلى فيها الخلود إلى الراحة، وأن أقر عينا؛ كما أبلغنى أنهم (الأصدقاء) سوف يجهزون لرحيلى خلال فترة وجيزة - لم أستطع الحصول على أية كحية ولو ضئيلة من لبن الخض فى هذا البلد (ومعروف أن لبن الخض هذا هو بمثابة التبيذ فى هذا البلد). ورد على صالح، إنه بالرغم من أن بعض الحريم قد يبعن الحليب سرّاً فى عنيزة، إلا أنه هو، وأى واحد آخر من أهل بيته، لم يكن لهم يد فى إحضار لبن الخض هذا لخليل. جاءت بعض أسر المطير الفقيرة تنصب خيامها بالقرب من حفر

الماء التى فى أرض الجذامة(*) التى هجرها أصحابها بالقرب من المزرعة التى كنت أقيم فيها؛

وخرجت إليهم على أحصل منهم على شىء من الحليب أو اللبن مقابل شىء من التمر أو الدواء؟ وتعجبت نساء هؤلاء المطير عندما رأين اللون (الإنجليزى) لشعر ذلك الغريب؛ وقالت بعضهن للبعض الآخر: "هل هذا الرجل رمادى الشعر وقد صبغ لحيته بالزعفران؟" - "لا، هذا الشعر طبيعى؛ المؤكد أن هذا رجل أحمر من hai ha min شطوط 'shotut' بمعنى من أنهار (بلاد الرافدين)؛ ألم نر نحن أناسا هنا لهم هذا اللون؟ لكن ، خبرنا أيها الرجل، أين بلادك؟"

كان شيوخ المطير فى عنيزة فى ذلك الوقت لكى يتشاوروا مع كل من الزامل والشيوخ فيما يتعلق بالعملية الحربية المشتركة. ظن القحطان أنهم آمنين فى الخلاء، وأن أهل المدينة (عنيزة) لن يهاجموهم فى ذلك الصيف الحار؛ أما فيما يتعلق بالمطير لم، يكونوا يعولون كثيرا على القحطان كخصوم لهم - أرسل الزامل تعليمات لأولئك الذين لديهم نياقا فى البلدة، أن يستعدوا لركوب نياقهم ومصاحبتهم فى صباح الغد. لقد "أعد" الزامل لهذه الحملة "ستمائة" ناقه. بلغ حجم ذلك الغزو البدوى الاتحادى حوالى "ثلاثمائة ناقه" ومائتى حصان.

رحل المطير قبل عصر اليوم التالى. ولكن الزامل لم يركب راحلته ضمن جماعة واحدة من البدو الرحل الذين كانوا أصدقاء له؛ وأهل الحضر يقولون: البدو مخادعون تماما - مثلما شهدنا فى هزيمة سعود الوهابى . وقد بلغت أخبار الآثام التى ارتكبها الأعراب قبل عامين فى عنيزة! وابن الرشيد هو الأمير الأوحى الذى يركب مع رجائيله وقرويه، ويقوم بالغزو وهو واثق من رعاياه من البدو.

توجه الزامل فى اليوم التالى على رأس "مايزيد على ألف رجل" من أهل المدينة: والناس هنا يقولون: إنه "إذا ما هم الزامل بالقتال، شعرت عنيزة كلها بالثقة والأمان". خلف الزامل وراءه الأمير على كى يتولى أمر البلد؛ وأغلقت الدكاكين فى الأسواق؛ إذ

(*) الجذامة: هى مايتبقى فى الأرض بعد حصاد محصول القمح أو الشعير. (المترجم)

توقف البيع والشراء إلى أن تعود الحملة إلى عنيزة. وتوقف انعقاد سوق الصباح ؛ كما توقف القصابون عن ذبح اللحوم طوال تلك الفترة. وبالرغم من أن عدداً كبيراً كان مع الزامل في الميدان إلا أن الشوارع على حد قول صالح، كانت تبدو مليئة بالناس، على نحو لا تخطئه العين ! تساءلت "وماذا يحدث لو فتح أحد من الناس دكانه؟" الإجابة: "سوف يرسل الأمير على من يغلق ذلك الدكان: ولكن إذا ما أصر صاحبه على فتح الدكان، فإن صاحب الدكان، الذي يكون من هذا القبيل يجرى استدعاؤه أمام الأمير على، حيث يجرى جلده: "والدكاكين الصغيرة العامة وحدها هي التي لا تغلق ، وهي عادة ماتكون مملوكة لرجال مسنين أو لأرامل من النساء.

والأمير يدون أسماء أولئك الذين يشاركون في الغزو؛ وغالباً ما يكون هؤلاء الرجال من صغار السن ومن العائلات التي تقتنى النياق. والخدمة العسكرية تقع على عاتق المواطنين الأثرياء - والسبب في ذلك أن العمليات الحربية لا تدور في الخلاء والناس سائرين على أقدامهم: ونحن لم نسمع أن الوهابي، الذي لديه تنظيم عسكري متواضع، يستعمل الجنود المشاة في الحرب. أما أولئك الذين يبقون في البلد، فهم الذين يقومون على تسيير الحياة اليومية داخلها؛ كما أنهم يعدون أيضاً حراساً للبلد. ورقيب الأمير هو الذي يقوم باستدعاء كل أولئك الذين أدرجت أسماءهم للمشاركة في الغزو مع الزامل (في الصباح). والناقة التي تشارك في القتال يركبها اثنان؛ والرديف غالباً ما يكون شقيق مالك الناقة، أو ابن عمه، أو عميلاً [الذي غالباً ما يكون بدويًا] له، أو خادماً له أيضاً. وإذا ما تأخر أخذ المسجلين تعين عليه إرسال آخر بدلاً منه على ناقته ومعه رديف أيضاً . وإذا مات خلف الشخص عن صحبة الأمير، ولم يرسل بدلاً منه، فقد يمكن التغاضي عن ذلك في حالة الشخصيات المهمة؛ ولكن، المواطنين العاديين، يجبرون على القيام بذلك وتنفيذه بالقوة. كان الزامل رجلاً سهلاً، إذ كان يقبل أعذار أولئك الذين يلتمسون الأعذار لأنفسهم؛ وإذا ما قال شخص: "والله، ياسيدي، إنني لم أستطع المجيء معكم بسبب كيت وكيت، فإن الأمير يرد عليه، في معظم الأحيان، قائلاً: "إذن أبق في البلد."

أشيع كذباً أن الكفيني كان من المشاركين في ذلك الغزو. وأن ذلك الرجل الضعيف أرسل ناقته وعليهما راكبان (من أولئك الذين يمكن الحصول عليهم من بين

الحضر والبدو المساكين). لم يكن هناك أحد من أبناء رشيد في الميدان: وأردف صالح قائلاً: "لنا أبناء عمنا الاثنان شاركا نيابة عنا جميعاً". أبلغني أحد أقارب الزامل، في وقت لاحق، أن قوتهم في الميدان كانت تقدر بثمانمائة رجل، في حين كانت قوة المطير تقدر بحوالي ٣٠٠ رجل. قال بعض الناس: إن عنيزة أرسلت مائتي ناقة، أي ٤٠٠ راكب (مقاتل)؛ بعض ثالث قال: إن عدد المقاتلين بلغ خمسمائة رجل. ونحن يمكن لنا أن نحزر بأن الزامل طالب بتجهيز ثلاثمائة ناقة من عنيزة؛ وأن الذي ذهب للمشاركة في المعركة كان مائتا ناقة، كانت تحمل أربعمائة رجل، وهو ما يعادل ثلث عدد الأفراد البالغين في المدينة؛ ونحزر أيضاً أن المطير لم يشارك منهم سوى ما يقرب من مائة وخمسين رجلاً من رجال القبيلة. ولم يكن في المدينة سوى عشرين فرساً، خاصة بكبار الشيوخ. والشخصيات وقدر عدد القحطان (بأسلوبهم التهويل) بحوالي ٨٠٠ رجل؛ وربما كان ذلك العدد في حدود ٤٠٠ رجل، ولكنهم (شأنهم شأن أعراب الجنوب) لم يكن في حوزتهم سوى أسلحة قليلة. كانت لديهم خيول كثيرة، وأعداد كبيرة من الماشية الكبيرة: وقيل: "إن أفراسهم كانت ١٥٠ فرساً؛ ولكنهم يقولون: إنهم كان لديهم سبعين حصاناً فقط.

تحرك أهل المدينة على شكل جماعات ثلاثة، وكانت كل واحدة من تلك الجماعات تحمل بيارقاً من بيارق عنيزة الثلاثة؛ ولكن واقع الأمر أن بيارت المدينة تقدر بخمس أو ستة بيارق، وذلك في حالة الحرب الداخلية.

في ساعة مبكرة من فترة العصر تناهى إلى مسعى الحديث التالي الذي دار بين كل من فهد ورجل مطيرى مسكين، الذي لم يستطع اللحاق بأفراد قبيلته لأنه لم تكن لديه ناقة. فهد: "لقد ساروا على الطريق! وإن شاء الله، سيعودون إلينا برؤوسهم." إن شاء الله! الله كريم! وسوف يقتلون الأطفال من عامين فما فوق؛ وسوف يترمل الحريم! قلت لهما: "أغلقا فاهيكما، أيها الكفار! بل أبشع من الكفار." البدوى: "ولكن القحطان قتلوا أطفالنا. بل وقتلوا النساء أيضاً!" جاء المطير ليخيموا بالقرب من أسوار البلدة؛ وأصبح منزلان من منازلهم جيراناً لنا. أعراب الجنوب هؤلاء كانوا مثل سائر البدو الآخرين. سمعت على ألسنتهم ومن أفواههم اللغة نفسها التي يتكلمها البدو الرحل؛ ومع ذلك تبينت أنهم كانوا من ديار أجنبية. شاهدت قراب الماء وقد علقوها على ركائز

الواحدة منها مكونة من ثلاثة من العصي . وجاعنى البعض منهم يطلبون نواءً: ويبدو أنهم لم يكونوا كرماء؛ تأكلوا أنى أحظى برضى الزامل وسماحته ، ولم يكن القحطان متشددين.

فى هذا الجزء من البلاد يطلق أهل الحضر على أنفسهم اسم الأعراب، كما يسمون أيضا باسم المسلمين el-Moslemin وهذه الكلمة شبيهة بكلمة 'مسيحي' Cristiani التى تشيع فى بلدان القساوسة فى أوروبا؛ الكلمات التى من هذا القبيل يقصد بها أولا تمييز الجبل الإنسانى، أوإن شئت فقل: الجبل البشرى، ثم يقصد بها ثانيا المعنى الدينى الضيق المتشدد. ذات يوم شاهدت إبلا ترعى فى اتجاه الوادى؛ وعلى أمل شرب شىء من الحليب، غامرت حافى القدمين ، واتجهت صوب تلك الإبل، قاطعا بذلك منطقة الجذامة فى أرض رشيد، وماشيا فوق الرمال المتوهجة: وألقيت التحية على الرعاة! ووقفوا بلا حراك؛ وعندما وصلت إليهم قالوا : بعد شىء من الاندهاش: " يارجل، النياق ليس فيها حليب، وهى ليست ملكا لنا: هذه هى إبل البلدة (عنيزة) ؛ونحن نرعى هذه الإبل لحساب المسلمين Moslemin". قال أحدهم : " أوه أأست أنت الحكيم؟ هل يمكن أن تعطينى نواء؟ وأنت عندما ستأتى إلى خيامنا بعد أن نسقى الماشية، سوف أحلب لك ناقتى الخاصة؛ وأنا ليس عندى غيرها: لوكانت ماشيتنا هنا، لحلب لك البدو لبنا كل يوم." انقضى ذلك اليوم الطويل؛ وانقضى بعده يوم آخر، ولكنه بدى لى وكأنه بلا نهاية؛ وانقضى على يوم ثالث وكأنه ثلاثة أيام: وكان قد بلغنى أن "أصدقائى كلهم مشاركون فى الغزو"، وأن الأمير على هو الذى يحكم حاليا فى عنيزة! وطلب صالح منى أن ألزم الهدوء؛ ولكن الكلمات الحلوة لايجب الوثوق بها بين العرب؛ وهم يعتقدون أن إقناع الإنسان بنيل قسط من الراحة، هو من أعمال الدين.

وصلت أخبار ذلك الغزو إلى بريدة، وخرج المراسلون لى يحذروا القحطان من ذلك الغزو. ولم يحافظ الزامل على سرية هذه العملية الحربية ، إذ لم تكن هناك نقيصة فى شخصية رجل سياسى من هذا القبيل، لأنه كان رجلا شديد الحرص. قال صالح : إنه سيعطى أعداءه فرصة كى يسيروا فى طريق السلام: وياله من اختلاف عن صقور كل من الرياض وجبل شمر!

- كان القحطان فى ذلك الوقت فى منطقة العيون el-Aun؛ قصد الغزو إلى هناك. ولكن الزامل بلغه، وهو فى الطريق، أن منازل (مضارب) القحطان كانت فى الدّلامية ed-Dellamieh، التى هى مسقى فى المسافة ما بين جبل ساق Sak والرّس. سارت المدينة (عنيزة) طوال نهار ذلك اليوم وجزءاً من ليله أيضاً. وفى عصر اليوم التالى كانوا قرييين من الرس؛ ثم نزل الغزو عن الراحلات طلباً لقسط من الراحة، ونصبوا خيامهم وفرشوا سجادهم. وهنا بلغهم أن العدو كان عند آبار الدُّخانى Dokhany، التى تبعد مسافة رحلة واحدة فى اتجاه الجنوب. وبينما استأنف الغزو مشيره فى صبيحة اليوم التالى التقى المطير شيئاً فشيئاً؛ ونزل الجميع عن الراحلات عند الظهر. وقال لهم كشافو المطير: إنهم شاهدوا خيام الأعراب فوق الدُّخانى! وطالما أنهم كثيرو العدد على هذا النحو فلا بد أن يكونوا هم القحطان؛ الذين يمكن أخذهم على غرة! وراح متعلمو عنيزة من الشباب يتفخرون ويتباهون وهم جالسون حول موقد القهوة: "سوف نحارب غداً فى ميدان جبل Jebel قيزان Kezaz القديم بالقرب من الدُّخانى؛ حيث حارب تَبِع (*) ملك اليمن أبناء الوائليين Wailyin (أى أبناء وعيل، أوإن شئت فقل: العنوز). وكليب Koleyb، شيخ ربيعة؛ ومعهم كل من بنى تميم وقيس" [قحطان ضد إسماعيل - حدث ذلك قبل الهجرة بوقت قصير]. جبل قيزان Kezaz يبعد مسير 'ساعة' عن حوض وادى الرماح .

بدأ الزامل ومعه بلده يتحركون فى الصباح، فى الوقت الذى كانت النجوم مازال طالعة فيه: فى حين كان المطير قد سبقوهم قبل وقت قصير، وكان جبل دخانى على بعد مسافة قصيرة. فى تلك المعركة كان مقرراً للبدو أن يهجموا على عدوهم الرئيسى؛ وأن يكون الزامل قريباً منهم لتقديم يد العون لهم إذا ما تطلب الأمر ذلك. وضربت عنيزة الحصار حول القحطان من الناحية الجنوبية.

(*) تَبِع هذا هو مؤسس الدولة الحميرية الثانية ٢٠٠ - ٥٢٥م. ولقب بتبع الأكبر وقد زحف تبع بجيوشه إلى أرمينيا وهزم الترك وامتدت فتوحاته حتى وصلت إلى الهند وغلب أرض الصين ، وأخضع فارس وخرسان والشام ومصر. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم قوله تعالى "أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين" الدخان - الآية ٢٧ . (المراجع)

هجم المطير على عدوهم مع طلوع النهار: وهرب القحطان من البيوت ، ومعهم أسلحتهم، وقفز الشيوخ من فوق أفراسهم ؛ وراح الناس يشجعون بعضهم البعض عن طريق الصياح. وعندما وجدوا أنهم محاصرون بواسطة المطير راحوا يقاتلونهم وهم يصيحون قائلين: جابهم jab-hum الله! ' Ullah - ولكن ذلك اليوم كان واحدا من أيام الاعتراف عند الطرفين ، الاعتراف بالموت الزؤام. كان المطير يحاربون "بماتتى" فرس؛ ولكنهم كانوا من العناصر قليلة القيمة فى الشمال. كان القحطان فى بداية الأمر يحاربون بحوالى ستين خيالا. ثم انضم إليهم ثلاثون خيالا آخرين جاؤا من منزل كبير كان قد نصب خيامه على بعد مسافة قصيرة. وهنا أصبح عدد أفراد القحطان أكبر من عدد أفراد الغزو المطيريين، الذين تركوا ميدان القتال فى نهاية الأمر.

- تلى ذلك ، أن نظر القحطان حولهم؛ وراحوا يتحسبون لجماعات عنيزة المتقدمة صوبهم! وهنا راح القحطانيون الذين لم يقتل منهم عدد كبير، يتصايحون مع بعضهم البعض، كى يشجع كل منهم الآخر، "أخ! أهذا هو ابن الرشيد؟ لكن لا! لأن ابن الرشيد يهاجم تحت لواء بيرق واحد؛ ولكن هؤلاء يهجمون علينا بطريقة الحضر. - الله إنهم حضر!" وعندما اقتربت عنيزة ، تعرف عليهم بعض القحطان، وصاحوا قائلين: "هؤلاء هم القصمان! إنهم الزواميل Zuamil (بمعنى شعب الزامل). وعندما تيقنوا من ذلك سارعوا لإنقاذ نياق الحليب.

- ولكن الزامل، الذى كان على بعد مسافة كبيرة، تعجب عندما رأى الخيالة البدو يسوقون الإبل: "أليس هؤلاء هم المسلمين Moslemin [أولئك الذين هم أنصارنا]؟" أجابه شيخ من شيوخ المطير قائلا: لا! (وكان ذلك الشيخ قد ركب راحلته مع عنيزة، لكى يدل على الطريق فى الخلاء)، إنهم كلهم من القحطان! كان عدد خيالة عنيزة صغير على نحو لم يتمكنوا معه من الهجوم على القحطان. وكان القحطان بدورهم قد تخلوا عن منزلهم لإنشغالهم بمحاولة إنقاذ الماشية: وترتب على ذلك أن ترك القحطان خيامهم، ومتعلقاتهم المنزلية، وزوجاتهم وأطفالهم فى قبضة العدو.

راح خيالة المطير يطاردون القحطان الفارين! الذين استدارو مرة ثانية إلى الخلف وصدوا خيالة المطير: وهنا حاول خيالة عنيزة مساعدة أصدقائهم. فى حين راحت بقية

المطير، الذين نزلوا من فوق إبلهم يسلبون خيام أعدائهم ويستولون عليها - وراح هذا ، وذاك الذين جرى اختراق أجساد ربات بيوتهم بسهام القحطان وكذلك أولئك الذين قتل القحطان أطفالهم، راحوا يفعلون الشيء نفسه مع عدوهم، راحوا يطعنون كثيرا من الحريم ، ويذبحون الأطفال الصغار على مرأى ومسمع من أمهاتهم، وهم يصيحون قائلين : " أوه، لماذا فعل رجالكم الشيء نفسه مع أطفالنا فى ذلك اليوم المشئوم! " كانت بعض النسوة اللاتي أصبن بالهلع والجنون يجرين ويهاجمن الغزاة مستخدمات فى ذلك أوتار الخيام؛ فى حين راح المطير ،الذين كانوا يحملون أسلحتهم فى أيديهم ، ودمهم يغلى فى عروقهم، يكيلون لهم الضربات- وبذلك ماتت خمس أوست زوجات من القحطان، وعددا كبيرا من أطفالهم.

فى عز هذه المحنة خبأت زوجة من الزوجات نقود زوجها ، وكانت تقدر بحوالى ٦٠٠ ريال [وهذا مبلغ كبير إذا ما توفر لواحد من البدو] ! خبأت النقود فى قرية من قرب الماء؛ ومزقت سترتها الزرقاء - وهى كل ماتلبسه المرأة أوتضعه على جسدها الذى يكاد يكون ميتا بسبب الجوع، بعد الهجو haggi؛ ثم علقت تلك القرية على كتف من كتفها وحملت طفلها على الكتف الآخر. ثم أخذت تجرى منطلقا من خيمتها وهى تصيح قاتلة: 'ويلي weily ويلي weily' بمعنى 'الويل لى!' وفرت هاربة بين أفراد العدو. وظن المطير، الذين شاهدوا تلك المرأة، أن واحدا قد اغتصبها، ووجدوا أن من العار تتبعها ؛ ومع ذلك ناداها البعض وطلبوا منها أن تلقى أرضا ذلك الذى كانت تحمله على كتفها : ولكنها تظاهرت بالجنون ، وصاحت قاتلة: 'لقد انتهيت! ألايكفى أن تجرد ابنة شيخ من الشيوخ من ملابسها؟ وهل سيأخذون حتى ذلك الماء الذى تحمله معها لطفلها الصغير!' صاح بعض آخر مطالبا بالسماح لها بالمرور: وهربت المرأة بسرعة، وهربت من الجميع- وبذلك استطاعت أن تنتقد ثروة زوجها، مقابل التضحية بحشمتها .

سقط فى تلك المعركة ثلاثون رجلا من القحطان- وقد قتل أغلبية أولئك الرجال أثناء فرارهم؛ كما قتل عشرة رجال من المطير- وعاد أولئك لدفن موتاهم؛ ولكن الإحسان الإنسانى غير معروف هنا، والذى يتمثل فى إهالة القليل من التراب على جثة العدو بعد وفاته!

جاءت إمراة مراسلة إلى الزامل، موفدة من القحطان الهارين. نزلت عنيزة عن راحلتها، عند آبار الماء (حيث سينصبون مظلاتهم ويشربون القهوة): وطلبت المرأة توصيلها أمنة إلى واحد من الشيوخ ، يأتى للتحدث معها؛ ولبي الزامل طلبها - وبعد ذلك عاد رجال القحطان وراحوا يقبلون الزامل ويتوسلون إليه أنه طالما أن قطعانهم، وخيامهم، ومتعلقاتهم أصبحت الآن (وهذا هو ما يراه بنفسه) فى أيدي المطير ، الذين سيحولون بينهم وبين الوصول إلى الماء، فهم يرجونه أن يسمح لهم بمرور الماء حتى يشربوا ولا يموتوا . ' وكانوا قد تعرقوا عرقا شديدا فى ذلك اليوم بالغ القيظ؛ ولم يكن معهم قراب للماء، عندما فروا عبر الصحراء وهم فى شدة العطش . ولكن من ذا الذى يمكن أن يثق بالأعداء من البدو أو يركن إلى كلامهم! ومن هنا فإنهم يربطون بقسم يقول: عليك aleyk عهد ahad الله Ullah وأمان waaman الله Ullah أن in مأ أخونك ma akhunak الخاين el-khayin يخونه yakhunhu الله Ullah بمعنى 'وعهد الله وأمانه! لن أبيعك! ومن يخون يخنه الله.'

جاءت هزيمة القحطان على ذلك النحو، بعد أن كانوا عتاة غلاظا مع ابن الرشيد فى الفترة الأخيرة .[كان ابن سعود قد هاجمهم فى جبل الدُّخانى، فى صيف العام الماضى! ولكن القحطان استطاعوا رد الوهابى وصد هجومه!] - وقد عزى الناس ذلك النجاح إلى حسن طالع الزامل: إذ لم يستعمل الحضر أسلحتهم. وأرسل المطير من الميدان مراسلين لابن الرشيد، ومعهم هدية عبارة عن فرسين من الغنائم التى حصلوا عليها من القحطان - وقد سعدت بريدة بتلك الهزيمة، لأنها أدت إلى طرد القبليين الغرباء الحاسدين إلى خارج البلاد - ومات عدد كبير من القحطان أثناء فرارهم عبر الخلاء: الأدهى من ذلك أن الإصابات الطفيفة، فى ظل هذا الإرهاق الشديد والظمأ الشديد يمكن أن تودى بحياة البشر. هرب القحطان فى اتجاه الجنوب طوال ثلاثة أيام، مخافة أن يعلم أعداء هم القدامى بأخبار تلك الهزيمة ويقومون هم أيضا بالهجوم عليهم: وقد بلغنا ، أن بعضا من أفراد قبيلة عتيبة التقوا أولئك القحطان الهارين وأخذوا منهم "مائتى" ناقة من نياق الحليب التى استنقنوها وفروا بها هارين. قال البعض منهم الذين وصلوا إلى الأثيلة el-Ethellah: إنهم هزموا وخسروا 'مائة رجل' - ومر الزمن عليهم ثقيلًا وبيلًا قرابة العامين حاليا وهم يقومون بدور الذئب فى منطقة نجد!

عندما سألت عما يمكن أن يحدث للقحطان ؟ أجابنى الشقيرى، " البدو كلاب، لا تموت أبدا؛ وهؤلاء شياطين. سينتقلون عشرين نقلة؛ وبعد عام أو عامين سيحل الدمار بهم من جديد." وما الذى يمكن أن يفعله حاليا؟ " سوف يطيرون النياق ليكون اللين غذاء لهم ، وسوف يبيعون بعض النياق فى القرى، حتى يشتروا بثمرتها تمرا وأوانى للطبخ . ولن يستمر بقاعهم فى العراء فترة طويلة على الأرض بلا مأوى من حرارة الشمس: والسبب فى ذلك أن الحريم سيقمن بجز صوف الأغنام التى تبقّت لهن، ويغزلن صوفها ليلا ونهارا؛ وإن هى إلا أسابيع قليلة حتى ينصبن خيامهن الجديدة! يضاف إلى ذلك أن قحطان الجنوب سيقدمون لهم يد العون والمساعدة." سمعنا بعد ذلك أن القحطان المنهزمين عقدوا صلحا مع العتبان؛ كما تصالحوا أيضا مع ابن سعود! ولكن كيف لهم بتأمين أنفسهم؟ هل وعد القحطان أن يكونوا حلفاء معهم ضد ابن الرشيد؟

مات حيزان! ذلك الشاب ذى الميول اللصوصية، على حد قول البدو الأعداء: وحيزان هذا هو الذى هددنى، فى العام الماضى ، وأنا فى غرفة الضيافة فى حائل: قتل ذلك الحيزان قصاصا لذلك الشيخ المطيرى، الذى قتل مؤخرا فى الشمال بيدي هذا الحيزان. فقد بحث عنه أثناء القتال شيخ من أقارب الشيخ المتوفى : وهرب الاثنان سويا؛ وأصيب حيزان بجرح نافذ مميت. كان حيزان بدويا قوى البنية، وكانت له يد قوية؛ ولكن طعنة رمحه تحاشاها العدو لأنه كان يلبس درعا تحت قميصه المصنوع من القطن. كان المطيرى الذى قتل حيزان واحداً من الخيالة الأجواد، وكان قد قتل بعد حيزان خمسا من الشيوخ. وعندما تحدد مصير اليوم بوصول "الزواميل" Zuamil، الزامل ومعه شقيقه وولده، الذى كان ما يزال حدثا صغيرا [وأولاد الشيوخ سرعان ما يصبحون خيالة، ويركبون خيولهم مع الكبار ويذهبون إلى ميدان القتال] ومعهم قلة قليلة من أعراب الزامل، وغنموا ثمانين ناقه من نياق اللين! فى ذلك اليوم أصابته الرماح، وطلق نارى فى صدره، أحد عشر مرة؛ ولكن أسنة الرماح هى التى كانت تنكس على قميصه "الداودى" المصنوع من السلاسل الحديدية القديمة. وهم هنا يقولون: إن الطلقة النارية التى تطلق على جسم يتحصن بمثل هذا القميص لا تحدث فيه سوى تهشم بالغ.

قتل أيضا فى تلك المعركة شقيق من أشقاء حيزان اسمه تركى؛ كما قتلت أيضا أختها الشيخة: فقد جرى تجريدها من ملابسها وطعنها بالرمح! والسبب فى ذلك أن القحطان كانوا قد جربوا ابنة من بنات أحد الشيوخ من ملابسها ثم قتلوها. استطاع الشيخ القحطاني العجوز - والد هذين الأخوين سيئا الطالع، الهرب بشق الأنفس على ظهر ناقة من النياق . وأصيب حيزان بجرح قاتل وبقي على سرج الحصان أثناء الهرب، إلى أن دخل عليهم المساء؛ وعندما وصلوا إلى الجلبان jolban التالى (جنوب جبل الدخان) أسلم الشيخ الصغير الروح: وألقى رفاقه جثته التى كانت ماتزال حارة فى بئر من تلك الآبار .

عثروا فى مخيم القحطان على أجنبى مسكين ، درويش مغربى شاب !الذى كان يعيش على إحسان أهل المدينة (عنيزة). جاء ذلك المغربى إلى مكة مع قافلة الحج فى العام الماضى؛ ثم قام بعد ذلك بإلحاق نفسه على قافلة القصمان العائدة من الحج،على أمل أن يمر إلى العراق من خلال بلاد القصيم . ولكن أثناء المسير تاه ذلك المغربى فى تلك الأرض الجرداء الخالية: وعثر عليه بعض القحطان الجائلين - بالحلاوة العثور على تائه، فى ظل ظروف كهذه، وذلك بترتيب العناية الإلهية! ولكن القحطان الذين أنقذوا ذلك المغربى ، لم يراعوا كرم الصحراء الدينى، وجعلوا من المغربى عبدا لهم؛ وجعلوه يرعى الغنم : وكانوا كلما اقتربوا من قرية من القرى يقيّدونه حتى لا يهرب منهم- لقد كانوا سيتعاملون معى بهذه الطريقة، بل وبما هو أبشع وأسوأ من ذلك ، لو كنت (على حد افتراضى) قد تجولت مع البعض منهم- أحضر المسلمون العائدون معهم ذلك الشاب المغربى إلى عنيزة، حيث بقى ضيفا فى المدينة ،إلى أن يتمكنوا من نقله إلى المكان الذى يود الذهاب إليه. كان ذلك المغربى بصحبة القحطان اعتبارا من فصل الشتاء، وقال فى بساطة شديدة: "أنا لم أعرف هذه الحياة من قبل، ولكنهم حولونى إلى بدوى، وأقسم بالله أنى أصبحت بدويا .- واقع الأمر أن المرء إذا ما عاش فترة من الزمن بين الأعراب فإن حياته كلها بعد ذلك ستكون عامرة بذلك الإحساس عن الصحراء، وبهذه التجربة التى مربها فى تلك الصحراء.

- فى مساء الليلة الخامسة رأينا خيالا بدويا عند حافة النفود، وكان يتجه صوب الخيام: كان ذلك أول الخيالة العائدين من الغزو. وفى صباح اليوم التالى وصل الزامل

إلى عنيزة ومعه كل أفراد المدينة الذين شاركوا في الغزو؛ سمعنا وقع أقدام الماشية وهي عائدة إلى عنيزة وسط العزف العسكري من آلات الطنبور؛ عادوا على شكل ثلاثة جماعات تحت لواء ثلاثة بيارق. ومع ذلك، لم تكن بقية البدو قد عادت بعد؛ إذ كانوا ما يزالون متخلفين في المسير بعض الشيء. وهذا أمر دائم الحدوث عند تقسيم الغنائم. فالبدو يود الحصول على ما يعثر عليه في أي مكان؛ ونظرا لأن المطير قد سبق غزوهم مؤخرا من قبل القحطان في الشمال، فقد راح الكثيرون من المطير يستربون ماشيتهم من أيدي أولئك القبليين. شاهدنا في عصر اليوم نفسه الأغنام وهي تجري توجيهها إلى داخل البلدة: صحيح أن عدد الأغنام كان قليلا، وصحيح أيضا أن الجزء الأكبر من تلك الأغنام كان ملكا لأهل عنيزة. وجاء أولئك الذين عادوا من الغزو بأخبار ثقيلة ومؤلة، فهناك ستة رجال قتلوا وهم من أهل المنزل القريب منا! هذا المنزل كان يضم حوالي ثلاثين أسرة. وعندما شاع الخبر، راحت زوجات المتوفين يجرين ويولولن، ويطحن بخيامهن التي ترملت. ورحل البدو وعندما طلع النهار، عادوا إلى الخلاء (الصحراء) من جديد. كانت تلك هي كارثة القحطان ومصيبتهم! وحدث بعد ذلك سلام بين كل من بريدة وعنيزة.

راح الجماميل في عنيزة يستعدون للقيام بأعمالهم؛ لأن قافلة السمن كانت على وشك أن تبدأ السفر إلى مكة. وجرى إحضار الزمّل Zemmel، أوإن شئت فقل: إبل الحمل، من عند البدو المتنقلين؛ وشاهدنا إبل الحمل هذه وهي ترعى كل يوم في النفود المحيطة بنا. وكانت قافلة محملة بالتمر والقمح، قد رحلت في تلك الأيام متجهة إلى المدينة (المنورة).

و ذات يوم ركب كل من الزامل والكنيني راحلتيهما واتجها سويا إلى الوادي حيث توجد ضيعة للزامل؛ وقررا عند العودة أن يمرا على مزرعة رشيد لكي يزورا خليلا. ولكنهما أثناء حرارة الظهيرة الشديدة ناما في ظل النخيل : واستيقظ عبدالله الكنيني وهو يعاني من حمى الملاريا! واختار أقرب الطرق الموصلة إلى البلدة.

ذات مساء وصلت من عنيزة جماعة من الأعيان الشبان كي تتفقد بعض أغنامهم، التي أحضرها الرعاة البدو، بعد أن أصابها مرض في صوفها. هؤلاء الأعيان خلعوا

ملابسهم الفاخرة وعباءاتهم؛ ووقفوا فى الغدران التى تتلقى مياه البئر، وراحوا يغسلون أغنامهم. وعندما دخل الليل، ناموا على رمل النقود، أمام خيام الرعاة. كان البعض منهم من آل البسام المتشددين؛ ومع هؤلاء الأعيان جاء أيضا الولد الأصغر من أبناء عبدالله البسام ذلك الرجل الطيب. كان ذلك الولد يحمل لى من والده تحية ملؤها الحب والود؛ وقد أبلغنى الوالد أن القفيلى (تصغير قافلة) سوف تقوم قاصدة مكة (المكرمة) خلال وقت قصير؛ وأنى ينبغى أن أركب مع عبد الرحمن (ولده الأكبر)؛ كان قد مضى على حوالى ستة أسابيع فى مزرعة رشيد.

قبل الرحيل عنا فى الصباح، جاعنى واحد من عائلة البسام المتشددين وقال لى: آه، ليتك تؤمن بمحمد (ﷺ)؛ صحيح، يا خليل، إنك تتطلع يوما إلى عودة المسيح مرة ثانية، من السماء؟ وإذا ما طلب منك عيسى (عليه السلام) الإيمان بمحمد (ﷺ)، فهل ستطيعه وتصبح مسلما؟ ولكنى واثق أن سيدنا عيسى سيأمرك بذلك! أتمنى لو أنه يعجل بالمجىء؛ وعندها سوف نرى!- فى اليوم نفسه زارنا الشابان نفسيهما، اللذان كانا من أقارب رشيد، الذين شاركوا فى الغزو: كان الشابان شديدا السُمرة، ويبدو أنهما كانا من أصل زنجى. أخبرنى أحدهما، الذى سبق له العمل مع قوة العجيل فى دمشق، أنه اشترى فى الفترة الأخيرة، من اليمن حصانا مكتمل الشكل والقوة، ودفع فيه أربعمائة ريال؛ وكان يأمل أن يبيع ذلك الحصان فى الشام بنفس هذا المبلغ. كانت القهوة تقدم لكل من يزور الجنيّة، وبواسطة أبناء رشيد الصغار؛ وفى تلك الأيام - التى كانت تصادف الأيام الأخيرة من شهر يونيو - كانوا يقدمون مع القهوة عناقيد العنب الأبيض البارد، الذى بدأ ينضج فى ذلك الوقت.

زارنى أيضا شيخ المطير الكبير: موفدا من قبل الزامل. وبالرغم من أن ذلك الشيخ كان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، إلا أنه أصيب بمرض الاستسقاء، ولم يعد يتحمل أقل قدر من التعب أو الإرهاق: جاعنى ذلك المريض وهو راكب على سجادة كانت مربوطة إلى سرج الناقة، ومرض الاستسقاء istiska معروف بين الناس هنا - على إنه واحد من أمراض الخيل، لم يكن ذلك الشيخ يعرف شيئا عن ذلك الذى كان يؤله، ألا يعرف الناس كلهم هم وأطفالهم حق المعرفة الأمراض التى تصيب ماشيتهم وطرق علاج تلك الأمراض أكثر من معرفتهم للأمراض التى تصيب أطفالهم!

أخذ الشيخ كلامي مأخذا حزيناً. الحصان يتعرق كثيراً، وبالتالي فهو لا يصبر على العطش : وبداية هذا المرض، قد تكمن في شرب الماء البارد، من قرية من قراب الماء المبرد. وعندما علم أن مرضه سوف يستمر معه فترة طويلة قال: "يا خليل! ألن ترافقنا؟ حنا henna رحيل rahil، بمعنى 'الأعراب سوف يرحلون غداً' (إلى ديرتهم الصيفية، في الشمال): وسوف تسكن في خيمتي ؛ وسوف يخدموك خدمة جيدة." - "أصبر على حكم الله!" - أنا أعرف أن البركة والنعمة من الله؛ ولكن هيا تعال معنا يا خليل: وسوف تكون معنا في أمان؛ وسوف أعيذك ثانية إلى عنيزة، وإذا كان من الأفضل لك، سأرسلك إلى الكويت أو إلى البصرة." - أنا سوف أرحل قريباً مع قافلة السمن . "حسن، لقد بلغنا ذلك - وسمعناه أيضاً في البلدة (عنيزة) - وسوف تصل هذه القافلة في اليوم التاسع عدداً من اليوم ؛ تعال معنا وسوف أعيذك، قبل اليوم التاسع: وأنا أعدك بذلك، وسوف أوفى بوعدي." - كان جميلاً حقاً ، في تلك الأجواء من الحرارة الشديدة، أن أتنفس هواء الصحراء من جديد، واستشعر الحرية من جديد، بين الأعراب؛ كما أن شربي للحليب يمكن أن يعينني على استعادة قواي. أرسلت في طلب الرأي والمشورة من الكنيي: وكتب لي صديقي مرة ثانية، أني بوسعي المغامرة مع هؤلاء الأعراب. ولكن الوقت ضيق وقصير، ويجب ألا أعلق آملاً كبيراً على وعود البدو.

أمضيت في الجزيرة العربية أياماً كثيرة من تلك السنوات القلائل التي تشكل في مجموعها حياة أي إنسان من البشر؛ وها أنذا الآن في وسط الجزيرة العربية . وإن هو إلا شهراً واحداً - وبعده مباشرة أكون قد عدت ثانية إلى شركة الملاحة الأوروبية. المسافة من هنا إلى ساحل البحر تقدر بحوالي ٤٥٠ ميلاً صحراوياً، هذه الرحلة تقدر بمسير عشرين رحلة من الرحلات الكبيرة، في أضعف الأحوال، فوق سرج الجمل غير المريح، في حرارة شمس الصيف المحرقة؛ التي تشكل معاناة شديدة حتى لأولئك العرب الذين ولدوا في الجزيرة العربية نفسها. يضاف إلى ذلك ، أن قواي البدنية، وصلت إلى مرحلة لم أعد أتحمل فيها الجلوس منتصب القامة؛ وفوق كل ذلك، فأنا يساورني نوع من الخطر، نظراً لأنني سوف يتعين عليّ الانفصال عن قافلة مكة عند المحطة الأخيرة قبل المدينة المحرمة (الممنوع على غير المسلمين دخولها). زد على ذلك كله، أنني يسيطر عليّ قلق شديد: والسبب في ذلك ،أنني قبل اثني عشر شهراً، وبينما

كنت أدخل خيمة (فى وادى تربة)، فى ساعة الظهيرة، أثناء نوم البدو، عضنى فى ركبتى كلب من كلابهم. غسلت الجرح ؛ الذى التأم خلال أيام قلائل، ولكن تخلف عنه شامة حمراء اللون تشبه الزر الأحمر؛ الذى تحول حاليا (عند نهاية العام) إلى قرحة؛ ثم ظهرت بعد ذلك قرح أخرى شبيهة بتلك القرحة على ساقاي، كما ظهرت قرحة أخرى (على راسغ اليد اليسرى) - آه !ياللهول ، من أن أموت مثل كلب مسعور فى هذه الأرض المعادية.

اشترى صديقاي الكنينى والبسام، ناقة من سوق الجمعة، كى أركبها وأنا ذاهب إلى جدة، وأبيعها هناك بثمن لا يقل عن الثمن الذى اشتريتها به؛ هذا إذا لم يتيسر أحد من أقاربهما ليركب الناقة ضمن القافلة العائدة - وصلنى فى ذلك الوقت خطابا من عبدالله البسام الطيب: '(كتب يقول): كل شىء جاهز؛ ولكنه بسبب العقلية غير المتحضرة [الحقد الوهابى] السائد بين الناس، لن يتمكن من إرسالى بصحبة ولده! وطلب منى أن أسامحه فى ذلك. ولكنهما رتبا الأمر بحيث أكون بصحبة سليمان الكنينى ، والذى ينبغى أن أطلب منه كل ما أحتاج إليه [الماء، والطعام ، والمأوى فى وقت الظهيرة] وذلك طوال السير فى الطريق.' - ، أنهى رسالته بأن طلب منى إرسال قليل من حبوب الكنين: ومن فوق خاتمه كتب مايلى "با رك الله فى المسلمين المؤمنين".

أرسلت للزامل أستاذنه فى السماح لى بالمجىء إلى البلدة (عنيزة) ، لشراء بعض مستلزمات الرحلة، ولتوديع أصدقائى: ولكنه لم يؤمن لى ذلك الطلب البسيط، أهل عنيزة الطيبين فيهم الكثير من البؤس والشقاء الوهابى.

عمال الزراعة فى البستان - الذين فيهم شفقة الفقراء، كانوا كلما ذهبوا إلى عنيزة فى يوم الجمعة، يشترون لى الاشياء الضرورية: أما أسرة القصاب فلم تقدم لى من الكرم شيئا - وجاء لى حامد اليحى ، ذات مساء فى تلك الأيام الأخيرة، راكبا فرسه؛ جاء حامد أصلا لزيارتى. هذا أول صديق من أصدقائى العائدين - واعتذر عن تأخره فى الحضور إلى. ونظرا لأن الحكيم كان على وشك الرحيل، فقد كان يود الحصول على دواء لوالدته، التى أرسلت لى معه خرجا مليئا بنوع من الكعك (الذى

يعدونه لاستعماله فى رحلات القوافل) ، كما أحضر لى أيضا كمية من اللحم الطازج المقدد الذى يمكن أن يدوم شهرا كاملا بلا تلف. كان حامد شابا تبذوعليه مظاهر الرجولة وطيب الملامح، أى أنه كان ابن أمه - ولكنه كان أيضا ولد أبيه من حيث القوة الكبيرة، وكانت له أيضا طبيعة سمحة، وتغلب عليه الكياسة والتحرر: لم تكن لحيته قد بدأت تظهر بعد. وتلك الفرس العجوز كانت ملكا له: كما أن كون المرء خيالا جعله أيضا يتدرج ضمن النبلاء. جاعى مرتديا لباسا طيبا، شأنه شأن أولئك الحضرة عندما يسافرون إلى الخارج؛ كانت غترة رأسه محاطة بعقال ومعطرة بعطر الورد، الذى يجلبه من مكة. كان ذلك الخيال الشاب يقتاد معه مهرا، قال لى: أنه وجده مربوطا فى خيمه من خيام القحطان: قال حامد (ملتصبا لنفسه الأعذار) : أنه أحضر ذلك المهر معه إلى بيته ' ولربما مات لو تركه هناك ' وراح المهر يجرى ويلعب حول الفرس العجوز، كما لو كانت هى أمه. هذا يعنى أن تلك الفرس تبنت ذلك المهر! وأدارت عنقها إلى الخلف وراحت تنظر إلى ذلك المهر الصغير، وكانت تعطس عطسا خفيفا فى شئ من الود.

تناولنا العشاء سويا؛ وحكى لى حامد عن ملاقاتهم للقحطان. وركب حامد فرسه وهو مسلح ببندقية (إفرنجية) بروحين؛ ولكنه اشتكى لى من أن المرء لا يستطيع تعمير البندقية وهو راكب على ظهر حصانه. ورددت عليه، بأن ذلك راجع إلى ركوبهم الخيل فوق (مُعْرَقَة) (*) maaraakka؛ ونصحته باستعمال الركاب Stirrups، ووجد ماقلته له نصيحة طيبة - لقد بلغ غبار المعركة حداً من الكثافة تعذر معه على حامد أن يحصى عدد خيام القحطان، التى قدرها بما لا يقل عن ٣٠٠ خيمة. معروف أن قوافل مكة (المكرمة) تمر على جبل الدُّخَانِ؛ ولكنه قال : إنهم تحاشوا ذلك الجبل فى ذلك العام، نظرا لبقايا جثث (القحطان) التى لم يجر دفنها. سألته إن كانت القفيلة تواصل مسيرها طوال ساعات حرارة النهار! لا، لأن ذلك قد يترتب عليه تسرب السمن (المنصهر) من خلال قراب السمن. كان يحسب أننا سنسير أثناء الليل، وذلك تحاشيا للقحطان؛ وأن قفيلتنا سوف ينضم إليها عند بلدة الرس قافلة الزبد القادمة من بريدة .

(*) مُعْرَقَة: هى ما يطلق عليه الفلاحون المصريون اسم "العُرَاقَة" وهى عبارة عن قطعة من الخيش توضع على ظهر الحمار أو الحصان، لامتصاص العرق ومنعه عن الراكب. (المترجم)

جلس حامد معى ساعة أخرى، فى ضوء القمر: احتج حامد، أن صداقتنا سرعان ماوصلت إلى نهايتها ، وإتنا سوف نفترق عن بعضنا البعض ، وقال: إتنا بعد فتراقنا يجب ان نكتب لبعضنا البعض . وركب حامد فرسه؛ لم التقيه بعد ذلك.

جرت العادة فى هذه البلاد[انظر الجزء الأول] أن يتجمع كل أولئك الذين سيسافرون ضمن القافلة، فى مكان محدد خارج البلدة (عنيزة): يتجمعون فيه مساء اليوم السابق للرحيل ؛ لكى تبدأ القافلة تحركها مع شروق الشمس.

الفصل السادس عشر

مغادرة القصيم، مع قافلة الزيد المتجهة إلى مكة

عبدالله الكنينى؛- وداع أخير. سليمان، تاجر جوال فى القافلة. مخيم عويهلان. أمير القنيلى. الرحيل. وقفة الظهيرة. مسيرة العصر. محطة المساء. الرس. جبال أبان. إبراهيم، الأمير. رياح السموم. آخر القرى الصحراوية. السقيا. الرقاق البدو. - ألا تروى أمطار الرياح الموسمية هذه الصحارى؟ إنذار. رجال القوافل والبدو. السيول فوق سطح الأرض إلى وادى الرماح. الإبل والجمال. عفيف، محطة بثرية. علامات الصيادين. مسارات القوافل إلى مكة. وادى جرير. العلامات الأرضية الجبلية. ظلم وخال. مذاق الماء المتغير. حرة الكشوب. العطش فى القافلة. رأى سليمان فى البحار الإنجليز. مسقى جميل. الموى: صياح فى منزل المساء. الركابة. البدو. مسقى شعارة. حرة عشيرى. الأربع. السيل [قرن المنازل]. رئيس وادى الحمض. جانب جديد من الجزيرة العربية. رجال القافلة أوشكوا على دخول مكة يأخذون الإهرام. الهذيل. انحدار الأشراف من سلالة محمد. الوصول إلى عين (الزيمة). مكة مدينة التهامة. النصرانى يترك القافلة عند المحطة السابقة لمكة؛ ويعتدى عليه شريف بدوى.

فى اليوم التالى، وعند غروب الشمس، جاعى مراسل من عبدالله الكنينى؛ ومعه الناقة التى سوف أركبها إلى جدة. ركبت الناقة؛ وجاء عمال رشيد الذين تركوا عملهم فى ذلك اليوم ومعهم العبد المسكين، جاعا ليأخذوا بيدي؛ ودعوا لى بالبركة عندما بدأت أتحرك. اتجهنا صوب مزرعة عبدالله الكنينى: حيث أبلغونى أننى ينبغى أن أقضى فيها اليوم التالى. لم تكن المسافة تزيد على ميلين؛ ولكنى وصلت إلى المزرعة فى فترة الغسق، أى قبيل طلوع النهار، وكان الجو ما يزال مظلمًا: تركنى رفيقى فى مزرعة الكنينى؛ ونمت على أرض مزرعة النخيل المنعزلة إلى جانب البئر.

ومع شروق الشمس، جاعنى عبدالله الكنينى! جاعنى راكبا حمارا، قبل أن تشتد درجة الحرارة. وبعده بلحظات جاء عبدالله البسام ماشيا على قدميه: "قال: أه! يا خليل، وهو ممسك بيدي، نحن خجلانين لما أصابك، ونحن نشعر بالخجل أكثر لأن ذلك الذى أصابك حدث هنا! ولكنك تعلم أننا مغلوبون على أمرنا من هؤلاء الناس الحمقى." طلب الكنينى المزيد من ذلك الدواء الذى أفاد عينى والدته؛ وقمت بتوزيع أنويتى عليهما. وهنا جاء حامد الصافى؛ وجلس مع أولئك الأصدقاء إلى ما بعد طلوع الشمس بنصف ساعة، وعندها نهضوا واقفين لكى يعوبوا لتناول طعام الإفطار، وقالوا لى: إنهم سيزورونى فيما بعد. وجاء الصافى ليزورنى فى العصر مرة ثانية؛ ذلك الرجل الذى كان يود تحسين مآلديه من كلام اللغة الإنجليزية. ولم يحضر أى أحد آخر من أصدقائى ومعارفى لزيارة ذلك النصرانى المحروم من الرحمة والمغفرة.

وصل عبدالله الكنينى الطيب راكبا حماره لزيارتى للمرة الثانية، فى براد عصر ذلك اليوم، وكان بصحبته ولده محمد. كان الرجل ضعيفا فى ذلك اليوم، كما لو كان منهك القوى، وتمدنى المعنويات؛ رأيت أنه وهو يرتعش، عندما جلس يتحدث معى: فى حين كان الطفل يلعب حولنا، وطلب منه والده أن يلزم السكون والهدوء، حتى يتسنى لعبه الله الاستماع إلى. رجوت عبدالله الكنينى أن يسامحنى على القلق الذى أصابه نتيجة مجيئى إلى عنيزة: ولكنه لم يرد على ماقلت.

فى المساء: جاعنى سليمان Sleymen، راكبا ناقه، ومعه ولده الصغير. كان سليمان متجها إلى مكان تجمع القافلة، وكان ينهى كلامه مع قريبه، الذى أقرضه النقود الذى يعمل بها فى التجارة. نادى عبدالله خليلا وطلب منه إنزال طفله؛ ويقوم خليل بالركوب ومعه حاجياته. ركبت مع سليمان؛ ومررنا من خلال كسر فى الجدار، الذى كان يحيط بمزرعة الكنينى. قطع عبدالله معنا مسافة طويلة؛ وبعدها توقفت كى أودعه: ودعته وداعا من القلب وتمنيت له كل البركات والنعم السامية Semitic؛ وودعت ذلك الابن الخير من أبناء بنى تميم وداعا حميما. وقف عبدالله صامتا ساكنا وحزيننا: هذه هى روح ذلك الرجل الضعيف وقد بوعد بينها (وهذا من سوء الطالع!) وبين ذلك المستقبل الذى كان يتطلع إليه. والذى ينبغى لنا أن نراه ونقف عليه [بعد ذلك بثلاثة أشهر قام عبدالله الكنينى بالذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج : ثم عاد بعدها إلى

البصرة عن طريق البحر ولكن قواه خذلت؛ وحاول الرجل، ولكن بلا جدوى، العثور على جو أفضل في أبي شهر (*). Shahr على الساحل الفارسي - وفي صيف العام الثالث، كتب إلى سليمان ولد عبدالله البسام الأصغر، من جدة: "عبدالله الكنيني المسكين، توفي منذ أشهر عدة، والمحزن أنه توفي في مدينة البصرة: لقد كان رجلا طيبا، ويتمتع بشعبية كبيرة".

مضينا راكبين مدة ساعة أو ساعتين، في ذلك الطريق الأجوف، المنحوت في النفود، الذي سبق لي السير فيه أثناء الليل وأنا في طريقى إلى الخبيرة، كان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلنا إلى مكان تجمع القافلة؛ الذي راح فيه سليمان يرحب بسائقيه الذين سبقونا في الوصول إلى ذلك المكان، ومعهم أحمالهم. أوصلونا إلى المكان المخصص لنا في المخيم؛ وهو المكان المخصص لكل المرافقين كي ينزلوا فيه عن إبلهم ويبركوها فيه. شبوا في ذلك المكان نارا كي يصلحوا شيئا من القهوة، وشاهدت قرب السمن الخاصة بسليمان (والتي بلغ عددها حوالى أربع وعشرين قرية أى ما يعادل طن واحد من السمن) وقد رصوها بطريقة منظمة: كان من بين تلك القراب أربع قراب التى تتسع الواحدة منها لحوالى خمسة عشر صاعا Sah (من صياح القصيم)، وهذه بحد ذاتها تشكل حمولة جمل واحد، وقيمتها تساوى ثلاثين ريالاً، وكانوا يتطلعون إلى بيعها بستين ريالاً فى مكة - كان الكثيرون من أبناء عنيزة يمضون تلك الليلة فى المخيم مع أصدقائهم وأبنائهم المسافرين. وكان تجمع القافلة الملكية يقع فى منطقة النخيل على أطراف مدينة عنيزة، والناس هنا يطلقون على مكان التجمع هذا اسم العويهلان Auhellan؛ ويقال إن هذا المكان فيه بعض الكهوف Caves القديمة ancient المحفورة hewn فى الصحراء الرملية وأنا لم أسمع عن هذه الكهوف إلا فى هذه اللحظة فقط، وبالتالى لم يكن أمامى متسع من الوقت كي أدقق فى هذا الأمر.

(*) أبو شهر : ميناء يقع فى الساحل الشرقى للخليج العربى كان مركزا للمقيمة البريطانية منذ عام ١٨٢٠ حتى انتقالها إلى البحرين ثم إلغائها فى عام ١٩٧١ عقب الانسحاب البريطانى من الخليج ويطلق على الميناء اسم بوشهر .(المراجع)

- لكنى الآن سمعت ولأول مرة، أن القافلة لم يكن فيها أحد مسافر إلى جدة! إذ كان كل من كانوا فى القافلة مسافرين إلى مكة. كان عبدالله الكنينى قد كلف سليمان؛ وكان البسام، الرجل الطيب، قد كلف ولده عبدالرحمن، أن يديرا بالهما على، وأنهما فى المحطة السابقة لمكة [سواء أكانت وادى الليمون، أوالسييل] ينبغي عليهما أن يوفرآ آدميا adamy، ليقوم بنقلى (من دون دخول الحدود، أو إن شئت فقل: حدود الأرض المقدسة) إلى جدة- وهذا الكنينى الطيب، الذى لم يسبق له أداء فريضة الحج، لم يكن يعرف الطريق؛ يضاف إلى ذلك أن عقله الواسع لم يتصور الخطر الذى يمكن أن يتهددنى فى المرحلة الأخيرة من الرحلة.

كانت قافلة الزيد تضم ١٧٠ جملا ، تحمل مايقرب من ثلاثين طنا من السمن - وحوالى سبعين رجلا، كان أربعون منهم يركبون نياقا ، أما الباقون فكانوا حداة للإبل. تم تقسيم القافلة إلى جماعات صغيرة؛ وكان كل رئيس من رؤساء تلك الجماعات بصحبة أصدقائه وخدمه المستأجرين للقيام بتلك الرحلة. وكانت كل جماعة تحمل معها خيمة أو تعريشة، تتقى بها أشعة الشمس وحرارتها فى أوقات الظهيرة من ناحية، ولحماية السمن من حرارة الشمس من الناحية الأخرى ، ذلك السمن المنصهر والموضوع فى قراب مصنوعة من جلود الماعز؛ (والناس هنا يطلقون على القرية المصنوعة من جلد الماعز وتستخدم فى نقل السمن أسم 'الجرم' jerm وجمعه جروم Jerum): هذه الجروم يدهنها الناس هنا من الداخل بشراب سائل يصنعونه من التمر. وكل قرية من القرب تحتوى على مايزن مائة صاع، يجرى تعليقها عن طريق عقدة (محكمة الربط عند الطرفين) فى هيكل سرج الجمل. فى بعض الأحيان قد ينفجر جرم من تلك الجروم أثناء سير القافلة، وينساب ذلك السمن القيم كما لوكان ماءً على أرض هذه الصحراء الجرداء: فى بعض الأحيان قد تحتك الإبل الحاملة لذلك السمن ، بأشجار السنط، الأمر الذى يؤدى إلى وخز تلك القراب بفعل أشواك أشجار السنط. وكان برفقة تلك القافلة مَرْتَق botcer، كانت مهمته القيام، فى محطة المساء، بإصلاح الأضرار التى يمكن أن تكون قد لحقت بقراب السمن - كل هذه الكمية من السمن، التى تساوى أكثر من ألفى جنيه إنجليزى فى مكة (المكرمة)، جمعها التجار ابتداء من فصل الربيع، من خلال اتجارهم مع البدو: كان تجار عنيزة يخزنون ذلك السمن ، طوال ذلك الوقت، فى أوعية من الرخام.

هذه القافلة الحضرية الكبيرة يعين الزامل لها أمير: وهذا الأمير يكون واحداً من أقارب الأمير؛ وهذا الأمير يتقاضى ريالاً عن كل جمل من الجمال - وكان الكنيى قد حصل من الزامل على خطاب يزكىنى عند أمير القافلة؛ ويكلفه فيه أيضاً بمسئوليته عن سلامتى، عندما أغادر القافلة عند "بلدة العين".- جلسنا تتجاذب أطراف الحديث حول وجار القهوة، إلى أن بدأنا نشعر بالتعب والإرهاق؛ ثم رقدنا على الأرض لننال قسطاً من النوم، على رمال النفود.

استيقظنا مع طلوع الفجر وكان أمامنا متسع من الوقت لشرب القهوة. كان الأمير، هو وبعض تجار عنيزة الشبان، والذين سيعودون مع القافلة، قد أمضوا الليل فى البلدة: لأنهم كانوا سيلحقون بنا، راكبين نياقهم العُمانية Omanias. [نياق منطقة الخليج التى يقولون لها: 'عُمان' بضم العين أو 'أمان' Aman بفتح العين هى من النوع القوى كما أنها كبيرة الحجم؛ ولكن تلك النياق لاتصبر كثيراً على الجوع أو العطش مثل بقية أنواع النياق الأخرى. والناقة العُمانية Omania 'الجيدة تساوى ما يتردد بين ٥٠ إلى ٧٠ ريال فى عنيزة، يصعب شراؤها فى موسم الحج فى مكة - حيث ترتفع أثمان ذلك النوع من النياق - بمبلغ ١٥٠ ريال]. عندما طلعت الشمس قام أفراد القافلة بتحميل أمتعتهم وبضاعتهم، واستأنفوا المسير. وبعد ذلك مباشرة دخلنا فى وادى الرماح؛ الذى سرنا فيه إلى ما قبل ساعتين من دخول وقت الظهيرة؛ ثم نزلنا بعد ذلك فى شعب الشببيبية es-shibbieh، لنتراح ونمضى فترة الظهيرة (يقيلون) Yugyilun. توجد فى ذلك المكان بعض المزارع الشتوية التابعة لعنيزة، وفيها أنقاض بعض المباني الطينية، كما أن لهذه المزارع أفنية لها أسوار عالية. هذه المزارع لا يسكنها سوى عمال آبار المياه، وهم يقيمون فى تلك المزارع بداية من بذر الحبوب فى فصل الخريف إلى ما قبل موسم الحصاد. من تلك الآبار جلبنا ماءً مالح الطعم وملأنا منه قرايتنا. كانت حرارة النهار شديدة جداً؛ ووجدت أن درجة الحرارة تحت التعريشة كانت حوالى ١٠٥° فهرنهايت. كبار الشخصيات لها خيام خاصة، مصنوعة بطريقة البدو، وهنا بعض آخر من الشخصيات يستعملون تعريشات (تانادات) مصنوعة من السجاد البغدادي ولم أشاهد فى القافلة كلها سوى خيمة أوخيمتين من الخيام المستديرة - التى جلبت من الساحل؛ كما شاهدت أيضاً بعض الخيام المهلهلة المصنوعة من الشعر [التى قيل لى

إنها من الغنائم التى حصل عليها أهل عنيزة من القحطان! التى كان يقيم فيها بعض الرفاق الفقراء البائسين- كانت حمولة سليمان الكنينى التى تقدر بستة أحمال من السمن مشاركة مع عبدالله الكنينى: إذ كان عبدالله جمالاً، كما كانت الإبل ملكه أيضاً.

ربما كانت الساعة قد وصلت الثالثة قبل تحرك القافلة، - وكانت الشمس الحارقة قد بدأت تتجاوز مرحلة الزوال: وقد صدرت إشارة التحرك بصيحة من خادم الأمير عندما نادى قائلاً: الشَّيل S-SHI-IL وإن هى إلا لحظة حتى بدأت التنتدات والخيام والتعريشات تنهوى على الأرض، وأحضرت الإبل وجرى تبريكها فى مكانها، وراح عمال القافلة يخرجون قراب السمن الثقيلة؛ وهذا العمل دائم ومستمر، إذ يقومون من خلاله بتحميل الإبل، قبل تحرك القافلة: ويعدّها يأتى على الفور حداة الإبل لكى تستأنف القافلة المسير؛ وعندها يجرى التخلّى عن أولئك الذين تباطأوا فى التحميل. ويقف خادم الأمير أمام القافلة كما لو كان راعياً من الرعاة - فاردأ ذراعيه مانعاً المقدمة من التحرك، إلا بعد نهوض بقية الإبل؛ أو، قد يجرى هنا وهناك، وهو يصيح منادياً على أولئك الذين تأخروا فى إطاعة الأوامر. وتبدأ القافلة مسيرها؛ ولكن الجماعات تمشى قريبة من بعضها البعض، تحسباً للصحراء وأخطارها. كان طريقنا المتجه جنوباً يمر خلال وادى الرماح، الذى هو سهل واسع من الرمال الأكثر تماسكا فى صحراء النفود. هذه هى جبال أبان Aban تتراعى لنا ناحية الغرب، وقد غطاها السديم أوإن شئت فقل: الضباب الرقيق. [والأبانات Abanat يمكن رؤيتها، فى فترة الشفق، من فوق التلال المحيطة بعنيزة] وعند غروب الشمس نزلنا من فوق راحلاتنا عند بعض العزب الزراعية الواقعة على أطراف البلدة - وهذه العزب على وجه التحديد هى الرُّس er-Russ، والحجنوى el-Hajnowwy، وهما تقعان خارج الوادى؛ كنا فى ذلك المكان نسير بمحاذاة الخيرة Khubbera.

القافلة لاتنصب خيامها أثناء الليل؛ ولكن كل جماعة من الجماعات تستعمل تعريشتها أو تنتدتها فى الجلوس عليها فى العراء؛ ثم يستعملها بعد ذلك رئيس الجماعة للنوم عليها . ومن بين كل جماعة هناك رجل يقوم بدور الطاهى ويتمثل بوره فى الخروج لجمع الحطب المطلوب للوقود؛ وهناك شخص آخر يقوم باقتياد الإبل كى ترعى مدة نصف ساعة هى ما قبل حلول الظلام. رافق سليمان ثلاثة من حداة الإبل: أولهم رجل

فقير الحال من حضر عنيزة، وكان يقوم بدور الطاهى فى جماعتنا؛ والرجل الثانى كان بدويا - وبعد ساعة من الزمن يجرى وضع طبق العشاء (الذى يتكون من طعام من قمح مسلوق) أمامنا. وبعد تناول العشاء، نشرب القهوة: ثم يجلسون برهة يدرشون خلالها ويدخنون التبغ؛ ثم يلف كل واحد منا نفسه فى عباءته ويروح ينام على الرمل، تلك الساعات القليلة المتبقية على شروق الشمس.

قبل الفجر بساعة واحدة سمعنا صيحة تقول: 'الرحيل'؛ وهنا سارع الجميع إلى النهوض واقفين فى أماكنهم؛ وهنا بدأنا نسمع الضجيج الناتج عن قيام الناس بأعمالهم؛ كما تنأى إلى مسامعنا الصوت الناتج عن نهيق الإبل. وإن هى إلا دقيقة واحدة وأدقيقتين حتى أصبح الجميع واقفين على قدم وساق: ثم ركب حداة الإبل نياقهم؛ أما أولئك السائرون على الأقدام فقد راحوا ينظرون حولهم على الأرض التى يكسوها الظلام، كى يتأكدوا من أنهم لم يخلفوا أو ينسوا شيئاً وراءهم - وتبدأ القافلة فى التحرك؛ لتبدأ مسيرة يوم جديد، ويستمر المسير طوال ذلك اليوم القائظ إلى حلول المساء. وبعد مسير ثلاث ساعات ، فى السهل الصحراوى، مررنا من أمام بلدة الرس ، التى لم يتورع سكانها قبل جيلين، من أن يقطعوا سيقان النخيل على سبيل مقاومة الهجمات التى كان إبراهيم باشا يشنها عليهم. أرسل أمير القافلة مندوباً إلى الرس لمعرفة الأخبار ؛ وعاد إلينا ذلك المراسل بخبر مفاده أن قافلة السمن الخاصة ببلدة الرس قد انضمت إلى قافلة بريدة، التى مرت على الرس قبل يومين. الرس (التى يقولون إنها أكبر من الخبيزة) تظهر على شكل واحات ثلاثة تقع على الناحيتين الشمالية والجنوبية، وعلى بعد مسافة قريبة. وفى الواحة الأولى توجد الروضة er-Rueytha، وهى مدينة؛ وفى الواحة الثانية توجد الرافية er-Rafya، وهى عبارة عن قرية وبرج مراقبة يشرف على أعالي النخيل ، والواحة الثالثة يسمونها الشناتى Shinnany. والرس هى آخر المستوطنات من الناحية الجنوبية وهى تعد البوابة الحقيقية للقصيم - وهنا نكون قد أصبحنا على حدود النفود؛ وبالتدريج يتحول السهل إلى سهل زلظى من تحت أقدامنا : وهنا ندخل إلى ذلك الإقليم المتوسط من الجزيرة العربية المكون من الصخور الجرانيتية والبارلتية، وهذا الإقليم المتوسط يمتد من جبال الشمر إلى مكة. وحقول قمح الرس موجودة فى وادى الرماح؛ أما النخيل فيوجد فى أعالي وادى الرماح.

شاهدت أبنات Abanat - التي تبعد عن هنا مسير نصف يوم في اتجاه الغرب، شاهدتها على شكل ساحل جبلي، مثل جبل أجأ Ajja، الذي يمتد في اتجاه الجنوب. هناك جبلان أحدهما وراء الآخر؛ وحوض الوادي (الذي ليس متسعاً واسعاً كبيراً هنا) يقع فيما بين هذين الجبلين. والجبل الشمالي يطلقون عليه اسم الأحمر el-Ahmar، بمعنى الجبل الأحمر.

وصلنا عند الظهر إلى أم تيه Umm Tyeh، التي هي عبارة عن حقل من حقول زراعة القمح التابعة للرس وتقع على أطراف البلدة ويعيش فيها بعض السكان؛ وعندما نزل البعض منا إلى تلك الحقول طلبوا شيئاً من الماء، عثروا على قطعة من الأرض مزروعة بالتبغ عاد إلينا رجال عنيزة وهم يضحكون، ليحدثونا عن تلك المغامرة التي قاموا بها في المنزل الذي توقفت فيه القافلة: والسبب في ذلك أن وقت الظهيرة دخل عليهم واضطرت القافلة إلى التوقف هناك. - تحركنا من ذلك المقيط mogyil في ساعة مبكرة؛ ثم مضينا قدماً خلال سهل صحراوي مليء بالصخور والقمم الجرانيتية والبارزات حمراء اللون [من نفس نوع البارزات والجرانيت اللذان سبق أن شاهدناهما في ديرة حرب وفي ديرة الشمر في اتجاه الغرب]. وفي النهاية ومع غروب الشمس، ومع ظهور الضوء الأصفر المتوهج خلف جبال أبان Aban، توقفنا ورحنا ننصب مخيمنا.

أحضر لي اليوم عميل من أولئك الذين يتعاملون مع عبدالله البسام ذلك الخطاب الذي أصدره الزامل، ويزكيني عند إبراهيم، أمير القافلة الشاب. إبراهيم - الذي خلف والده، الذي كان إلى وقت قريب جداً أميراً القافلة البلدة - هو ولد أخت الزامل، وهو شيخ شاب صغير السن يبلغ من العمر عشرين عاماً، ويوحى محياه بالشجاعة؛ وهو شبيه بالزامل يوم أن كان في شبابه، بالرغم من أن ملامحه ليست شبيهة بملامحه: وإبراهيم شخصية مبتسمة، واثق بنفسه ومستقل برأيه، ولكن الصداق الوهابي كان مسيطراً على روحه. كان ذلك هو حال السواد الأعظم من الشبان الصغار في الواحات الحرة، تراهم دائماً يتقنعون كما لو كانوا يرتدون ثياب العطلة؛ ولكن إذا ما تغير حظهم تراهم أغراباً منحطين وظلمة. تسلم إبراهيم من يدى رسالة الزامل، ثم وضعها في صدره بسرعة بون أن يفتحها؛ وذلك لأنه سوف يقرأ على انفراد ذلك الذي

كتبه له خاله عن النصرانى ! كان إبراهيم يكشف لى كل يوم عن بشاشته؛ وفى بعض الأحيان؛ وأثناء المسير، وعندما كان يرانى غارقا فى سرج الجمل، كان يركب معى، ويضع فى يدي غليونه الذى يكون قد أشعله فى التو: وفى بعض الأحيان، كان يعزمنى على تناول الغداء معه، وذلك فى المكان الذى ننزل فيه فى فترة المساء. كان شباب التجار العائدين إلى مكة، التى لهم فيها دكاكين، ومعهم قلة قليلة من أصحاب إبل القافلة، كانوا كلهم يركبون نياقهم ، ويرافقون إبراهيم فى مقدمة القافلة: وكانوا ينزلون بين الحين والآخر لإشعال شئ من الحطب لتصلح شئ من القهوة. أما أنا فقد كنت أسير بناقتى، بين إبل الحمل ولا أشعر بأحس بكثير من التعب أو الإرهاق - قال إبراهيم وهو يضحك :إنه سمع عنى أول مرة فى الكويت (التى كان قد وصل إليها ضمن قافلة من القوافل)، أن نصرانيا وصل إلى حائل، وطوله tulahu ثلاثة Thelathy أرماح armah، بمعنى أن طول قامته يصل إلى ثلاثة أرماح! وأن ذلك الغريب لم يتكلم طيلة ثلاثة أيام! وأنه اكتشف بعد ذلك منجما لابن الرشيد، ثم اكتشف بعد ذلك منجما آخر!- قضينا تلك الليلة بجوار صخرة الكير el-Kir التى هى أقصر من قمة جبل Jebel كيزاز Kezaz، وكان جبل بوخانى Dokhany لايبعد عنا سوى مسير ساعة واحدة، فى الناحية اليمنى؛ التى يوجبها بعض حفر المياه الضحلة، وبعض الأساسات الأرضية لمبنى قديم.

واصلنا مسيرنا فى الصباح وسط الأراضى المرتفعة التى كانت تحيط بنا، كما كانت تحاصرنا من كل جانب صخور البازلت وصخور الجرانيت .[والمنحدر يأخذ فى الارتفاع التدريجى فى اتجاه الطائف]. وصلنا فى ساعة مبكرة إلى حفر المياه المالغة فى الرقة er-Rukka: وجلبنا ماء من تلك الحفر ، وملأنا منها قرابنا : هذا الماء الكثيف كان مليئا بمخلفات ماشيه البدو الرحل؛ ولكن من هو الذى يمكن أن يمتنع عن الشرب فى الصحراء، من يفعل ذلك يتحتم عليه أن يموت . فى الرقة توجد قلعة مربعة، لها أسوار عالية وأبراج للمراقبة عند أركانها المختلفة؛ وقد بنى تلك القلعة أهل الرس، لكى يحتموا بها عندما يجيئون إلى هناك لاستخراج ملح البارود ، وهو ما يلوث آبار محطات المياه القديمة- شربنا واسترحنا مدة ساعة، ولكننا لم نرتو بحق أونشعر بالانتعاش: والسبب فى ذلك أن السموم، أو إن شئت فقل: رياح الأراضى الحارة - كانت

تهب علينا كما لو كانت لفحة من اللفحات التي تصدر عن الأفران؛ هذه اللفحة تكون خفيفة وخالية من الأكسوجين، على نحو لا يسمح؛ بامتلاء الرئتين، أو انعاش الدم؛ وهو ما يتسبب في إغماء وخوار قوى كل من الإنسان والحيوان - كنت أحاول عون نفسي من خلال التنفس من خلال قطعة من الإسفنج المبلل بالماء .

ركبنا راحلاتنا من جديد وغادرنا جبل Jebel أمري Ummry الذي كان على الجانب الأيمن، هذا الجبل عبارة عن معلم أرضي طويل من البازلت - تعجبت عندما رأيت أمامنا ثلاثة رجال في الخلاء! كان هؤلاء الثلاثة من الحطابين من الذرية Therrieh، تلك القرية الصحراوية التي كانت تبعد عنا مسير ساعات قلائل في اتجاه الغرب ؛ وكانت قوافل عنيزة تمر بتلك القرية طوال سنوات قلائل. وعلى بعد أميال قليلة من تلك القرية توجد قرية أخرى اسمها مسكة : Miskeh هذه القرى، كلها عبارة من مزارع للقمح، وخالية من النخيل - وقرية مسكة هي الأكبر - إذ تحتوى على خمسين بيتا، وإلى الغرب من قرية الذرية هناك هجرة (كفر) أخرى اسمها ثورية Thoreyih وهي في جبل شابا Shaba. وأهل هذه القرى عبارة عن خليط متباين من الأقارب، جاؤا كلهم من القصيم ، ومنهم أيضا بعض من البدو الرحل ، ومن بينهم أيضا بعض الزوج هناك أيضا من يقول :إن هذه القرى كانت في الماضي مستوطنات للحطيم . الشيخ مذكر Muthkir ، أحد شيوخ عتيبة، الذي كان يرافقنا في القافلة :[والذي كان إخوانه القبليين يشكلون أعراب هذه الصحراء الشاسعة] قال: " هؤلاء القرويون من المنور Muthur ". وأن البدو الرحل الذين يحيطون بهم، هم من المطير في بعض الأحيان ، كما كانت قبيلة حرب، في أحيان أخرى [تعتدى عليهم من ناحية الغرب]، وفي أحيان ثالثة كان العتيبان يعتدون عليهم أيضا؛ ولكن هؤلاء العنوز المهاجرين، كانوا في السابق هم جيران هؤلاء القرويين، وأن هؤلاء العنزيين موجودون حاليا في الصحراء السورية ، وفي أقصى الشرق توجد ثلاث قرى أخرى، وهذه قرى صحراوية : الشعرة es-Shaara الدوامي Doadmy القويعية Gaayieh التي تقع على طرف طريق الحج من شقراء Shuggera وسكان هذه القرى من بني زيد Zeyd ، ويقال إن جد هؤلاء السكان كان صلويا! - مضيينا في طريقنا خلال تلك الجبال والقمم الصخرية، إلى أن

توقفنا فى المساء أسفل قمة يطلق الناس عليها هنا اسم الفرجين Ferjeyn ؛ التى شاهدت فيها بعض المناطق الأرضية القديمة التى تحتوى على كتل صخرية كبيرة.

فى الصباح واصلنا المسير فى المنحدر نفسه، الملئ بالصخور والقمم والجبال، والجرانيت. وعند الظهر لم تعد نحس بحرارة الأمس الشديدة؛ وقرأت على البارومتر أننا وصلنا إلى ارتفاع خمسة آلاف قدم! حيث كان هواء الصيف خفيفاً ومنعشاً. ها نحن نرى، عن شمالنا جبال المنية، فى حين نرى عن يميننا جبلاً كبيراً من الجرانيت يطلق الناس عليه هنا اسم التخفة Tokhfa. وكان مقيلتنا mogyil بجوار مسقى من المساقى يطلق الناس عليه اسم الغرول el-ghrol، وهو يقع فى أرض مجوفة وسط جبال مستوية السطح: التربة خضراء بفعل نمو بعض الأدغال الصحراوية الشوكية؛ كما يوجد فى هذه المنطقة أيضاً جلبان golban من جلابين الأقدمين، يصل عمقه إلى قامتين، ومبطن تبطيناً جيداً. وماء هذا الجلبان عذب وقليل الكثافة، وهو المصدر الوحيد الذى يشرب الناس منه على امتداد ذلك الطريق الطويل؛ وطول هذا الطريق الواصل من القصيم إلى منطقة مكة (المكرمة) يقدر بحوالى خمسة عشر رحلة - وهناك جبل يطلقون عليه اسم الجبلى Gabbily، يقع فى اتجاه الشرق، ويبعد عن هنا مسير يوم كامل، والناس هنا يقولون: إن صخور ذلك الجبل مجوفة بشكل غريب.

الصحراء العالية هنا تشكل أفضل المراعى البرية التى شاهدتها فى الجزيرة العربية كلها: والأدغال هنا قليلة العدد، ولكن الأرض هنا يكسوها اللون الأبيض الناتج عن نمو ذلك العشب الصحراوى الذى يطلق الناس عليه هنا اسم النوسى nussy. - ما السبب وراء ابتسام هذه الأرض الجرداء القاحلة فى هذه المنطقة، وذلك على العكس من بقية هذه الأرض نفسها فى الأماكن الأخرى، والتى لاتبعد عن هنا مسافة كبيرة؟ سألت العتبان الذين كانوا ضمن القافلة بصحبة مذكر Muthkir، عن سبب ذلك؛ وأجابونى أن الأرض الصحراوية فى هذه المنطقة تسقط عليها زخات الأمطار فى فصل الخريف كل عام - أليس ذلك بفعل وقوع هذه المنطقة على حدود الأمطار الموسمية، أوإن شئت فقل: فى منطقة الأمطار المدارية؟ وأن هذه الأمطار تكون غزيرة جداً فى مطلع فصل الخريف، وتستمر خمسة أو ستة أسابيع فى الطائف؟ نحن نشاهد هنا فى كل الأنحاء أنواعاً متباينة من أشجار السنط، وتلك علامات تدل على أن الماء السطحي

موجود على أعماق ليست كبيرة: وهذه الأرض الواسعة الشاسعة (التي تصل مساحتها إلى مايقرب من ثلاثمائة ميل مربع) ليس فيها مستوطنة واحدة! [ربما كان ذلك راجعا إلى ندرة الماء أو لعدم صلاحيته]. والأعراب فى هذه المنطقة، تخلُّوا مؤخرا عن تلك الأرض وهجروها لأنها تقع عند ملتقى الطرق التى يسكنها أبناء الرشيد ويستخدمها ابن الرشيد؛ يضاف إلى ذلك أن آبار المياه المهجورة تزدحم لقلة تطهيرها - بعد المسقى ، واصلنا مسيرنا إلى أن دخل علينا المساء: ونزلنا فى مكان يطلقون عليه اسم الشعب es-Sheab ويقع بالقرب من جبل البازلت ومصدر الماء الذى يقال له كبشان Kabshan. وارتفاع الأرض فى هذه المنطقة لم يطرأ عليه تغيير إلى الآن.

فى صباح اليوم الخامس كنا مانزال نمشى فى نفس الجزء المرتفع من البلاد، وهذا الجزء المرتفع عامر بالتلال الصغيرة، التى هى فى معظمها من الجرانيت ؛ كما أنها غريبة الشكل فى معظم الأحيان، نظرا لأن الصخر الجرانيتى فى هذه المنطقة يمتد مثل لوح منبسط فوق الأرض ، كما لوكان قبةً فى بعض الأماكن وقشرة خفيفة فى مكان آخر: وقد شاهدت هنا تلة صغيرة من البازلت، فيها عرق غريب، وهى تشكل علامة أرضية يسميها الناس هنا مسار الذئب. وقبل دخول وقت الظهيرة تجاوزنا آثار غزو كبير؛ قال الناس عنه إنه كان آخر غزو قام به ابن الرشيد مؤخرا على عتبية، صدر إنذار قبل الظهر توقفت القافلة على إثره: ظن بعض الناس أنهم شاهدوا بعض الأعراب. وهنا راح كل واحد يستعد بسلاحه؛ وقام الكثيرون منهم بإطلاق نيران بنادقهم ، حتى يتسنى لهم تعميرها مرة ثانية؛ فى حين راح حداة الإبل الذين كانوا يمشون على أقدامهم يلوحون برماحهم ويقفزون ويرقصون: واقتربت الجماعات من بعضها البعض؛ ثم بدأت القافلة تتقدم على نحو أفضل مما كانت عليه. وها هو سليمان، كان من بين أولئك الذين أخرجوا بنادقهم من أكياسها، واندفعوا إلى المقدمة وهم يكشرون عن أنيابهم حقدا وغيظا. حذت الأغلبية حنو أولئك الرجال؛ لأن ذلك هو تشدد القافلة، التى تروح تتوعد أعداءها بأشياء مستحيلة! ذئاب الصحراء من البشر. أرسل إبراهيم الكشفة لاستكشاف أحوال العدو الذى يحوم حول القافلة: وعاد أولئك الكشفة ليقولوا لإبراهيم: إن ذلك العدو لم يكن سوى مجموعة من الأشجار الصحراوية ! وهنا سمعنا خادم أمير القافلة وهو يصيح قائلا: امضوا قدما مطمئنين !

عندما توقفنا عند الظهيرة، كنا مانزال على ارتفاع ٤٥٥٠ قدما - وفي فترة العصر واصلنا مسيرنا خلال سهل صحراوي ، فيه الكثير من التين والقش، ولكنه شديد القحولة: هنا بدأت صخور البازلت تغطي على صخور الجرانيت وبدأت تظهر لنا بالفعل اثنان أو ثلاثة من النباتات الصحراوية ، الجديدة أوإن شئت فقل :التي لم يسبق لى رؤيتها من قبل- يبدو أن هذه النباتات تنتمي إلى مناخ آخر: لم نر أى أثر للنشاط البشرى فى هذه المنطقة. وعندما بدأت الشمس فى الغروب نزلوا عن راحلاتهم فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم أم umm مشعاب Mesheab ؛ كنا هنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم. وبذلك نكون، اليوم قد تجاوزنا أعلى منطقة فى صحراء الوسط الضخمة - ومع بداية الغسق ظهر من حولنا فى السماء نيزك استمر لحظة، وكان جميلا؛ ثم انطلق بعد ذلك فى السماء منقسمًا إلى نجوم صغيرة.

عثرت على مذكر Muthkir فى كل المنازل التى كانت تحت مظلة إبراهيم : والسبب فى ذلك أن مذكر نزل عن راحلته مع الأمير. هذا الشيخ البدوى ركب معنا لكى يؤمن القافلة ويضمن سلامتها فى جميع المقابلات التى يمكن أن تلتقى القافلة خلالها مع القبليين من عتيبة ؛ يضاف إلى ذلك - أن ذلك الشيخ القبلى البدوى هو واثنين أو ثلاثة من أتباعه هم بمثابة عيون لنا فى الخلاء أوإن شئت فقل : فى الصحراء - بالرغم من ذلك فإن رجال القوافل من أهل القصيم الذين اعتادوا على اجتياز الصحارى منذ طفولتهم ، هم خبراء فى فن الأرض والتجوال فيها - كان من بيننا شخص يدعى صالحا Salih، (كان هو الوحيد فى الجزيرة العربية الذى كان له كيس دهنى فى منطقه الزور) ،اعتاد أن يقطع ذلك الطريق ذهابا وعودة إلى مكة (المكرمة) ؛ هذا الرجل يعتقد أنه قام بتلك الرحلة حوالى أربع سنوات من عمر هذا الرجل ، أو حوالى خمسين ألف ميل من الرحلات الصحراوية : هذا الصالح قطع مسافة لاتقل عن هذه المسافة، فى الطرف الشمالى أيضا فيما بين القصيم التى يقيم فيها ومناطق الخليج والأنهار. هذا الصالح كانت لديه المقدرة على حفظ اسم كل صخرة من الصخور الكبيرة التى يراها المسافرين على جانبي هذا الطريق. أمثال هذا الرجل هنا لا يعرفون سوى المسارات التى يسلكونها، ولكنهم ليسوا على دراية بالصحراء الشاسعة التى وراء تلك العلامات الأرضية.

المزاج البدوى يمتاز بالسلاسة واليسر! وذلك بالمقارنة مع مزاج أهل الحضر الذى لا يتسم بهذه السلاسة: من هنا توطدت الصداقة بينى وبين مذكر بصورة متدرجة. وبينما كنا نتحدث عن الغزو الذى قام به ابن الرشيد قال مذكر: "أنت كنت فى حائل، وأنت أيضا مداوى: إخ! ألاستطيع تخليصنا يا خليل، من ابن الرشيد الحكيم بصورة أوبأخرى! ووالله سنكافؤك على ذلك: لأن ابن الرشيد هو الذى يضايق عتية ويسبب لها القلق." وأردف الرجل يقول: "الأجزاء [الشمالية] التى نحن منها ليس فيها صديق لنا سوى عنيزة!" وعندما سألته، هل أعرايه أناس طيبون؟ أجابنى، "إخ! إنهم مثل أهل عنيزة تماما." ثم سألتنى، ما الذى يمكن أن أعطيه إياه إذا مازارنى فى بلدى؟ هل سأعطيه فرسا وفتاة يتزوجها؟ وما الذى يمكن أن تعطينى إياه، يا مذكر، إذا ما نزلت أمام بيتك؟ وهنا اضطرب حال ذلك البدوى، نظرا لأن خيمته السوداء المهلهلة المصنوعة من الصوف لم تكن بعيدة عنا؛ وعليه رد على بأنه سوف يعطينى بنتا، جميلة، كى تكون لى زوجة - ولكنى أعطيتك فرسا، يا مذكر؟ حسن، سوف أعطيك ناقة يا خليل. نحن ذاهبون إلى مكة Mekky، وأنت ذاهب إلى جدة، فألى أين ستذهب من جدة؟ أنا ذاهب إلى الهند، إن شاء الله." قال إبراهيم: لقد راودته فكرة زيارة الهند معى، فهل يمكن لى أن أنتظره فى جدة؟ إلى أن يعود إليها مرة ثانية فى موسم الحج - أى بعد أربعة أشهر!

تحركنا قبل طلوع الفجر بساعة؛ وكشف الضوء أمامنا منظرا طبيعيا أكثر اتساعا، فيه الكثير من أشجار السنط. أعماق الآبار فى هذه المنطقة لا تتجاوز أربعة قامات؛ قال مذكر: إن هذه الأرض عامرة بالجلبان (الآبار) وحفر الماء التى يفيد منها الأعراب. والسماء عندما تمطر هنا، على حد قول مذكر، يذهب الماء إلى السيول وسرعان ما يختفى ذلك السيل فى التربة؛ وفى السنوات التى يصل المطر فيها حد الفيضان، فإن تلك السيول كلها تتجه (غربا) إلى وادى الرماح. وهذا الجزء من البلاد فيه الكثير من دروب الماشية، وربما تكون تلك الدروب قد تشكلت إلى حدما، بفعل حركه كل من الماعز البرى والغزال. ثم تركنا عن يميننا جبل Jebel شعابة Sheaba، الذى يوجد فيه "كثير من البدو"، لنخرج بعد ذلك على علامة أرضية جرانيتية تشبه الخيمة؛ والناس هنا يطلقون على هذه العلامة الأرضية اسم الوريسية Wareysieh؛

وعند الظهر نزلنا عن راحلتنا بين جبلين أسودين من البازلت ، فيهما الكثير من القمم ومجاري السيول. على هذا الجانب كانت توجد بلدة ثلعان Thulaan النير en- Nir، وعلى الجانب الآخر توجد بلدة شعار Shear.

فى كل وقفة من وقفات الظهيرة كان يجرى إطلاق الإبل لترعى. وعندها تروح تلك الحيوانات المرهقة تتجول فى الصحراء ، ويصعب عليها أن تجد شيئاً تأخذه فى أفواهها: كل ماتفعله هذه الإبل هو أنها تملأ أفواهها مرات قليلة من على الطريق فى الصباح الباكر، فى الوقت الذى تكون برودة الليل مازالت على الأرض. هذه الحيوانات الكبيرة التى تكاد تنوء بأحمالها، تتعرق تعرقاً شديداً؛ ويسبب العطش تتوقف تلك الحيوانات عن أكل أى شىء إلى مابعد سبعة عشر يوماً؛ عندما يجرى إنزال حمولتها عنها فى مكة. ولكن هذه الحيوانات التجدية تبدأ معاناة جديدة من هواء تهامة الراكدة؛ الذى لا ترتاح فيه سوى أيام قلائل: هذا يعنى أن تلك الإبل تتحمل كل هذه المشاق دون أى شىء من الترفيه أو الانتعاش؛ تتحمل كل ذلك إلى أن تعود مرة ثانية إلى عنيزة وهى واهنة تماماً. حداة الإبل القساة [والعرب كلهم - ولكن فى صمت - يشكون ويتأوهون من آلام الحياة فى هذه الدنيا!] حكا لى أن تتقلهم فى هذه الرحلات شاق ومتعب جداً؛ ففي الصباح يركب واحد منهم ويمشى اثنان؛ وفى العصر يمشى واحد ويركب اثنان - وقالوا أيضاً: إن سير القافلة ورجال القوافل القصمان يختلف عن سير قافلة الحج السورية التى تبطئ السير؛ والسبب فى ذلك أنهم يتعين عليهم مواصلة السير والإسراع فيه أثناء حرارة فصل الصيف وذلك فى المسافة مابين كل محطة والتى تليها من محطات المياه. يضاف إلى ذلك طول المسافات مابين محطات المياه، وأن شئت فقل: المساقى الصحراوية . وفوق كل ذلك، أنهم يتعين عليهم الوصول قبل اليوم الرابع وإلا خارت قوى تلك الحيوانات.

نفد صبر أفراد القافلة بعد انتظار دام ثلاثة أيام؛ وراحوا يصيحون ويتصايحون بأصوات مفعمة باليأس والحزن. وهام حداة الإبل يضربون الماشية المتوانية، ويروحون ينخسونها بأعقاب رماحهم، وهم يصيحون فيها ويستحثونها بكلام مثل: يامال Ya mal الطير el-teyr - حط hut بمعنى 'إخ يا جيفة الغربان'، أو يامال Yamal الذبّاح eth-Thubbah بمعنى 'إخ! يا لحم القصاب'؛ الحداة يرددون هذه العبارات إذا ما توقف

جمل من الإبل لحظة ليقضم ساقا طرية؛ يا ya مال mal الجوع ej-jua بمعنى 'انت يامن تملكه الجوع'، أوها القلب ha lkalb أوها ha الحلق hulk بمعنى 'لعن الله رأسك ، وقلبك وزورك الطويل .- وحداة الإبل يتعين عليهم أن يديروا بالهم بصورة دائمة على الإبل المحملة: والسبب في ذلك أن الجمل إذا ما وصل إلى مكان رملي يحتمل أن يترك على قدميه الأماميتين كي يتمرغ في ذلك الرمل ، لكي يهرش أوان شئت فقل: يحك جلده؛ وهنا يتحطم الحمل الذي يكون على ظهره؛ والإبل لا تميز طعامها عن طريق البصر وحده، ولكن الشم دخل في ذلك أيضا؛ يضاف إلى ذلك أن الإبل تتوقف أمام أى حجر أبيض أوحى الروث الذي يكون مصطبغا باللون الأبيض، كما لو كان قطعة من العظم أبيض اللون، - الذي إذا ما عثرت عليه الإبل ، في أى وقت من الأوقات تناولته في أفواهها وراحت تعضه في شيء من الحزن وذلك طلبا " للملح " على حد قول العرب. أفراد القافلة يكونون كل يوم سيئ المزاج وقليل الكلام ؛ وهم لا يقولون شيئا إلا بتقديم المشيئة؛ أما حدادة الإبل، الذين تعاني أفواههم من شدة العطش، فهم لا يربون على بعضهم البعض إلا بعبارات مقتضبة، وكلام فيه شيء من التباهي بعض الشيء ، ومثال ذلك 'أنا ولدى !أنا شقيق أختي الصغيرة! "هل أنا عبد أبيك ! (حتى أخدمك أو أطيعك)؟' وقد يصيح الرجل في جاره قائلا: الله ullah لا يبارك la yubarak فيك Fik ، لا la يجيب Yujib لك ' lak الخير el-Kheyr بمعنى 'لأبارك فيك الله ، ولا أعطاك الله الخير'.

كانت درجة الحرارة في وقفة الظهيرة حوالي ١٠٢ فهرنهايتية تحت التعريشة ، وعندما بكرنا بالتحرك كان دافعنا في ذلك هو الوصول إلى المسقى على وجه السرعة؛ وبالفعل وصلنا ذلك المسقى قبل ساعتين من غروب الشمس. هذا المسقى ، يطلق، الناس عليه اسم عفيف Afif، 'وعفيف هذا بئر قديمة يصل عمقها إلى سطح الماء حوالي عشر قامات، وهي مبطنة بأحجار جافة من كتل البازلت الغشيمة - كان سليمان ، ومعه كبراء رجال القافلة ، قد سبقوا القافلة ومعهم كل أنواتهم؛ وكان كل واحد يتصارع مع الآخرين على الوصول إلى فتحة البئر، ويحتل مكانا مناسباً للسقيا. وعندما وصلنا إلى البئر كان سليمان هو وجماعته هناك بالفعل ومعهم أنواتهم؛ هذه الأنوات كانت عبارة عن وتد غليظ في الأرض جرى دقه بواسطة قطعة من الحجر : كانت رأس ذلك الوتد عبارة عن شوكة، علقوا من فوقها بكره السحب، وبكرة السحب هذه يطلقون عليها هنا

اسم المحال Mahal ، وهذا المحال شبيه بمثله الذى يستعمله البدو الرحل فى أى جلبان (بئر) للحصول على الماء. والحبل يجرى سحبه بواسطة رجلان يجريان إلى الخلف؛ بينما يقف رجل ثالث عند حافة البئر؛ ثم يجرى بذلك الدلو لتفريغه فى الغدير المخصص لشرب الإبل ، هذا الغدير عبارة عن قطعة من الجلد أو من الكليم مفرودة فوق تجويف للموه من العصى أو من الأحجار وسط الزلط، مستخدمين أيديهم فى ذلك [انظر الجزء الأول] وعندما يجرى سقيا عدد كبير من الإبل من جلبان من جلبان jelib (بئر) واحدة، تحدث جلبة كبيرة بفعل ذلك العدد الكبير من الرجال العاملين فى جلب الماء بكل قوتهم ويغنون تسهيلات لمشقة العمل، شأنهم فى ذلك شأن البدو تماما. ذهبت كى أشرب من غدير الإبل، ولكنهم حذرونى من ذلك قائلين: 'أنى يحتمل أن أنزلق فى الوحل، وأنكفى على حافة البئر' التى ليس لها رصيف [مثل بقية الجلبان (الآبار) الصحراوية] وقد تنهار التربة من تحت قدمائى. هذا يعنى أن المهمة التى يقوم بها جالبو الماء من البئر تكون محفوفة أيضا بالمخاطر؛ كما أنهم يكونون متعبين أيضا. وفى آخر شوط لهم خانت واحدا منهم إحدى قدميه، وسقط فى البئر ! وجرى إخراجه منها على وجه السرعة والسبب فى ذلك أن العرب يزدانون شهامة على شهامتهم فى مثل هذه الظروف السيئة ! زد على ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الأعراب يتطلعون إلى النزول إلى تلك الآبار بدءا من سنوات الشباب. لقد انكسر ظهر ذلك الرجل الذى سقط فى البئر : وعندما رحلت القافلة، وضعه أصدقائه على جمل من الإبل؛ ولكنه توفى أثناء السير. حل محل ذلك الذى توفى أناس آخرون؛ ولكنهم لم يعودوا يستعجلون إذ كانوا يعملون بتؤدة وتأنٍ. وجرى عمل رصيف لتلك البئر القديمة: الأمر الذى سهّل العمل على أولئك الذين يعملون فى سحب الحبل لرفع الماء؛ كما ساعد أيضا على منع انهيار حافة البئر.

شاهدت بالقرب من هذا البئر أول إشارات الحياة الإنسانية فى تلك الصحراء الشاسعة ، شاهدت الرماد المتخلف عن نار حديثة شبها الصيادون! كما شاهدت بجوار ذلك الرماد زوجا من الغزال الذى شاهدته مرارا. والذى لاشك فيه، أن أولئك الذين شبوا هذه النار كانوا من الصلوبة؛ هذا بالإضافة إلى أن بعض المسافرين ضمن قافلتنا استطاعوا قص أثر الحمير التى كان هؤلاء الصلوبة يركبونها. والأعراب هنا

يتعجبون ويندهشون لأولئك الذين يعيشون من مجرد عملية الصيد في هذه الصحراء والصلوبى لا يحمل مع بندقيته الفتيلية سوى شئ قليل من الماء؛ ولكن من عادة الصلوبة أن يشربوا حتى الشبع ماءً أو مريسا قبل طلوع الفجر: وبالتالي فهم عندما يبدعون تجوالهم لا يشعرون بالعطش إلا عند دخول وقت الظهر. وقد تعلمت منهم ذلك العمل؛ وكانت تلك الشربة المبكرة تكفينى إلى أن يحين موعد وقفة الظهيرة، هذا فى الوقت الذى يكون رفاقى قد شربوا خلاله ثلاث مرات. كان من النادر أن يعطونى الإناء كى أشرب عندما كانوا هم يصبون الماء لأنفسهم، وعندما كانوا يفعلون ذلك يكون مصحوبا بالسب واللعن: وفى حالة وجود سليمان بعيدا عنا كانوا يتكرون على حتى شربة الماء. وكان سليمان نفسه بحكم أنه لم يكن رجلا طيبا يقول: "الكل يعانى على الطريق وأثناء السفر، وأنا لأستطيع تعديل ذلك، وهؤلاء الأعراب: ولوقدر لعبدالله أن يكون هنا، بلحيته. فإنه لن يفعل أفضل من ذلك. هل ترى ذلك الولد، يا خليل؟ إنه ولد من شوارع عنيزة: وهذا الآخر (صبي بدوى من عنيزة أهل الشمال) قتل والده، على حد قول الناس؛ وهذا الطاهى الذى فى الخلف! هو مسكين من المدينة: وأنى إذا ما أغضبته فسوف يتخلون عني عند أقرب وقفة! - مسألة شرب الماء مع صحبة جديدة أمر عسير؛ وقبل أن يعيد السطل إلى مكانه طلبت منه أن يصب لى شيئا من الماء. هذا الطاهى كانت زوجته واحدة من مرضاى، وربما تذكر أنه مدين لى بثمر الدواء؛ وربط الرجل عنق قريبته على وجه السرعة وكأنه لم يعرفنى من قبل. وعندما ناديته باسمه! لم يستطع أن يرفض طلبى؛ ولكنه بعد أن فك عنق القربة، صب لى شيئا من ماء الصحراء وهو يقول: 'هذا هو حال الطريق، وحال التعب والإرهاق اللذان يجعلان الناس لا يتذكرون بعضهم البعض؛ والمثل السائد هنا أمش imshy حالك hal-ak بمعنى [دبر أمورك بنفسك]'. ومن يبخل بتقديم ماء قريبته يقول له جيرانه: بيأع Biaa الماء el-ma بمعنى 'بائع الماء'. كانت ناقتى متوسطة القامة وكانت ضعيفة أيضا: وكانت لاتستطيع مسابقة بقية النياق أو اللحاق بها أثناء المشى؛ وكنت ألقى صعوبة كبيرة فى حثها على المضى قدما. قال سليمان: إن النياق متزمطة ولا تريد التحرك من مكانها؛ وقال إنه: سوف يجرحها فى جنبها عندما يصل إلى مكة.

وجدت هنا أن درجة حرارة الهواء في أبرد أحواله كانت ٧٢ فهرنهايت؛ أما درجة حرارة الماء في البئر العميقة فكانت ٧٩ فهرنهايت . وكان ارتفاع الأرض حوالى ٤٦٠٠ قدم؛ وكان الذباب والنمل يحيط بمنطقة المياه- وأعدنا سقيا الماشية مرة ثانية قبيل الصباح؛ ثم تأهبنا لمواصلة المسير، ولكن لم تصدر إشارة البدء. وطلعت الشمس علينا ؛ وبعد طلوع الشمس بفترة وجيزة سمعنا صيحة رحب بها الجميع، وكانت صادرة عن خادم الأمير الذى صاح قائلا: اليوم El-yom نجيم! nej-I-I-im بمعنى 'سنقضى اليوم هنا فى هذا المكان'.

هناك مساران للقوافل المتجهة من القصيم إلى مكة ؛الدرب الغربى وفيه المزيد من الموارد المائية الأوفر والأحسن- وفى هذا الدرب سبقتنا قافلتا الزيد القادمين من بريدة ومن بلدة الرّس - هذا الدرب الغربى يطلق الناس عليه اسم السلطاني es-Sultany بمعنى 'الطريق السريع' . وهناك أيضا الدرب الأوسط الذى سرتنا فيه، وهذا الدرب يقتصر على القوافل المتعجلة؛ والمسافات بعيدة بين محطات المياه، ويقل فيه أيضا احتمال التصارع مع الأعراب الذين يقضون الصيف بالقرب من تلك المحطات المائية- ورجال القوافل لايجرون على سقيا إبلهم فى وجود البدو؛ وهم فى مثل هذا الحال قد يطلبون إلى البدو الرحل التحرك وترك المكان، والبدو قد ينصاعون لرجاء الحضر ولكن بذهن يضمّر الشر. لكن إذا ما ثبت أن البدو أكثر عددا ، فإن الحضر يبادرون إلى جلب الماء وأسلحتهم فى أيديهم: وقد يسوقون ماشيتهم التى لم تشرب حتى الشبع إلى آبار المواشى الأخرى، والتى غالبا مايكون ماؤها مرّا فى هذه الصحراء- وهناك طريق ثالث، يقع إلى الشرق من المكان الذى نحن فيه، ويطلق الناس عليه اسم درب derb وادى wady سبيع، وهذا الدرب فيه عدد قليل من موارد الماء الصغيرة؛ وهذا الدرب تسير فيه الجماعات الطائرة التى يركب أفرادها النياق السريعة. فى العام الماضى، وجد عبدالله البسام، ذلك الرجل الطيب ، عندما كان عائدا إلى موطنه قادما من جدة وسالكا ذلك الطريق، وجد أن البئر كانت مربومة، عندما حاول الاستفادة من واحدة من تلك الآبار المهمة؛

كان اسم البئر التى قصدها عبدالله البسام جليب Jelib بن ابن حديف Haddif؛ وقام الرجل هو ورجاله بتطهير البئر، واستغرق ذلك منهم يوما كاملا. هذه الدروب

الكثيرة متقاربة من بعضها البعض ،على نحو يسمح للمسافر بتبين العلامات الأرضية التي على الجانبين.

عفيف التي نزلنا بها لنيل قسط من الراحة، عبارة عن أرض مقعرة تشبه أرض الغرول el-Ghrol وتحيط بها جبال بازلتية منخفضة. وقد شاهدت أحجار البازلت الموجودة عند فتحة البئر في الصحراء ومن فوقها قشرة بيضاء اللون، كما شاهدت أيضا آثار حبال البدو الرحل على حواف رصيف تلك البئر! وفي هذه المنطقة المحيطة بالبئر ينمو نوع من العشب الطويل يسمونه ثيرم^{Thurrm} الذي سبق أن شاهدناه على طريق الحج السوري. ودفع حداة الإبل المواشى إلى المرعى؛ في حين قام بدو عتيبة ، المرافقين لمذكر، بالصعود إلى المرقاب mergab الذي كان عبارة عن أرض بازلتية مرتفعة - ذهبوا إلى المرقاب كيما يستطلعوا المكان. كانت الحرارة شديدة على رعوس أولئك الذين كانوا يضعون غترا (أغطية رأس) على رعوسهم وهم يرعون الإبل ؛ والسبب في ذلك أن الشمس التي يتعين علينا تحملها أثناء مرورنا خلال هذا الهواء ، تعد أمرا لا يطاق حتى بالنسبة للبدو الرحل الذين يلزمون أماكنهم ولا يتحركون: وهنا صاح البدوى الراكب في الخلف، "آه! ماهذه الشمس !" التي شوت مخه. وقبل المساء صدرت إشارة من المرقاب! وعلى أثر تلك الإشارة جرى الرجال لتجميع الإبل وإعادتها من المرعى. كان الكشافه قدر رصدوا زولا^{Zol} (*)، وقالوا: إن ذلك الزول يحتمل أن يكون بعض الأعراب: ولكن بعد فترة وجيزة استطاع أولئك الكشافه تمييز ذلك الزول، إذ كانوا عبارة عن أربعة أفراد من الصلوية، يركبون حميرهم .

بدأنا تحركنا من عفيف قبل طلوع النهار. وعندما طلعت الشمس علينا كنا قد غادرتنا سلسلة الجبال المنخفضة التي يسمونها سلسلة جبال عطوة 'Atula، وكانت على الجانب الأيسر؛ وهنا بدأت الصحراء تتراعى لنا أرضا واسعة ومفتوحة: الأرض مغطاة بالجدامة؛ ومع ذلك، كان مذكر يقول لى: إن المراعى هنا أفضل من الأماكن الأخرى! هنا بدأت الجبال تقل: فنحن نرى هنا صخورا بدلا من التلال والقمم - كنت راكبا في

(*) الزول وجمعه أزوال وهو شئ غير مؤكد يظهر عن بعد .(المراجع)

المؤخرة؛ وشاهدت غزالا ذكرا ضخما أبيض اللون واقفا مرفوع الهامة أمامنا : ذلك الظبي Thobby الذى يشبه التيس الكبير، وقف ذلك الظبي بكى يحملق فى ذلك الموكب غير المرغوب فيه والمكون من الرجال والإبل؛ ثم جرى ذلك الظبي جريا بطيئا وهو يبتعد عنا. وهنا قام شبان البئر بإخراج بنادقهم من أجريتها ، وراحوا يجرون وراء هذه الطريدة وهم راكبين نياقهم التى تجرى وهى تمد رقابها كما لو كانت طيراء ليعوبوا إلينا بخفى حنين من تلك المطاردة الساخنة! كانت الأرناب البرية تجرى هنا وهناك أثناء مرورنا، كى تختفى تحت الأدغال- وكانت أذان تلك الأرناب البرية تدل عليها وهى مختفية بين الأدغال.

الأرض الصحراوية هنا وعلى امتداد مسير يومين كاملين فى اتجاه الجنوب يطلق الناس عليها هنا اسم الشفا es-shiffa، التى يحسبون عرضها بمسير ثلاثة أيام؛ بعض آخر يقولون: إن الشفا تقع بين الرس وعفيف ؛ وخلف هذه الأرض تقع منطقة الحزام el-Hazzam، التى يصل طولها إلى مايقرب من رحلتين ونصف الرحلة؛ ويزعم مذكر أن الحزام هى والشفا شىء واحد. هذه المنطقة الواسعة الشاسعة لم أر فيها أى مجرى من مجارى السيول! وعلاماتنا الجبلية فى هذه المنطقة تتمثل فى مربومة Merduma على الجانب الأيسر؛ وعن يميننا يوجد ثلاثة من التلال المخروطية ، والناس هنا يطلقون على هذه التلال الثلاثة اسم المثلثة Methalitha. وهذا هو جبل الشعيب es-Sheyb، يتبدى لنا ويقع على درب derb السلطاني es-Sultany: والماء طيب فى منطقته هذا الجبل وهذه هى جاديتا Gadyta القديمة صاحبة التفاصيل الكثيرة - انظر كتاب الجغرافيا العربية؛ حيث ورد ذكر مدينة داثينا Dathyna ، وأين شئت فقل أبار دافينا Dafina؛ وكذلك أبار قوبا Koba التى يقولون لها هنا: جوبا Goba، وتشكل مسقى من المساقى الطبية]: وهذا هو جبل ميشاف Meshaf أراه أمامى. كان مقيلا فيما بين جبلى عجيلة Ajjila والزعال eth-Thal؛ وهذا المكان الذى فيه المقييل يطلقون عليه اسم الشبروم Shebrum هذا الشبروم عبارة عن قاع عامر بأشجار السنط ، كما ينمو فيه أيضا الكثير من الأعشاب الشوكية القصيرة ، التى لها زهور أرجوانية اللون يطلق الناس عليها هنا الاسم نفسه. فى هذه المنطقة توجد مجموعة من الآبار التى تسقى منها الماشية؛ والأعراب يطلقون على تلك الآبار اسم الشبرامى Shbramy.

هنا فى منتصف الشفا رأس يقول مذكر عنه (بالرغم من عدم ظهور ذلك الرأس بشكل واضح): إنه من وادى Wady جرير Jerir. وادى جرير هذا يعد الرافد الرئيسى القادم من وادى الرماح فى شرق البلاد؛ وقد ورد ذكر ذلك الرافد فى بعض القصائد العربية القديمة؛ وديانى الجانبية تسقىنى بالرشفة؛ أما وادى جرير فهو الذى يشقى ظمئى ويطفئه، - هذا الكلام يعد شاهدا (هنا) على الأمطار المدارية! وعلى طول هذا الوادى الذى يمتد من الشمال إلى الغرب، يوجد الكثير من حفر المياه التى يتردد عليها البدو، البعض يترجمون كلمة 'الرماح' 'بالجبل المزخرف' [وربما ذلك بسبب الالتفاتات الكثيرة].

استأنفنا المسير قبيل المساء: وأصبح منظر سطح الأرض من حولنا وكأنه سهل واسع مفتوح؛ وهذا هو آخر الجبال فى الجانب الشمالى بدأ يختفى عن أنظارنا وراء الأفق - وفى المنطقة التى نزلنا فيها بعد غروب الشمس وجدت أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

لم نتحرك قبل طلوع الفجر: ومع شروق الشمس كنا مانزال على الارتفاع نفسه؛ واستمر ذلك الارتفاع إلى دخول وقت الظهيرة؛ وكانت درجة الحرارة تحت التعريشات ١٠٧ فهرنهايت. الناس هنا يطلقون على هذه المنطقة الواسعة المستوية اسم الدعيكة ed-Daika وهم يترجمون ذلك الاسم على أنه 'السهل الخالى من التلال ذات التربة المخلوطة، والعامر بالمراعى الجيدة'. وفى اتجاه الشرق شاهدت جبلا عن بعد؛ كما شاهدت أمامى رأس جبل منعزل يطلق الناس عليه اسم خال Khal. مررنا بعد ذلك فيما بين كل من الصفة Seffua والعريضان 'Aridan من ناحية والذئيب Thennyib التى هى علامة أرضية ومكان للسقى على درب السلطانى - وقبيل غروب الشمس دخلنا منطقة واسعة تغطيها قشرة من الملح؛ وهنا نزلت القافلة عن راحلاتها خلف هذه الأرض الملحية.

بعد أن وصل الأمير مكان التخييم، شد لجام ناقته، وراح يداعبها فى عنقها ويهمس لها حتى تبرك على الأرض؛ وهاهى المخلوقات الضعيفة تنئن وتتوجع وتجتو على ركبها . وتتصرف الكلاب قبل أن تبرك تماما على الأرض - منظر راكب الجمل يبدو غريبا على من ينظر إليه من الخلف؛ إذ تظهر قدما الجمل الأماميتين من تحت ذلك

الرجل الذى يركب ذلك الجمل وهو ملفوف فى عباة (بشته) . بعد أن يُبرك الأمير ناقتة، يأتى بعده أعيان القافلة ويذهب كل واحد منهم إلى المنزل المخصص له، على أن يراعى الجميع أن الإقامة ستكون على شكل دائرة: ثم يجرى بعد ذلك إدخال جمال الحمل إلى المنطقة المخصصة لها، حيث يتم إنزال حمولتها عنها والجمل الغر غير المتمرس يجرى تبريكه بالقوة بأن يشده حاديه من لحيته: وإذا ما قاوم جمل من الجمال الباركة، بأن راح يتدحرج هنا وهناك ، ويعوى فإنه يجرى التحكم فيه عن طريق الخزام الموضوع فى أنفه ؛ وبعدها يعود الجمل إلى هدوئه السابق. قد يخطر على البال أن أسنان الجمل تشكل نوعا من الخطر، ولكن العرب لا يرون فى ذلك خطرا على الإطلاق ؛ والسبب فى ذلك أن البدو يجمعون النباتات الطرية ويدسونها فى أفواه إبلهم ، وقد قمت أنا شخصا بهذه العملية ألف مرة؛ ولم أسمع مطلقا عن إنسان عضه جمل من الجمال [شاهدت فى سيناء - ذات مرة - جملا مكما]. والجمال بالرغم من أنها تتناغش بعضها البعض أثناء المسير، إلا أن ذلك من باب المداعبة: والجمل كبير السن يفقد أسنانه العليا الأمامية.

رحلة الغد - وهى الرحلة العاشرة بدءا من عنيزة - كانت فى اتجاه جبل خال البازلتى المخروطى أسود اللون ومنبسط القمة؛ وجبل آخر متفخ له ثلاثة رعوس، وهو من صخر الجرانيت ويطلقون عليه اسم ذُلم Thulm . - وحجاج نجد يصيحون فرحا عندما يشاهدون تلك الجبال شكرا منهم الله (سبحانه وتعالى) لوصولهم سالمين آمنين إلى منتصف الطريق؛ فى المنتصف يوجد مورد ماء الشُرمة Shurma الذى، نزلنا بالقرب منه قبل دخول وقت الظهيرة بثلاث ساعات: هذا المورد فيه حفر لشرب الماشية ولكن الماء مانع الطعم، إلى الحد الذى يجعل القصمان لا يقبلون على الشرب منه . قالوا: سنصل غدا إلى مورد جديد من موارد المياه. لم يكن يتبقى معنا فى قراب الماء سوى القليل جداً. ولكنى أثرت الشرب من هذا المورد ، وأجبرت نفسى على استساغة طعم ذلك الماء ، وهذا أفضل لى من التصارع مع حداة الإبل التابعين لسليمان: كان طعم الماء يشبه مذاق الشبة. ولكن الطباخين كانوا قد ملأوا بعضا من قراب الماء من آبار عفيف؛ وبذلك كانوا يظنون أن خلط هذا الماء بذاك يمكن أن يساعد على استعماله فى إعداد طعام العشاء. حفر الماء الضحلة الثلاثة [التي منها واحدة مربومة] والتي

يوجد الماء فى كل منها على عمق قامة واحدة، مبطنة تبطينا جافا. فى منتصف محطة المياه، أوإن شئت فقل : المسقى ، كانت الآبار شبه جافة؛ الأمر الذى جعل الناس فى القافلة يوردون الإبل العطشانة على الماء بعد ذلك بساعة من الزمن ، بعد أن ارتفع مستوى الماء فى البئر مرة ثانية. كان ارتفاع الأرض هنا، مثل ارتفاع الأرض التى كنا نسير فيها بالأمس.

تحركنا من شُرمة Shurra، وبدأنا نتجاوز بعض المنخفضات الملحية، وبدأنا الاقتراب من ذلك الجزء البركانى التربة الكبير الذى يطلق الناس عليه هنا اسم حرة Harrat القشيب el-Kisshub. تجاوزنا أراضي واسعة من الوحل من فوقها قشرة من السبخ Subbakha؛ وبيضاء اللون كما لو كانت مغطاة بصقيع فضى : فى أحيان أخرى كنا نمر فوق حصى أسود اللون؛ وأحسب أنى رأيت بين الأحجار بعض البللورات الصخرية اللامعة. هذا المنظر الصحراوى الذى له شكل واحد وارتفاع واحد أيضا، فيه كثير من أشجار السمار Sammar التى هى نوع من أشجار السنط: ولكن السواد الأعظم من تلك الأشجار كان جافا، ولكن لم تتحول أية واحدة من تلك الأشجار إلى خشب - شاهدت أيضا ساحلا خلف خال khal "قال واحد من رفاقى: أنظر يا خليل ! تلك هى حرة القشيب التى تتراعى لنا من الأمام!" كان الضباب يخيم على جبال الحرة، التى سرعان ما اكتشفت أنها كانت عبارة عن فوهات ناتجة عن انفجارات منذ قديم الأزل ؛ والناس هنا يطلقون اسم حليان hillian على هذه التلال التى تكون على شكل فوهات تنتج من انفجارات حدثت فى الماضى البعيد . فى هذا السير مررت على بعض الحفر الضحلة، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قدم واحدة، ولكنها واسعة كما لو كانت بداية لانطلاق ثقب من ثقب الماء (الصورة رقم ٧) ؛ ووجدت أن تلك الحفر موجودة على شكل ثنائيات . ناديت واحداً من أفراد القافلة تصادف أن كان يمر بالقرب منى؛ وعندما أريته المكان رد على قائلاً: "لقد استخرجوا الذهب من هذا المكان!" وسألت مذكر عن هاتين الحفرتين فى المساء: "وأجابنى ، نعم يا خليل ، نعثر على كثير من الرسوم بمعنى 'الآثار' Traces، فى ديرتنا." والناس هنا يطلقون اسم 'الرسوم' على 'الأطلال'؛ والرسوم الموجودة هنا "تنتمى إلى الأولين" aullin على حد قول منكر.

تحركنا فى الصباح الباكر لنصل إلى مورد جديد من موارد الماء فى اليوم نفسه. وعندما طلع النهار، اكتشفت أننا كنا نسير فى طريق مواز لحافة الحرة، ولكنه يبعد عنها بضعة أميال. كانت الأجزاء السفلى من الحرة يغطيها ضباب الصباح الباكر، ومن فوق ذلك الضباب كنت أشاهد قمم تلك التلال التى كانت فوهات لبراكين فى أزمان غابرة وبعيدة. والدرب السلطاني يمتد لمسافة مسير يوم ونصف اليوم عبر هذه الأرض المكونة من صخور الحمم البركانية. اقتربنا من ذلك الدرب ؛ الذى يناسب أقدام الإبل ، وبخاصة فى الرحلات الطويلة. [يقول مذكر ، إن الصخور البركانية فى حرة Harrat ترعة Terra ، التى تتصل بحرة القشيب، تبلغ من الوعورة حدًا لاتصلح معه إلا لسير الحمير: وهذه الحرة لا يوجد فيها سوى قرى ونخيل أعراب عتيبة]. وقدم الحيوان التى تلتهب يتعين تفريغها من الصيد الذى يكون بداخلها؛ كما أن تقسيم حمولة ذلك الحيوان على بقية الحيوانات الأخرى يقصم ظهور الإبل الأخرى. الكثيرون من الأفراد النجديين الذين يعملون مع القوافل يخشون مثل هذه العملية ويخافونها إلى حد أنهم يقومون أثناء الوقفات بعلاج أقدام إبلهم المصابة باستخدام البول- ألا يمكن صنع حذاء من الجلد لحماية قدم الجمل؟ هناك فى المملكات [ليبد ، ٢٣] ما يشير إلى أن مثل هذه الحذيان جرى استعمالها من قبيل أعراب الجزيرة العربية القدامى (الأكثر بساطة وسذاجة).

هذه الأرض الطينية المغطاة بطبقة سوداء وشاهدناها بالأمس تقع فيما بين الجزء الذى نسير نحن فيه والأرض المكونة من الصخور البركانية؛ هذه الأرض الطينية خالية من العشب ومن الأحجار ، وخاليه أيضا من آثار الأقدام ولونها أيضا أبيض بفعل السُّبْخَة Subbakha: وهذه الامتدادات لتلك الرقعة الملحية تمتد ناحيه الشرق إلى الخلف من الطريق الذى نسير فيه. قبيل الظهر شاهدنا آثار أقدام بعض البدو الرحل ، و آثار أقدام ماشيتهم فى اتجاه الحرة- وأسفل تلك الحرة يوجد مورد من موارد المياه الجيدة، وهو مواجه لنا مباشرة. أثناء وقفة الظهيرة كنت ظمأنا تماما: ولم يكن مع أفراد القافلة ما يشربونه، بخلاف ذلك الماء الأسود مر المذاق الذى أحضروه معهم من شُرْمَة Shurra؛ ولم نستطع الوصول إلى الآبار، قبل دخول الليل، أو فى الساعات الأولى من الصباح. كانت درجة حرارة الهواء تحت التعاريش حوالى ١٠٧ فهرنهايت؛

وبدأت رياح السموم تهب علينا وأفراد القافلة يأكلون التمر في وقفة المقيّل؛ ويأكلون مع ذلك التمر بقايا البرغل أو التمر المتخلفة عن عشاء الليلة السابقة. والسادة (أصحاب الإبل) هم والحدادة يجلسون سويا لتناول الطعام؛ ولكن لا أحد اليوم يود تناول الطعام بسبب الظم الشديد. اتجهت إلى تعريشة كل من إبراهيم والبسام. وكان واحد منهما يحمل معه عشرة قراب من قراب الماء ذهبت إليهما بحثا عن فنجال من القهوة أوحى من الماء. هذان الشابان أعطيانى تلك الرشقات من الماء ولم يعطيانى أى شىء غيرها: لأن هذا هو حال أهل الجزيرة العربية أثناء الترحال: لقد رأيت بنفسى أنهما كان معهما الكثير من القراب المليئة بالماء.

كان المقيّل قصيرا، بسبب الظم، وكان الماء مايزال بعيدا عنا. وعندما استأنفنا المسير نظرت إلى الخلف وحولى وجدت الرفاق يشربون خفية! يضاف إلى ذلك أنهم شربوا حتى الشبع أثناء غيابى عنهم، بعد أن تظاهروا أمامى بأنهم ليس لديهم أى شىء من الماء؛ وكنت أعانى من الظم طوال اليوم وبخاصة فترة النهار. خطر ببالى، أنى لو شربت هذه المرة، سيصبح بوسعى أن أتحمل لحين طلوع النهار. طلبت من الرفاق أن يصبوا لى قليلا من الماء؛ لقد كنا رفاقا، وتلك كانت رغبة عبدالله الكتينى؛ ولكنهم حرمونى من الماء وهم يسبونى ويلعنونى بأقذع السباب؛ ولم يعر سليمان ذلك الأمر اهتماما. نزلت عن ناقتى لأن الضيق ليس له كبير لأخذ شربة الماء سواء أراىوا أم لم يريدوا. وراح ذلك البدوى، يلوح بمشعبه ويتراقص، ليؤكد على قصدهم السيئ؛ ولكن سليمان (الذى كان يخشى نشوب صراع أونزاع) طلب منهم أن يصبوا شيئا من الماء لخليل. كان الماء عذبا من ماء عفيف، ذلك الماء الذى كانوا يخفونه لليوم الثانى عن خليل النصرانى: وكان بوسعهم أن يشربوا منه مرتين فى مسير فترة العصر. كان سليمان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، وكان قصير القامة، وحاد الطبع، وتظهر عليه بوادر الحقد والكراهية المغلفة بالمرح، كما كان ميالا أيضا إلى التشدد. لقد طردونى من قبل من عنيزة، وكان من بين الحضر الذين كانوا معى، عدد كبير من الوهابيين. ولكن الغالبية العظمى كانت تحيينى فى المسيرات الطويلة بكلام فيه الكثير من الود، كيف حال الطعام معك يا خليل! هل تشعر بالتعب والإرهاق؟ حسن! ما عليك سنصل حالا إلى نهاية الرحلة. سمعت ذات مرة كلمة جارحة: وقد صدرت تلك الكلمة أثناء

راحة المساء ونحن فى عفيف، وذلك عندما كنت أمشى فى الظلام متجها صوب إبراهيم ومذكر، ثم مررت على بعض الرفاق الغرباء على، وتعثرت فى بعض قراب الزبد. صاحت أصواتهم العدائية وهم يقولون: "إلى أين، أيها الكافر؟ ولكن بعضا آخر من الرفاق ناداهم قائلا: 'أقفوا أفواهكم! واصل سيرك، ولا تلقى لهم بالاً، يا خليل.'

قال لى سليمان: إنه كان يتعين عليه فى بعض الأحيان التعامل مع الشاحنين الإنجليز، أو إن شئت فقل: الشركات الملاحية الإنجليزية، فى منطقة الخليج: كانوا أناسا طيبين، وأنهم كانوا أفضل من الأتراك. قال: اعهد ببضاعتك إلى الإنجليز؛ لأنهم سيحمونك من الأضرار إذا ماتلف شىء منها أوضاع. أما فيما يتعلق بالشركات الملاحية التركية، يتعين عليك أن تدفع أولا للعمال، وتدفع ثانية قبل أن تتسلم بضاعتك فى الخارج؛ يضاف إلى ذلك أن الضابط هو الآخر يتطلع إلى أتعابه هو، فضلا عن أن البحارة سيقومون بتهريب أو سرقة شىء من تلك الشحنة أثناء الرحلة : ولكن إذا ما تعاملت مع الإنجليز فسوف تلقى المعاملة السليمة والنظام السليم أيضا. وأنا أقسم بالله، أن الإنجليز إذا ماتعاملوا مع العثمانيين، فإنهم يتحولون إلى مرتشين ويكونون أسوأ من الأتراك! كانت شمس العصر التى لها اصفرار النحاس، فى شهر مارس قد بدأت تغطيها السحب: وبعد أن سرنا مدة ثلاث ساعات فى ذلك الجو تاركين خلفنا كلا من جبل الكمين el-Kamin وجبل الحكران Hakran ، شاهدت شيئا من الاضطراب عند مقدمة القافلة؛ راح ركاب النياق على أثره يتفرقون مبتعدين عن بعضهم البعض! سارع أولئك الجمالة بحثا عن حفر مياه الماشية التى تقع على جانب الطريق على بعد مسافة قصيرة. وعندما وصلوا إلى تلك الحفر، قفز كل واحد منهم نازلا عن ناقته متجها صوب حفرة من الحفر كى يملأ منها قربة الماء؛ الأدهى من ذلك أن واحداً من هؤلاء الجمالة كان يقف فى وسط الماء الذى كان يغمر جسمه إلى منتصفه: وراح كل واحد من أولئك العطشانيين يشرب مايشاء من الماء كى يروى ظمأه ؛ وهنا فقط أدركوا أن الماء تعافه النفس!

هذا هو حزيم Hazzeym الصيد es-Seyd ، أى بيارة من بيارات أشجار السنت - وهى تشكل منظرا جميلا جداً فى هذه الصحراء الخالية! هذا المكان فيه الكثير من الحفر التى تشرب منها الماشية؛ وعمق كل حفرة من هذه الحفر يصل إلى حوالى قامة

ونصف القامة؛ والماء يرتفع فى هذه الحفر بسبب الأمطار - عندئذ نظرت إلى الخلف ووجدت القافلة متجهة إلى هناك! لقد تخلى حداة الإبل عن المسار الذى كانوا يسلكونه. وعندما وصلت الإبل إلى مكان تلك العيون أصدر إبراهيم أمرا بالتخييم فى تلك المنطقة. ماء هذه الحفر كانت مقبولة أكثر منها صحية ، فقد أصيبت غالبية أفراد القافلة بالإسهال أثناء الليل. أما أنا فلم يصبنى ضرر؛ كما لم يصبنى ضرر بالأمس بعد أن شربت من ماء شُرْمَة Shurra: وهذا جعلنى أشكر الله، أنتى لم يصبنى مرض، فى تلك السنوات التى أمضيته فى بلاد يعانى فيها الناس كلهم من المرض.

أوفد إبراهيم، أثناء الليل، بعضا من الجمالة لاستطلاع مورد المياه الموجود أمامنا، والذى كنا نتطلع منذ الأمس إلى الوصول إليه ؛ وعلى أمل أن يعوبوا إلينا بأخبار عما إذا كان هناك أعراب يقيمون حول ذلك المورد - طلعت الشمس علينا وكنا مانزال نستريح فى ذلك الموقع الجميل . كما خرج بعض آخر من أفراد القافلة ومعهم بنادقهم القتيلية، وراحوا يجوئون بين أشجار السنط الخضراء لاصطياد اليمام [الذى يحوم يوما حول موارد المياه، ويندر أن يراه أحد وهو يطير فى الصحراء]؛ ولكن إبراهيم بناء على نصيحة من مذكر أرسل أمرا يقضى بعدم فتح نيران البنادق؛ نظر لأن صوت البنادق يمكن أن يجر علينا الأعداء - وبعد طلوع الشمس بنصف ساعة، شاهدنا كشافينا وهم عائدون إلينا؛ عادوا إلينا ومعهم أخبار مفادها أنهم شاهدوا قلة قليلة من البدو بالقرب من مورد الماء، وأن أولئك البدو كانوا من العتبان؛ وأنهم تكلموا مع شخص التقاهم فى الصحراء وعزمهم على الذهاب معه ليشربوا شيئا من الحليب . بقينا بلا حراك فى أماكننا؛ ونصب الرجال التعاريش والمظلات - وذبحوا ناقة فطير (والناقة الفطير Fatir هى الناقة المرهقة المكودة)؛ وتم توزيع لحمها على الرفاق كلهم،الذين دفعوا ثمن الأجزاء التى أخذوها من لحم تلك الناقة. كان يجرى اقتياد ثلاث أو أربع من تلك النياق مع القافلة كيما يجرى ذبحها على امتداد الرحلة: وبهذه الطريقة ينوق أفراد القافلة طعم اللحم كل بضعة أيام.

تحركت القافلة عند الظهر: وهذه هى مسطحات الملاحات التى تمتد خلفنا لتصل إلى الساحل البركانى، نشاهدها أمامنا من جديد؛ وعن شمالنا نشاهد الأفق الصحراوى. وبدأنا نمشى بين جبل حكران Hakran المنخفض وحدود الحرة. وعند

غروب الشمس دخلت القافلة خليجا صخوريا فى المكان الذى تنصرف من خلاله مياه الحرة : الصخر البركانى فى هذه المنطقة من النوع الثقيل وله خصائص البارزات. هذا المكان فيه مسقى يشتمل على آبار عدة ، مثل الموى El-Moy أو شعاب Sheab الماء el-Moy أو أمياه Ameah حرکان Harkan، وهذه البئر الأخيرة واحدة من موارد الماء الرئيسة عند الأعراب.

رحل البو عن المكان ونزلنا عند الشفق بالقرب من المسقى؛ نظرا لأن هذا الجزء من البلاد يكثر فيه اللصوص فى هذه الأشهر. ولكن كل رفيق من الرفاق أوفد فردا ومعه قربة إلى منطقة الآبار، لكى يملأها حتى يتسنى للناس أن يطفئوا ظمأهم. فى هذه المنطقة خيم أفراد القافلة على شكل دائرة صغيرة تحسبا للصحراء وتخوفا منها: وشب الناس نيران القهوة ونيران الطهى؛ وسرعان ما دخل علينا الليل البهيم؛ وتم تعيين ثلاث خفريات لحين طلوع الفجر. وإذا مامر أحد بالقرب من أضواء النيران الخافتة، أو إذا ماشاهدوا أحداً يقترب من المكان، تنطلق أصوات صادرة من عشرات الحناجر لتصبح قائله: مين Min هذا hatha بمعنى 'من هناك؟' وهنا تنطلق أصوات الرفاق من داخل المخيم وهم يقولون بصوت عال ومخيف : اذبحوه! Ethbah-hu بمعنى اقتلوه! وعليه فإن بداية الليل تكون عامرة بنداياتهم ولعناتهم ؛ والسبب فى ذلك هو تنقل البعض هنا وهناك لزيارة أصدقائهم؟ وأنا عندما مشيت فى المخيم بحثا عن إبراهيم ومذكر وولد البسام ؛ كانت الصيحات العالية تتردد هنا وهناك وهم يقرلون " اذبحوه! Ethbah-hu - مين Min هو hu هذا hatha ؟ والرد على هذا السؤال هو: أنا Ana صاحب Sahib، بمعنى 'إنه أنا، صديق'؛ أوقد يكون الرد: طيب Tayib مافى mafi شىء shey، بمعنى 'كل شىء على مايرام، وليس فى الأمر شىء' - يقول لى سليمان إنهم فى قافلة الحج السنوية، والتي تحمل معها كثيرا من البضاعة والنقود، يحتفظون بتلك الخفريات على امتداد الطريق الصحراوى.

مع طلوع النهار، حمل القصمان السلاح فى أيديهم! وراحوا يسوقون الإبل إلى الماء: وسرعان ما أنهوا عملية السقاية نظرا لكثرة عدد الآبار. واستأنفت القافلة مسيرها بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر اعتبارا من تاريخ مغادرتنا عنيزة. ولم نلتق أحداً من البشر منذ أن غادرنا القصيم! ولكن ظهر

لنا بعض البدو الذين كانوا يسوقون ماشيتهم إلى الماء. وهذا هو المنحدر نفسه يحيط بنا من كل جانب: تلك رعوس كثيرة من أحجار الكوارتز، التي تشبه الأكوام البيضاء اللامعة، نراها في بعض أجزاء التربة. مررنا بدار dar من الدور، أوإن شئت فقل: منطقة تخييم قديمة من مناطق الأعراب؛ وفيها حفر ماء تشرب منها الماشية، وماء هذه الحفر مالح وهذا هو الساحل العالي من حرة القشيب والذي يمتد موازيا لخط سيرنا؛ وقد رأينا في ذلك الساحل أشجار السنط الخضراء وحاجز رملي مرتفع من الرمال التي جرفت بها الرياح من الصحراء: ومن خلال الضباب المشوب بضوء الشمس تراءت لنا بشكل غير واضح تلك التلال التي كانت فوهات لبراكين منذ قديم الأزل. [هذه الحمم البركانية غطت صخورا كثيرة- أما صخور كل من خيبر ' والعويرضى فهي عبارة عن أحجار رملية]. ومسطحات الملح تقع بين طريق القافلة والحرة- هذا هو حال سطح الأرض الذي شاهدناه ونحن مسافرين من نجد إلى مكة! ويصل ارتفاع هذه الصحراء كلها إلى مايقرب من ٤٢٠٠ قدم.

توقفنا عند الظهر في عز الشمس، وبسرعة راحت كل جماعة تفرد تعارشتها ومظلاتها. جاعنا بدوى قادما إلينا من الصحراء راكبا ناقه، كان ذلك الرجل صديقا من عتيبة ، وأخبرنا أن قافلة بريدة عند مسقى مياه مران Marran، خلف الحرة التي أمامنا - هبت علينا رياح السموم ، فقد كنا في عصر يوم من أيام شهر مارس، وأخذت الرياح تهدر في اتجاه الغرب. ومع غروب الشمس نزلنا عن راحلاتنا استعدادا لوقفة الليل: ولكن بعض أفراد القافلة عندما علموا أن حفر المياه التي تشرب منها الماشية ليست بعيدة، واصلوا مسيرهم إلى تلك الحفر كيما يملأوا قراب الماء: عاد الرجال خاويّ الوفاض بلعاء ، نظرا لأن الماء كان مذاقه مالحا ومرا وتفوح منه رائحة الكبريت.

في الصباح شاهدنا الكثير من آثار البدو الرحل في كل اتجاه. ارتفاع تربة الصحراء هنا كان هو نفس الارتفاع الذي سبق أن قسته على امتداد الأميال المائة التي مشيناها، وخلفناها وراعنا. خط سيرنا الآن يمر عبر حزام في هذا الجزء من البلاد؛ والعرب يطلقون على هذا الحزام اسم الرُّكابة er-Rukkaba؛ وهم يقولون إن: هذا الحزام هو أعلى نقطة في الطريق كله، وهم يلتقون بالهواء البارد في هذا الجزء من البلاد، - عندما يكونون قادمين من ناحية تهامة (المدارية). وبالرغم مما قالوه وجدت

أن ارتفاع هذا الحزام عند الظهر وقبل الغروب لا يزيد على ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. درجة الحرارة هنا، أقل من ذى قبل ، وهانحن ننظر إلى منظر صحراوي جديد أكثر اخضراراً وجديداً علينا ؛ هذا السهل الذى نسير فيه يمتد إلى الطائف فى الاتجاه الجنوبي الشرقى . ومع مطلع كل يوم، وأثناء مسيرنا، وعندما كانت الشمس تشتد على رؤوسنا، كنت أنحنى على سرج (عدة) الجمل وأغفو مدة ساعة أو ساعتين: ولكنى عندما نظرت إلى الأعلى فى ذلك اليوم خطر ببالى أنتى رأيت الشمس التى كانت عائدة إلى الخلف ! خطر ببالى ، خلال تلك اللحظات المؤلمة، أنى أصبت بضربة شمس؛ أوروبما تكون متاعب وأوجاع الترحال فى الجزيرة العربية قد تسببت فى النهاية فى إرباك فهمى وتواصلى: ولكن عرق جبهتى المر سرعان ماتحول إلى قطرات من الندى توحى بالارتياح، من باب الأمل الحلو، فى اجتيازنا لمنطقة الصيف المدارى؛ يضاف إلى ذلك أن وجود الشمس على شمالنا لابد وأن يعكس طريقنا الذى نسير فيه. رأيت عند الأفق ضفة جبلية كبيرة تمتد ناحية الشرق؛ هذا هو جبل حثثون Hatthon، الذى تعيش فيه أعراب البجوم Bgoom؛ ومن خلف هذا الجبل أرى قرية تربة Turraba: وهم يقولون : إن بعض الآثار القديمة موجودة تحت هذا الجبل. وإلى الغرب من الطريق الذى نسير فيه أرى الجبل البازلتى الذى يطلقون عليه اسم نفور Nefur الطريق et-Tarik. هاهى الحرّة قد خفت عن أنظارنا: وهاهو أيضاً أمامنا مورد ماء الحادثة Mehaditha - هذه الليلة كانت أكثر إنعاشاً من سابقتها: إذ كنا على ارتفاع ٤٦٠٠ قدم تقريباً. كانت درجة الحرارة عند الفجر ٧٣° فهرنهايتية وكان الماء بارداً فى القراب المتعركة.

كانت رحلة الغد فى منطقة الركابة Rukkaba، التى هى سهل مفتوح ومنبسط : والارتفاع هنا يتزايد خلال الساعات القادمة إلى مايقرب من خمسة آلاف قدم. شاهدت أشجار السنط وأدغاله بعد أن قضمت الإبل أعرافها ، وشاهدت آثار أقدام الإبل فى الرمل المحيط بتلك الأشجار والأدغال - كانت آثار أقدام الغزال من بين الآثار الموجودة حول هذه الأشجار! عند المقيّل(*) كانت درجة الحرارة تحت المظلات والتعاريش حوالى

(*) المقيّل: كلمة عربية فصيحة من 'القيولة' والمقيّل هو المكان الذى يتوقف المسافر عنده لتمضية فترة الظهيرة وانباء حرارة الشمس الشديدة. (المترجم)

١٠٢ فهرنهيئية - شاهدنا فى المساء قطعان أغنام الأعراب، وشاهدنا أيضا الأطفال العراة الذين كانوا يرعون تلك القطعان . أولئك البدو الصغار - الذين يشبه لون بشرتهم لون حبات البندق، تحت وهج شمس الجنوب الحارق - كانت أجسامهم هزيلة . شاهدنا إبلهم أمامنا: واقترب منا رعاة تلك الإبل كي يقفوا منا على الأخبار ، واندفع واحد من أولئك الرعاة بيننا وكان يركب فرسا بلا سرج . عندئذ بدأت تطالعنا خيامهم السوداء: هؤلاء الأعراب كانوا من الشيايين Sheyabin من قبيلة عتيبة. كانت الشمس منخفضة؛ وعندما تحولنا قليلا عن منزل البدو المترحلين نزلنا عن راحلتنا طلبا للتخييم ونيل قسط من الراحة - وسرعان ما جاءت إلينا بعض البدويات، اللاتي كن يطلبن شراء الملابس من أفراد القافلة: ولكن القحطان قالوا: أنهن جنن للتجسس على مخيمنا، ولعلهن يسرقن شيئا بسيطا أثناء الليل. لاحظت عيونهن بشرتى الأكثر ابيضاضا؛ وسألن على وجه السرعة "من هذا؟ من هو ذلك الغريب الذى معكم؟"

فى الصباح مررنا من بين قطعان البدو الرحل - صوف الأغنام هنا كله أبيض اللون. شاهدت هنا فى هذه الصحراء (المدارية فى هذا المكان) بعض النباتات الطويلة المتفرقة من نباتات الصبِير المَضْلُع، والناس هنا يطلقون على ذلك النوع من نباتات الصبِير اسم الغرلأثى el-ghrullathi، وهم يستعملونه نواء للماشية . الأعراب يلطخون أنوف إبلهم المريضة بذلك الصبِير. والتربة هنا رملية وزلطية وهى من الصخور البللورية - قبل دخول الظهر بساعتين مررنا على سلسلة أخرى من الصخور الناتجة عن الحمم البركانية؛ والتقىنا إبل الشيايين أنفسهم بعد أن عادت من مورد ماء شعارة Shaara، وكانت راقدة باقرب منا. هذه الإبل العتيبية بنية اللون، والبعض منها يميل لونه إلى الاسمرار؛ ولكن الإبل كلها كانت قصيرة القامة: أما رعاة تلك الإبل فكانوا من الأولاد المتحررين الذين يجيدون الكلام - وبينما كنت أمر بجوار خيمة منعزلة مصنوعة من الصوف الخشن ، رأيت زوجة بدوية واحدة ومعها طفلها الذى كان جالسا داخل الخيمة، وألقيت عليهما السلام ! وردت على متهلة وهى تقول : " مرحبا - مرحبا " - كان أفراد قافلتنا، كلما اقتربنا من البدو الرحل - وبحكم شكهم دوما فى سكان الصحراء وبحكم عدم وثوقهم أيضا بهؤلاء السكان - يجهزون بنادقهم الطويلة، ويخرجونها من أجربتها، ويشعلون الكبريت خوفا وتحسبا لأولئك السكان؛ وكانوا يواصلون السير وينادقهم موضوعة على ركبهم .

أمامنا جبل منعزل أسود اللون يقولون له هنا: جبل بس Biss، والأرجح أن يكون من البازلت- وها نحن نرى من جديد الحرة الرئيسة؛ هذا يعنى أننا نقترّب من مورد الماء فى شعارة Shaara. يقول لى مذكر: حرة القشيب الكبيرة مستديرة الشكل [البعض يقول: إن هذه الحرة يستغرق الدوران حولها يوما أو يومين]؛ وحرة القشيب ليست منعزلة، وإنما هى واحدة فى سلسلة من الحرّات الواقعة بين مكة والمدينة : يضاف إلى ذلك أن حرة القشيب وحرة أحرار المدينة ليست بينهما مسافة كبيرة. فى هذه المنطقة التقينا صبيا بدويا نحيفا يرعى الماشية؛ كان وجهه ذلك الساقى الشاب جميلا، وهو يرتدى ذلك التونك المكى أزرق اللون! ولكن عيون أهل الشمال فى هذه البلاد، ترى اللون الأزرق على إنه لون نسائي : كانت خصل الشعر الأسود تتدلى منهدلة على كتفى ذلك الصبى اللذان يشبهان كتفى الأنثى. (صاح جمال عنزى وقح، وهو بدوى لا يحب أحدا غير أبناء قبيلته) هوى، يا ولاد! أقول أيها الرفاق: هل هذا رجل أم أنثى؟" وهنا امتلأ قلب ذلك الصبى بالاحتقار والكراهية الشديدة؛ وتركزت عيناه الوحشيتان علينا بأوشك أن يبكى- شعارة التى وصلنا إليها الآن، ليست سوى خليج الحرة، والناس هنا يطلقون على ذلك الخليج اسم عشيرى Ashiry. اكتشفت أن نهاية الصخور البركانية، التى يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدما كانت قابضة فوق طبقة من صخور الجرانيت - التى يميل لونها إلى الأبيضاض، وهشة بفعل الحرارة الشديدة: هذه الرأس من الصخور البركانية كانت موجودة عند حافة شُعب من صخور الجرانيت. وشعارة ليست سوى شعب أو مجرى سيل يقولون له: وادى wady عزيز Aziz ويقولون له أيضا: وادى العقيق el-Agig. فى هذه المنطقة كثير من الآبار ذات الفوهات الضيقة، وهذه الآبار موجودة، منذ أزمان بعيدة، وهى مبطنة بأحجار جافة؛ ولكن بعضا من تلك الآبار غير مطهرة. بلغنا أن قافلة بر يدة شربت من هذا المورد عند ظهيرة الأمس : واعتبارا من الأمس تحولت مسارات الصحراء إلى مسار واحد. كنا على ارتفاع حوالى ٤٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

أمضى أفراد القافلة الليل وهم يحملون السلاح. كان أولئك النيام مولعين بالصباح والتحذيرات ، ومولعين أيضا بإطلاق البنادق الفتيلية، إلى حد أننا كنا نخاف على أنفسنا من نيراننا وطلقاتنا، إلى أن طلع الصباح علينا. كانوا إذا ألقوا القبض على

لص من اللصوص يقتادونه إلى خيمة الأمير؛ ويكون عقابه، على حد قولهم لى: "الضرب حتى الموت". كنا فى القافلة يضيق منا شيئاً كل يوم؛ والمرجح أننا كنا ننسى ذلك الشيء على الأرض قبل أن نركب الناقة. وكنا عندما نصل المنزل الثانى، نجد صاحب ذلك الشيء، واقفاً فى مكانه، ويصيح منادياً من خلال راحتى يديه، أنه ضاع منه شيء ما؛ وأنه إذا كان أحد قد عثر على ذلك الشيء، فليعده الآن، ويتقى الله.

جاء إلينا بعض البدو فى الصباح؛ وما أن رأونى حتى سألونى بفضول شديد عن هويتى. سألهم أفراد القافلة عن أسعار السمن فى مكة. بعد أن رحلنا، على أثر الانتهاء من سقيا إبل القافلة، اندس بدوى بين أفراد القافلة؛ كان ذلك البدوى يرتدى ملابس سيئة مثل أفضل البدو، ومع ذلك كانت مشية ذلك البدوى من النوع المميز إضافة إلى مظاهر السخرة القاسية التى تبدو على أهل الجضر. وهنا قام جماعنا العنزى الجرى بلعن الأب الذى أنجب ذلك البدوى، وطلب منه الابتعاد عنا وعن القافلة؛ ولكن العتيبى استل سيفه القصير إلى منتصفه، وبابتسامة بدو الحضر، راح يواصل السير بين أفراد القافلة: لم يكن ذلك البدوى خائفاً من الحضر من أهل ديرته. وأصلنا السير؛ وتبدى لنا ساحل الحرة وكأته يركب المنطقة السهلية الموجودة عن يميننا. شاهدنا طفلاً يرعى قطيعاً من الحملان، ولم يكن ذلك الطفل يرتدى أى شيء من الملابس، سوى حزام من سيور الجلد. [شاهدت الحريم بعد ذلك، وهن يرتدين ذلك الحزام نفسه من حول ثيابهن الواسعة: ربما كان ذلك من مميزات اللبس المماثل للهجو haggi فى جنوب الجزيرة العربية]. بكى الطفل لأن جماعة من الغرباء أخذته هو وقطيعه؛ ولكنه تشجع وجمع أفراد قطيعه، وانتحى به جانباً وأشاح بوجهه عنا.

هنا بدأنا نتجاوز سهول نجد الكبيرة الوسيعة؛ ودخلنا منطقة صخرية فيها الكثير من صخور البارلت يطلقون عليها اسم الريع el-Ria، ويصل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٥٠٠٠ قدم. [وقد اكتشفنا أن الريع تعنى فجوة وممرًا برياً فى الجبل. وأنا لم أجد مثيلاً لهذه الكلمة بين مفردات الأراضى المنخفضة فى بلادنا]. فى هذا الريع تنمو أدغال من نوع معين، هى أدغال أشجار النبا nebba، التى سبق لى أن رأيتها مؤخراً فى تلال الحجر الجيرى فى سوريا؛ ومررنا على مناطق مغطاة بالهباب الأسود: هى عبارة عن محارق الفحم النباتى فى منطقة [مكة] المكرمة. وبعد أن قطعنا

مسافة أخرى فى ذلك المضيق مررنا على بعض الرُّجوم، التى وجدنا بينها مبنى بدائياً، وربما كانت تلك الرجوم عبارة عن مقابر لبعض الشخصيات الرئيسة فى الزمن القديم، هذا الرُّيع عبارة عن ممر بين المناطق الكبيرة. كنت عندما أسأل أحداً من أفراد القافلة، عن ماهية تلك الأكوام؟ يرد على قائلنا: إنها من أعمال الكفار الذين كانوا فى هذه الأرض قبل المسلمين: - كُف يا خليل! ألم يكونوا من أهلك؟ قال آخرون: "إنهم بنو هلال؟"

صعدنا من ذلك الممر إلى ناحية اليسار، عن طريق سيل منحدر، تحيط به أشجار السنط والصخور. وبعد مسافة قصيرة شاهدنا طنفاً ضيقاً من طنفاً(*) الجبال؛ عند هذه الحافة شاهدت تلة، ومدقات مؤدية إلى مبنى قديم من المباني الجافة(**)؛ كان الارتفاع هنا حوالى ٥٥٠٠ قدم، فوق مستوى سطح البحر، وبالتالي تصبح تلك هى أعلى نقطة على امتداد هذا الطريق الذى نسير فيه. كان إبراهيم ورفاقه يجلسون بجوار ذلك المبنى؛ بينما كان خادم الأمير يقوم بإحصاء عدد الإبل - بأن جعلها تمر واحداً بعد الآخر، وكان يدون ذلك على قطعة من الورق؛ والسبب فى ذلك (على حد قوله) هو أن الجمل الواحد يدفع عنه ريالاً واحداً. وبعد أن قطعنا بضع خطوات، نزلنا عن طريق مجرى آخر من مجارى السيل - بحثت نون جدوى عن نقوش مكتوبة: لم أعثر على شيء غير حفر من الصخر الجرانيتى رمادى اللون، الذى تتخلله عروق من البازلت.

المنظر كئيب فى هذا الجزء من البلاد كنا ننزل متجهين صوب مكة - التى أصبحنا الآن على مقربة منها - ولم أكن أعرف أى شيء عن تلك المغامرة التى قد أعيش بها أو أموت بسببها غداً: لم يكن ضمن القافلة أحد من أصحاب القدر أو الجاه. كان عبد الرحمن صديقاً لى فى القافلة، - وذلك كان من باب طاعته لوالده: كان عبد الرحمن من الشخصيات المحبوبة؛ ولم يكن صاحب عقلية متشددة، وإنما كان صاحب عقلية مسكينة mesquin. وقد أحسست من ربوده على اليوم، أنه كان شديد القلق على كل ما يتعلق بى.

(*) طُنْفُ: بضم الطاء وضم النون هو 'حافة'. (المترجم)

(**) المبنى الجاف: المبنى من الحجر بدون استعمال الملاط. (المترجم)

كان الوقت ظهرا عندما وصلنا إلى الأرض المرتفعة، تلك التربة التي كانت تمتد فيما بين الجبال، على شكل وادى مرتفع عريض. هذه الأرض تسلكها القوافل القادمة من نجد لتختصر من الطريق المؤدى إلى مكة مسيرة أو مسيرتين ؛ والناس هنا يطلقون على هذه المنطقة اسم السيل es-Seyl: كنا هنا على ارتفاع حوالى ٥٠٦٠ قدما - هذا هو وادى الحمص el-Humth الكبير الذى ينصرف فيه سيل الحرّات الواقعة فيما بين مكة وتبوك؛ ويقال إن هذا الوادى الكبير يبدأ من وادى الليمون laymun [انظر الجزء الأول ص ٢١٧]، الذى ينخفض قليلا ، ويقع على الجانب الأيمن: وإذا ما أخذنا نقطة الارتفاع هنا، بعين اعتبارنا ،تصبح مسألة الانخفاض هذه أمرا ممكنا.

تجاوزنا نجد؛ وهذا جزء آخر من الجزيرة العربية! ومن بين تلك الحشائش قدر كبير من نباتات النعناع [انظر صفحه ٤٢٧]؛ كما مررنا أيضا على مروج ومراعى قصيرة الحشائش. نظرا لأن إبل القوافل ترعى ذلك العشب طوال اليوم، عبرتقلها فيما بين مكة والطائف. هنا توقفت القافلة ونزلنا من فوق إبلنا: وعندما حفروا هنا بأيديهم، عثروا على الماء النقى على عمق شبر واحد. ومن هذه المنطقة، قالوا لى: إن المسافة إلى الطائف لا تتجاوز رحلة واحدة: وعليه نصحنى بعض الأشخاص الواعين والأمناء بالذهاب إلى الطائف، إذ كانوا يقولون لى : 'إننا يحتمل أن نعثر على بعض الجمّالة المكيين القادمين إلى الطائف، وأنهم سوف يعهدون بى إلى أولئك الجمّالة ، وبالتالي فهم يرجحون وصولى إلى الطائف هذه الليلة؛ كما وصلهم أيضا خبر مفاده أن شريف (مكة) كان موجودا فى الطائف: وأننى إذا ما وصلت إلى الطائف، وطلبت من شريف مكة، إرسالى إلى جدة، فسوف يأمر بذلك، وتصل إليها فى أمن وسلام.

- يالها من متعة إذا مازرت الطائف! هى جنة عدن المكية، فيها الهواء البارد الحلو، والماء الجارى؛ فيها حدائق الورد، وفيها البساتين وحدائق الكروم. ولكن هذه المميزات يمجدها الناس، فى كلامهم العام، والسبب فى ذلك أنتى سمعت بعض القصصمان يقولون: إنهم يروون عجائب عن الطائف! حسن، لقد ذهبنا إلى الطائف؛ وأستطيع القول: إنها أقل مما قيل عنها!.. فقد ازدادت عندى أمراض وأوجاع الجزيرة العربية عندما ذهبت إلى الطائف؛ من ذلك مثلا أن أطرافى السفلى امتلأت بالتقرحات، التى يقول الناس هنا 'الحب' hub أو 'البذر' bizr. أو قد يقولون لتلك التقرحات، 'بذرة'

bethra ' التمر' على ساحل الخليج الفارسي [نظرا لأن الحبوب تبدأ في الظهور في موعد حصاد التمر]. هذه التقرحات ، التي هي شبيهة بالأزرار button الحليّة Aleppo ، معروفة في أجزاء كثيرة من العالم العربي. فهي معروفة في مصر ويطلقون عليها اسم (حمو Sores النيل Nile) ؛ وفي الهند يطلقون على تلك التقرحات اسم (فقافيق دلهي): هذه التقرحات تعزى إلى شرب الماء غير النظيف في كل أنحاء الدنيا. هذه التقرحات تغسل جيدا بحامض الكربوليك، ثم يجرى مسحها بزيت السمك؛ ووصل الشر معى إلى مداه، إذ لم يجد العلاج: وقد استغرق شفاء هذه التقرحات منى خمسة أشهر. - هذه التقرحات التي تظهر من تلقاء نفسها تشيع بين البدو. [التكوين، وسفر التثنية السورة رقم ٢٨ الآية رقم ٣٥] من هنا كان من الأفضل النزول إلى جدة؛ يضاف إلى ذلك أنني استحضرت في داخلي ذلك الذى سبق أن قرأته عن (أشراف مكة) القدامى: وفوق كل ذلك، لو كان من صالحى الذهاب إلى الطائف، فلماذا لم ينصحنى البسام وأنا فى عنيزة بالذهاب إلى الطائف - مع انه امتدح طيبة شريفها الذى توفاه الله ؟ الآن، يتولى أمور مكة شريف جديد: وهذا الشريف هو أيضا أمير مكة؛ ولم أكن أعرف هل سيكون عادلا معى أم لا بوصفى نصرانيا.

كان القصمان مشغولين بالاستحمام هناك، والتخلى عن ثيابهم الدنيوية: وأعتقد أن الوقت ، كان مناسبا لغسل ثياب الجمالة الفضفاضة، وغسل ملابس أصحاب الإبل التى أصبح لونها مثل لون الرصاص من كثرة العمل اليومي فى تحميل وإنزال قراب الزيد والسمن. وعندما كان الجميع جالسين حول ثقب الماء، كان كل واحد منهم يساعد الآخر، بأن راح يسكب سطلا من الماء على رأس جاره. وأعقب ذلك أن تناول كل واحد منهم من صرة أشياءه، حوالى ياربتين أو ثلاث ياردات من البفتة البيضاء، أو من قماش المناشف، التى تغطى الجسم إلى الركبة؛ وكانت هناك منشفة أخرى توضع على الكتفين. تلك هى ملابس الإحرام ihram، وإن شئت فقل ملابس الحج. هذه الملابس تغطى الجسم إلى الركبة، والقطعة الثانية تغطى الكتفين. وبذلك يصبح الحاج حاسر الرأس وشبه عار؛ وكل من يدخل الحرم لابد أن يكون لابسا تلك الملابس إن كان حاجا أو معتمرا: أما إذا كان الشخص من أهل المدينة أو من الحامية القائمة على أمر حراستها، فإنه يقوم بهذه الشعيرة بعد تغيب محدد. وفيما يتعلق بأفراد قافلتنا

النجدية، فإن البعض من تجار الزيد والسمن، الذين يذهبون إلى مكة كل عام لبيع هذه السلعة، لا يعد الأمر جديدا عليهم أو على قلوبهم . هذا يعنى أنهم لا يتوقعون من هذه الرحلة إلى المدينة المقدسة سوى التعب والإرهاق ؛بل إنى سمعت البعض منهم يقولون : إن حرارة مكة حاليا [فى فترة هبوب ريح السموم] لا تطاق؛ فهم يقضون اليوم بطوله فى السوق، حتى يتمكنوا من بيع بضاعتهم؛ يضاف إلى ذلك أنهم لا يشربون أية مرطبات فى الليالى ساكنة الهواء، إلا بعد أن يعودوا إلى هنا مرة ثانية. سوف يقيم الرفاق هنا فى غرف مستأجرة: يضاف إلى ذلك أن أولئك الأشخاص القلائل من بين أفراد القافلة، والذين يعملون بالتجارة فى المدينة ، سوف يعودون إلى مواطنهم ؛وولد البسام سيفعل الشئ نفسه: والسبب فى ذلك أن والده الطيب له بيت فى مكة، هناك عبدة عجوز تقوم على أمر ذلك البيت.

هذه واحدة من مناطق المخيمات القديمة التى توافدت عليها جموع الحجاج وأفراد القوافل على امتداد أجيال كثيرة، وفى فصل الصيف يعد ذلك المخيم مقبلا يلوذ به المسافرون الذين يتنقلون بين المدينة المقدسة (مكة المكرمة) ومدينة الطائف. شاهدت فى هذا المخيم بعض النسور التى كانت تحلق صاعدة ونازلة فى أنحاء المخيم؛ وأذكر أنى شاهدت أيضا فى هذا المكان الصحراوى بعض الكتل التى كان الناس يستعملونها هاونات ليطحنوا فيها كل مايلزمهم، كما وقعت عيناى أيضا على أساس لبنى أنشئ من الصخر . يقول أصدقائى العزيزين إن الناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قرن Kurn المنازل Menazil؛ وهم يفسرون هذا المسمى على إنه شبكة الأماكن التى كانت تقام فيها خيام الشعر القديمة، والتى كانت مكونة من عدد كبير من الخيام التى يجرى نصبها فى مكان صغير كنت أمشى حافى القدمين على الأرض هنا فى عز الظهر ، نظرا لأن حرارة الشمس كانت معتدلة هنا فوق هذه الأرض المرتفعة؛ بالحلاوة المشى من جديد على أرض خضراء، بعد سنوات من التجوال فى أراضى جافة ! لم يكن من بين أولئك الذين كانوا فى المخيم ،إلا النصرانى الذى كان يرتدى ثيابه؛ ومع ذلك لم يعترض على أحد من القصمان؛ إذ كانوا هم أنفسهم على وشك الوصول إلى مكة؛ يضاف إلى ذلك، أنى قد أبدو صديقا للقصمان ، بالمقارنة مع البدو الحاقدين الحاسدين الذين يسكنون هذا المكان، الذى يطلقون عليه اسم الحطيل el-Hatheyi.

عثرت على ولد البسام محزماً فقط في ملابس الإحرام، وهو جالس تحت تعريشة من التعاريش . قال: يا خليل ، من حسن حظك! هناك بعض الجمالة الذين جاعوا من الطائف : وقد تكلمت مع واحد منهم بالفعل - وقد أعرب الرجل - وهو معروف لنا - عن استعدادة لتوصيلك إلى جدة. "ومن الذين سأراهم مع هذا الجمال؟" إنهم من الجوة Jawa [أى حجاج من جاوه ولايحترمهم أهل الجزيرة العربية : والسبب في ذلك أن وجوه أهل شبه جزيرة الملايو تبدو غريبة على أهل الجزيرة العربية! وسمعت العم محمد النجومى ، فى خيبر، وهو يقول: بالرغم من أنى قدر لى أن أقضى حياتى فى بلاد الجاوة، فأنا لم أستطع - !وأنا أقسم على ذلك بالله، الزواج أو معاشرة أية واحدة من نساء ذلك البلد . ' كان أولئك المتدينون موجودين فى الطائف لزيارة الشريف ؛ كما قال أيضا: إن موعد ذهابهم، ضمن العمرة، إلى المدينة المنورة، أصبح قريبا جداً]. يا خليل، المغامرة من عند الله (سبحانه وتعالى) : ووالله أنا أشك فى مسألة عثورنا، فى العين el-Ayn على رجل يرافقك إلى الساحل. يضاف إلى ذلك ،أنى يتعين على ترك القافلة قبل الوصول الى المحطة التالية؛ والسبب فى ذلك أننا (أى الرفاق الشباب الذين مع إبراهيم) سوف نتجه هذه الليلة إلى مكة (المكرمة)؛ بدلا من دخولها باكر أثناء طلوع الشمس، وذلك من باب المحافظة على رعوننا الحاسرة. هل أرسل فى طلب سليمان ليقوم باستدعاء ذلك الجمال؟ لكن، يجب أن نتفق مع ذلك الجمال على وجه السرعة ؛ نظرا لأننا أوشكنا على الرحيل ، وسوف نتركك هنا .

- كان ذلك الجمال شابا بائسا! واحد من أولئك الذين يعملون على الحيوانات التى تستعمل لنقل حاجيات المسافرين، فى البلدان العربية، والذين يفنون حياتهم فى بؤس يومى بسبب الأجور الهزيلة والطعام الهزيل والنوم المتقطع على الطرق. كان يبدو كما لوكان يحتفظ فى ذهنه بمخ واحد من الإبل ،إذ كان يتحدث بطريقة فجأة وضحلة. عبدالرحمن: "ومن العين، أنقل هذا المسافر إلى جدة، وذلك عن طريق وادى فاطمة. أنا سوف أنقله عن طريق مكة، لأن ذلك هو الطريق الأقرب." عبدالرحمن وسليمان: "لا، لا! لا بد أن تنقله عن طريق الوادى ، وأردف عبدالرحمن قائلا: هذا الرجل لا يذهب إلى مكة،" - قال هذا الكلام بشيء من الاستغراب المتشدد، الذى عرض حياتى للخطر ؛ وهنا هز سليمان رأسه! - فغر الرجل فاه على ذلك الذى سيكون مسئولا عنه، واندesh

عندما رآنى صاحب بشرة شديدة البياض !تدخلت وواقفت على كلام هؤلاء الناس الأصدقاء: سوف أركب من العين إلى جدة خلال طريق واحد، فى حين قال ذلك العبد: إن ذلك قد يستغرق أياما عدة. إبل هذه المنطقة ضعيفة ولا تزيد قاماتها على قامات الخيول. هذا النوع من الإبل يحتقره أهل نجد: وهم يقولون :إن جمالة مكة يمشون مثل mithil النمل en-nimml بمعنى أن سرعتهم فى المشى تشبه سرعة النمل.

انصرف ذلك الجمال مستاءً، وكان ينظر إلى باعتبارى مختلفا تماما عن سائر أنواع الحجاج. [أثناء أنصرافه، سأل ذلك الجمال أفراد القافلة، عن هويتى ؛ ورد عليه البعض من باب الحقد الفطرى ومن باب الخيانة بأئنى نصرانى! وعندما سمع الجمال هذه الكلمة قال: 'والله wullah - بالله Bullah، لن ينقله ، لا؛ حتى لو دفع مائة ريال!'] قال عبدالرحمن: "يا خليل، تلك كانت فرصة جيدة، ولكنك فوتتها!" - "وهل تعهد بحياتى إلى شخص تعيس كهذا ، شخص لا يقدر على حمايتى من السب والإهانة- أهذا هو الرجل الذى تثق به؟ شخص اكتشفت أنا أنه غير معروف لأى أحد من الموجودين هنا: الأفضل لى أن أركب وحدى وأسافر إلى جدة." سليمان : "يا خليل حيثما ذهبت فى هذه الأماكن، سوف يعرفون من سرج الناقة التى تركبها أنك من الشرق [أى وسط نجد] . يضاف إلى ذلك أن سُرُج الإبل فى هذه الأراضى المكيّة المنخفضة كانت تبدو لنا شيئا سيئا وغريبا علينا.

بينما كنا نتحدث صاح خادم إبراهيم مناديا على القافلة بأن تبدأ التحرك ! وهنا راح أفراد القافلة شبه العراة وحاسرى الرعوس ، يعجلون بتحميل أشياءهم على الإبل : وركب حداة الإبل ؛ ثم بدأت القافلة النجدية فى التحرك- كنا ننزل متجهين إلى مكة! وكان بعض حداة الإبل 'يلبُون Yulubbun يقولون: لبيك Lubbeyk لبيك! Lubbeyk بمعنى 'نحن ننفذ إرادتك ، نحن ننفذ إرادة (الله)! هذه التلبية لم يكن لها وقع سار فى أذنائى : كانت حياتى تحيط من حولها الشكوك بسبب هذا الكلام الذى كان أبشع من كلام ولد البسام المتهور. والأخبار التى من هذا القبيل سرعان ماتتتشر وتشعل نيران التشدد القاسى؛ ومع ذلك ، كنت أتمنى ، بحكم استيقاقنا إياهم، أن أصل إلى بلدة العين قبل أن يصل إليها ذلك الجمال المكى التعيس. سألت حادى الإبل العنزى لماذا يقول هذا الكلام؟ وأجاب- "أوه!ماذا جرى لك يا خليل ؟ غدا سنكون فى مكة! Mekky

ولذلك فنحن، نصيح بهذه التلبية، نظرا لأن رحلتنا أوشكت على نهايتها. لبيك! lubbeyk
ليبك! lubbeyk!"

ملابس الإحرام هذه هي بلا أدنى شك من مخلفات أديان الكعبة القديمة فقد عثرت على موروث بين البدو، عبارة عن لباس يطلقون عليه اسم اليمنى yemeny وكان بمثابة لباس قديم للبدو- والنساء اللاتي يدخلن الأراضي المقدسة يلبسن أيضا ملابس الإحرام ومن فوقها أيضا حزام؛ ولكنهن حسب الدين الإسلامى يغطين أنفسهن بقناع يشبه الملاعة. زد على ذلك أن الجنود الذين يرافقون قوافل الحج (السورية أو المصرية)، وكذلك الضباط بل وياشا الحج نفسه، يلبسون ملابس الإحرام: إنهم يدخلون المدينة المقدسة وكأنهم إناس يستحمون ، ولا يعفى أى أحد من ذلك.[يتعين على الحجاج البقاء شبه عارين فى مكة لأجل زمنى معلوم، وقد لايتغطون أثناء الليل! إلابعد عودتهم من عرفات]. وفى مكة تكاد تكون درجة الحرارة مدارية طوال العام تقريبا: وبالتالي قد لايعانى الحجاج من البرد، عندما يجىء موسم الحج فى فصل الشتاء، مثلما يعانون من حرارة الشمس إذا ما ارتدوا ملابس ثقيلة أوعمائم فوق رؤوسهم.أما إذا كانت صحة الحاج لايتحمل ذلك، فإن الله غفور رحيم، ويسمح له شريطة أن يقدم هدياً فى مكة.

شاهدت فى قافلتنا شخصا آخر لم يلبس ملابس الإحرام- كان ذلك الشخص تاجرا مريضا من التجار الشبان، كان عائدا من البصرة منذ فترة وجيزة، لزيارة بيته وأهله فى القصيم؛ وهو الآن يقوم بعملية تجارية صغيرة إلى مكة (المكرمة). هذا الشاب تعلم، طوال خمسة عشر عاما أمضاها فى التجوال فى الشمال، كيف ينظر إلى نجد نظرة احتقار وازدراء، "أليسوا (قالها وهو يضحك لى) أناسا أغبياء ومتشددين؟ ها- ها!إنهم حفاة ولايلبسون نعالا، إنهم يشبهون البدو.أنا غريب على هذه الديار، يا خليل ، مثلك تماما، ولم أرتدى ملابس الإحرام، مخافة أن أصاب بنوبة برد؛ والأمر لن يكلفنى سوى ذبح شاة فى مكة." رحت أتأمل كلام هذا الرجل، وأتأمل كذبه، وأطيل النظر إلى وجهه الذى يشبه لونه لون الصلصال، وهنا أدركت أنه لم يكن من جنس هؤلاء البشر. كان ذلك الشاب قد جلب معه فى القافلة شيئا غريبا، مجرد حمار أبيض اللون، جلبه من بلاد الرافدين؛ وكان يتطلع إلى بيعه بضعف ثمنه فى مكة (المكرمة) - حيث يعد الحمار - كما هو الحال فى البلاد العربية الشرقية الأخرى - من حيوانات الركوب التى

يستعملها الأشخاص الكبار المهمين. قلت لعبد الرحمن ، الذى كان ضعيفا، " لماذا ليست ملابس الإحرام؟" أجابنى، " إنه إذا ماساء حاله فى الطريق فسوف يعود إلى ارتداء ملابسه من جديد، وسوف يقدم هديا فى مكة. هؤلاء ليسوا حجاجا يزورون المدينة المقدسة وإنما هم يقومون فقط بطقوس الكعبة المعتادة؛ ثم يلبسون بعد ذلك ملابسهم حتى يتسنى لهم القيام بأعمالهم.

من السيل نزل إلى مجرى واد صخرى بين صخور سوداء ويصل اتساعه إلى حوالى نصف ميل: هذا المجرى عبارة عن قاع من قيعان السهول الكبيرة المكونة من الحصى و الأحجار المستديرة فضلا عن أشجار السنط؛ هذا المنظر الطبيعى أعاد إلى ذاكرتى منظر الحقول fjelde الأسكندنافية التى سبق أن عرفتھا فى مقتبل حياتى. الحياة النباتية المحيطة بى هنا تشبه تلك الحقول الأسكندنافية: الفرق هنا يتمثل فى الغطاء الخارجى فقط ، هبة الشمس والمطر. والناس هنا لا يعرفون لهذا الوادى من وديان الحديد، سوى اسم واحد فقط هو وادى Wady السيل es-Seyl. وكل الجبال المربعة المحيطة بهذا المكان يسكنها أعراب الحطيل Hatheyi [وجمعه الحطيلان Hatheylian] والحطيلان هذا اسم قديم، والناس هنا يقولون عن الحطيل: "إنهم سلالة نسبية مستقلة، ولا تربطهم أية صلة بالقبائل المجاورة." والجمالة المكيون هم وجمالة القطيف عندما يلتقون أغرابا قادمين من نجد، فإنهم يحذرونهم بكلام من قبيل " احذر الحطيل فإنهم لصوص." الوادى هنا كان طريقا تمر منه الإبل! وقد سبق لقافلة بريدة أن مرت من هذا الوادى وكانت تضم مائتى جمل. ولكنى شاهدت هنا آثار آلاف من الإبل ! لم أكن أعرف أن ذلك هو الطريق السريع المؤدى من مكة إلى الطائف، والذى تمر فيه كل يوم سلاسل طويلة من قوافل الإبل . نزلنا عن راحلتنا عند غروب الشمس . هذا هو المنزل الأخير . بين الأحجار الكبيرة لوادى السيل . كنا هنا فى هذه المنطقة على ارتفاع ٢٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

كان البسام الطيب قد اشتد، أنه فى حال عدم وجود شخص فى المحطة السابقة لمكة، يقوم بتوصيلى إلى جدة، فإن رجله (الذى يخدم ولده عبد الرحمن) هو الذى يتعين عليه القيام بهذه المهمة، ألا وهى توصيلى إلى مدينة جدة. هنا استدعى عبد الرحمن البسام خادمه، ولكن ذلك الرفيق الذى داوم على أن يقول: " نعم - نعم " طوال

أيام الرحلة، ها هو يرد على عبد الرحمن قائلاً: "ليلاً" بمعنى "لا" وهذا يعنى أن الأعراب يمكن أن يخذلون فى الوقت المناسب. قال الخادم: إنه سيرافق بقية القافلة إلى مكة. استاء عبد الرحمن وغضب لما قاله ذلك الخادم؛ رد هذا الرجل أربكنا كلنا. إذن، لماذا وعدت بأتك سترافق خليل؟ قال: اذهب الآن، أرجوك؛ والأجر الذى سيدفعه خليل جاهز: أنت ليس من حقك أن تمتنع أوتقول: لا. حاول إبراهيم أيضاً إقناع ذلك الخادم، - ولكنه لم تكن فى يده السلطة التى تجبره على القيام بذلك العمل. وهنارد ذلك الخادم رداً مختصراً إذ قال: "أنا حر، وأنا لن أذهب إلى جدة!" ثم تركنا بعد ذلك. وهنا أرسل إبراهيم فى طلب رجل آخر من رجال القافلة، رجل فقير الحال ولكنه حسن الفهم: وعندما جاء ذلك الرجل الفقير استسمحه إبراهيم فى أن يركب مع خليل ويرافقه إلى جدة، ولكنه بدأ ينتحل لنفسه الأعذار، ولكنهم قالوا له: "ليس هناك ما يجعلك تتعجل، إذ يمكنك أن تعود إلى مكة خلال يوم أو يومين؛ وكل ما هو مطلوب منك هو أن تحدد الأجر المطلوب، وألا تقول: لا!" طلب الرجل خمسة ريالاً؛ وبهذا التأكيد طلبوا من ذلك الرجل أن يذهب لحال سبيله. قلت: اسمحوا لى أن أربط ذلك الرجل بشيء من العربون. رد إبراهيم قائلاً: "لاداعى لذلك أثناء الليل - وليكن ذلك فى الصباح!" كان يراودنى من داخلى إحساس بأن ذلك الاتفاق كان هشاً؛ وكنت قد تعلمت ألا أعلق آملاً كبيراً على وعود العرب التى تقطع أثناء الليل. "يا مذكر! أسمع لواحد من بدوك أن يرافقتنى إلى جدة." حسن، يا خليل، ليتنى أساعدك؛ ولكنهم لا يعرفون الطريق. كان مقرراً لإبراهيم، وعبد الرحمن والرفاق الشباب أن يركبوا راحلاتهم، عقب العشاء مباشرة، ويتجهون إلى مكة، وهذا يعنى أنهم سوف يتركونى هنا فى هذا الممر الخطير. فهمت فيما بعد، أنهم أخروا رحيلهم لحين طلوع النهار. وما أسرع طلوع النهار بعد ذلك! وهنا بدأنا نمضى قدماً.

لم أكن بحاجة إلى انتظار ذلك الذى وعدنى أثناء الليل؛ والذى لم يهتم بتنفيذ الكلام الذى قاله أمام كل من إبراهيم وعبد الرحمن، - وكأنا يعرفان ذلك تماماً. وبالرغم من أن ذلك كان هو اليوم السابع عشر من رحلتنا منذ أن غادرتنا عنيزة؛ إلا أن رتابة المنظر الطبيعى نفسه، جعلتني أحس، حتى الأمس، وبعد أن تجاوزنا الشعارة es-Shaara وكأنتنا مازلنا متوقفين فى المكان نفسه. هذا يعنى أن القافلة سوف تصل

إلى مكة عند الظهر: وأنا يتعين على أن أتركهم فى خلال ساعة واحدة، ولكن لم يتخذ أحد أى قرار بشأن الترتيبات المطلوبة.

مررنا ببعض البدو الذين كانوا يتحركون صوب الأراضى المرتفعة: هؤلاء البدو، كانوا أصحاب أجسام نحيلة، وسود البشرة، ويبدو الجوع فى وجوههم: وكانت حاجياتهم البسيطة محملة على الإبل الصغيرة التى فى هذه المنطقة. شاهدت أجناب ذلك الوادى القاحل العامرة بسيقان الأعشاب الجافة - ومعروف أن هذه الجبال تهب عليها الرياح (الموسمية) وتسقط عليها أيضا الأمطار الموسمية - ومن بين هذه الصخور المتحدرة كان هناك جبل يدعى جبل أغنام البدو الرحل؛ كل هذه الأغنام كانت أصوافها بيضاء اللون ولكنها كانت من سلالة مختلفة عن سلالة الأغنام النجدية. وفى وسط ذلك الوادى ، مررنا خلال بيارة فيها عشب يشبه الأشجار (يطلق الناس هنا عليه اسم العشا el-asha) ويحمل الكثير من الأوراق الخضراء! هذا العشب له عناقيد ورقية فيها الكثير من البنور. وهم يقولون: إن هذا العشب عديم النفع للإنسان أو الماشية؛ ولكن أهل المنطقة يجمعون النسغ الذى ينساب من ذلك العشب ويبيعونه دواء، للحجاج الفرس؛ كما يستخدم البدو ذلك العشب فى عمل الفحم النباتى الذى يستخدمونه بدلا من البارود. فى تلك البيارة التقينا جماعة من المسافرين المتجهين إلى الطائف، وكانوا قد بدعوا رحلتهم أثناء الليل قادمين من مكة. كان الحريم يجلسن فى الصناديق الجانبية التى تستعمل فى سوريا لمثل هذا الغرض.

يتعين على عندئذ تجاوز دائرة غير مسموح للأجانب بالتواجد فيها؛ الناس الذين يعيشون داخل هذه الدائرة أقفلوا كل الطرق المؤدية إليها؛ وكل واحد منهم بالمقارنة مع النصرانى يعد واحداً من أهل الله. كنت قد بحثت عن مسدسى أثناء الليل؛ وبدأت أتحسب للطلقات الطائشة من حولي؛ نظرا لأنى لم يخطر ببالى الإقرار بذلك الدين البسيط. إن قدر لى أثناء هذه المغامرة، اختراق أى شكل من أشكال المعارضة البربرية غير المتحضرة، فأتنا مايزال أمامى ثلاثين فرسخا ، يتعين على طوال هذه المسافة المرور من مسارات مجهولة، فى وديان لايسكنها سوى الأشراف Ashraf، الذين هم من سلالة محمد (ﷺ) - يتعين على أيضا تتبع مجارى السيول، التى تصل فى النهاية إلى شاطئ البحر. ولكنى لم يكن معى طعام أو ماء؛ يضاف إلى ذلك أن قواى كانت قد

خارت تماما - كان إبراهيم الذي كان يعدو بجوار ناقتي يطيل النظر إلى الغترة التي كنت أضعها على رأسي؛ وكان يعجب (مثل أي عربي من العرب العتاة) لراحتي وأنا راكب الناقة. سألتني إبراهيم، "كيف حالي؟" وقال : ألا ترى انحناء الوادي الذي أمامنا؟ عندما نصل إلى هناك سنكون قد أصبحنا على مرأى من عين Ayn الزيمة "ez-ema". وأنت ،ألن تساعدني ،إذا ماحدث لى حادث أو مكروه؟" - نعم، يا خليل؛" ثم راح يسبقني بعد ذلك: ولكنى لم أر عبدالرحمن! فقد كان مع المقدمة والرفاق.

تعثرت الناقة التي كان يركبها واحد من الرجال، وكان يسبقني بمسافة قصيرة، وترتب على ذلك التعثر كسر مفصل من مفاصل الناقة - هذا الحادث لاعلاج له ! وهنا تجمع حداة الإبل الآخرين طلبا للحم تلك الناقة؛ ونزلوا عن نياقهم وسارع الجميع إلى ذبح الناقة: وراحوا يستخدمون سكاكينهم فى تقطيع لحم تلك الناقة التي لم تمت بعد. وفى هذه العجلة كانوا يتركون شيئا من اللحم فى الجلد وراح كل واحد يفلت بالقطعة التي اقتطعها لنفسه من لحم الناقة، بأن راح يعلقها على مقدمة سرج الناقة التي كان يركبها؛ وأن ذلك اللحم سيكون عشاءاً لهم عندما يصلون مكة (المكرمة) ويأدر الجميع إلى ركوب الراحلات من جديد واستئناف المسير وطوال الفترة مابين تعثر الناقة والانتهاء من ذبحها وسلخها وتوزيعها ، لم تقطع إبل القافلة سوى مسافة عشرين خطو - ها أنذا أرى أمامى الضفاف الصلصالية لعين الزيمة أراها بلونها الأخضر المتمثل فى نباتات الذرة المزروعة هناك؛ والتي خطر ببالي، أن جسمى يمكن أن يتحول فيها إلى منظر دموى مريع خلال دقائق قليلة. وأصلنا مسيرنا على ضفة قناة من القنوات؛ هذه القناة تستعمل فى نقل مياه عين من ضفة إلى الضفة الأخرى. ورأيت إلى جانب حقول الذرة عددا قليلا من البساتين؛ كما شاهدت أيضا حوالى عشر من جذوع النخل المريض؛ أما بقية النخيل فكانت ميتة بسبب سوء الري؛ وأهل هذه المنطقة من الحطيل . كنا هنا على ارتفاع ٢٧٨٠ قدم.

هذا ليس هو الحجاز، وإنما الذى نحن فيه هنا هو تهامة؛ ونقلا عن كل سكان الجزيرة العربية، فإن مكة مدينة من مدن تهامة. ومكة تحيط بها الجبال، وهذه الجبال لها علاقة بذلك الذى ينبغى أن نطلق عليه اسم المنطقة الوسطى؛ ومع ذلك فإن رعوس جبال هذه الأرض المنخفضة (التي يمكن رؤية حدودها من البحر) لاتصل الى طنف

جبال نجد.[فى الحجر، نجد أن ذلك الجزء الذى يطلقون عليه اسم تهامة هو الذى يقع غربى العويرض بالرغم من أن ارتفاع هذا الجزء فى بدايته يصل إلى ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتحيط به الجبال : انظر الجزء الأول].

فى الركن (الجنوبى) من الوادى توجد قلعة ضخمة مبنية من اللبن، وهى حالياً عبارة عن أطلال وحطام؛ هذه كانت واحدة من القلاع الوهابية القديمة، وكانت مهمتها حراسة تلك البوابة من بوابات نجد: شاهدت هنا أول محطة من محطات القهوة، والناس هنا يطلقون على كل واحدة من هذه المحطات اسم قهوة Kahwa (واللفظة العامية 'جهوة' Gahwa). وتلك كانت أول قهوة من قهاوى مكة. هذه القهوة لاتبعدو أن تكون مجرد مكان مسور بسور مبنى من اللبن وفيه بعض الأعمدة ومن فوقه سقف خفيف من جريد النخيل. كان يجلس داخل هذه القهوة كل من إبراهيم وحداة النياق؛ وعندما وصلت إلى هذه اللوكاندة المكشوفة. ونادى القصمان قائلين: خليل! ونزلت من فوق ناقتى؛ ولكن عبدالرحمن التقانى بوجه يتم عن الحرص والقلق. وسمعت صوتا أجشاً يقول: "لا بد أن يدخل فى الإسلام". وتأكدت أن ذلك الرجل كان من أهل هذه المنطقة. ثم استل ذلك الرجل خنجره البراق! رد الرجل على القصمان ،لا! لا! ليس بهذه الطريقة. دخلت القهوة وجلست بجوار إبراهيم: وهمس لى عبد الرحمن، إنها عناية الله، أن ترى هنا شخصا من بيتنا الموجود فى جدة! لأن هذا الشاب الصغير ، عبد العزيز، هو ابن شقيق والدى، أوإن شئت فقل: ابن عمى. كان عبد العزيز متجها مع حمل من السجاد إلى مدينة الطائف؛ ولكنى كلفته بالعودة معك إلى جدة: والمطلوب منك هو أن تعطيه هدية ليس إلا. أعطه ثلاث ريالات ، يا خليل ، الأمر هنا صعب. نظرا لأن بعض الموجودين فى القهوة قد يثيرون بعض المتاعب: فقد علموا ليلة أمس بمجئى نصرانى إلى هذا المكان؛ ولكن من باب المغامرة المحضة تصادف وجود عبد من كبار عبيد الشريف هنا، وقد جعل ذلك العبد كل شىء هنا على مايرام فيما يتعلق بك. تعال معى واشكره على ما فعل من أجلك: أما نحن أهل القافلة فيتعين علينا أن نرحل على الفور. وجدت عبدا محترماً جالسا على الأرض: ثم نهض الرجل واقفا ليمسكنى من يدى. هذا العبد المحترم كان اسمه محبوب Maabub خرج كل من إبراهيم، وسليمان والآخرين لكى يركبوا راحلاتهم؛ وعندما نظرت إليهم للمرة الثانية كانوا قد ابتعدوا عنا

كثيرا . بقى معى ولد البسام وصاح قائلا: " اركب! وأنت يا عبد العزيز اركب خلف خليل!" - "اسمح لى أولا بأن أملأ قربة الماء." "الماء موجود فى الوادى، هيا أركب." قلت: " هيا، أركب يارجل!" وما أن ركب الناقة ، ضربت الناقة لتهب واقفة: ولكن الناقة كانت مرهقة تماما .

سمعت صوتا ينادى من الخلف ويقول: " أنزل ، أنزل! أقول: اتركنى لحالى، وسوف أقتل الكافر." نظرت حولى، ورأيت ذلك الرجل الذى كان يحمل سكيناً، بالقرب منه ويكاد يطبق علينا؛ وجاء ذلك الرجل وأمسك بيده لجام الناقة - هو! أيها اليهودى، أنزل! هو! نصرانى (يصيح ذلك الوغد)؛ أقول لك: أنزل! كنت قد عزمت على المضى قدما؛ ولكن ناقتى كانت ضعيفة، ولو كانت قوية لكنت قد طرحته أرضا وهربت من ذلك الخطر. توافد علينا أشخاص آخرون - "صاح عبد الرحمن قائلا: نوح، نوح! برك الناقة وأنزل من فوقها يا خليل . " وعلى الفور فعلت مثلما قال الرجل، وبلا تردد. وهنا أقترب منى حامل السكين، وقد كشر عن أنيابه، " همس، [إنه سيقتل اليهودى - النصرانى؛" ولكن خادم الامير الذى سارع بالوصول إلينا، رجاء أن يبعد يده وينسحب بعيدا عنى - وهنا همست لولد البسام، " اذهب واستدع بعضا من رجال القافلة ومعهم بنادقهم؛ ولعلنا نتبين أن ضيف عزيزة لن يسمح له بالمرور. هل يمكن لهؤلاء أن يلقوا القبض على فى الطريق العام، أى خارج الحدود hadud؟" (حدود المدينة المقدسة). ولكنه همس لى " قل إنك مسلم يا خليل، إنها مجرد كلمة ترضيهم؛ وغدا ستكون فى جدة: وأنت ترى بنفسك ما يدور هنا -! ووالله أنا أخشى أن يقتلك واحد من هؤلاء . " - " سوف أمر بمشيئة الله، سواء أرابوا أم لم يريدوا . " قال بصوت خفيض وبتنفس الطريقة التى يتكلم العرب بها، إذا لم يكن المد فى صالحهم " إغ يا خليل! ما الذى يمكن أن أفعله الآن ؟ أنا لابد أن ألحق بالقافلة؛ انتبه ! لقد تركونى ومشوا . " ركب ناقتة بون أن يقول كلمة واحدة؛ وترك صديق والده واقفا بين القتلة والسفاحين.

كانت هناك جماعة من الجمالة المكين الذين يقلون (بعد مسير الليل الطويل): خرجت تلك الجماعة من القهوة ومعهم بعض من سكان هذه الهجرة (كفر) ليستطلعوا أمر ذلك الشجار. تجمعوا من أمامى على شكل صف، حوالى ثلاثين شخصا، كلهم كانوا يلبسون ملابس فضفاضة زرقاء اللون فيها أزرار زرقاء اللون أيضا. شاهدت

معهم سكاكين الجزار التي تشبه السيوف ، والتي لها مقابض معدنية، والناس هنا يطلقون على هذا النوع من السكاكين التي تشبه السيوف اسم 'الجنبيه' Jambieh هذه الجنبيهات كانت تتدلى من أحزمة هؤلاء الأشخاص المصنوعة من الجلد. هذه الوجوه الملكية كانت سوداء تماما، اسوداد وجوه المذنبين في يوم القيامة: وقف الرجال صامتين وهم يضعون أيديهم السوداء على أسلحتهم.

انتقل خادم الشريف (الذي كان رجلا عجوزا ضعيفا) من الشمس ليجلس من جديد. وبعد هذه الهدنة القصيرة عاد ذلك البائس المجنون ومعه سكينه وهويصيح قائلا: 'إنه سيقتل اليهودي - النصراني'؛ في حين وقفت أنا ساكنا بلا حراك. كان ذلك الوغد واحداً من الأشراف؛ لأنني سمعت محبوب يسميه بذلك الاسم: هؤلاء الأشخاص الذين هم من سلالة محمد (ﷺ) 'لا يصح لأحد أن يتقول عليهم' وهم أصحاب امتياز في الرأي العام، وهذا الامتياز يضعهم في منزلة أسمى من البشر العاديين. ظهر أن جمالة مكة لم يكونوا مشجعين له؛ ولكنهم لم يكونوا في صفى أومساندين لى. [كان ذلك الشريف واحداً من البدو المترحلين: أما رفاقه فكانا واحداً أو اثنين من الهجرة (الكفر) التي يعيش فيها الحطيلان اللصوص؛ كما كان معه أيضا بدوى يعمل حاديا للإبل. كان هدف ذلك الشريف وهدف من معه، إنهم بعد قتل الكافر - وهو عمل 'دينى' مجيد ! سيحصلون على ناقته وعلى أشياءه].

بعد أن جاعنى ومعه سكينه على هذا النحو، وبعد أن رآنى واقفا ساكنا بلا حراك، وواضعا يدي في صدري، وقف يتعجب محبطاً. جرت العادة أن يكون هناك وسيط بين كل ثلاثة من سكان الجزيرة العربية؛ فقد هدأت أرواحهم، وراح الواقفون غير المبالين يحبذون الهدوء والتفاهم: انتظرت لعل واحدا منهم يتكلم نيابة عنى أولصالحى! ولكن أحداً منهم لم يقبل على هذا العمل. نظرت في عيني ذلك الرجل؛ ونظرا لأنه كان مترنحا مثل بقية البدو الرجل ،لم يقو على تحمل نظرتى إليه؛ ولكنه رفع خنجره، وأخذ نفسا طويلا (فقد كان ضعيفا، شأنه شأن الكثيرين الذين يعيشون هذه الحياة القاسية ، وهم في منتصف أعمارهم) وراح يوجه الخنجر ناحية صدري؛ وبتنهيدة أنزل ذراعه وسحبه ناحيته مرة ثانية. ثم رفع السكين بعد ذلك وراح يحدد ضربته: لم يكن ذلك الرجل مكتمل النمو؛ ورحت أراقبه وأتسبب لتلقى الطعنة في حالة حدوثها على ذراعى

اليسار - وبالرغم من وقوفى خائر القوى، فأنا أستطيع ضربه لإبعاده عنى بواسطة اليد اليمنى؛ وحتى يتسنى لى، إذا ما أصبت بجرح ، الدفاع عن نفسى باستعمال المسدس، وأخرج من بينهم. وقف محبوب، وجاء على الفور؛ وسحب الشريف بعيداً عنى: وأمسكه بيده، قال: ما هذا الذى تفعله يا شريف سالم؟ لقد وعدتني ألا تفعل شيئاً باستعمال العنف! هل تذكر ضرب جدة بالقنابل! وأن ذلك القصف كان بسبب إهدار دم البعض من هؤلاء الناس الغرباء؛ انتبه لما تفعل ، وانتبه لتصرفاتك. إنهم الإنجليز الذين إذا ما قتل واحد منهم، أرسلوا بوارجهم كى تنتقم لمقتله؛ ويهدمون المدينة. وهل تظن أن سيدنا الشريف سوف يسامحك إذا ماتت سببت فى جلب متاعب من هذا القبيل عليه؟ لا تعرض لحياة هذا الشخص، الذى لم يرتكب ذنباً أو جريرة، فضلاً عن أنه لم يدخل حدود المدينة المقدسة (مكة) - لا! يا شريف سالم، ومن أجل خاطر حسين [الشريف أمير مكة] هل الغريب نصرانى؟ إنه لم ينكر ذلك مطلقاً: ألا يوجد نصارى فى جدة؟

استطاع محبوب أن يجعل الشريف سالم يعطى وعداً بالسلام . وبالرغم من ذلك، لم يكن ذلك الشريف البدوى الذى يشبه الذئب ليترك فريسته مقابل شيء من الكلام: فقد عاد من جديد، وفى يده السكين، بعد انسحاب العبد محبوب؛ ثم أقسم بالله أنه سوف يقتل النصرانى فى هذه المرة. وعندما شاهد محبوب ذلك صاح فى الشريف سالم، طالبا منه العودة إلى صوابه! وتظاهر الواقفون بأنهم يحاولون منعه من ذلك الذى يود القيام به. وعندما وجد سالم أن الواقفين لم يعوبوا يحاولون منعه مما يريد القيام به، وعندما وجد أن انفعالاته بدأت تهدأ. وعليه فقد منح الله البقرة قرناً حاداً. راح على إثر ذلك يقتنع بما يقوله الواقفون. ويقفز الشريف سالم فوق الناقة، التى كانت تمثل كل ما يصبو إليه، "يصيح قائلاً: هذا نهاب nahab! وألقى ببطانيتى من فوقه سرج الناقة، وبدأ فى إنزال الزكائب والخروج من فوق الناقة. وقام واحد من رفاقه بخطف عقالى وغترتى؛ ولكن الآخرين راحوا يلومونه على تلك الفعلة. وهنا حمل حطيلى البطانية وجرى بها إلى بيته؛ قام آخرون (من الخلف) بسحب عباى: ووقف الجمالة المساكين بلا حراك وسط كل هذا الهرج والمرج. صبرت على كل ما حدث؛ ونظرا لأنى لم أعد بحاجة إلى تلك الأشياء هنا فى هذا المكان، فقد تساهلت فى العبادة أيضاً. وجاء إلينا محبوب وهو يعرج من جديد. أخذ محبوب خرج الجمل لنفسه؛ وأبعد أولئك

الأشقياء عني وأجلسني إلى جواره. وندم سالم لأن الغنيمة ضاعت منه - على أنه لم يقتل الغريب؛ واستل سكينه وراح يهددني من جديد؛ وعندما تقدم ناحيتي ورأيت في عينه تصميمًا على قتلي، وراح يقسم بأنه سوف ينهي حياة اليهودي النصراني، قام الواقفون بالحيلولة بينه وبين ما يريد. محبوب: "أقول لك يا شريف سالم: إنك إذا ما أسأت إلى هذا الغريب فسوف أضع الأمر أمام مولانا الشريف؛ إياك وأن تفعل شيئًا عن طريق العنف." "أوه! ولكن هذا شخص قام بالسرقة من بلادنا." "أنت لاتستطيع أن تتهمه بذلك؛ ويتعين مثوله أمام مولانا الحسين وأنا أضعه في عهدتك يا سالم؛ ويجب أن تقدمه سالمًا أمام الحسين في الطائف." وافق الواقفون على ما قاله محبوب، ووافق عليه سالم أيضًا، وهو يقول: "أمل أن يأمر الشريف بشنق ذلك النصراني أو قطع رأسه؛ وأن يعطيني الناقة." وبالرغم من الإهراق والتعب، فإنتى بذلك سوف أتمكن من زيارة الطائف.

الفصل السابع عشر

الطائف. الشريف. أمير مكة

معبوب وسالم. النصراني أسيرا. يوم متعب في عيون. رحلة ليلية مع رجال قافلة مكة. العودة إلى السيل. محطة السيل. مهاجمة النصراني مرة ثانية. شخصية مكية. بسام غير محترم. معرفة سابقة. عكاظ. المر خلف الطائف. رحلة ليلية. النزول عند كوخ الأمير بالقرب من الطائف. نساء فقيرات من سلالة محمد. وصف الطائف. المدين. النصراني ضيفا على ضابط تركي. مؤتمر الشريف المسائي. الشريف حسين، أمير مكة. عبد الله شقيق الشريف. نادي قهوة الضباط الأتراك. حجر مجوف. زيد، البيشي. قرى حرب وأقاربهم. سالم يعود ثانية بالغنائم. غداء تركي. "الحم يفيد الصحة". ثلاثه أحجار مجوفة. مأوى الظهيرة في البستان.

هذا المعبوب Maabub الذي هُذأ العاصفة، هو الذي وضعني في عهدة ذلك الذئب! كما أنه هو الذي أجبر اللصوص على إعادة الأشياء التي سرقوها مني؛ ولكنهم كانوا مراوغين تماما إلى حد أنهم لم يعيدوا كل ذلك الذي أخذوه. هذه هي الزكائب الكبيرة، أعيد تحميلها من جديد فوق الناقة المرهقة؛ التي كنت قد أحضرتها معي؛ وهنا قام الجمال بالتفرق كي يذهبون إلى القهوة ويستظلوا بظلها، ويحظوا بقسط من الراحة. تركني معبوب مع ذلك الشريف الغاضب التائر! ولا أعرف إلى أين ذهب معبوب.

وهنا، راح سالم يهز رأسه الخشبي منتشيا نشوة لص أجبر على المسألة ويقول: كان من الأفضل أن أضع على زكائبي أقفالاً. وقد عثر على مخزن (غرفة) في مظلة القهوة؛ وأنه وضع فيها تلك الزكائب، وأغلق الباب، وتركني أجلس على باب تلك الغرفة:

كان ظل الإفريز لا يكفي إلا لستر رأسى فقط من حرارة شمس الظهيرة. كان سالم ينظر إلى نظره تشويها للهفة والحزن. "قلت): حسن ياسالم، ما الذى يمكن عمله الآن؟ أتمنى أن نكون أصدقاء." قال: بعد شىء من الصمت، والله، لقد خطر ببالى أن أقتلك اليوم!- هذا البدوى المترحل الذى لا يعرف الرحمة كره بقائى على قيد الحياة حبا فى الغنيمة؛ والسبب فى ذلك، أنه أثبت فيما بعد أنه لم يكن مهتما بدينى! وبدأ سالم ينادينى على نحو فيه المزيد من الود، بأن يقول: "يا خليل، يا خليل!" بدلا من : يانصرانى."

- تركنى سالم برهة قصيرة؛ وتوافق علينا بعض شبان المكان كى ينظروا إلى النصرانى ، كما لو كان حيوانا خطيرا جرى الإمساك به. "إخص! أنظروا إليه! هذا هو، الذى تسلل نافذا من بين أيدينا. ما رأيك؟ هل سيعدموه؟ أم إنهم سوف يذبحوه؟ أوه! تعالوا وانظروه! هاهو يجلس هنا، الله يلعن أباه - أنت أيها الملعون! إخص! أهكذا تسالت خلال بلاد المسلمين؟" سألنى أحدهم، "، وإذا ماجاء أحد منا إلى أرض النصرارى، فهل سيقتلنا أهلك ويعذبونا؟- هذا هو رأيهم فينا، ولذلك ومن باب المقارنة فقد راحوا يكشفون لى عن سماحتهم وإنسانيتهم! جاء بعد أولئك الشبان رجل يقول: أنه سمع أنى حكيم؛ وسألنى إن كنت أستطيع شفاء جرحه القديم؟ طلبت منه أن يعود إلى فى المساء كى أقوم بتضميد جرحه. يصيح ذلك الشقى المتوحش قائلا: "أنت لن تكون هنا فى ذلك الوقت!" وأنا لم أستطع تحديد معنى ماقاله ذلك الرجل. كانوا لا يصدقون أى شىء أقوله؛" وسبب ذلك أنك كافر، وأبن كلب ، وانت تكذب . " وكانوا يشفون غليلهم عندما كانوا ينادون بكلمة نصرانى ؛ وأنهم عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يدحضون أو يفندون دينه غير الصحيح.

قلت لهم: إننى رحال ومعى جواز سفر عام من حكومة السلطان . وجاعنا من القهوة رجل صاح يقول: إنه يود أن يعرف بحق إن كنت من أراضى الدولة (الإمبراطورية العثمانية) أم أنتى من المسكوف ' هذا الرجل بدى لى وكأنه كان يعمل من قبل بالجندية: سمحت له بالإطلاع على أوراقى؛ وأخذ أوراقى وانصرف بها؛ ولكن سرعان ما عاد إلى ذلك الرفيق ليقول: 'إنى كذبت كذب النصرارى الخالصين؛ وإن الكتابة التى

فى الأوراق لم تكن مثلاً قلت أنا. ثم قام الوغد بعد ذلك - لأن ذلك كان هو قصده ومقصده - بسؤالى بعينين جريئتين ، هل كان معى نقود؟- وكلمة النقود هذه كلمة خطيرة! والسبب فى ذلك أن البؤس حول الكثيرين منهم إلى لصوص، ومعروف أن البؤس هو أم السوء- ويعد أن عاد سالم ثانية راحوا يسألونى وبصورة مستمرة عن الناقة؛ وكأنهم كانوا يريدون أن تكون الناقة غنيمة لهم . ورددت عليهم رداً قصيراً موجزاً ، 'الناقة ملك للبسام.' -هو يقول : البسام !أليس أهل البسام من التجار الكبار؟ ووالله ملوك meluk، مثل الأمراء تماماً، فى جدة!

- كان سالم، العائد من زيارته لمكة، قد سمع بمحض المصادفة فى محطة القهوة، عن مجيء النصرانى: فى البداية خطر ببالى أن يكون قد علم بذلك الخبر من القافلة القادمة من بريدة. رد على، بأنه لم يعرف ذلك الخبر من بريدة- أريك الله القصمان جميعهم! الذين يجلبون لنا الكافرين: وأنا أقسم بالله أننا أعدنا قافلة بريدة أدراجها من هذا المكان.- والمعروف أن قوافل القصيم فى بعض الأحيان ، وبخاصة القوافل القادمة من بلاد بن الرشيد ، تصل إلى مكة عن طريق وادى الليمون. خطر ببالى أن سالم لابد أن تكون له مصلحة هنا؛ ادعى سالم ، أن الإشراف على المحطة أوكل إليه من قبل الشريف.- كان سالم شريفاً بنوياً مترحلاً، وكان عائداً إلى منزله: ولكنه لم يكن راضياً عن نعتى إياه بالبدوى . واعتباراً من ذلك اليوم اكتشفت أن أولئك الأشراف الذين هم من البدو الرحل لا يرتاحون إذا ما نعتهم أحد بالبدوى؛ والحال نفسه ينطبق أيضاً على أولئك الأشراف المستقرين فى القرى، إذا ما نعتهم أحد بالفلاحين . الكلام البسيط الذى من هذا القبيل يكون شديد الوقع على مسامعهم : قال لى شريف آخر، ومن باب الود والصدقة- قال: هذا لا يليق - لأنهم أشراف."

طلب منى سالم أن أقف وانتقل إلى ظل شجرة مورقة يحتمى بها بعض الجمالة من حرارة الظهيرة. كان الهواء ساكناً فى هذا الجزء من وادى تهامة، ولم يكن بوسعى الاستغناء عن عباغى (بشتى)، التى كانت تستر المسدس؛ ومع ذلك لم أكن أستشعر الحرارة الشديدة. بينما كان سالم وبقيّة الجمالة نائمين تسللت إلى المكان امرأة كانت

تود أن تقول لى شيئاً، لأنها سألتنى بصوت عال، هل أتكم اللغة الهندية؟ وربما كانت عبدة ترافق أسرة من مكة إلى الطائف ، والحرمان مليئان بالمسلمين الذين يتكلمون اللغة الهندية: وربما كانت تلك المرأة من الهند[فى الحى النجدي من جدة يوجد عدد كبير من هذه المخلوقات الهندية المسكينة.] هؤلاء هم بعض من العبيد الزنوج الذين عادوا من أعمالهم فى الحقول يتوافدون على باب غرفتى كى ينظرون إلى : قلت لهم، 'من الذى سرقكم من أصدقائكم، ومن بلادكم؟ أنا إنجليزى، ولوقدر لنا أن نلتقى أولئك الذين نقلوكم إلى البحر، لكننا قد أطلقنا سراحكم، وأعطيناكم نخيلاً فى بلاد تابعة لنا.' هؤلاء السود المساكين كانوا يريدون على باللغة العربية قدر المستطاع بأنهم سبق لهم أن سمعوا ذلك الكلام؛ ثم بدعوا بعد ذلك يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأفريقية- وهنا صحا واحد من أصحاب النوم الخفيف مندهشاً ! جلس ذلك الرجل؛ وراح يدور بعينه فى أرجاء المكان ثم أقسم بالله إنه ضاع خلال الإنجليز، الذين استولوا على سفينة كانت محملة بأمثاله من البشر، وأن الإنجليز أحرقوا تلك السفينة. قلت لهؤلاء العبيد: إننا لدينا معاهدة مع السلطان تقضى بقمع تجارة الرقيق ومنعها منعاً باتاً . رد على أكثر من صوت من تلك الأصوات المتوحشة بأتى كاذب ؛ متى منع السلطان تجارة الرقيق، يأتىها النصرانى ؟ قال شخص آخر: لا، ربما يقول الحق، نظراً لأن النصرانى لا يكذبون تعجب صاحب السفينة المحروقة قائلاً: ولكنه يكذب- ستعرفون إن كنت كذاباً أم لا- عندما أصل إلى جدة، أحضروا عبداً إلى قنصليتى : وأطلبوا منه أن يقول :إنه يود أن يصبح حراً، وسوف يعطونه حريته على الفور!- يصيح الرقيق بـكـلب! أنت كاذب! ألا يوجد آلاف العبيد فى جدة، وأن أولئك العبيد يباعون ويشترون كل يوم؟ إذن ما السبب أيها الكلب! فى عدم تحرير كل هؤلاء ؟ طالما أنك تقول الحق: وراح يعض على أسنانه، ويرفع يديه فى وجهى.

استيقظ سالم متأخراً ، بعد رحيل الغالبية العظمى من الناس: ولم يكن يتسكع أمام بابنا سوى قلة قليلة من البشر؛ بل تجرأ البعض منهم على دخول المكان. وهنا نهض سالم واقفاً وغاضباً . يصيح 'إنكشحوا عن هنا ! لعنكم الله جميعاً! ياعجوز، ياطويلة اللسان - ما هذا! عشيقة تتكلم- وأنت أيها العبد انهض واذهب لحال سبيك !

الله يلعن أباك! هل يجرؤ عبد على الدخول لهذا المكان؟ هذه هي السلالة المقدسة من سلالة محمد من حقها أن تلعن المواطنين العاديين المساكين . ولكنه كان يتعامل معى بوجه بشوش، وأنا أسيره: ربما يكون النوم قد أصلح مزاجه المعتل. أرسل سالم فى طلب قليل من اللبن لى (وهم يبيعون اللبن هنا، بالقرب من المدينة): ولكنه أرغمنى على دفع الثمن بطريقة مبالغ فيها؛ إضافة إلى ريال آخر ثمننا لشئ من العلف، لايساوى ستة بنسات، وضعوه أمام ناقتى وأمام إبلهم أيضا. كان ذلك العلف عبارة عن حشائش جافة جلبوها من الوادى الموجود فى الأعلى ، ومجدول على شكل حبل (على طريقه أهل مدينة نابولى)، ويجرى بيعه للجمالة فى هذه المحطة.

كنا قد تجاوزنا منتصف فترة العصر: ودخل علينا رجل قديم؛ وتكلم مع سالم مدة طويلة وباهتمام شديد وافق ذلك الرجل القديم على إزهاق روح الكافر، ولكن الأمر كان جد خطير: قال: إن الغنيمة كانت طيبة أيضا، لكن الاستيلاء على هذه الغنيمة أمر محفوف بالمخاطر؛ قال الأمين صاحب اللحية الرمادية: نعم، كل هذا يوراح يضرب خرج ناقتى بعصاه، هذا طمع toma (بمعنى 'فلوس أو مصارى'). ولكن عليك أن تقدمه لحسين، ولا تضع نفسك فى موضع الخطر. سالم: إى والله، إنه طمع؛ ولكن ماهو أشد أنواع الطمع؟ أليس ذلك فى وجه النصرانى ؟ انظر إليه! ألا يعبر وجهه عن الطمع؟ رحبت بالعجوز (الذى ربما كان حطيليا من الهجرة، أو شريفا من الأشراف) كما رحبت برأيه أيضا بقلت :النصارى أعداء طيبين . لم يكن ذلك الرجل العجوز سريع البديهة؛ وراح ينصت لكلامى - ثم رد على قائلا: أنا لايمكن أن أتعامل مع كافر، إلا بعد الندم والتفكير: وبعدها انصرف عنى وقال لسالم: إخ! يا القدرة النصارى على الإقناع ! ولكن احذرهم ،ياسالم! سأقول لك شيئا - حدث ذلك فى زمن المصريين. جاء إلى هنا حكيم مع العسكر: والله ياسالم، لقد وجدت ذلك الحكيم جالسا فى واحد من تلك البساتين التى إلى الخلف منا ! قال: سلام عليك! ورددت عليه على غير رغبة منى، عليكم السلام! وسمعت بعد ذلك أنه كان نصرانيا! إخص - ولكن هذا مؤكد أن المسلم يمكن أن يطارد عشرة من النصارى، أو ربما عشرين منهم؛ وهذا هو مانراه فى أغلب الأحيان، وربما مائة؛ وياسالم هذا بإذن ithin من الله ullah حسن، أمل أن يعطينى حسين الناقة! " كان ذلك هو الرد الذى صدر عن سالم ذلك البدوى المترحل.

- عندما شاهدت بعضاً من أحمال الأرز الهندي، المتجهة إلى الطائف، والتي جرى وضعها أمام القهوة، وقفت على جدل كان يدور بين الجمالة حول حمولة الإبل ؛ وهنا رحت المسهم بعصاي ثم سألتهم، "ما هذه الزكائب والجوالات؟ وما هي تلك الحروف المكتوبة على هذه الجوالات؟ هل أقول لكم ما هذا هو أرز الإنجليز، في جوالات الإنجليز؛ والعلامات التي عليه إنجليزية أيضاً، أنتم تلبسون ملابس جيدة - بالرغم من أن الحريم في الشمال هن اللاتي يلبسن هذا اللون الأزرق ! ولكن ما هذه الملابس الفضفاضة التي تلبسونها ؟ أقول لكم: القطن الذي على ظهوركم جرى غزله ونسجه في مصانع الإنجليز. وأنتم لم يخطر ببالكم أنكم تأكلون وتلبسون إلى حدما بواسطة الإنجليز!" عارضني البعض منهم: ولكن أثنت الغالبية على ماقلت. هذا الكلام ساعد على تمضية الوقت، وأدى إلى تجريدتهم من صلافتهم ورطب ذهن ذلك السفاح المدعو سالم. ولكني لم أستطع التوصل إلى ذلك الذي كان يدور في ذهن ذلك المجنون: كنت قد بدأ يراودني شيء من الشك أنهم سوف يقتلونني في هذا المكان. وإذا ماطالبته بالذهاب إلى الطائف، فلربما دار رأسه ، وأسفر ذلك عن رؤية سكيته مرة ثانية؛ يضاف إلى ذلك أنني لا أعرف ذلك الذي جرى لمعبوب- هم يقولون :إن المسافة من هنا إلى الطائف تستغرق ثلاثين ساعة بقوافل إبلهم بطيئة الخطى: بدى لي من غير المرجح أن يبتعد ذلك الضبع عن إهدار الدم.

في ساعة متأخرة من ذلك اليوم جاعني سالم ومعه كل من معبوب وعبد العزيز؛ وكان معبوب وعبد العزيز قد نالا قسطاً من الراحة في جزء آخر من القهوة. لو كان فيهما خير (لم يكن ذلك الخير في عبد العزيز)، لما تركاني وحدي في مثل هذا الحال. أبلغني معبوب أنني يتعين على الرحيل عن هذا المكان مع القافلة عند حلول المساء؛ ثم تركني معبوب وذهب لحال سبيله مرة ثانية. وبذلك يكون سالم قد تمكن من معرفة كل الأشياء التي كانت معي أي أصبح على علم بتفاصيل الغنيمة! استدعى سالم بعضاً من الجمالة الجهلة كي يكونوا شهوداً على مايجري . وهنا أخرجت لسالم كل الأشياء التي معي، داخل جوالاتي، ووضعت كل هذه الأشياء أمامه: ولكن سالم يصيح صياحاً وحشياً ويقول: " الفلوس، El-Flus الفلوس el-flus بمعنى النقود! حتى لايمكن أن تكون

هناك مساعلة بعد ذلك ، - أعرض كل شيء على أيها النصراني !- " حسن، ناولنى صندوق الدواء هذا ؛ ثم قلت: وهذه هى الريالات القليلة التى معى، وهى ملفوفة فى قطعة من القماش!"

جمع الجمالة بعضا من الحطب وشبوا نارا مثل نار المخيمات: وأحضروا شيئا من الدقيق وشيئا من الماء، وصنعوا من الاثنين عجينا، خبزوا منه تحت الرماد المتبقى من النار، ذلك النوع من الخبز الذى يطلقون عليه اسم عبود 'abud'؛ إذ كان المساء قد بدأ فى الدخول عليهم. أخيرا انتهى نهار ذلك اليوم: ثم نهض الرجال واقفين من أماكنهم، وحملوا الأشياء على ظهور الإبل مربوطة ببعضها كما هو الحال فى سوريا - حملوا خرجى وجوالاتى على ناقه البسام : أركبنى سالم مع رفيقه فهيد ذلك البدوى أو نصف البلد الذى يمتلك هذه الإبل - " اركب فى الشدأاد Shdaad، يا خليل يانصرانى." [ولكن ركوبى على هذا النحو، قد يجعل الرديف(*) يطعننى فى ظهرى أثناء الليل!] قلت: سوف أركب أنا فى الخلف؛ وقلت أيضا: إننى متعب إلى الحد الذى لا أستطيع معه المحافظة على اتزانى فوق سرج الجمل . ورجح رأيى! والسبب فى ذلك أن العرب يقدرون ضعف حياة البشر - حتى وإن كانوا أعداء لهم. ومع ذلك كان سالم شخصا خطرا؛ والسبب فى ذلك، أن كل من كان يسيئ إلى النصرانى بالكلام، وعلى مرأى ومسمع من سالم، كان يجعله ينظر إلى شذرا، ويروح يتحسس سكينه من جديد.

رحلنا عن ذلك المكان مواصلين السير فى الطريق الذى كنا نسلكه؛ وهم يزعمون أن النصرانى سوف يشنق، بناء على حكم عادل من الشريف حسين(**)، فى الطائف: أمضينا الليل بطوله ونحن نصعد فى اتجاه السيل. كان فهيد راكبا على سرج الجمل؛ فى حين كان الوغد، فى خرافاته، يكاد يموت خوفا من النصرانى! وبالرغم من

(*) الرديف : من يركب خلف راكب الناقة. (المترجم)

(**) الشريف حسين : تولى شرافة مكة عقب وفاة أخيه الشريف عبد الله بن محمد فى عام ١٨٧٧ لكنه لم يبق طويلاً فى الشرافة حيث أنه قتل فى عام ١٨٨٠ ولم يكن قد استقر فى الحكم سوى ثلاثة أعوام . وكان الشريف حسين يقيم فى مقره الصيفى فى الطائف وقت وجود «بوتى» فى تلك المدينة . (المراجع)

عداوته، وبالرغم أيضا من طمعه وجشعه، إلا أنه كان فيه شيء من الحنان الإنساني؛ والسبب في ذلك أنه عندما علم أنى عطشان، نزل من فوق ناقته وذهب إلى بقية الإبل لي جلب لى شيئا من الماء. وبالرغم من أنى عرفت أنه من البدو الرحل، وأن أخلاقياته كانت مثل أخلاقياتهم، إلا أنه كان يتحدث بلغة عربية قريبة من اللغة المستعملة فى المدن الحكومية مثل دمشق وبغداد و مكة. ولكن تسرعه وعجلته واندفاعه لم يكن لها ما يبررها، والسبب فى ذلك أنى، بحكم أنى رجل متعب ومرهق، لم أستطع استحضاث الناقة المتعبة الضعيفة على السير بالطريقة التى تروق له. خطر ببال سالم أن النصرانى يحاول التباطؤ كى يهرب منهم!

كانت تسير فى مقدمتنا جماعة من مكة متجهة إلى الطائف، وكانت إبلهم تحمل فوقها صناديق، أو إن شئت فقل: هودج فوق ظهورها. كانت القافلة كلها ملكا لشخص واحد: ذلك الرجل الطيب الأسمر سمرة الهنود، ولم يصل بعد منتصف العمر، وهو من أثرياء مكة. كان الرجل يرافق القافلة ماشيا بالقرب من حريمه، وكان يلبس لباسا فضفاضاً أبيض اللون، ويضع فوق رأسه عمامة؛ كان يمشى كى ينشط ساقيه - اللتان كانتا متناسقتين - ولكى ينعش نفسه باستنشاق هواء الصحراء. [كانت درجة الحرارة فى مكة، حسبما قال لى رقيب شاب من الجيش التركى كان يعمل فى الطائف، تصل إلى ٤٦° مئوية] كانت قافلتنا مكونة من تسعة من الإبل، وواصلت مسيرها على نحو بطيئ، ومررنا بتلك القافلة التى سبق الإشارة إليها: ولكن ذلك التاجر، صاحب القافلة، عندما علم أن نصرانيا كان يركب ضمن أفراد القافلة صاح قائلاً: "إخص! نصرانى فى هذه الأماكن!" (...)(*) .

واصل أفراد القافلة مسيرهم راكبين على راحلاتهم ويتناولون عشاءهم البسيط المكون من ذلك الخبز الذى خبزوه فى رماد النار التى أشعلوها. وهذا هو سالم الذى

(*) عبارات رأينا استبعادها لما فيها من تعصب دينى واضح . (المراجع)

كان يجلس ممددا على الجمل بطريقة البدو، يعطينى قطعة من ذلك الخبز عندما مررت عليه؛ وعندما بدأت أكل تلك القطعة من الخبز طلبت إليه أن يضع فى حسباته أنه " اعتبارا من الآن فصاعداً أصبح بينى وبينه عيش وملح ، ثم قلت: أتمنى أن تكون صادقا ياسالم. لا والله، أنا لست خاين khayin (خائناً) يا خليل . " هذا الشقى العجوز كان يعانى ألما فى أحشائه، وربما كانت تلك الآلام سببا فى طبعه الحاد- راح سالم يلومنى شيئا فشيئا على اهتزازى فوق الجمل؛ وطلب منى الثبات. " اصح، يا خليل! صحصح! ولا تغلق عينيك طوال هذه الليلة! أقول لك: إنك قد لاتنام لحظة واحدة؛ هذه ممرات خطيرة وعامرة باللصوص، الحطيل! وهم يسطون على النائمين: اصح! صحصح! يجب الاتنام. " بدأت الإبل تتباطأ أكثر ، نظرا لأن حداة الإبل كانوا نائمين فوق أحمال الإبل: ومضينا صاعدين نحو الأعلى طول الليل: وكان فهيد قد تركنى عند منتصف الليل، وذهب ليتمدد فوق جمل من الجمال التسع التى تتكون منها قافلته؛ وحل محل فهيد، واحد من حداة الإبل. وبذلك يكون هؤلاء التعساء ينامون مدة ليلتين من الليالى الثلاثة: ويروحون يتتاعجون أثناء النهار- الذى يكون شديد الحرارة على إبلهم المحملة- عند محطة، أو إن شئت فقل: السيل.

والإبل عندما تمشى من تلقاء نفسها يكون خطوها مثل خطو النمل- "قال حادى الإبل، وهو جالس فوق سرج ناقتى: يا خليل! احذر من اللصوص!" وقبيل طلوع الصبح رحنا نحن الاثنين فى سبات عميق، وانحرفت الناقة عن الطريق لتصل بنا إلى ظل شجرة من أشجار السنط- كنت سعيداً، لأن تلك المغامرات الليلية أثناء السفر فى الجزيرة العربية لم تصبنى بأى أذى! صحيح أن الثوب الذى كنت ألبسه تمزق بالفعل- واستيقظت فى إثر ذلك؛ وعندما نظرت حولى شاهدت شخصا يمشى على قدميه ويقترب منا من الخلف - قال ذلك الرجل الغريب، وهو يقفز ليخطف الحزام الصوفى الذى كنت أرتديه وأنا راكب الناقة: " ما هذا؟ " وهنا هزرت رقيقى فى ركوب الناقة كى أوقظه، ثم ضربت الناقة؛ وسألت حادى الإبل، 'إن كان ذلك الشخص الغريب واحداً من الجمالة؟'

- ألم تره بينهم؟ لكن هذا لص وهو يطمع فى نقودك. جرت الناقة المتعبة بضع خطوات ثم توقفت. وهذا هو الرجل الغريب يقترب منى مرة ثانية: ربما كان يهدف بتحركاته إلى سحبى لإنزالى من فوق الناقة؛ أما مسألة إن كان حطيليا أم لا، فهذا هو مالا أستطيع القطع به. وأنا إذا ماضريته، واتضح أنه من الجمالين، ألن يقولوا: إن النصرانى ضرب مسلما؟ لم يتراجع ذلك الغريب؛ وكان حادى الإبل مايزال غارقا فى النوم. وجدت أن الحل الأمثل هو أن أكشف له عن مسدسى- ولكنى اعتبرت ذلك من قبيل الحظ العاثر والسيئ فى أن واحد: وهنا انصرف ذلك الغريب لحال سبيله. بلغنى أننا سننال قسطا من الراحة مع طلوع نجم الصباح: كان قد مضى على طلوع ذلك النجم ساعة من الزمن، وطلع علينا فجر ذلك النهار عندما وصلنا أرض السيل؛ وعندها نزلت عن ناقتى مع سالم، وجلسنا فى ظل وارف لواحدة من أشجار السنط كثيفة الأغصان.

هذه المحطة الوسيعة التى ليس فيها قهوة عامرة بالأشجار الظليلة وبالصخور الظليلة أيضا: رقدنا لننال قسطا من النوم، أشرقت الشمس علينا شيئا فشيئا. الشمس شديدة الحرارة عند هذا الخط من خطوط العرض؛ وهذا يحتم على النائم تغيير مكانه، إذا ماتناقص الظل. (قال ذلك المقلق) يا خليل، ما هذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء الذى تعلقه فى صدرك، ما هذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء. لقد أريتك كل ذلك الذى فى خرجى وفى زكائى ؛ وليس من الكياسة تفتيش أى شخص تفتيشا ذاتيا. قال صوت أجش من خلفى: أها! انه يحمل معه مسدسًا؛ وكان بوسعه أن يفتح النار على الليلة الماضية. كانت مصادفة غير سعيدة، إذ ظهر أن ذلك الغريب كان واحداً من الجمالة ؛ وكان الواقفون حولى حاقدين على على نحو لم أتمكن معه من أن أستثير فيهم أى شكل من أشكال الإحساس الإنسانى الكريم من دزينة (دسته) من الجمالة.

تناول الشريف الغضبان السكين فى يده ثانية! وصاح يقول: أرنى كل ما معك، ولا تخفى شيئا ؛ وإلاقتلتك الآن. أين محبوب ؟ ذلك الرجل الذى لم أره منذ مساء أمس: وهذا الرجل الذى يتمثل فيه توانى الأصدقاء العرب وانعدام كفايتهم - لاتنس العيش والملح الذى أكلناه سويا، ياسالم!- أرنى كل مامعك ، وإلا والله سوف أقتلك

بهذا السكين." تجمع حولنا المزيد من المتفرجين الذين جاؤوا من أماكن الظل المجاورة: كان البعض منهم يصيحون قائلين : " دعونا نقطعه إربا إربا، هذا الملعون ! ماهذا الذى يخبئه؟ أيها الرفاق، هيا بنا نقطعه إربا إربا!" " أصبحروا لحظة؛ وأبعدوا عن هنا." ويرفع سالم سكينه وهو يصيح قائلا: " إذا لم ترنى كل مامعك حالا، وفى هذه اللحظة، فسوف أقتلك !" ولكنى وقفت وابتعدت عنهم قليلا وقلت: " يجب ألا يفكر أحدكم فى أخذ مسدسى منى!" ثم سحبت المسدس وأخرجته من صدرى.

مالذى يجب أن أفعله الآن؟ كان العالم أمامى ؛ خطر بيبالى، هل أفتح النار على كل من يهاجمنى من هؤلاء اللئام النصابين؛ وألا أضيع طلقة واحدة؟ وأنا بوسعى أن أعيد تعمير مسدسى فى حالة الخوف أو الفزع . كانت ناقتى قريبة منى : ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو استطعت الإفلات من أكثر من عشرين شخصا، ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك ؟ هل أعيد عبور الرّيع مرة ثانية، وأعود إلى شعارة Shaara من جديد! شعارة ذلك المكان الذى يأتية العتبان فى معظم الأحيان طلبا للسقيا والارتواء؛ وإذا ما فشلت فى ذلك، فقد أغامر بالمشى فى الصحراء ؛ وإذا لم ألتق أحداً فى الصحراء على مدى يومين أو ثلاثة، فسوف يكون ذلك أسهل على بدلا من أن يقطعنى أولئك اللئام إربا إربا . وقفت بين ناقتى الهزيلة التى لم تستطع إنقاذ راكبها وبين تلك الجماعة من الجمالة الذين كانوا يتقدمون ناحيتى ليطبقوا على؛ لم يكن معهم أية أسلحة نارية - اقترب منى فهيد، ورجعت أنا خطوة إلى الوراء: وفتح الرجل ذراعيه ليحتضننى! لم يكن أمامى سوى لحظة واحدة، أقتله خلالها ، وإلا تعين على تسليم السلاح ، الذى هو دفاعى الوحيد ؛ ومن ثم تصبح حياتى تحت رحمة أولئك الأشقياء اللئام - طلبت منه أن يتقدم بشجاعة وجراءة. لم يكن - أمامى متسع من الوقت لإخراج الطلقة، كان المسدس ما يزال معلقا فى عنقى بواسطة شريط قوى: وجهت عقب المسدس ناحية يدي فهيد - أمسك فهيد السلاح ! وهنا أطمأن الجميع على حياتهم وعلى الغنيمة أيضا: شد فهيد الشريط وقطعه . ثم جاء بعد ذلك رفيقه سالم ؛ وجردونى من كل الأشياء التى كانت معى؛ وهنا وقع جهاز البارومتر بين أيديهم لأول مرة؛ ثم أخذوا بعد ذلك كيس نقودى، ذلك الكيس الذى سبق لعبد الله السروان أن أخذه منى ليضعه فى صدره التركى يوم

أن كنت فى خيبر- وعندما تأكد سالم أن الكيس ليس فيه ريات أو أية نقود أخرى، أعاده ثانية إلى حليفه فهيد؛ الذى أخذ أيضا جهاز قياس الحرارة (الترمومتر) الذى كنت أحتفظ به فى جيبى: ذلك الجهاز الذى لم يجدوا فيه سوى لعبة من الخشب والزجاج ، وبالتالى أعاده إلى مرة ثانية، وهم يدعون أنهم لم يأخذوا منى شيئا غير هذا الجهاز ! ثم جلس أولئك اللصوص ليقسموا الفريسة. كان الواقفون مازالوا غاضبين ؛ وراحو يشتمونى ويسبونى ويعنفونى، وينتظرون وقوف سالم ليبدأ تقطيع النصرانى إلى إرب صغيرة.

كان سالم هو وحليفه فهيد أخطر العرب الذين التقيتهم فى حياتى؛ السبب فى ذلك أن الإنسانية الطبيعية لأهل الجزيرة العربية كانت فاسدة داخل هذين الشخصين، بسبب العدى القوية التى انتقلت إليهم وأصابتهم من مدن الحكم- رأيت بنفسى كيف كان ذلك الشريف اللص يخص نفسه، وبكل وقاحة، بأفضل الأشياء المسروقة! أدار سالم ماكينة المسدس فى يده: لقد سبق له مشاهدة مثل هذه العدد التركية فى مكة. ولكنه عندما كان يعد أطراف الطلقات التى فى خزنة المسدس، خاب أمله؛ وراح يشكر الله (سبحانه وتعالى) الذى نجاه وخلصه من تلك الميئات الست! راح يتفحص هذه الآلة الخطيرة ، وراح يحمل قفى ويطيل النظر إلى؛ وراح يوازن فى داخله مسألة عدم فتح نيران ذلك المسدس على النصرانى. " إخص - إخص!، صاحت بعض الأصوات المعادية، نظروا، كيف كان يحمل معه مسدسا ليقتل به المسلمين! هيا تعالوا، وسوف نقطعه إربا إربا- عجبت لهؤلاء النصارى الملعين، الذين تمتلئ بواخلهم بالرغبات الشريرة! - يأنت! كم مسلم قتلت بهذا المسدس؟ " أيها الأصدقاء، أنالم أفتح نيران هذا المسدس فى أرض العرب- ياسالم- تذكر عين الزيمة! لقد جئت إلى بسكينك لتقتلنى ، لكن هل رفعت عليك هذا المسدس؟ أشكرا الله إذن! وتذكر العيش والملح ياسالم."

- طلب سالم من رفيقه فهيد تفريغ المسدس عن طريق إطلاق الرصاص الموجود فيه؛ وخشيت أن يجعل فهيد منى هدفا له. أطلق فهيد الطلقات الأولى فى الهواء؛ كانت خزينة المسدس معمرة بالذخيرة منذ مايقرب من العامين؛ ولكن أمكن إطلاق الطلقات

الواحدة بعد الأخرى، وكان لإطلاق ذلك الرصاص نوى هائل ! وبخاصة بين جنابات هذا المكان الصخري . قال سالم بعد أن نهض واقفا : " أبق على واحدة من تلك الطلقات! " تلك الطلقة الأخيرة كان يحتفظ بها لى ؛ وأحسست بالبؤس لأنى سوف أموت هنا بأيديهم البربرية وبلا دفاع. " قال سالم من جديد : هل كل شىء على مايرام يافهيد؟ وتبقى طلقة واحدة. "

أطال سالم النظر إلى، وربما كان يشعر بالضيق والقلق، لأنى لم أقل له دخليك dakhilak: هذا يعنى أن هدوء الكافر جر عليهم القلق والمتاعب . وعندما أحس سالم بالتعب ، ذهب للجلوس على الأرض ثم نادانى ، " قال: أجلس بجانبى . " - "أنت تسمع كلام هؤلاء البشر المتوحشين ؛ يجب ألا يغيب عن بالك ياسالم، أنك ستكون مسئولا عنى أمام الشريف. " - " الشريف سيعدمك أيها النصرانى ! الله يلعن اليهود والنصارى. " قال بعض الجمال: " كنت فى مأمن فى بلدك، وكان بوسعك أن تظل هناك؛ ولكن طالما أنك جئت إلى أرض المسلمين، فذلك يعنى أن الله قد وضعك فى أيدينا كى تقتلك. إذن الموت للنصارى كلهم ! ولتحترق فى جهنم أنت وأبيك يا شيطان. " قلت لهم: انتبهوا !أيها الرفاق الطيبين- أنتم تعتقدون بجهلكم ،أننى سوف أعدم غداً؛ ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو أن الشريف قدرنى تقديرا يفوق تقديره لكم جميعا، أنتم يامن تسبونى وتشتمونى اليوم! صدقونى! سوف يستقبلنى حسين كواحد من العلماء ؛ ولكن معكم أنتم ياعامة الناس، أيها الرعايا، سوف لايعيركم انتباها. " صاحوا مرة ثانية، سوف تعدم، أيها الملعون ! " ثم تفرقوا بعد ذلك ، وذهب كل واحد منهم إلى المكان الذى سبق أن توقف عنده.

- عقب ذلك مباشرة جاعنا ذلك الرجل المكى الخالص؛ الذى كان قد نزل من فوق راحلته على بعد مسافة قصيرة منا . من هذه الشخصية الناعمة، التى تعد زهرة بين تجار مكة - وبالرغم من رجائى لذلك الرجل، أن يتدخل بينى وبين سالم ، لم أستطع الخروج ولو بكلمة إنسانية واحدة؛ أدهى من ذلك أن هذا التاجر المكى امتنع عن الشر. أطال ذلك التاجر النظر إلى ؛ ثم تخلى عنى عائدا إلى حريمه مرة ثانية. ورحت أنظر

إليه وهو يتعد عني، في حين كان الشريف اللص يعنفني ويوبخني ويسبني ،لأنني أخفيت الأشياء وأخفيت المسدس أيضا- أثناء ذلك التوبيخ تلقيت صدمة! وشعرت بالحدز إلى حد أني فقدت الإحساس بالدنيا من حولي: سقطت على الأرض مغشيا علي وأحسست بجسمي يرتعد؛ وخطر ببالى أنهم أصابوني بجرح قاتل أو طلقة قاتلة! والسبب في ذلك أني عجزت عن سماع كل ما يدور حولي، كنت أرى الضوء أمامي كثيفا ومربكا. ولكنني عندما بدأت أعود إلى صوابي من جديد، واستطعت رؤية الأرض لم أر عليها أى أثر من أثار الدم: أحسست بخدر يشبه خدر الموت عند منطقة أسفل العنق. وعلمت بعد ذلك أن فهيدا قد ضربني بمشعابه ضربة قاسية - ضربة ركز فيها كل قوته.

نظرت إلى الأعلى ووجدتهم جالسين بالقرب مني. وسألتهما في ضعف ووهن ،"لماذا فعلتم ذلك؟" فهيدا: "لأنك أخفيت المسدس." هل المسدس ملكي أم ملك لكم؟ كان بوسعي أن أفتح عليك النار وأرديك قتيلا! ولكنني تذكرت رحمة الله . كان يجلس بالقرب منا أحد أفراد القافلة ويتناول شيئا من الطعام،- كان ذلك الرجل من أولئك الذين لم يوبخوني أو يقرعوني: كان ذلك هو الرجل الذي حاول الهجوم على أثناء الليل، والذي جر على كثيرا من المتاعب والآلام. وفجأة أمسكت بيد ذلك الرجل وبلحيته؛ ووضعت شيئا من لحيته في فمي وقلت له: "كفى ما حدث أيها الرجل! فنحن بيتنا عيش وملح." قبل الرجل هذا الكلام، ولم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك . ولم أر بين هؤلاء الناس خائنا لوعد العيش والملح سوى سالم- ولكنه كان من الشخصيات الروحية.

- جاعنا بعد ذلك شخص كان يركب حمارا! هذا الشخص اسمه عبد العزيز! فقد سمع عبدالعزيز ومعبوب أصوات الطلقات النارية ، عندما كانا جالسين خلفنا على بعد مسافة قصيرة! والسبب في ذلك، أن أولئك الذين كانوا متوجهين إلى الطائف، وصلوا إلى ذلك المكان أثناء الليل؛ ولم يكن عندي علم بذلك . كان معبوب قد أرسل ذلك الشاب الصغير (الذي لا يستحق أن يحمل اسم البسام) ليعرف السبب وراء إطلاق النار، ولكي يعرف أيضا ذلك الذي حدث للنصراني،- وهل مازال على قيد الحياة أم لا؟ وعندما أبصر عبدالعزيز المسدس في يدي سالم، وعندما أبصر أن سجينه(أسيره)

ما زال حيا تساعل، عن الأسباب التي جعلت سالم يأخذ مسدس الرجل؟ قلت له: هل ترى مدى تهديد هؤلاء الجهلة لى: قل لهم شيئا نيابة عن عمك عبدالله البسام. ولكنه بقسمات وجهه المتشدده تشددا مريرا قال: "هل أنا فرنجى؟" ثم ركب راحلته من جديد، وابتعد مختفيا عنا.

بعد هذه الأحداث؛ وبعد أن أصبحت الغنيمة بين يدي سالم، وخوفا منه أن تضيع منه هذه الغنيمة فى الطائف، غير رأيه وقرر إرسالى إلى جدة على ناقه البسام. ها! يا خليل، لقد أصبحنا إخوانا الآن؛ يا خليل، ألسنا أصدقاء طيبين الآن؟ لم يعد بيننا أى شىء من القلق أو الإزعاج. مارأيك؟ هل تود أن نرسلك إلى جدة، على أن أركب أنا بنفسى معك على الناقة؟ أجبت، أنا ذاهب لزيارة الشريف فى الطائف؛ ولكى تقيم على أنت الاتهام أمامه وتبرئ نفسك؛ سيضعونك فى السجن فى جدة. قال بعض الواقفين: "تركوه يذهب إلى الطائف."

- وصل مراسل من عند محبوب، يطلب من كل من سالم ، و خليل وفهيد الحضور إليه وبينما كنت أمشى متجها إلى المكان الذى فيه محبوب، نظرت إلى الوراء ووجدت فهيدا مشغولا بتفتيش خرج الجمل - ثم تبعنا بعد أن انتهى من ذلك التفتيش. كان البسام الشاب جالسا فى ظل صخرة مع محبوب - "قال محبوب -": هل أنتم رجال؟ هل أنتم رجال؟ من الذى تعامل مع هذا الغريب بهذه الطريقة! حكيت له كيف سرقونى وجربونى من أشياءى ، وحكيت له عما لا قيته على أيديهم: كنت أعانى (وإلى فترة طويلة بعد ذلك) من الضربات التى وجهوها إلى عنقى . محبوب: "ياشريف سالم، مطلوب منك إحضار هذا الغريب أمام مولانا الحسين فى الطائف، وألا تسيئ إليه بعد ذلك. كيف تسرق إنسانا وتجرحه وهو أمانة لديك ومسئول عنه، وتتصرف تصرف اللصوص من البدو؟ ولكنى لأظن أن البدو يمكن أن يفعلوا ذلك الذى فعلتموه أنتم." سالم: "أليس هذا نصرانيا! ولكنك سوف يتعين عليك تقديم أسباب هذه المعاملة السيئة أمام مولانا الحسين:" ثم صرفنا محبوب بعد ذلك ؛ وعدنا إلى مكاننا مرة ثانية.

خطر ببالي أن أعود ثانية إلى معبوب : كان الرمل من تحت قدمي مثل النار الحارقة، إلى حد أني كنت أجتو على ركبتى بعد كل بضعة خطوات كي أذوق طعم الغوث والراحة ولو للحظة واحدة. كان معبوب واحداً من حملة مظلة الشريف ؛ كما كان أيضا خادما أميناً لأخيه المرحوم الشريف السابق. "تسألت ، ما الذى جعله يتخلى عني إلى الآن؟ أوكيف له أن يعهد بي إلى هذا السالم السفاح! الذى ينعته هو بأنه الشريف Sherif المجنون mad ؛ هل جاء يطمئن إلى أنى سأصل إلى الطائف وأنا على قيد الحياة؟ أنا الآن بلا أية وسيلة من وسائل الدفاع، وقد يطعننى عند أى منعطف من المنعطفات ؛ هل ستركب معي على الناقة!" يا خليل، أنا لا أستطيع الركوب على سرج الجمل بسبب المرض والضعف. "وعندما قلت: إتنى سوف أخفف من ألامه رد الزنجى المحترم قائلاً: "هذا بعيد عني تماما !لأن هذا هو واجبي ، نحو مولاي الشريف : ولكن إن كان لديك علاجاً لمرضى، فأنا أرجوك ألا تنساني في الطائف." - كان البسام الشاب يعاني من الحمى . وقد أصابته تلك الحمى عند الظهيرة؛ وهذا هو الذى لم يتكلم مؤخراً ولو كلمة واحدة دفاعن الفرنجى وحياته، ها هو يلجأ إلى الفرنجى من جديد كي يشفيه من مرضه. رددت عليه تقول في الطائف! لو كان هذا الآدمى قد ساعدنى فى بداية الأمر، إرضاء لعمه، لماكنت قد توانيت عن تقديم العلاج. ومع ذلك، وعدته بأنه إذا مارافقنى الليلة، فسوف أعطيه فى صباح الغد دواء يقضى على الحمى: ولكن العرب لايتقنون بالوعود طويلة الأجل.

تمددت إلى ما قبل الظهر، وعندها سمعت أننا سوف نرحل عن المكان؛ وهنا طلب منى ذلك البسام الأحقق الوقوف والمساعدة فى تحميل السجاد على جملة. لم أمتنع عن تنفيذ ذلك؛ ولكن كل قوتي كانت قد خارت؛ ولكن معبوب، راح يلوم ذلك البسام على تهوره، وطلب منى البقاء فى الظل. ركب معبوب جالسا فوق السجاد؛ وعندما وقف به الجمل، كان ذلك العبد الزنجى الثقيل على وشك السقوط من فوق الجمل. وهنا سألته مرة ثانية، ألايتركنى أويتخلى عني ثانية؟ وطلبت منه أن يتذكر تلك الساعات السوداء الكثيرة التى أمضيهاها على الطريق.

عدنا إلى منزلنا على وجه السرعة؛ هذا المنزل كان عبارة عن مجرد شجرة فقط. وجدت ان أفراد القافلة قد رحلوا عن المكان؛ ووجدت أيضا أن الشريف اللص، الذى

بقى بجوار الناقة كان يتأفف من تأخيري: ركب الشريف اللص فوق سرج الجمل، في حين ركبت أنا في الخلف. كان مع سالم رفيق جديد، كان يركب معنا، وهذا الشخص يدعى إبراهيم وهو من المدينة (المنورة) ولكنه يقيم في جدة منذ فترة وجيزة، هذا الرجل سوف يعود إلى جدة على الفور بعد أن ينتهي من أداء العمرة. وعندما عرف إبراهيم اسم البلد الذي أنتمى إليه بدأ يقول: "إن إنجليزيا رافقه في الباخرة إلى جدة. وأن ذلك الإنجليزى، والله، كان مسلماً كاملاً وطيباً بمعنى الكلمة! وأن ذلك الإنجليزى دخل مكة بالأمس، وقام بأداء الفرائض والطقوس الدينية. وهذا الإنجليزى الذى أحدثك عنه يا شريف سالم، يتجول الآن في مكة، لزيارة الأماكن المقدسة." كان إبراهيم واحداً من أولئك الذين كانوا يرقدون معنا تحت الشجرة التى كنا نستظل بها، والتى وصل إليها من بعدنا، ومع ذلك فقد استهزأ بى مرات كثيرة، وكان يصيح فى محتقرا إياى، "يا كلب! يا كلب! أنت كلب!" ولكن عندما استأنفنا المسير بدأ يبتسم للنصرانى ابتسامة هى خليط من الصداقة والعداوة: ثم قال فى نهاية الأمر: "أنت كنت فى حائل؛ ألا تتذكرنى؟ لقد تحدثت معك هناك، فى حائل؛ وأنت خليل." يا لفرابة هذه اللقاءات عندما تتكرر فى هذه الجزيرة العربية الخالية والواسعة الشاسعة! ولكن التردد على حائل بصفة دائمة أمر وارد: وقد أمضيت شهراً كاملاً فى حائل. هذا الرجل خفيف الوزن، من أهل الجزيرة العربية، سوف يقطع رحلة طويلة على ظهر ناقته، وبالخطوة المعتادة، وتصل إلى مئات الفراسخ لمجرد هدف بسيط: وهو طوال هذه الرحلة لا يقلقه أى شىء سوى بعده عن أسرته وعن أطفاله. "أنت إذن عرفتى منذ زمن طويل فى هذه البلاد؛ والآن بقل أمام كل هؤلاء الغرباء، إن كان لديك ما انتهمنى به." ليس عليك أى شىء، سوى دينك غير السليم.

ركب إبراهيم واحداً من الإبل؛ كان رديفه واحداً من الجمال؛ وكان ذلك الرديف يتوعدنى خلال وقفات الكلام، بأن يروح يلوح لى بعصاه مهدداً: وعندما كان يمشى كان يقفز خطوتين إلى الأمام كما لو كان يستعد للهجوم على الكافر. رؤية سالم لأمثال هذا الجمال وهو يتهددنى كانت تشكل لى نوعاً من الخطر، إذ إنه يود أن يكون هو الفريد فى هذا التهديد وربما أخرج سكينه مرة ثانية: وعليه قلت لإبراهيم (وأنا أمسك ذقنى

بيدي): " بحياة لحيتك يارجل! وبحق معرفتنا القديمه فى حائل! " رضى إبراهيم عن تلك الإشارات؛ وبدأ يكشف للنصرانى عن وجه يحمل المزيد من الود والصدقه. " ياإبراهيم ، هل سمعت أن الإنجليز أناس سيئون؟ " لا، كلش kullesh طيب tayib " بمعنى لم أسمع عنهم سوى كل شىء طيب. " هل هم أصدقاء السلطان أم أعداؤه؟ " هم أصدقاء: الإنجليز يساعدونه فى الحرب. " سالم: " حسن، يا خليل ، ماعليك من هذا الأمر؛ خبرنى ، ماهو دين النصارى؟ كنت أحسب أن ذلك شىء مريع! " " خاف الله وأحب جارك، هذا هو الدين المسيحى. طريق عيسى بن مريم، الذى هو من روح الله. " (...)(*) .

التقىنا كثيرا من المسافرين على الطريق؛ كان البعض منهم يتفوهون بالشتم والسب ونحن نمر عليهم، وكان سالم يصيح السمع إلى كلامهم البذئ: كان ذهن سالم يتقد مع كل كلمة جديدة. " لاتصغ إليهم ياسالم، إنهم هم النصارى " ورد الرجل رد البدو المترجلين قائلا: "إى، بالله، إنهم بنو وكفار؛ ولكن هذا هو حال جهلهم هنا فى هذه الأجزاء من البلاد " لم ينس رديف إبراهيم مطلقا حقه أو غله؛ كما أن مخ سالم بدأ يضطرب من جديد: لأنى عندما قلت له: "إنك سوف تصدر إليك تعليمات غداً حول كل هذه الأمور: " صاح الرجل قائلا: " إنك تكذب مثل النصارى المنافقين، إن الشريف سوف يعدمك غداً بقطع رأسك، أو بشنقك. وأنا ،ياإبراهيم ، أمل أن يكافتنى مولانا بإعطائى الناقة. "

وصلنا إلى مجرى من مجارى السيل، وكان ذلك المجرى وسط صخور الجرانيت ، وتنمو فيه بعض الأعشاب ونباتات النعناع؛ وفى هذا المجرى يمكن الوصول إلى الماء العذب عن طريق الحفر باليد. عابرو السبيل المسافرين إلى الطائف ينزلون فى هذا المجرى فى فترة العصر، كى يشربوا ويتوضئوا استعدادا للصلاة. ويقال إن هذه

(*) حوار تضمن عبارات بها مساس بالدين المسيحى رأينا استبعادها. (المراجع)

المنطقة هي عكاظ 'Okaz'، أو إن شئت فقل: البرلمان السنوى ومكان التفاخر والتباهى والمدح الخاص فى الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام: هذا المكان

يتراوح ارتفاعه عن مستوى سطح الأرض بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ قدم. وعندما توقفنا مر علينا كل من عبدالعزيز ومعبوب؛ وهنا اتجهت لأسأل البسام الشاب إن كان سيركب معى هذه الليلة أم لا، وأننى سوف أكافئه على ذلك؟ واعتذر لى عن ذلك، نظرا لأصابته بالحمى: ولكن ذلك لايمنعه من الركوب على حمار من الحمير- كان سالم مشغول الفكر والبال ويود معرفه مادار بينى وبينهما؛ وركبنا وواصلنا المسير.

بدأنا الآن نصعد ونسير بين الأماكن الضيقة التى بين الصخور؛ ثم وصلنا إلى طريق مرصوف، امتد معنا لأميال عدة، وفيه منازل وممرات جرى فتحها عن طريق النسف بالمتفجرات! هذا الممر جرى فتحه مؤخرا بواسطة المهندسين الأتراك وعلى نفقة الحكومة: وبعد ذلك بدأنا نسير فى ذلك المنحدر اللطيف الذى يوصل إلى الطائف.

كنا قد سبقنا القافلة البطيئة وأصبحنا وحدنا الآن فى الصحراء: كان إبراهيم مرافقا لنا، وكنت أتشكك فى ذلك الرجل. قالوا: إنهم سوف يسبقونا ويكونوا فى المقدمة: وكانوا يضربون ناقتى البطيئة الضعيفة ويجعلونها تجرى؛ وكان ذلك يشكل لى نوعا من القلق والتعب- وكان سالم قد رد على أولئك الذين كانوا يتساعلون عن سبب تسرعنا وعجلتنا، وعن سبب استباقنا لهم فى الممر بأنه يود التخلص من النصرانى؛ وراح سالم يهمهم ويغمغم بكلمات وحشية، إلى حد أنى بدأت أتشكك فى أن أولئك الذين كانوا يركبون معى كانوا مختلفين فيما يتعلق بقتل النصرانى، عندما يكونون بعيدين عن أنظار الغير. لم يترك أولئك اللصوص لى من أشياء سوى مطوأة صغيرة: وعندما وصلنا إلى السيل، كنت قد ربطت فى غترتى حجرا، كى أستعمله سلاحا إذا ما تطلب الأمر ذلك.

أخيرا غربت الشمس: وفى الحال ظهر الشفق؛ وطلب إبراهيم من سالم، أن يشرح له السبب الذى جعله يسبق على هذا النحو، وبلا توقف، سالم: "هيا بنا نسبقهم وننام ساعة عند الظهر، إلى أن تلحق بنا بقية الإبل- يا خليل، اصح ولا تتم!

(لأنى ربت على ظهره،) أوه! افتح عينيك! هذا طريق خطر عليك: ولكنى واصلت النوم وكنت معرضا يوما لخطر الوقوع من فوق الناقة: كنت من حين لآخر أنظر إلى الأعلى وأراه ينظر إلى الخلف ويطل النظر إلى ! وعليه كان يقول بطريقة ودية لطيفة : هل نمت يا خليل، يانصرانى ؟ ما هذا ! أنا عندما قلت لك: لا! العجيب أنك لم تخف!- أليس الله فى كل مكان؟" إى(*) ! والله يا خليل. هذه الكلمات الدينية لها وقع سلس عند العرب، كما أن الدين هو الذى يفاجئ قلوبهم القاسية ويباغتتها - "عجيب أنك لاتخشى الموت!" أنا لم أعش مسلما ، حتى أخشى الموت أو أخافه. "نظر إلى ذلك الشقى! ونظرت أنا ثانية إلى وجهه المتجهم: كان أحد خديه معلم بثلاث شلخات! وهذا عرف سائد فى هذا الجزء من البلاد، كما هو الحال فى إفريقية الزنجية؛ إذ عن طريق مثل هذه العلامات يمكن معرفة القبائل التى ينتمى إليها الأفراد.

هواء المساء يشرح الصدر هنا، وفى هذه الصحراء، فى فصل الصيف. مررنا هنا بمسقى يقع بين الأشجار، كان بوسعنا التوقف فيه؛ ولكن إبراهيم لم يلق بالآ لندائنا! كان إبراهيم قد سبقنا فى الظلام. وهذا هو سالم ، بالرغم من الكلام الجميل الذى دار بينهما مؤخرا، يقول عن إبراهيم: إنه "رفيق وقح" بل إنه لعنه أيضا. "من هو ذلك الرجل، ياسالم؟ كنت أحسب أنه صديقا من أصدقائك". ما الذى يجعله صديقا لى؟ يالهذا الشيطان! كل ما أعرف أنه من المدينة (المنورة) .- وكل مافى الأمر أننا انضمنا إليه أثناء الظلام؛ وقال إبراهيم: إنهم سبقوا كى يصلوا. ثم قال: وهذا المكان طيب ويناسب ذلك؛ هيا بنا ننزل عن راحلاتنا هنا ونتناول طعام العشاء. كان معهم الخبز، وكان معى أنا التمر: جلسنا لناكل مع بعضنا البعض. ولم يبعد عنا أثناء الطعام سوى الرديف ، تخوفا من تناول الطعام مع واحد من الكفار : ولكن ، عندما بدأ ذلك الرديف يشاركنا تناول الطعام بناء على طلب من الآخرين، تناقص حقه وغله. سألت إبراهيم، إن كان يعرف عائلة النجومى فى المدينة المنورة؟ قال: حسن، أنا أعرف هذه العائلة. إنهم ليسوا سوى حدادين.

(*) إى بكسر الهمزة تعنى «نعم» حسبما ورد فى القرآن الكريم. (المترجم)

ركبنا إبلنا وواصلنا السير، عبر السهل الواسع؛ وشاهدنا الكثير من ومضات النار التي شَبَّها البدو الرحل في المناطق التي يخيمون فيها. كان من رأى سالم أن نغير خط سيرنا ونتجه صوب جماعة من أولئك البدو الرحل، حيث يمكن لنا، على حد قوله، شرب شئ من الحليب. كان ذلك يشكل خطرا على الكافر، وقد سررت عندما تجاوزنا هؤلاء البدو الرحل ؛ هذابالرغم من أنى كنت أود رؤية أعراب هذا الجزء من البلاد - وصلنا في النهاية إلى المنوخ(*)، أو إن شئت فقل: مكان التوقف في منتصف الطريق؛ وفي عتمة الليل استطعت رؤية مبنى عال مبنياً من اللبن، كما شاهدت أيضا مجموعة كثيفة من الأشجار . وعلى مقربة من ذلك المبنى شاهدت أيضا بعضا من القصور والهجر الواقعه على أطراف الطائف وتستخدم في زراعة القمح . سمعنا الحمير أثناء نهيقها والكلاب وهى تنبح كل ذلك كان فى منازل البدو الرحل من حولنا. نزلنا فى هذه المنطقة ورقدنا على الرمل ملفوفين فى عباءاتنا (بشوتنا)؛ ونمنا مدة ساعتين : ثم بدأت بعد ذلك طوايير القوافل البطيئة التى كانت تسلك الطريق نفسه تتوافد علينا من جديد: كان الجمال نائمين فوق أحمال إبلهم. ركبنا إبلنا واستأنفنا السير من جديد، وسبقنا تلك القوافل فى الظلام من جديد، ولكننا ضللنا طريقنا فى نهاية المطاف؛ وهنا قال إبراهيم ، إنهم سيواصلون السير إلى الطائف، دون الحصول على قسط من النوم؛ ولم نرا الرجل بعد ذلك.

ومع طلوع ضوء النهار تبينت أننا وصلنا إلى جدران أحد البساتين؛ ومع تزايد أنوار الصباح شاهدت مسورات حول أشجار الكروم وأشجار التين؛ ولكنى لم أشاهد إلا القليل من أشجار النخيل [الذى لايجود فى الطائف حيث الماء حلو وعذب والأرض حلوة أيضا]. ودخلنا عندئذ فى طريق - طريق من طرق الجزيرة العربية! وهذا أول طريق أخضر وشجيرات خضراء أراها بعد أن غادرت دمشق. مررنا على منزل أو منزلين مبنين على جانب الطريق؛ وبيوت ليست من اللبن مثل بيوت الجزيرة العربية ،

(*)المنوخ : بفتح الميم وضم النون، هو المكان الخاص الذى تترك فيه الإبل. (المترجم)

ولكنها مدهونة ومزججة مثل البيوت التركية. كنا بالقرب من الطائف؛ وقصدنا المنطقة الواقعة أمام فيلا الشريف ، التي أنشأ فيها وهو على قيد الحياة حديقة فيها كثير من الورود! [والأشراف هم أناس تربوا في إسطنبول Stambul] . - ولكن حديقة الفيلا كانت قد بدأت تتحلل وتذبل.

دخل سالم بالناقة إلى الحقل الموجود في الجهة اليمنى ؛ ونزلنا عن راحلتنا انتظارا لطلوع النهار، تركنى سالم وراح يتمشى ليستطلع ماحولنا ؛ وسمعت صوت بوق ، فقد كانت الطائف واحدة من الأماكن التي تتمركز فيها قوات الحماية. وعندما عاد سالم وجدنى نائما؛ وسألنى ماإذا كنت خائفا أم لا؟ ركبنا ولاقينا شيئا من الصعوبة في قيادة الجمل عبر غدير الماء الدافئ، الذي كانت مياهه جارية وصلنا بعد ذلك إلى هجرة من هجر الأشراف وهذه الهجرة تقع على مقربة من الطائف؛ وأوقفنا النياق قبيل طلوع الشمس بلحظات أمام بيت من بيوت أبناء عموم سالم.

نادى سالم عليهم بالاسم، وهم في داخل المنزل. ولم يرد عليه أحد. كان الرجل الطيب صاحب البيت قائما برحلة هو الآخر؛ وبالتالي لم تستطع زوجاته الخروج لاستقبالنا . ولكنهن عندما تعرفن صوت سالم أرسلن صبيا كى يحمل أشياءنا إلى داخل المنزل؛ وتبعنا ذلك الصبي . هذا البيت الفقير من بيوت مكة كان عبارة عن حوش له جدران عالية مبنية من اللبن ؛ وفيه غرفة واحدة أوغرفتين مبنيتان عند مستوى أقل من مستوى ارتفاع السور. وجدنا في ذلك البيت امرأتين (من الأشراف)؛ وكانت المرأتان تصنعان أكلمة (لحفا) من ذلك الصوف الخشن والخيوط الملونة مثلما سبق أن شاهدنا في بلدة تيماء.[الجزء الأول] - هذه الأسرة كانت من الأسر البدوية المترحلة؛ والسبب في ذلك أن الحريم قلن لى أنهن يعشن في خيام ، طوال أشهر عدة من العام، وأنهن يشربن ألبان الإبل والماشية الصغيرة، أو إن شئت فقل: ألبان الماعز والأغنام . كان فقر البيت ويؤسه يوحيان أيضا بأنه من بيوت البدو الرحل: والسبب في ذلك أن رب البيت الطيب لم يترك لهن شيئا سوى وجبة صغيرة؛ وأنهن خبزن من تلك الوجبة

الصغيرة كعكة، أوإن شئت فقل : فطيرة لايزيد وزنها بأى حال من الأحوال عن أربعة أوقيات ، كى يقدمنها إفتارا للضيوف. كانت أصواتهن مخنوقة بسبب الجوع ، وكانت التهديدات تتخلل تلك الأصوات؛ ولكن هؤلاء النساء النبيلات كن يتكلمن معنا باعتدال أنثوى ثابت ومتزن: وهنا رحت أتعجب لتلك السلوكيات الطيبة، التى لم يسبق أن رأيتها من قبل فى الجزيرة العربية. هؤلاء الناس هم ذرية محمد الفقراء. وسلطان الإسلام يقبل عن طيب خاطر وبوقار شديد يد أى إنسان من أولئك الأشراف مهما كان قدره؛ وسلطان الإسلام يُقبلُ أيضا يد كبير أسرة الأشراف فى مكة .

اتفقنا فيما بيننا ألا نقول أى شىء عن دينى الغريب. تحدث سالم عنى كما لو كنت غريبا التقانى على الطريق. كان غريبا على، فى بلاد الغيرة هنا، أن تستقبلنى امرأتان . هاتان المرأتان (إحدهما كبيرة والأخرى شابة) كانتا زوجتين شقيقتين لواحد من الناس(*) . هذا المكان الفقير لم يكن فيه أى شىء من البن أو القهوة؛ ولكنهن بناء على طلب سالم أرسلن يقترضن بنا من الجيران: وعاد الصبى ومعه ست أوسبع حبات من حبوب البن؛ ومن هذه الحبات الست أوالسبع غلوا لنا ، فى إناء من الفخار (مثلما تُصلح القهوة هنا) خليطا غير كثيف من القهوة. لم نستطع شرب ذلك الخليط ! وبعدما طلعت الشمس، قال سالم: إنه سوف يذهب إلى مجلس الشريف؛ ثم تركنى - سألت المضيفة الكبيرة زوجة الشريف . وأجابتنى قائلة: " حسين رجل طيب ، وإنه عاش فى إسطمبول منذ صباه وشبابه ؛ وهو أفضل المتعلمين قاطبة هنا: ولكنه ليس شبيها بأخيه عبدالله ، الذى تولى قبله ، ومات هذا العام ، تغمده الله برحمته !كما أن الشريف حسين ليس أبيضاً مثل أخيه عبدالله؛ والسبب فى ذلك أن والدته حسين كانت عبدة من (الجلأ**). - يبدو أن مسألة اللون هذه كانت تقلقهن ،لأنهن كررن قولهن: " كانت أمه عبدة- ومع ذلك فإن حسين رجل طيب وعادل ؛ وطيب القلب".

(*) كذا .

(**) الجلأ: بكسر الجيم وتشديد اللام، سلالة من السلالات الحبشية. (المترجم)

أمضينا ساعات طوال بصحبة تلك النسوة (اللاتى ضربهن الجوع) ويتنهدن ألما، ونظرا لعدم وجود مايشغلهن فى منازلهن ، أثناء نومي، فقد رحن يمارسن عملهن المعتاد فى خيوط الصوف الخشن- كان الوقت قد شارف على الظهر، وعندها دخل علينا سالم. " قال الرجل: أخبار طيبة !ياعم خليل: مولانا الشريف أمر بأن تسكن وتنزل فى منزل واحد من الأتراك Tourk. هيا، قف! وهيا بنا إلى هناك؛ والمسافة التى سنركبها قصيرة جداً." حمل سالم بنفسه الخرج والزكائب الأخرى، ووضعها على الناقة المنهكة؛ ورحلنا عن المكان . ومن الأرض المرتفعة التى وصلنا إليها تراءت لنا الطائف؛ المنظر يوحى بالحزن، نظرا لأن المباني هنا كلها من الأحجار التى لها لون الإربواز. قصر الشريف الأبيض يقع عند مدخل البلدة، والمنزل مكون من طابقين ، وأمام المنزل يوجد مبنى جديد فاخر له شرفات شبكية الشكل، وسقف ذلك المنزل فيه كثير من المداخل؛ هذا القصر هو قصر عبدالله باشا، شقيق الشريف حسين. وفى وسط البلدة يظهر مبنى ضخم كبير وعال؛ هذا المبنى يشبه السجن؛ هذا المبنى هو ثكنات الجنود.

- هاهى البلدة أمام عيني !هذا منظر بديع يتراعى لعيني بعد تجوال فى الصحراء دام قرابة العامين. على جانب الطريق الذى نسير فيه ، شاهدت الرجال وهم ينسفون (صخور الجرانيت) كى يجرى استعمالها فى البناء- الطائف تقع على حدود المنحدر الصخرى، الذى سبق لى أن تجولت فيه فى الفترة الأخيرة، والبلدة تبعد حوالى مائة فرسخ عن القصيم. شاهدت أيضا منظرا أسود اللون وفيه الكثير من الصخور الوعرة، وعامرا أيضا بالجبال المنخفضة ؛ هذا هو المنظر الذى شاهدته فيما وراء بلدة الطائف . دخلنا مرة إلى الطريق بعد أن خرجنا من مجرى السيل، وعبرنا نهيرا ماؤه فاترا؛ هذا النهر ينبع من الجبال التى تهب عليها الرياح الموسمية، وهذا النهر يعد واحداً من العيون العامرة بالماء الوفير الذى يستخدمه الناس فى رى هذه الواحة القديمة. هؤلاء هم السقائون - ذلك المنظر المألوف فى بلدان الشرق! يمشون مترنحين وهم يصعدون المطلع حاملين الماء الذى يجلبونه من ذلك النهر؛ هؤلاء السقائون يحملون الماء فى قراب مصنوعة من جلد الماعز؛ بعض أولئك السقائين لهم أكتاف تبلغ من القوة

حدًا تستطيع معه أن تحمل ما يعادل حملا من أحمال الإبل ! التقانى فى هذا المكان جندى تركى، وكانت تعلو وجهه ابتسامات وقحة؛ وقال: إنه جاء لتوصيلى إلى البيت الذى سأنزل فيه. هذا الجندى، وهو سورى من البلاد التركية المحيطة بأنطاكية، هو المراسل العسكرى لواحد من ضباط الشريف حسين: هذا الضابط سوف يستقبلنى فى بيته وذلك بناء على أوامر من الشريف حسين.

البوابة التى دخلنا منها هنا يطلقون عليها اسم باب Bab السيل؛ فى الداخل توجد أرض فسيحة أمام قصر الشريف المتواضع. الشوارع هنا ليست ممهدة تمهيدا جيدا ، وأفضل المنازل هنا هى تلك التى طلائها أصحابها بالجبس الأبيض: منظر هذه البلدة، التى تشغل عن آخرها خلال شهور الصيف ، يوحى بالقدم والدمار والانتقاض. الطرق هنا غير ممهدة: ونرى هنا كلاب الشوارع التى تشتهر بها البلدان التركية . كان هناك خادم من خدم الشريف ينتظرنى فى الشارع ، ثم اصطحبنى إلى خوخة(*) : طلب الجندى منى النزول عن الناقة ، وهنا أحمد الله! على أنه أرسل سالما لحال سبيله. قال الخادم المبتسم : سوف أحضرك فورا شوكة وسكينا؛ وقد طلب الشريف منى أن أسألك إن كنت تود شرب شىء من الشاى مع شىء من السكر؟- كانت تلك أفكار لطيفة من الأفكار المنزلية الإنسانية لأمير مكة.

وهنا اقتابوا الناقة التى أصابها إعياء شديد على إثر المسافة التى قطعتها وتقدر بما يقرب من مائة وخمسين ميلا، دون أن تحظى بأى شىء من الراحة أو الترفيه، اقتادوها إلى إسطبلات الشريف؛ وحملوا خرجى وزكائبى إلى الدور العلوى. كان المضيف، واسمه العقيد Colonel محمد Mohammed ينتظرنى عند مدخل البيت؛ ليدخلنى بعد ذلك إلى سكنه. كان الثوب الذى ألبسه ممزقا من فوق ظهرى، كما أن عباعى (بشتى) كانت قديمة وممزقة؛ كان شعرى طويلا ويتدلى من تحت الغترة (غطاء

(*) خوخة : يضم الخاء الأولى وفتح الخاء الثانية، عبارة عن بُوَيْب صغير داخل باب كبير، والكلمة فصيحة. (المترجم)

الرأس) إلى أن يصل إلى كتفائ؛ كما كانت لحيتى طويلة ومتدلية وغير مشذبة؛ كانت عيناى حمراوين، وشبه مغمضتين، كما كانت بشرتى المحروقة بسبب الشمس متشققة فى منطقة الوجه. وجلبوا لى حلاقا، وجرى تجهيز الحمام: وبعد كوب من الشاى، بذل العقيد الطيب جهداً فائقا كى يعيد شكلى إلى شكل بقية المواطنين المدنيين العاديين. وبينما كان الحلاق يقص الشعر ويهذه، راح ذلك المسئول التركى يضع على وجهى بعض المراهم المرطبة؛ وكانت يداه لطيفتان كما لوكانتا يدى امرأة. ولكنى لم أر إبطارا فى ذلك المكان! بعد ذلك ألبسنى ذلك الضابط، وأنا فى غاية التعب والإرهاق، لباسا عسكريا أبيض اللون؛ ووضع فوق رأسى طربوشا.

هذا الضابط الطيب، الذى كان اسمه ولقبه محمد خيرى أفندى، والذى هو ياور Yawer من ياوران الشريف حسين، قال لى: الخدمة مع الشريف (من حيث استمرار الحصول على الأجر) أفضل من الخدمة مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية): كان محمد افندى يحمل رتبة بمباشى Bim-bashy أو قائدا لألف رجل، فى الجيش الإمبراطورى. كان العقيد محمد من ولاية قونية Konia فى الأناضول. كان ذلك الرجل يكره المسئولين المفسدين فى إسطنبول، وكان يطلق عليهم اسم الخونة؛ والسبب فى ذلك هو تنازلهم فى محادثات السلام التى جرت مؤخرا عن بعض المناطق التى كانت داخلة ضمن الإسلام(*)؛ كان ذلك الرجل، يعجب من أولئك الباشوات الكبار الذين خانوا الجيش. كان الرجل ، من منطلق صراحته العسكرية يستنكر تلك الرذائل البيزنطية التى كان أولئك الباشوات يرتكبونها، كما كان يستنكر أيضا سكر السلطان المتوفى وعربدته! ذلك الذى كان يرد على لسان العقيد محمد، إنما كان يعكس ذلك الذى كان الضباط الأتراك يقولونه فى كل من مكة والطائف. ولكن الرجل كان يتحدث بكبرياء صادق، عن الحياة الرسمية فى وطنه؛ والتى يحافظ الناس فيها على السلوكيات التركية القديمة

(*) محادثات السلام هى تلك المحادثات التى انتهت الحرب الروسية التركية بما ترتب عليها من عقد معاهدة سان ستيفانو بين روسيا والدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ وفيها تنازلت الدولة العثمانية عن سيادتها الفعلية على بعض الولايات التابعة لها فى شبه جزيرة البلقان. (المراجع)

التي تتسم بالبساطة. حدثني محمد خيرى عن نشأته، كما حدثني أيضا عن المهمة التي ألقيت على كاهل أمه التي كانت تقول: "والدى، لايقول سوى الحق! ويكره كل مظاهر حياة الرذيلة." يتذكر محمد خيرى من طفولته ذلك اليوم الذى دخل فيه بعض الناس عنوة بستانا من البساتين، أثناء الليل، وسرقوا منه التفاح، والجلبة الكثيرة التي ترتبت على ذلك! هذا هو مايقوله الناس عن مزاج أولئك الأتراك! ولدى هنا كلام قليل، قاله لى رجل صادق، - وقد حدث ذلك بين التركمان والفلاحين الأتراك، فى قريته القريبة من أنطاكية. "عثر فلاح فى حقله على كيس من أكياس النقود؛ وكان ذلك الكيس مملوءاً بالنقود. ولكن هذا الرجل الذى لم يكن الحقد يعرف إلى نفسه سبيلا، وضع ذلك الكيس معلقا فوق عمود من الأعمدة، وراح ينادى فى شوارع القرية، 'هل تسمعون، ياجيرانى، من الذى ضاع منه ذلك الكيس الموضوع هنا؟' وعندما لم يجبه أحد، قام هذا الرجل المسن بتسليم ذلك الكيس الغريب للقس المسيحي؛ وطلب منه الاحتفاظ بالكيس إلى أن يظهر صاحبه ويسأل عنه."

- سمعت وقع أقدام قوية على درج السلم؛ ثم دخل على ضابطان تركيان. الضابط الأول طويل القامة، عسكري المظهر، وهو سُمي المضيف، وكان يلقيه بأنه شقيقه، هذا الضابط كان يشغل منصب الياور الثانى مع الشريف حسين؛ وكان الأصدقاء إخوانا فى السلاح طوال عشرين عاما. كان بصحبة ذلك الضابط أغا من الخيالة؛ هذا الأغا كان البانيا وعظام وجهه بارزة بشكل مخيف، وكان يعتمد على ذلك الشكل المخيف فى السيطرة على الجنود الهمجيين؛ ولكن هذا المسكين كان ألطف مما يوحى به شكله، إضافة إلى أنه كان طيب القلب. هذا الألبانى كان يتفاخر بأنه من سلالة الإسكندر الأكبر "ذى القرنين؛" ولكنه جاء لزيارتي من باب المجاملة، ومن باب أنه من جيران أوروبا. تحدث عما كان يدور بخله - حوالى خمس أو ست كلمات خرجت من فمه مرتبكة، وعلى شكل صيحة شجاعة: وعندما لم أستطع تجميع المعنى؛ نظرا لأنه كان يغمغم ببعض المصطلحات تخليدا لذكرى الإيطالى الأيونى، وتخليدا أيضا لهيلينى الحدود، راح يستعمل الأصوات والإشارات! وعندما بدأت تبدو عليه العظمة انشرح صدره لأنه كان يتحدث مع شخص غريب باللغات الأجنبية. وهذا النقيب (الذى لم يكن

يعرف القراءة أو الكتابة) كان يطلب منى أن أكتب له اسمه هو أيضا: محمد أغا الأرناؤطى أبو سماً شيرى، جوزياشى. هذا الرجل خدم فى هذه المنطقة سبع سنوات؛ ولكنه لم يتعلم كلام العرب المغمورين - كان يتفاخر بأنه يعمل ضمن خدمة السلطان العسكرية! بالرغم من أنه لم يتقاضى مرتبه إلا نادرا. هذا الرجل المحترم (قال لى) إنه كان قبل سنوات عدة قواسا kawas فى القنصلية الفرنسية فى كورفو؛ التى شاهد فيها المعاطف الحمراء الإنجليزية. "هاى إنجلي Angli - هو - هو! قال الرجل : الإنجليز (أقوياء بحق). ولكن الألبان، هو huh- أى الألبان أصحاب قلوب كبيرة! والقلب هو الذى يجعل الإنسان إنسانا! القلب هو الذى يحض الإنسان على القتال! أها! القلب هنا قوى وجريء هنا! ثم وضع ذلك الألبانى يده اليمنى على صدره الشهم الشجاع. هذا الصديق كان يبدو عليه الحزن والهم: فقد أبلغنى العقيد محمد أن زوجته توفت مؤخرا بصورة مفاجئة؛ وأنه هو الذى يعيش وحيداً مع أبنائه الصغار - ولكن محمد الأغا، كان فضوليا ويصعب إرضاءه، وكان مستوى فهمه وإدراكه أعلى بكثير من المضيف: كان يتكلم العربية بطلاقة ولكن على الطريقة التركية. هؤلاء الناس شهدوا مؤخرا تدمير الدولة (الامبراطورية العثمانية) فى أوروبا: قالوا لى: إن القائم حاليا نوع من الهدنة وليس سلاما؛ وقالوا لى أيضا: أن إنجلترا تقف إلى جانبهم، وأنها فى ذلك الوقت أرسلت جيشا من الهند عن طريق البحر - وأن هذا الجيش مرعلى مدينة جدة - وقوام ذلك الجيش حوالى مائة ألف رجل! يضاف إلى ذلك أن النمسا كانت تقف أيضا إلى جانب السلطان؛ وأنهم كانوا ينتظرون اندلاع الحرب من جديد.

قبيل المساء، وبعد أن تناولت وجبة تركية مع مضيفى، دخل علينا قواس الشريف حسين؛ كان ذلك القواس يحمل معه غيارا جديدا من الملابس، جاء به إلى - وعندما ألبسونى ملابس شيخ عربى؛ أخذنى العقيد محمد فى فترة الشفق ومر بى من أحد الشوارع لحضور مجلس الشريف : كان الطريق خاليا فى تلك الساعة من اليوم.

كان بعض أفراد الحرس البيشى Bisha يقفون على درج السلم؛ وقدموا لنا التشريفية ونحن نمر متجهين إلى مكتب ضابط الشريف: كان هناك بعض الرجال

المسلحين يقفون عند نهاية السلم من أعلى . وهنا وجدنا غرفة للانتظار؛ ثم تركنى ضيفي، ليتقدم هو صوب الشريف. ولكنه عاد بسرعة ليصحبني إلى داخل صالة المجلس؛ التي يجلس فيها الشريف أمير مكة بضع ساعات كل يوم - وذلك طوال وجوده في مقره الصيفي في الطائف - كنت أبدو مثل شيخ عربي كبير وسط هؤلاء المشايخ musheyikh. في هذا المكان يجتمع إلى الشريف يوميا كل من عليّة القوم والأعيان من المواطنين ، وكذلك الأعراب والأقارب؛ والسبب في ذلك، أن هذا المكان ، هو المجلس، أو إن شئت فقل: إنه برلمان القهوة عند كل أمير من أمراء الجزيرة العربية؛ هذا الأمير كان من السهل الوصول إليه ، وله شعبية بين الناس، مثلما كان العقيد محمد نفسه.

سرعان ما دخلت الغرفة من الضيوف: ولم يتبق في الغرفة سوى الشريف ومعه شقيقه الأصغر عبد الله باشا، وهو رجل أبيض البشرة قوى البنية مثل الأتراك، وصاحب سلوكيات عربية لطيفة. حسين باشا [كان الشريف يحمل ذلك اللقب التركي] رجل سمح الوجه، وصاحب همة ونشاط باديان في عينيه وصاحب سلوك إنساني؛ وهو يتكلم بصوت معتدل بشوش: وعمره يقدر بحوالي خمسة وأربعين عاما. كان يبدو من جلسته الرجولية، رجلا فارعا الطول وكانت بشرته بنية اللون؛ وكان صدره عريضا، وكبير الأطراف وطويل الساقين أيضا. كان الشريف يرتدي لباسا مدنيا من الألبسة الشائعة في المدن العثمانية، هذا اللباس كان عبارة عن جبة Jubba طويلة زرقاء اللون. كان الرجل يجلس منتصب القامة على الديوان كما لو كان رجلا أوروبيا، وكان محياه جذابا ؛ وكان يدخن التبغ في غليون مثل " قدامى الأتراك." هذا الغليون، أو إن شئت فقل: الشيشة ، كان موضوعا في طبق أمام الشريف: في حين كان ساق الياسمين الموجود إلى جواره يقارب طول الرمح - نظر الشريف مباشرة: ثم انسحب العقيد محمد بعد ذلك، وهنا جاء خادم وأحضر معه كأسا من القهوة.

سألني الشريف بصوت هادي، "هل شربت القهوة؟" قلت: "نحن نعتبر ذلك الذي يزدهر في الجزيرة العربية كلها، هو أفضل ما تناولناه حتى الآن؛ ونحن نعتقد أن نبات البن جرى إحضاره إلى الجزيرة العربية من خلف البحر (الأحمر)." - إي، أعتقد أن

نبات البن جرى إحضاره من الحبشة: أليس أولئك الذين كنت عندهم في نجد، من شاربى القهوة؟" ثم سألتى الشريف بعد ذلك عن العدوان الذى حدث " فى عين الزيمة؛ ثم بعد ذلك عن العدوان الذى حدث فى السيل." قال : هذا كاف لإخافة أى إنسان مهما كان .[المؤسف أن حسين نفسه قتل بعد ذلك بوقت قصير بسكين واحد من السفاحين، حدث ذلك ، فى مدينة جدة، فى العام الثانى بعد رحيلى عن تلك المدينة: ولفظ ذلك الرجل أنفاسه الأخيرة بنفس المرح والعدل الذى اشتهر بهما فى حياته؛ مات الشريف حسين بين ذراعى واحد من مواطنينا هو الدكتور جريجورى ورتابت ، الذى كان وقتئذ مسئولاً عثمانياً مقيماً عن الصحة فى منطقة البحر الأحمر]. - ثم أردف الشريف حسين فى ود وحنان، ولكن ها أنت قد وصلت أخيراً؛ وبذلك تكون الأخطار المحيطة برحلتك قد انتهت. استرح ماشئت فى الطائف، وبعد أن تسترد عافيتك ونشاطك سوف أرسلك إلى القنصل الإنجليزى فى جدة." سألتى الشريف حسين، ألم أفكر فى زيارة الطائف؟- وأردف قائلاً: ربما كان ذلك أفضل لوأنتى جئت إلى هنا مباشرة من السيل؛ وكان يمكن أن يرسلنى إلى جدة مباشرة: أضاف الشريف الطيب قائلاً: هذه ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الأوروبيون إلى هنا؛ لأننى - أحسب أنه فى العام الماضى، جاء إلى هنا أوروبى بصحبة قنصل هولندا؛ جاء إلى هنا لزيارته نقش بالقرب من طريق السيل - سوف أكلف من يطلعك على ذلك النقش أثناء العودة." رددت عليه: لقد علمت أن واحداً (بركخاردت) جاء إلى هنا فى زمن العمليات الحربية المصرية. - وهنا نظر إلى الشريف نظرة توحى بالدهشة المشوبة بالود والحنان! [تعجب، الشريف، لذلك المصدر الذى استطعت منه الحصول على هذه المعلومات عن شئونهم الداخلية؟] - شريف مكة الغامض هذا، الذى أغراه محمد على ذلك الثعلب الألبانى، يحتمل أن يكون العم الأكبر لهذا الأمير المحترم.

"سألتى ، كيف استطعت معايشة البدو، وكيف تحملت طعامهم؟ وهل وجدت أنا البدو مثلما يقال عنهم [فى الحكايات التى تروى عنهم فى الحضر]، أم أنهم أقل بكثير مما يقوله عنهم الرأى العام [وبخاصة فى مسألة الشهامة] ؟ هل شاركت فى عملية السقيا؟ وسحبت الدلاء الواحد بعد الآخر - على هذا النحو؟" وهنا ويبشر العرب

وترحابهم وضع الشريف الطيب شيشته جانبا، وراح بنفسه يأتى الحركات التى يفعلها السقاة وهم يجلبون الماء من الآبار لكى يسقوا ماشيتهم! (وقد شاهد ذلك بنفسه أثناء القيام بحملة من الحملات). مبلغ علمى أنه ليس هناك أميرا فطريا من أمراء الجزيرة العربية - إلا وفيه شىء من الوهابية المرة - إلا وقد فعل هذا الشىء نفسه. الناس كلهم هنا يشرحون الصدر - لم تكن عندى القوة التى تمكنى من رفع الماء معهم. وهنا نظر إلى نظرة حنان إنسانى ، 'إى، لقد عانيت الكثير.

سألنى بعد ذلك عن رحلتى؛ وأجبتته وتحدثت معه عن مدائن صالح، وعن تيماء، وعن حائل: واندesh الشريف عندما علم أنتى أمضيت شهرا - بالطول فى تحمل ذلك الطاغية - فى مدينه ابن الرشيد. سألنى عن محمد بن الرشيد، هل اعتبره رجلا طيبا؟ من الواضح أن الشريف حسين، الذى كان يتلقى من ابن الرشيد هدايا كل عام، لم يكن ينظر إليه على أنه رجل طيب : وعندما أجبتته باختلاف قليل عما كان يتوقعه أو ينتظره وقلت: " هو رجل محترم،" لم يكن الشريف راضيا أو مقتنعا بتلك الإجابة. ثم تكلمنا بعد ذلك عن عنيزة؛ وسألنى الشريف عن الزامل، " هل هو رجل طيب؟" وفى النهاية سألنى ما إذا كنت مسرورا من الملابس [الهبة الإمبريالية] التى كنت مرتديا إياها أمامه فى مجلسه؟ وسألنى أيضا ما إذا كان مضيفى [الذى كان الأمير يشك فيه] قد أكرمنى أم لا؟ ومضت علينا ساعة أو أكثر قليلا ؛ وبعد ذلك دخل العقيد محمد الذى كان ينتظر فى الخارج؛ وهنا وقفت كى أستأذن فى الخروج . وتكلم الشريف مع المضيف عنى؛ ونبه عليه أنى ينبغى أن أتحرك فى الطائف تحركا حرا وبلا قيود داخل الطائف وخارج أسوارها أيضا؛ وأن يسمحوا لى بزيارة كل الأماكن التى أود زيارتها - وقبل العقيد محمد اليد الكريمة ، يد الشريف، وخرجنا من المجلس.

عدنا عن طريق الشوارع إلى سوق الطائف؛ وذهبت للجلوس على المقاعد أمام قهوة من المقاهى . هذا هو نادى الضباط الأتراك ، الذين يفدون على هذا المكان لشرب القهوة، وتدخين النرجيلة (الشيشة) ولعب الشطرنج . وجدنا هناك قائمقام، ووجدنا القاضى ، وجراحا شابا من الجيش وبعض الشخصيات الأخرى؛ كانوا جالسين على

المقاعد لتمضية ساعات المساء، والتسامر على الطريقة الشرقية . قدم لنا مصلح القهوة شيئاً من القهوة وعلى شفتيه ابتسامة؛ وبعد تبادل التحية أصبحت من بين كبار معارف أولئك الذين كانوا يجلسون على المقاعد . الجراح - الذى كان من إسطنبول - تحدث معى بالفرنسية التى لم يكن يجيدها . 'هل أنا طبيب ؟' وكرر عليهم بالتركية ، وهو مندهش، أنتى لم أكن طبيباً! وذلك لأنهم سمعوا أنتى كنت أمارس تلك المهنة فى أسفارى . ولكن القاضى رد على قائلاً: " هذه هى طبيعة الإنجليز ، وهم لا يكذبون . " ثم سألتنى الجراح بعد ذلك ، ' ما إذا كنت أود زيارة مكة ؟ لقد قرأ باللغة الفرنسية عن أوروبى عاش سنوات عدة فى كل من المدينة (المنيرة) ومكة (المكرمة)!' - وهنا مر علينا محبوب: وعندما رآنى، جاء نحوى لتحيتى. "قال العقيد محمد: هذا هو الرجل المحترم ! الذى أنقذ حياتك فى عين الزيمة- يامعبوب مولانا الشريف يشكر لك هذا العمل الطيب، ويشكر أيضاً للعناية التى أوليتنا إياها. والله لو لم تكن فى العين، لكان خليل قد قتل هناك بالأمس بأيدى ذلك السالم اللعين . " محبوب: " حسن الطالع هو الذى أوجدنى فى العين فى ذلك الوقت لإنقاذ خليل من شريف مجنون ؛ الذى وقف فى وجهه ومنعه من المرور إلى جدة".

- قال الجراح الشاب: ' لقد شاهد ذلك النقش الذى أشار إليه الشريف : وأن الحروف بصورة واضحة أبو قراط HIBBOCKATES وبعد ذلك قال لى شخص آخر إنه استطاع قراءة ذلك النقش ، وأنه فيليب PHILLP المقدونى MACEDON - وأن تلك كانت أرواح ، ومن الأفضل أن تخضع للدراسات اللاهوتية: صحيح أنهم ينتمون إلى الجماعة نفسها ولكنهم غرباء على الذهن الأوروبى . وهنا دخل علينا جراح عسكرى آخر وقال: 'الطائف بلغت من الجفاف حداً تعذر معه أن تكون الحياة فيها صحيحة ؛ إن الحمى انتشرت فيها هذا العام: وأن مستقعا خلف البلدة هو الذى يفسد هواها أثناء الليل.' وأن الناس فى الطائف كانوا يتطلعون لسقوط المطر (المدارى) فى الشهر القادم؛ وإن هذا المطر يستمر أربعة أو خمسة أو ستة أسابيع فى الطائف- أليس الحد الفاصل للأمطار الموسمية يقع فيما بين اليمن السعيد وصحراء الجزيرة العربية ؟ وبالرغم من الارتفاع الكبير للسهل المحيط بالطائف [الذى يصل إلى مايقرب من ستة

آلاف قدم] ، إلا أن الجليد لا يتكون فوق هذا السهل . كان الجراحون الأتراك - أصحاب المزاج الساخر المستخف إلى حد ما - متهمين " بالجهل " من قبل العسكريين ومن قبل الحضر نظراً لأن هؤلاء الناس بحكم تكوينهم الشرقي لا يشعرون بالقلق ولا يصبرون على العلاج الطبى البطيء الذى يطول وقد يكون غير مؤكد فى بعض الأحوال - كان الباشا، أوإن شئت فقل الحاكم العسكرى لهذه المنطقة يقيم فى مقره الصيفى فى مدينة الطائف : أما مقره الدائم فهو فى جدة.

نهضنا من مجلسنا، وذهبت بصحبة كل من القاضى ومضيفى، لزيارة تلك الكتلة من الصخر التى تقع مقابل بيت القاضى: والناس هنا يقولون: إن هذه الكتلة هى صنم العزى el-Uzza. شاهدت على ضوء الفوانيس كتلة غير مهذبة من صخر الجرانيت رمادى اللون، وهذه الكتلة لم تكن عليها أية نقوش (انظر الصورة رقم ٨) ، - هذه واحدة من الصخور المأخوذة من هذه الجبال؛ والتى تصادف وجودها هنا قبل تأسيس بلدة الطائف - مسألة التمسح فى الحجر الأسود وتقيله فى الكعبة مازال طقساً من طقوس الدين الإسلامى : وبالطريقة نفسها يمكن أن ترى أهل البلدان الشمالية من الجزيرة العربية يتدافعون لتقبيل جمل المحمل العائد من مكة؛ وتراهم يمسخون ويحماس شديد ملابسهم فى ذلك الجمل الحامل للمحمل. ولكن القاضى هو والعقيد محمد قال لى: " هناك بعض الملعونين فى المدينة (الطائف)، الذين يجيئون عندما يصابون بالمرض لكى يحكوا أجسادهم فى السر، أثناء الليل، فى هذه الصخرة. (أضاف الرجلان) أن تلك الأحجار كانت بمثابة هواتف للغيب، عند الوثنيين، فى أيام الجاهلية، وأن الشيطان كان يتكلم من خلال هذه الصخور. " [ونحن نعرف أن الكعبة كانت فيها أنواع مختلفة من الأصنام؛ ومن بين هذه الأصنام صورة كل من عيسى (يسوع) ومريم . عندما عاد محمد (ﷺ) إلى مكة فاتحاً، أمر بتدمير هذه الأصنام كلها؛ وقد أحصاها علماء العرب (المولعين بالمبالغات) بما يقرب من ثلاثمائة وستين صنماً! أوإن شئت بواقع صنم واحد لكل يوم من أيام العام، مما جعلنا نقول: ان عدد تلك الأصنام كان كبيراً.

فى الصبأأ أوفء الشرف وأءاء من أأرس البفشى Bishy، أو إن شئت فقل: أأرس الشرفى، لكى ىتولى أراسىء. هءا أأرس من بنى سالم، وهو قرى (من قبلة أرب) ، وهو من سلاة زنجفة، ومن أبل الفأرة el-Figgera، الذى فف ففما بفن المفة (المنورة) ففبف : اسم هءا أأرس هو Zeyd، وهو شاب مأأرم وطفب، ففأرف شفئا من القراءة والكتابة. وأأرس البفشفن (الزنوف) لافأرى ألبهم فقط من واءى بفشة، كما أن سكان واءى بفشة لفسوا كلهم من سلاة أفرففة؛ ولكن أأنوء البفشفن هم عبارة عن أولئك الرفاق الذى ففأأمون ففأرفون عن اسأعءاءهم ورغبأهم فى أأمة الشرف. ارأى زفء أزام الطلقات (الأبأانة)، وعلق فى أزامه فضا السكن الذى فشبب السفف؛ وألس على الأرض مألما ففأ البءو، ثم أأرف من صءره كتابا صأفرا من كآ البفن، وراح ففأمم لنفسه، ففأظر إلى بفن أأفن والآر. وعءما بءأت أراقبه؛ قال: أنت طفب، أنت لست كافرا، ولا ففأصك سوى معرفة وأعلم الطرف إلى الله. سأأه عن ففرأه وعن بءافه هءا الواءى الكبفر فى واءى اللفمون؟ أجابنى، هءا أمر مأمل. وقال لى : إن كل قبلة أرب فمكن فأسفمها إلى بنى سالم والمصروح Mosruh. سأأه عن مسأوطنأهم. زفء: سأقول لك كل ما أأرفه. وهءا هو ما سمأ به لى الشرف: قرى المصروح Mosruh هى رابوف Rabug، كلفس Kleys والأأرفبى (بالأرب من مكة)، والسرففة es-Suergieh، وقرى أأرى، وأنا لا أنكر كل أسماء تلك القرى. ولكن قرى بنى سالم ففما بفن المفة (المنورة) ففبف وفى واءى Wady فرأع Ferra. وهو واءى طوفل ففأش ففه أعراب بنى عمر Amr والعبفة el-ubbeda هم على النأو، الألىء الفففة el-Jedeyda، أم umm ذفان Theyan، كفف Kaif، الفصة el-Kissa إلآب el - Ab، أأمره el-Hamra، الأورمة el-Khorma، الوسفة el-Wasita، الأسانفة el-Hassanieh، الفافرة el-Faera، العلى el-Aliy، أففء Jedid، بءور Beddur، (وأرفأه) الفأرة el-Figgera؛ وفى واءى ففبف فوفء كل من السوففة Swayga الشأة Shatha، النأفل en-Najjeyl، مءسوس Medsus. قال زفء عن اللأابة، (قطأع النأفل فى قافلأ الأف): هم من المصروح Mosruh وهم فأأ من قبلف العوف Auf: أما بقة العوف فهم لفسوا من اللصوف. وهو أبفز شأص بفن اللأابة الذى هم أفصل

الصوص؛ ونظرا لأن اللحابة توارثوا اللصوصية عن آبائهم يفهم ليسوا على استعداد للتخلي عن ذلك وامتهان عمل آخر ينقلهم إلى حياة أفضل وأكرم. وقوة هؤلاء اللحابة تعادل ستمائة بندقية . [ربما يقدر عددهم بحوالى مائتى رجل أو أقل من ذلك]. سألته ، كيف تجرؤن على الإساءة للحجاج؟ وأنتم بقية قبيلة حرب ، لماذا لاتطهروا ديرتكم من هؤلاء البغاة الآثمين؟ ولكن زيدا كان يرى أن ذلك لن يكون جيدا ، وبخاصة أن هؤلاء الناس يمارسون ذلك الفعل من قديم الأزل! هذا يعنى أن العرب لا يرون شيئا غير تحزباتهم أو عصبياتهم؛ وبالتالي فإن عدم وجود روح عامة ومشاركة بين العرب هى التى تؤدى إلى عدم ظهور الزعماء أو القادة بينهم . ثم أردف زيد يقول: أفخاذ حرب من فرع بنى سالم هى:

الحمدة el-Hamda الرحالة Rahala السراحة es-Serraha السعادين
الصُّبح es-Sobh بنى عمر Beny Amr المعارة el-Moara الهوازم والحجيلة
المطالحة el-Motalha الجواد el-Guad ولاد سليم Weladselim الظهايرة
المحاميد Mohamid الوفيان el-Wuffiam بنو تميم (غير النجيين) المزايطة

الحنيطا

الجميلة

قال زيد عن المصروح:

السُّعادي Saadi بنى أسام Beny Ass'm بنى حسين Beny Hasseyn
اللحابة Lahabba بنى عمر Amr (الذين من القراع وليسوا من بنى سالم)
(هؤلاء كلهم من الأشراف)

el-Jerajera	الجراجرة	ez-zbeyd	الزبيد
el-ubbeda	العُبيدة	Bishr	البشر

الحمران el-Humran الجهم el-Jahm

السحيلي Sheely أهل حجور Ahi Hajjur

دخل علينا العقيد محمد، ومن بعده سالم: الذى كان الشريف قد أمره بإعادة كل ذلك الذى سرقه منى هو وجماعته. أعاد اللص التعيس المسدس (مكسورا!) ، وأعاد إلى البارومتر، وأربعة رياللات، التى اعترف بأنه سرقها من خرجى. ثم قال: سامحنى يا خليل! العيش والملح ونحن فى طريق مجرى السيل، عندما تناولت السكين، للمرة الثانية، لتقتلنى؟" العقيد محمد: " خليل يقول الحق؛ لماذا لم تكن تتذكر عندئذ ذلك العيش والملح؟" - "صحيح أنا أنتبت وأخطأت ولكن أرجو أن يتغاضى الشريف عن ذلك ؛ وأرجو ألا يقف ضدى يا خليل!" طلبت منه كيس النقود والأشياء الصغيرة الأخرى . ولكن سالم أنكر أن لديه أى شىء غير هذا الذى جاء به إلى! أخرجه العقيد محمد وطلب منه العودة بتلك الأشياء على الفور - "قال مضيفى ؛ سالم يهم بالخروج: هذا شخص ملعون ! لقد قرر الشريف أن يسلسله بالحديد بعد رحيلك، وسيفعل الشىء نفسه مع الشخص الآخر الذى ضربك . وسوف يعاقبهما عقابا شديدا، ولكنه لن يفعل ذلك الآن، لأن أقاربهم قد يؤنونك وأنت فى طريقك إلى جدة. وقد أصدر الشريف مرسوما وسوف يرسل إلى كل القبائل والقرى التابعة له، أنه فى حال وصول أى غريب إلى ديارهم، فإنهم يتعين عليهم إرساله إلى الشريف؛ فربما مر أوروبى آخر فى ممتلكات الشريف، وقد يسئ هؤلاء الجهلة معاملة مثل هذا الغريب. وبالتالي يعفى الشريف نفسه من تساؤلات حكومات مثل هؤلاء الغرباء."

ربما كان الشريف حسين واسع الصدر فيما يتعلق بقيام أوروبى (مسيحى) بزيارة مكة (المكرمة) إذ ليس فى ذلك مايتعارض مع جوهر (الإسلام). وقد وصلت للأمير من المدينة أخبار ذلك البريطانى الذى سبق الإشارة إليه؛ هذا الأوروبى الذى ربما ألقى أهل مكة القبض عليه لأنه نصرانى. وقد أبلغنى العقيد محمد أن ذلك الأوروبى محتجز هناك فى الوقت الراهن؛ كما قال لى العقيد محمد أيضا: إن هذا الأوروبى استشهد بكثير من الشخصيات، التى سبق أن عرفتة فى مواسم سابقة من

مواسم الحج. وكتب الشريف مرة ثانية يقول: 'إذا ثبت أن ذلك الغريب مسلم فإنه يتحتم أن يبقى في مكة ويقيم فيها إن أراد؛ أما إذا ثبت غير ذلك، فإنه ينبغي إرسال ذلك الأوروبي مع الحرس إلى قنصليته في جدة.' وسرعان ما تكلمت في هذا الموضوع عقب مجيئي إلى هنا بأيام قلائل، وقلت إن ذراع القنصلية يجب أن تمتد لحماية المواطنين الذين يتهدهم الخطر. الإجابة: "إذا ما تصادف وجود إنجليزي في مكة، فذلك يعني أن ذلك الرجل ذهب إلى هذه المدينة دون أن نعلم نحن بذلك: ولو جاء إلينا لحلنا بينه وبين ذلك الذي فعله أو ارتكبه؛ أما وإنه الآن في خطر، فذلك خطؤه هو، ويجب عليه تحمل ذلك الخطأ!"

تجولت في المدينة مع ذلك الألباني؛ ولكنه بحكم نظراته الصارمة كان يرفض التجمعات التي كانت تحيط بنا، وكان يفرق بعض هذه الجموع بيديه ويقول لهم بصوت مخيف: الصلاة! الصلاة!، بمعنى ، اذهبوا لأداء الصلاة ! إلى أن بلغ الأمر به حد ضرب الناس (نظرا لأنه كان يتعذر عليه سماع صوتي وسط هذه الجموع) ، وأمسكت ذراع الألباني بكل قوتي؛ من منطلق أن الناس في البلدة قد يقولون: "لقد شاهدنا المسلمين يضربون اليوم بسبب نصراني." وعليه عدنا ثانية إلى النادي (القهوة) الذي في ميدان السوق؛ وهذه القهوة محاطة بالدكاكين المفتوحة وطاولات البيع والشراء، كما لو كانت سوقا من الأسواق، وفي المنتصف توجد طاولة عليها مصابيح . وقد أراني محمد كل ذلك عن طريق الإشارة بيده، بعد أن سألته عنها، وكان يفعل ذلك وكله شك كما هو حال الشرقيين وبخاصة عندما يتعلق الأمر بأشياءهم؛ وتسأل الرجل، هل سبق أن رأيت مكانا بأسا مثل هذا المكان؟

عدت إلى مضيفي؛ وحضر إلى في بيت ذلك المضيف كل من سالم وفهيد - وهما محطمان تماما، كي يعيدا إلى بقية الأشياء الصغيرة المسروقة: وقد جرى احتجاز الجمال في الطائف من أجل هذا الغرض: الأمر الذي منعه من رعاية ماشيته ورعاية التجارة التي كان مكلفا بنقلها؛ هذا بالإضافة إلى أنه كان يخشى أن يقع عليه شيء من العقاب البدني. العقيد محمد: ما سمك العصا التي ضربك بها ذلك الرجل؟ ثم

أراني العقيد محمد أولئك الأشخاص الذين سارعوا بإمساك أيديهم ليمنعواهم من ضربى" وعندما أجبتة قائلاً: "أقل من عصاه التى يتوكأ عليها ، وأكبر من هذه الباخورة" تعجب سالم قائلاً: " يا الله !أنعم بصدق هذا النصرانى !إنه لا يضحك الأمر!" وشكرانى هما الاثنان- "قال مضيفى : يالهما من وغدين!- بعد أن دخلت أراضى السلطان، وأصبحت بين الأصدقاء، ياللعجب ، حاولوا قتلك!"

قبل غروب الشمس أدخلنى العقيد محمد إلى غرفة داخلية لتناول العشاء؛ واستدعى أيضاً الجندى البيشى: وجلسنا حول مقعد مستدير من فوقه صينية، فوقها مجموعة أصناف من الطعام التركى. ولكننا نحن الضيوف، الذى كان واحد منا من قرية حرب والآخر كان قد وصل إلى هذا المكان قادما من الصحراء منذ فترة وجيزة، لم نكن مياالين تماما للأكل من تلك الأصناف ؛ التى قد تضر بنا - وعندما سألونى، كيف كنت أتغذى بين البدو؟ امتدحت الحمية الغذائية البسيطة فى الجزيرة العربية. زيد: " هل سمعت مايقول شيخ الحرب (نسبة إلى قبيلة حرب)- عندما تناول العشاء مع باشا الحج؟ قال البدوى: أنا لأمتدح طعام بلدك !أنا يكفينى الأرز ولحم الضأن مسلوقين ؛ وهذا هو ما اعتبره مفيدا للصحة: وسوف أريك ذلك'- والله، لقد أخذ الشيخ شيئاً من عشاء البدو ووضعه فى إناء؛ وأخذ شيئاً من عشاء الباشا ووضعه أيضاً فى إناء؛ ودفن الإناءين سوياً . ومع طلوع الصبح تناول البدوى الإناءين، وذلك على مرأى ومسمع الباشا: واتضح أن لحم البدو لم يفسد! ولكن إناء الباشا تكونت فيه بعض الديدان- إلى حد أن الباشا كره النظر إلى طعامه كما كره رائحته أيضاً ! قال الباشا : الله ، لقد تغلبت على!"

- قال لى العقيد محمد: طلب الشريف منا إعلامك عن كل شىء؛ وشجعنى مضيفى بأن طلب منى عمل رسوم لكل ذلك الذى أود رؤيته أو مشاهدته فى الطائف وعينوا زيدا ومعه رجل آخر من بيشة كى يقوموا بمرافقتى . فى الصباح ذهبت لزيارة الأحجار الصنمية الثلاثة المعروضة فى الطائف . شاهدت العزى الذى سبق لى رؤيته فى ميدان سوق القصابين الصغير، هذا الصنم يبلغ طوله حوالى عشرين قدما: شاهدت ذلك

الصنم بالقرب من أحد الأطراف العليا يوجد تجويف يطلقون عليه اسم مقام Makam الراس er-ras، بمعنى 'مقام الرأس'؛ وهم يقولون : إن ذلك كان هو قم هاتف الغيب عند الوثنيين (انظر الصورة رقم ٨) شاهدت أيضا حجرا أصغر من الحجر الأول فوق أرض مرتفعة ، أمام باب المدفع الرئيسي، وهم يطلقون على هذا المدفع الرئيسي اسم الهبّال el-Hubbal: هذه الصخرة هي واحدة من صخور الجرانيت الغشيمة يصل طولها إلى حوالي خمسة أوسنة أقدام ومشقوقه من النصف "بضربة سيف من سيدنا على" (انظر الصورة رقم ٨) . وهنا اقترب منى درويش من الدراويش ، وراح يحملق في ويطليل النظر إلى، وصاح صياحا غريبا، وهنا راح البيشيان يطاردانه . ومر علينا رجل محترم من الطبقة المتوسطة من المواطنين؛ الذي قال عندما رآنى واقفا أمام الحجر: "ياأسفاه !ليس هناك مكان من أماكن المسلمين لم يدخله هؤلاء الناس؛ وهامم يأتون إلى هنا أيضا!"

خرجنا من بوابة المدينة الموجودة عند نهاية المدينة ومررنا بالمسجد الجميل الذي يقال له: مسجد عبدالله ، وعبدالله هذا هو ولد محمد عم العباس. هذا المبنى الأبيض القديم فيه نوع من التناسق المهيّب، والمسجد له قبتان : وجزء من جدران وحوائط ذلك المسجد أعيد بناؤها وهم هنا يطلقون على هذا الحجر اسم اللات el-Lata [الذى هو فينوس العرب على قول هيرودوت] : هذا الحجر عبارة عن صخرة لاشكل لها، وهى من حيث الطول تقترب من طول حجر العزى، ولكنها أقل منه من حيث الارتفاع ، وهى من الجرانيت الرمادى اللون أيضا (انظر الصورة رقم ٩) شاهدت طرف مثقاب عامل من عمال التعدين - كما شاهدت كلمات فى طرف الصخرة! قالوا لى: إن ذلك من عمل بعض عمال الطرق، وقد حدث قبل عامين؛ هذا المحطم الميكانيكى للعادات القديمة كان يتطلع إلى تحطيم الشيطان بمسحوق ناسف: ولكن هذه الكتلة لم يتطير منها سوى قشرة صغيرة جداً - وهذه القشرة كفيلا بالكشف عن طبيعة هذه الصخرة.

- كانت الصخور فى مرحلة طفولة الطبيعة الإنسانية بمثابة هواتف للغيب ومنقذين: هذا يعنى أن تلك الصخور كانت أربابا وآلهة فى صحراء الجزيرة العربية !

[استمر ذلك حتى القرن السابع] كانت تلك الأصنام بمثابة الأماكن الخاصة بالطقوس الدينية. أى أنها كانت مناهل menahil، بدلا من أن تكون هي آلهة بحد ذاتها. [راجع سفر التكوين السورة رقم ٢٨ الآية رقم ١٧ : كما أن الأعلى يسمى " صخرة" عند الشعراء العبريين] هذه الصخور الدينية تكون غير مشذبة الحواف؛ بالرغم من أننا عرفنا من قبل أن البدو يستطيعون تشكيل أية كتلة من الصخر بحيث يكون بينها وبين شيء آخر شبه كبير. كانت هناك بعض الحفر الضحلة أوإن شئت فقل: الأواني ، فى الجانب العلوى من ذلك الحجر الذى يطلقون عليه اسم اللات Lata. هذه الحفر هي أيضا مقام makam الراس er-ras (مقام الرأس) كما هو الحال فى صنم العزى ؛ ولكن هذه الحفر تبدو وكأنها من عمل الطبيعة . هذه الآلهة ليست آلهة؛ لأن الأجيال التى كانت تخشاها - الخوف من ، تلك العاطفة البهيجة والمقنعة فى الدين- ماتت وانتهت :- الباطل هو تلك الحكمة الدينية التى تقوم على حجج مؤقتة واهية، لكى تنقضى على المعرفة الأفضل ! 'مخاوف' آباء الجزيرة العربية هؤلاء ! ألقى بها حاليا بين الأدران والأقذار بعد أن تخلص عنها العابدون من البشر وهجروها .

أخذنى زيد إلى بستان من البساتين ؛ كى نقضى فيه فترة الظهيرة فى ظلال الأشجار الكثيفة. لم أشاهد على هذا الجانب من البلدة كثيرا من الأعشاب والحشائش الخضراء؛ ولكنى رأيت وشاهدت صحراء جرداء يميل لونها إلى الاسوداد [كما لو كانت صخورا بركانية]. ثمار بساتين السوق يجرى إرسالها من الطائف وجدة: والبساتين الواقعة بعيدا عن نهيرات الماء وغدارنها ، يجرى ريها من حفر ضحلة يجرى سحب الماء منها باستعمال ثيران الجزيرة العربية ، تلك الثيران صغيرة الحجم . دخلنا بستان bustan رجل ثرى غريب اسمه القاضى el-Kady موسر Musr، وهو أحد الشخصيات التى تعيش فى الطائف بشكل عام؛ ولكنه لم يكن فى الطائف فى تلكم الأيام. وقفت نساء الحديقة عندما شاهدونا قادمين، وغطين وجوههن - ثم فرشن سجادة تحت شجرة كبيرة؛ وأحضرن لنا مخدات كى نتكى عليها؛ وقامت واحدة بجمع الثمار الناضجة للضيوف وجلست امرأة أخرى كى تسوى لنا قهوة، التى صلحتها لنا. كما هو

الحال هنا- فى إبريق من الفخار، له شكل قديم؛ فى حين قامت امرأة ثالثة بإعداد
الترجيلة (الشيشة) : وكانت هناك صبية صغيرة تقوم على خدمتنا عن طيب خاطر
وبهمة. وبعد أن شربنا القهوة تركت النساء كى نزال قسطا من النوم . وهنا رقد زيد
على كوعيه متكئا على المخدة وأخرج كتابه من صدره من جديد؛ وبينما كان زيد يقرأ
كانت علامات التدين ترتسم على وجهه؛ ولكن هذه المناسبة لم يظهر فيها أى شىء من
تشدد هذا الرجل، كما هو الحال عند أصحاب الطبائع المريضة- هذا الشاب الصغير ،
الذى اسمه زيد، كان قد تخلى مؤخرا عن قرية حرب تخوفا من الشيخ . شيخ جبل
الفجيرة يتسلم صرة من صررطريق الحج ؛ وهذه الصرة تدفع على شكل أراذب من
الحيوب؛ والشيخ يقوم بتوزيع تلك الأراذب من الحيوب على أرياب العائلات والأسر:
ولكن مطالبة زيد الذى بلغ سن الرجولة بنصيبه [ليس ماقيمته خمس ريالات] رفضت
من قبل الشيخ: وهنا غضب زيد، وهدد أثناء غضبه بقتل الشيخ: وبدا بعد ذلك يرى أنه
لم يعد له مكان بين الأعراب الذين كان يعيش معهم. وبالتالي حمل معه أسلحته ، وعبر
الجبال إلى مكة (المكرمة) ؛ وفى مكة جرى ضمه إلى الخدمة فى صفوف جنود الشريف
بعد أن وجدوا أن طوله مناسب.

الفصل الثامن عشر

وادي فاطمة

غانم. معركته غير المتكافئة مع القحطان. المجلس الثاني للشريف. قبائل الأشراف. ممتلكات الشريف. يأجوج وماجوج. الربيع الخالي. الطائف تخشى المسكوف وتخافهم. قريش. الاستعداد للسفر إلى جدة. "الإنجليز من ديرة الطائف". الشريف يمرض بسبب الحب. تمثال شهير. جبل الصبية. التمر الجديدة. وادي فاطمة. النباتات المدارية. المحراث. حرة أخرى. أكواخ تشبه خلايا النحل. حر تهامة. رجل ثرى فى العالمين. الحياة المدنية والكرم فى مكة. كلمة من سعود بن سعود أثناء حصار جدة. ضيف الله. كرم زنجى بسيط. نهاية وادي فاطمة. طريق مكة السريع إلى جدة الحمام المقدس أحجار نكية : قرود تيماء مقهى على جانب الطريق - جدة عند مرمى البصر! البطيخ يزرع فى الرمل بدون ماء رى. أعمال وخزانات تجار الماء فى جدة. قبر حواء. دخول المدينة - قنصلية مضيافة.

التقانا الألبانى عند دخولنا من البوابة أثناء العودة، واقتادنى من خلال فضاء يشبه الشارع مابين سور الطائف (القديم) المبنى من اللبن، ومنازل المدينة ، إلى أن أوصلنى إلى فناء الثكنة التى يقيم فيها: فى تلك الثكنة أرانى ذلك الألبانى خيول الخيالة، الذين كلهم من السوريين؛ وكانت تلك الخيول تقف مسرجة وجاهزة للعمل. ثم أعادنى إلى السكن عن طريق نادى القهوة. وفى السكن وجدت شيخا اسمه غانم Ghraneym، وهو من عنيزة؛ وكان يجلس معه شيخ من شيوخ عسير. شربنا القهوة ودار بيتنا حديث؛ وقد رحب بي الشيخ العسيري، الذى كان ضليعا فى اللغة العربية

ترحيبا لطيفا وخاليا من أية إشارة أو علامة من علامات التشدد أو الكراهية. لم ألاحظ في كلامه شيئا جديدا. أما فيما يتعلق بالشيخ العنزي فقد استقبل الإنجليزى - الذى رحب به الشريف وكرمه - بانحناء يوحى بالإعجاب بالنفس. كان غانم واحداً من أقارب الزامل؛ ويبدو أنه كان مقتنعا بأحقية فى الإمارة قبل الزامل؛ وبسبب ذلك اختار التركيز على مسألة الوصول إلى مركز الإمارة فى بلده؛ وهو يعيش هنا فى مكة على معاش صغير منحه إياه الشريف. [وتلك هى عادات الكرم عند أمراء الجزيرة العربية عندما يساندون الغرباء الهاربين]. وقيل لى هنا: 'إن غانم معرض للخطر والإطاحه برأسه إذا ما عاد إلى بلاده؛ وعندما حكيت ذلك فيما بعد لبعض أفراد مدينته، عندما كانوا فى جدة، ضحكوا؛ وربوا على قائلين: 'إن غانم، إذا ما أراد العودة إلى عنيزة، فسوف يعود إليها ويعيش هناك'.

أخبرنى غانم، أنه كان من قبل رئيسا لبريد الإبل الإنجليزى فى الهند. وأن حقيقة البريد يجرى الآن نقلها عبر الصحراء الشمالية من دمشق إلى بغداد خلال ثمانية رحلات كلها ركوب بلا توقف ! وذلك عن طريق العجيل. [أبلغنى أحد تجار عنيزة الذى كان ضمن القافلة، أنه ركب ذات مرة من القصيم إلى الطائف - حوالى ٣٦٠ ميلا؛ ثم عاد ثانية، وذلك كله خلال خمسة عشر يوما؛ وكان يستعمل غذاء من الجلبان(*) ينعش به ناقته. ركب محسن Mehsan العليدة Allayda ذات مرة بعد صلاة الجمعة من العلا؛ وصلى الجمعة التالية فى المسجد الكبير فى دمشق - هذه المسافة تقدر بحوالى ٤٤٠ ميلا؛ ولكن هذا الطريق محفوف بمخاطر نفوق الإبل؛ لأن الطريق يقدر بما يتراوح بين عشرة واثنى عشرة رحلة من رحلات النياق مع وقفات الاستراحة. وساعى بريد طريق الحج الذى يبدأ من بلدة معان يستطيع توصيل رسالة إلى دمشق - على بعد حوالى ٢٢٠ ميلا - بعد ثلاثة أيام. والمسافة من الحجر إلى تيماء - حوالى ٧٥ ميلا، تقطع كلها خلال رحلة واحدة من رحلات النياق؛ والمسافة من خيبر إلى المدينة (المنورة) - حوالى

(*) نوع من الأعشاب الطبيعىة التى تستخدم لتغذية الإبل. (المترجم)

٧٢ ميلا وتقطع خلال رحلة واحدة من رحلات النياق. والناقة التى تكون بصحة جيدة يمكن أن تجرى مسافة سبعين ميلا فى اليوم وذلك فى المسافات القصيرة، وبسرعه ٦٠ إلى ٦٥ ميلا يوميا طوال أسبوع واحد، وبسرعة خمسين ميلا يوميا لمدة أسبوعين. والناقة لها خطو يترتب عليه تحريك رجلها وضمها إلى جوار بعضها، مما يسهل عملية الركوب]. سألنى محسن العلايده أيضا: 'ألا يمكن مد خط حديدى عبر الجزيرة العربية، يمر بعنيزة ومنها إلى مكة (المكرمه)؟' قلت: إن مثل هذا المشروع يحتاج إلى مناسبة معينة. والسبب فى ذلك أن شمالى الجزيرة العربية (باستثناء الحجازوجبال غربى الطويق) عبارة عن سهل مرتفع، هذا المشروع ممكن ولكن تكلفة وضع القضبان لمسافة ثمانمائة أو تسعمائة ميل عالية جداً، فيما بين سوريا والشعارة es-Shaara. ومن الشعارة لايبعد الطريق غير المعبد عن السيل es-Sey سوى بضعة أميال قليلة؛ أما بقية الطرق فهى عبارة عن منحدر هين إلى أن يصل إلى عين Ayn الزيمة ez-Zeyma.

تحدثنا عن هزيمة القحطان . وقال غانم :إنه يأسف لأنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت: ولوكان هناك لأعطانى فرسا، أركبها حتى أرى بنفسى أسلوب البدو فى القتال . قال: إنه كان يتعلم فى الطائف ركوب الخيل باستعمال الركاب؛ وأرانى أيضا ساقيه المصابتين . وحكى لنا غانم بعد ذلك عن مغامرة عجيبة من مغامراته فى العمليات الحربية فى الصحراء: هذا الرجل الذى كان عميداً لجماعته لم يكن متفاخرا أو كذابا! وقد تأكدت فى جدة من الحكاية التى رواها لى هذا الغانم؛ والذين أكدوا هذه الحكاية كانوا من عنيزة، ولم يكونوا أصدقاء له بمعنى الكلمة: غانم: "لقد حاربت ذات مرة فى صفوف القحطان! كان ذلك بالقرب من الشيببية es-Shibbieh، فى صحراء النفود. كنت راكبا بصحبة عشرين من الخيالة العنزيين ، وفجأة وعلى غير وعى منا [الخيالة الذين يمشون بين الكثبان الرملية يكون مجال الرؤية من حولهم ضيق جداً] وجدنا أنفسنا أمام ستمائة [وهذا عدد كبير جداً] من خيالة القحطان. قلت فى نفسى عندئذ: هل ينبغى أن ألقى سلاحى وملابسى أرضا، وأتخلى عن فرسى؛ وأنصرف عاريا تماما [لصوص الصحراء قد يسمحوا للشخص بالمرور إذا ما كان على مثل هذه الحال.

طالما أنه ليس هناك تآر بينهم وبينه، ولكن خطر ببالى أن ذلك من أعمال، الخسة وعدم الإحساس بالكرامة. هناك ضبطننا تآرا بينهم وبينه؛]. وهنا ضبطننا أوضاعنا فوق أفراسنا ومضينا لملاقاة القحطان! الذين أصابهم الارتباك عندما شاهدونا نجرى فى اتجاههم ! لأنهم خطر ببالهم أن غزوا كبيرا كان يجرى فى البلدة: - والله استدار القحطان وولوا الأدبار! وراح غانم هو ورجاله يطاردون القحطان واستولوا منهم على ثلاثة أفراس، ثم عابوا إلى عنيزة- البدو ليس بينهم أى شىء من التنسيق، إلى حد أن جمعا كبيرا منهم قد يتفرق كما لو كان ذلك الجمع رجلا واحدا! سألنى غانم أيضا: 'مارأيك فى عنيزة؟' واحتقر تشدد السكان الوهابيين وازدراه، كما احتقر أيضا طردهم للإنجليزى.

استدعانى الشريف مساء اليوم نفسه. كان هناك جمع كبير من الناس يجلسون فى أركان القاعة، على الديوان: وفى المنتصف من هذا الجمع الكبير، وتحت نافذه من النوافذ ، يوجد المقعد الذى يجلس عليه الشريف الأمير.

وضعوا كرسىالى من جديد أمام الشريف مباشرة: وراح الأمير يتكلم مع الغريب فترة طويلة استهلك خلالها ثلاثة رعوس من رعوس الشيشة؛ وكنت أفكر بصورة مستمرة 'أنعم بامتياز فهم ذلك الرجل !' سألنى الشريف فى البداية ، عن رأى فى هواء الطائف؟ وهنا لفت انتباه الشريف إلى ذلك المستنقع الموجود خلف المدينة، ورد الشريف على، وهو يتأمل ماقلته له: " لقد أصابنا بلل كبير فى الموسم الماضى: أما هذا العام، فسوف أمر بتجفيف ذلك المستنقع . " سألنى عن الآثار[التي يجرى تضخيمها بين قراء القرآن] فى مدائن صالح . وأجبتة بصراحة، بأن بيوت المواطنين كانت مبنية من اللبن؛ والغرف محفورة مثل القبور. وهنا وافقنى الأمير المتسامح على ماقلت وراح يتأمل كلامى وهو يدخل الشيشة؛ قلت له أيضا: 'إنتى عثرت على أكفان وعلى مادة راتنجية، كانوا يستخدمونها فى تحنيط الجثث.' قال الشريف: " هذا عجيب!" ثم استدار الشريف ناحية جمهور الحاضرين، وراح يتحدث معهم عن مومياوات مصر. قال: 'يا للعجب! اللحم البشرى يحفظ طيلة ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، والحجر نفسه يبلى بفعل طول زمن

كهذا ! " تساعل الأمير، " هل أعجبتني الطائف ؟ وما الذي شاهدته اليوم؟ وأجبتة، أننا زرنا الأحجار الثلاثة، التي كانت تُعَبَّدُ في " العصر الجاهلي " - أحسست بالأمير وهو يقشعر لهذه الكلمة، بل إن تعبير وجهه تغير أيضاً ؛ والسبب في ذلك أن بينهم وبيننا أرض هشة؛ وقد استثير بكلامى بعض التعبيرات المتشددة من أولئك الأشخاص المهمين الجالسين حول الشريف. وهنا سارعت إلى الحديث عن شواهد القبور في الحجر - وأن تلك الشواهد كانت مكتوبة بلغة الأنباط ؛ هذا في الوقت الذي كانت النقوش الموجودة في قرية العلا مدونة باللغة الحميرية؛ علما بأن قرية العلى لا تبعد كثيراً عن الحجر. وتعجب الأمير عندما سمعنى أقول: إن اللغة الحميرية ما يزال الناس يتكلمونها إلى يومنا هذا في منطقة من مناطق اليمن! ولكن هذا الذي قلته سرعان ما أكدته شيخ يمنى كان يجلس بين الناس ، وبخاصة أن ذلك الشيخ كان من المنطقة نفسها التي يتكلم الناس فيها اللغة الحميرية. تكلم الشريف أيضاً عن الكتابة المنقوشة بالقرب من السيل؛ وطلب الشريف منى أن أرسل له صورة من نقوشى عندما أصل مدينة جدة. [أنا لم أعثر على نقوش في وسط نجد، ولكن هناك في الوشم نقش مكون من خمسة أوستة أسطر - وهذا النقش موجود في منطقة ماسول Masul السوداء es-Sudda، في حوض من أحواض السيل تحت جبل شطب Shotb، من جبال طويق Tueyk. وهذا النقش معروف لكل الناس في هذه المنطقة؛ لأن الموروث الشعبى هناك يأخذ ذلك النقش على أنه إشارة إلى منجم من مناجم الذهب!]

كان من بين الحاضرين مواطن حاج أسود اللحية جاء من مدينة كابول؛ كان يتكلم العربية نون أخطاء - هذا الرجل نادانى فجأة، " ألن تزور كابول فيما بعد؟ " - كابول، لياسيدى؛ أنا أخشى أن يضيع منى رأسى هناك! " ثم قلت للشريف بعد ذلك: " إنهم يغارون من الإنجليز ويحسدونهم؛ ولكن نظرا لأن المسكوفيين (الروس) يهددونهم من الخلف، فقد نتحول إلى أصدقاء لهم. " فكر الشريف ملياً ثم ابتسم؛ ثم قال بصوت مهادن: " ربما كان الناس ما يزالون همجين في تلك المناطق! وما رأيك في الهند؟ " - أجبتة بسرعة، " أم الدنيا ummed-dinya. " تعجب الأمير وراح يتأمل كلامى ثم أعاده على الحاضرين - والسبب في ذلك أنهم يعتقدون أن إنجلترا الصغيرة نمت وكبر

حجمها مؤخرًا " من أرض الهند الواسعة الشاسعة ". أخيرا قال الشريف الطيب : لقد تحدثت حديثا طيبا باللغة العربية: أين تعلمت هذه اللغة؟ [كنت أَلْفُظُ الكلمات بالطريقة النجدية أى بالحاء 'نون' فى نهاية الاسم، وفى بعض الأحيان كنت أستعمل صيغ الجمع البدوية. والتى لها وقع طيب على أذان أهل الحضر].. وهنا استدار حسين إلى الجمهور وراح يتكلم بشيء من الدفء الكبير (الحر) عن التقدم التعليمى الكبير الذى حدث فى السنوات الأخيرة فى كل مجالات اللغة العربية، عند كثير من الشبان فى جبال لبنان،[نصارى ، تخرجوا من الكلية الأمريكية فى بيروت.. كان الشريف قد زار بيروت منذ سنوات ، عندما كان رجلا عاديا من عامة الشعب، طالبا لعلاج طفل مريض ، سرعان ماتوفى بعد ذلك]. تكلم الشريف أيضا عن كثير من الكتب [الأوروبية] الخاصة بالمعارف الأساسية ، التى تجرى ترجمتها وطبعها كل عام فى هذا البلد من بلاد الليفانت، أوإن شئت فقل: البلاد الواقعة شرقى البحر الأبيض المتوسط : وكان الشريف حسين مسرورا جداً من دائرة المعارف البريطانية: قال الشريف: لدى الأجزاء الأولى من هذه الموسوعة ، وأنا أجد متعة عندما أقرأ فى تلك الأجزاء . والقارئ لتلك الأجزاء يجد فيها تاريخا لكل شيء ، وهذا أمر عجيب! خذ على سبيل المثال كلمة 'كرسى' العربية، التى يقولون لها بالإنجليزية Chair: عثرت على الكلمة حسب الترتيب الأبجدى لحروفها : ووجدت فى البداية دراسة اشتقاقية للكلمة، التى هى ليست كلمة عربية؛ ثم بعد ذلك تاريخا للكراسى منذ بدايتها عند كل الأمم.

وعندما فهم الشريف أننى سبق لى أن زرت الأندلس ، بدأ الأمير يسألنى عن كل ما شاهدته هناك: وسمع منى بسرور بالغ هذا الذى كنت أقوله " وادى النهر العظيم". والمأخوذ اسمه Guadalquiver من اللغة العربية (الوادى Wad الكبير el-Kebir)؛ وقلت أيضا: إن شوارع الأسواق فى كثير من بلدان الأندلس تقوم على النمط أوإن شئت فقل : النموذج المغربى؛ وهذا هو السبب وراء وجود الكثير من آثار اللغة المغربية والعادات المغربية أيضا - ثم سألنى الشريف، إلى أين سأتجه بعد ذلك؟ وأجبته : إلى عدن، لأنال قسما من الراحة هناك؛ ثم اتجه بعد ذلك إلى الهند. [هذا الشريف اللطيف طلب من مضيفى أن يسأل عنى فى الصباح ليسألنى: ما هى الوسيلة التى ينبغى أن أستعملها

فى الرحيل عن جدة؟- الرأى الثابت عندهم أن الفرنجة (الإفرنج) بالرغم من عقيدتهم المشتركة، يتحولون فى مثل هذه المغامرات إلى ظنّانين، لايتعاطفون مع بعضهم البعض ويكونون بعيدين تماما عن كل مظاهر الكرم والضيافة. ويلغنى أيضا أن ذلك كان هو موضوع الحديث الذى دار بين الضباط الأتراك مساء الليلة السابقة عندما كانوا فى نادى الضباط يشربون القهوة].

حسين هو من قبيلة الأشراف التى يطلقون عليها اسم العبادلة Abadella، الذين هم أبناء فاطمة وعلى [الذى تولى الخلافة فيما بعد] ، هذه القبيلة نمت وكبرت خلال أقل من خمسين جيلا لتضم عددا كبيرا من الأفراد؛ وأنا أحسب أن هذا العدد ربما يصل إلى خمسة عشر ألف شخص! فى كل من مكة واليمن؛ هذا العدد الضخم مقسم إلى ما لا يقل عن عشرين قبيلة فى هذين المكانين: البعض من هذه القبائل ، كما هو الحال فى نوى Thuy حسن Hasan، فى اليمن ، يقال إنهم بلغوا من القوة حداً أصبحوا معه أمة كبيرة مثل قبيلة عتيبة ! قبائل الأشراف البدوية المترحلة عددها لى واحد من البدو الرُّحل التابعين للشريف ؛ هذا الواحد هو [الشريف نصير] الذى صحبنى إلى جدة فيما بعد- العبادلة EL-Abadella، الشنابرة es-Shenaberra نو Thuy جودالله Judullah (الذين منهم سالم، الذى أشرف على طعنى بالسكين)، نو Thuy جزآن Jazzan؛ الحروث el-Hurrth؛ المناعمة el-Menama؛ نو Thuy السرور es-Surur؛ نو Thuy الزيد ez-Zeyd، الذين منهم عبد Abd' المطلب،الذى تولى منصب الشريف، قبل الشريف عبدالله الذى توفى مؤخرا [كان السلطان قد عزله من ذلك المنصب : ولكن بعد مقتل حسين، أعيد عبد المطلب مرة ثانية من إسطنبول، ليتبوأ من جديد مكانته السابقة. حكم عبد المطلب مدة عامين ، وفى النهاية عزله الأتراك]؛ نو Thuy إحامود Ehamud؛ نو Thuy سواملى Suamly؛ والفور el-Faur؛ نو Thuy حسين Hasseyn؛ والبراشيدة el-Barracheda والأرانطة e-Aranta؛ الرواجى er-Ruage نوى Thuy عمير Ammir؛ الحيادة ؛ نوى Thuy حسن؛ نوى Thuy جساس Jessas؛ التلية eth-Thaleba، إلى جانب هذه القبائل هناك أيضا قبيلة أخرى كبيرة هى قبيلة الصُّعادة es-Sada والتى

لاينتمون إلى الأشراف بالرغم من انحدرهم من سلالة فاطمة - هناك أشراف، وذرية من سلالة النبي (ﷺ) في كل المدن الإسلامية الكبيرة، بل وحتى في القبائل الصحراوية: كان صديقي الفجيري العجوز، زيد السبيكان es-Sbeykan [الجزء الأول] واحداً من هؤلاء الأشراف ؛ فضلا عن كونه أيضا واحداً من أفضل الناس وأقلهم تشدداً! وأفراد قبيلة الأشراف لايزوجون بناتهم لغير الأشراف؛ أماهم فيتزوجون مايشاعون من النساء، ويتخذون من المحظيات مايشاعون؛ وسلالتهم كلها يطلق عليها اسم الأشراف.

يعد أن عدنا إلى المنزل سألني العقيد محمد من جديد: 'ماهو رأيي في الشريف؟' وأجبتة ، " رجل طيب بمعنى الكلمة: " ولكن مضيئ أثر الكلام عن المرحوم سيدنا عبدالله . قال: 'لوكنت في الطائف قبل ذلك بفترة وجيزة لكنت قد شاهدت مظاهرة شعبية عجيبة مكونة من أولئك البدو الرحل غير المتحضرين جاؤا من كل أنحاء البلاد، ومعهم قبائلهم وأقاربهم كي يرحبوا بالشريف الجديد : ثلاثة أيام وهم يأكلون ويشربون [راجع سفر أخبار الأيام] ، ويمرحون وهم يتصايحون ويطلقون النار من بنادقهم الطويلة - الولاية الإسلامية ليست ، كما رأينا ، من الأب إلى الابن : فهذا ابن الشريف المتوفى، وهو شاب طيب، كان مايزال مقيما في الطائف.

أملاك وضياع الأمير الشريف تمتد إلى ماوراء وادي بيشة . وهو الأكبر سنامن بين أفراد بيت النبي، وهو أيضا أمير مكة؛ وبالرغم من ذلك فإن، الشريف له بعض الرعايا المناوئين الذين كانوا يرفضون من حين لآخر دفع الجزية (الزكاة) - وكان عندما يجرّد حملة لتأديب أولئك المتمردين فإنه هو نفسه (شأنه شأن أمراء الجزيرة العربية كلهم) يقوم بقيادة تلك الحملة، ومعه حرسه البيشي (وبعض الجنود العثمانيين). ومنذ ثلاثة أعوام شارك العقيد محمد في واحدة من تلك الحملات في اتجاه وادي Wady الرونية Runnya: وبعدها شاهد صحراء الجزيرة العربية - " التي هي ، على حد قوله، ليست خالية كما يتخيل الناس. والعجيب أن الكثيرين من هؤلاء أشباه العراة، الذين أحرقتهم الشمس يُصبحون كل يوم قبلنا ، في الوقت الذي لانلقى نحن فيه بالا لهم!

ولكن آه ! من ذلك التجوال خارج الطريق، أو على غير هدى وآه ! أيضا من الشمس الحارقة ومن الرمل الحارق؛ وآه ! أيضا من العطش ! أذكر ذات يوم أننا عثرنا على بئر عسرة الماء، وسعدنا بها غاية السعادة لأننا نملاً منها قراب الماء ونروى منها ظمأنا . أنا كنت ضمن هذه الحملة، ومعى اثنين من ضباط الدولة (الإمبراطورية العثمانية)؛ ذهبنا للمشاركة فى تلك الحملة، ونحن نرتدى هذا الزي ! [أى كنا نرتدى ملابس عسكرية أوروبية]. خرج الناس من قراهم، ليلقوا علينا نظرة، أو إن شئت فقل : ليحملقوا فينا ويطلوا النظر إلينا - عندما كنا جالسين فى الخيام ؛ وكانوا يتهامسون فيما بينهم انظر هناك ! لابد أن هؤلاء ثلاثة من النصارى ! ولكن العسكر الثلاثة الأتراك كانوا مسرورين بعض الشيء لأن الناس تنتظر إليهم من هذه الزاوية؛ وهنا قرر الشريف أنهم فى الحملات المستقبلية سيقومون بها وهم يرتدون ثيابا مثل بقية أفراد الحملة .

سألنى العقيد محمد، فى شيء من الاهتمام ! عما إذا كنت أفكر فى زيارة وادى بيشة، والمنطقة الواقعة فى اتجاه وادى الدواسر؟ وفى مثل هذا الحال سوف يعطينى الشريف خطاب سلامة وتأمين ! - ولعل حسين يكون قد رشحنى لأكون مصاحبا صدوقا لك؛ ويتطلع إلى إعفاء حكومته، مستقبلا، من مغامرة إفرنج آخرين بالمجئ إلى هذا البلد - وبالرغم من أنى كنت فى السابق أرغب فى زيارة هذه الأماكن ، إلا أنى أحس الآن بحتمية التخلي عن كل ذلك وأن اتجه إلى الساحل على وجه السرعة وبلا أى تأخير .

هم هنا لا يحبون الأتراك (المعتدين) - وقد علمنى زيد ذلك (من كتابة) ، الميراث السماوى للعالم؛ - فقد أعطى الله ريعين لبنى آدم، والربع الثالث أعطاه لكل من يأجوج Ajuz وماجوج Majuz، وهم شعب من الأقزام يفصلنا عنهم جدار أو سور؛ وأنهم سوف يتعين عليهم القفز فوق ذلك السور فيما بعد ؛ ثم يجتاحوا العالم بعد ذلك. والأتراك (كلهم) وكذلك الفرس (الكفرة) من هذه السلالة: أما أنتم، أيها الإنجليز، فأنتم من النوع الطيب مثلاً. أما القسم الرابع من الدنيا ، وهو الذى يطلقون عليه اسم الربع Roba الخالى el-Khaly فهم يتصورونه أو يتخيلونه على إنه الشرق الأوسط الكبير، الواقع شرقى الجزيرة العربية ؛ وهم يرون أن ذلك الربع الخالى ليس فيه أى شكل من

أشكال الحياة- وأنا لم أعثر على أى أحد من سكان الجزيرة العربية ، حتى يقول لى، ولوعن طريق النقل والسماع، شيئاً عن ذلك الجزء المخيف من البلاد . هذا الجزء عبارة عن نفود، عامرة بالرمال المنقولة، أو إن شئت فقل: الرمال المتحركة، وهذا الجزء يمكن الدخول إليه وتجاوزه، بل وحتى عبوره بواسطة نياق الإبل المدرة للحليب، خلال فترة الربيع التى تستمر بضعة أسابيع قليلة. ولكنى الآن، ضعفت صحتى ، وخارت قواى؛ وعكس ذلك، سيكون بمثابة محاولة منى لفك لغز هذه الأحجية.

يضاف إلى ذلك أنى هنا فى جبل الطائف ، يملكنى الخوف من المسكوف Muscov. وقد أبلغنى الجندى المراسلة(*) الذى يقوم على خدمة العقيد محمد، أن النفخ فى البوق الذى نوى (عند وصولى) قبيل طلوع الشمس بقليل ، كان إيذاناً بآخر خفرة يقوم بها المتطوعون المدنيون! قال: الخفرة الأولى تبدأ عند غروب الشمس، ومهمتها القيام بدورية حول الأسوار ؛ وهذا هو ماتفعله الخفارات التى تلى ذلك طوال الليل. وذلك تخوفاً وتحسباً لأية هجمات مباغتة يقوم بها النصارى!- لم يكن هناك خط تلغراف واصل إلى مكة . هذا الرجل السورى الأمين، الذى كان يحترف إصلاح الساعات، كان يتطلع إلى انتهاء خدمته العسكرية، حتى يستقر بعد ذلك فى مكة؛ التى قال: إنه سوف يكسب فيها " خمسة ريالاً يومياً"، وهذا يبدو لى من قبيل المستحيل.

جرى تحصيل مساهمة الحرب من كل أنحاء ممتلكات الشريف حسين، قال العقيد محمد: وصل إجمالى المبلغ إلى مايقرب من خمسة آلاف جنيه إنجليزى: وأن العقيد محمد، قام هو بنفسه لنقل هذا المبلغ إلى إسطنبول. واكتشف أن العاصمة تغيرت؛ وراح يفترض أسوأ الأحوال! وعبر قناة السويس ثم نزل فى بور سعيد: حيث حل ضيفاً على القنصلية الروسية ! نظراً لأن الجهاد لم يكن قد أعلن بعد على روسيا ، وإنما الجهاد كان معلناً على المناطق المتمردة. وتم إنزال صناديق النقود الفضية، التى جرى جمعها من سكان اليمن السعيد المعدمين، على رصيف الميناء؛ وكان العقيد محمد متخوفاً من فقدان أى صندوق من تلك الصناديق : ولكن القنصل الذى كلف قواسم Kawas بحراسة تلك الصناديق، طمأنه وطلب منه ألا يخشى أو يخاف من أى شئ

وأخذ الضيف العثماني إلى بيته ليستضيفه على الطريقة الروسية - وعندما وصل العقيد محمد إلى إسطنبول قام بإيداع الصناديق لدى الباب العالي Porte: ولكنه بقي يوما بعد يوم، دون أن يحظى بأي رد من الردود. أخيرا، ومن باب الاطمئنان، استدعى العقيد محمد لمقابلة الباب العالي؛ الذي سلمه صندوقا صغيرا؛ بداخله رسالة، مكتوبة بخط السلطان، ومعها هدية للشريف حسين.

- أهل الطائف لديهم الكثير من الأشياء الضرورية الأخرى، إضافة إلى الفاكهة: وأشهر الأغنام في الطائف هي من الضأن العتيبي؛ القرشيون يجلبون إلى الطائف الجبن الأبيض المصنوع من اللبن الخاثر. والقريش Koreysh (وجمعه القوراش el-Korash أهل محمد ﷺ) من ناحية الأم، هم أناس من البدو الفقراء الذين ينظر الناس إليهم في منطقة مكة نظرة ازدراء واحتقار؛ وهذا، على حد قول الشريف نصير، "راجع إلى أن أباعهم أساعوا معاملة الرسول ﷺ".

ومع ذلك يشيع عن القوراش أنهم بعيدو النظر فيما يتعلق بأراضي البدو المترحلين؛ والناس هنا ينعنون القوراش بأنهم بنى Beny فهم Fahm بمعنى أبناء الفهم. يقول الشريف نصير: من بين القريش من يستطيع أن يحدد من أثر قدمي الشخص إن كان متزوجا أم لا؛ وما إذا كانت الأنثى عذراء أم زوجة. والقريشي إذا ماضعت منه ناقة ضالة ومعها ولدها؛ وعثر على أثر أقدام ذلك الصغير، حتى ولو بعد سنوات فإنه يستطيع التعرف على تلك الناقة.

- كان اليوم يصادف اليوم الرابع من فترة الراحة التي أمضيتها في الطائف: وكانت ناقة البسام المرهقة التي تورمت اقدامها قد بدأت تستعيد قواها من جديد، وثبت أنها تستطيع أن تنقلني إلى جدة (مسافه تقدر بحوالي ٣٠ فرسخا)، وأننى يتحتم على بدء هذه الرحلة قبل دخول المساء. [هناك طريقان يتجهان من الطائف إني كل من تهامة

(*) الجندي المراسلة: مصطلح يدل على جندي يخصص لخدمة الضابط عندما يصل إلى رتبة معينة؛ كان ذلك في الجيش التركي، وما زال ساريا أيضا في الجيش المصري. (المترجم)

وجدة؛ واحد من هذين الطريقين ينزل منحدرًا من جبل قورة Kora (ويصح فيه أيضا قُرّة Kurra) ويبتعد عن مكة من الناحية اليمنى؛ والطريق الثانية هي طريق السيل وعين الزيمة، عبر وادي فاطمة. والشريف الطيب - وهذا نقلا عن العقيد محمد - ترك لى أن أختار بين هذين الطريقين: وأنا بدورى تركت الأمر ليفعلوا هم مايرضيهم [. وعند الظهر ذهبت مع العقيد محمد لطلب الإذن من الشريف؛ ولكنى عندما وصلت إلى سلم القصر سمعت، أنه دخل، قبل قليل، إلى الحريم؛ هذا يعنى، أن الشريف قد خلد إلى الراحة بعد أن انتهى من عمله - وربما يقرأ فى الموسوعة البريطانية، وسط أفراد عائلته. حرارة الظهيرة ليست قاسية فى الطائف: وجدت أن درجة الحرارة فى ذلك الوقت من النهار كانت ٩٠ فهرنهايت؛ يضاف إلى ذلك أن الليل كان منعشا أيضا.

ومع دخول المساء، أرسلت زكائى وجوالتى على واحدة من النياق إلى المكان الذى ينبغى أن أبدأ منه مع الجماعة المرافقة. فى حين أخذنى كل من العقيد محمد هو والأغا الألبانى سيرا على الأقدام إلى ذلك المكان؛ وجاء معنا أيضا زيد البيشى : كان زيد قد طلب السماح له بمرافقتى إلى جدة، ولكنهم لم يأتنوا له بذلك . ذهبنا فى البداية إلى قصر عبدالله باشا، كى أودعه وأستأذن: ولكن عبدالله باشا كان قد ذهب مع الشريف حسين، وجماعة من الشيوخ لاستنشاق الهواء، أسفل الجبال السوداء (التي ربما وصل ارتفاعها إلى مايقرب من ٨٠٠٠ قدم). وخلف بوابة السيل وصلنا إلى خيمة مقامة وسط حقل من جذامة القمح - ووجدت التين مكوم على الطريقة الأوروبية ! كان ذلك مسكن أولئك الذين يرعون ماشية الشريف من الإبل . كانت ناقتى مبركة فى ذلك المكان؛ ورأيت ناقتين مبركتين أيضا بجوارها ، وكانتا خاصتين بالرجلين اللذين سيرافقانى إلى جدة - عن طريق وادي فاطمة: هذان الرجلان هما الشريف نصير البدوى المترحّل، وهو واحد من جباة الزكاه التابعين للشريف، ومعه اثنان (زنجيان) من الحرس البيشى. شاهدت هؤلاء الزوج وهم يضعون على أنوف النياق نوعا من الطلاء الذى يستعمل فى طلاء الخشب ! وقالوا لى: إن هذا الطلاء يحافظ على النياق من الهواء الملوّث فى الأراضى المنخفضة - من هنا فإن عرب الحضر يضعون ذلك "الكريوزوت فى آبار" المياه الملوثة.

بعد التوديع والاستئذان ركبت الناقة، مع رفاقي وواحد من المشرفين اسمه "حسن Hasan وحسن هذا رفيق لطيف سيركب معنا إلى مسافة بضعة فراسخ. وبعد أن قطعنا مسافة ميل، وعندما بدأت الشمس في الغروب ، نزل الجميع بستانا من البساتين ، حيث توجد بئر من الآبار، التي سيتوضئون منها ثم يصلون . وجدت أن العمق إلى الماء هنا كان يقدر بحوالي خمس قامات ، وكان الماء هنا عذبا وقليل الكثافة: وقد أخبرني السائق الذي يعمل في جلب الماء من البئر، عن طريق مجموعة من الثيران ، أن ذلك العمق يقل قامة واحدة عندما تسقط الأمطار - مررنا على حقول الفاكهة ومسورات مزروعة واستمر ذلك على امتداد ثلاثة أميال - ولكن هذه الأراضي ليست مستمرة أو متواصلة: ومن خلف هذه الأرض توجد صحراء . كروم هذا العام - التي تحمل في الطائف (المدارية) عناقيد مشوهة من العنب الأبيض هاجمها الجراد وأتى عليها: ونباتات العنب هناك تمتد على الأرض كما هو الحال في سوريا؛ ولكنها يجري ربطها بأوتاد، مدقوقة في الأرض بطريقة منظمة. شاهدت كثيرا من أشجار الإثل - والناس هنا يطلقون على الإثل اسم الابرين el-aerin - والناس يزرعون أشجار الإثل هنا طلبا لأخشاب البناء. وشجرة التين يسميها الناس هنا حماطة hamata (مثل شجرة التين البرية التي تنمو بالقرب من بعض أنواع المياه الصحراوية) - [انظر الجزء الأول] بعض أشجار الزيتون التي تنمو هنا في جبال الطائف (على ارتفاع لا يقل عن ٦٠٠٠ قدم) جرى إحضارها إلى الطائف من سوريا . هذه النباتات تزدهر في ظل هذا المناخ المداري ويزداد مجموعها الخضري ولكنها لاتحمل ثمارا؛ والناس هنا يطلقون على أشجار الزيتون هذه اسم العتيم el-etim - . ولغة العرب الحية تنتشر خلال مناطق شاسعة، لاتعرف الحدود، ولا يمكن تعلمها كلها؛ والناس هنا يطلقون على مرّ الصحارى اسم الحابوج el-Hadduj وهو نوع من القرع، يطلق الناس عليه سكان المنطقة الغربية اسم حمظل (*) hamthal، ووسط نجد يطلقون على ذلك النبات اسم شيرى Sherry.

(*) حمظل : hamthal الصحيح هو "حنظل" وهو ما يسمى "مر الصحارى" ولعل اللبس ناتج عن صعوبة نطق اللفظ العربي على المؤلف الإنجليزي. (المترجم)

- قال حسن: يا خليل شعبك من بلدنا! والسبب فى ذلك أن لدينا كتابا مكتوب فيه أن الإنجليز مضوا قدما (فى الزمن القديم) من هذه الديرة: "قال لى ، ونحن نمضى فى طريقنا قدما: إن ذلك حدث منذ الهجرة! هناك قوم أخرجوا الألبان من هذه البلاد. هناك بعض الإثنيات السامية القديمة التى تحتوى على مادة من هذا القبيل . انتهت فترة الشفق؛ وعلى الفور بدأنا نسير فى الظلام. - قال حسن: يا خليل، إخ! هل تنام أيها الرجل؟ لكن قل لى: ما الأفضل الترحال على ظهور الإبل أم الترحال على ظهر سفنكم؟ العرب هم بحارة الصحراء ، والإنجليز هم جمالة البحار. "التقينا جماعات طويلة من الإبل المحملة المتجهة صوب الطائف: وشاهدنا جماعات أخرى من الإبل تتجه إلى المدينة المقدسة. كانت غالبية تلك الإبل محملة بالجوانات - أوه! بالحلاوة هواء الليل النقى، وعبيق الورد؛ التى يقوم الهنود بتقطير عطرها الفواح فى مكة. وعطر الورد، هو العطر الذى ينتشر بين السواد الأعظم من الحجاج فى كل أنحاء العالم الإسلامى. كان الجمالة جالسين ممددين لى يتاموا نوما غير مريح فوق ظهور الإبل وهى مستمرة فى السير فى طريقها : - أحد هؤلاء الجمالة الذى كان مستيقظا مرعلينا وهو يغمغم قائلا: "معكم واحد لا يصلى!" وعندما سمع الشريف نصير ذلك الصوت ، لعن والده بأقذع لعان العرب. - قال : هذا شىء لا يطاق! أن يتكلم هذا الرفيق مسيئا بهذا الشكل إلى واحد من الراكبين ضمن صحبتهم ' خفف البيشيون أحمال بعض أولئك النائمين ، بأن أخذوا مايشاعن من الحطب الذى كان الجمالة يحملونه معهم لاستعماله فى الوقود، كى يشعلوا نارا لتصليح شىء من القهوة: ثم سارعوا بعد ذلك إلى شب تلك النار. وبعد حوالى نصف ساعة وجدنا هؤلاء البيشيين فى مجرى من السيل يبعد مسافة قصيرة عن الطريق العام، وهم جلوس حول النار، وكان الماء اللازم لتصليح القهوة جاهزا. نزلنا فى ذلك المكان ،وإن شئت فقل : الشعب، لتناول العشاء وتمضية الليل: هذه المحطة الصحراوية كانت فى منتصف الطريق، حسبما قالوا لى: بين الطائف والسيل.

كانت طرقعة نار الحراسة ونارها الحلوة قد صاغت من حولنا ضوءاً جميلاً، وكنا نجلس على الرمل النقى ، ونستنشق هواء الصحراء والجبال، ونحن بين الكتل الصخرية

المعتمة وأشجار السنط؛ كان لون السماء أزرقا غامقا، وكانت النجوم متناثرة في كل أنحاء السماء، تلك النجوم، التي ابتسمت لرؤية الحفاوة الكبيرة المحيطة بفقرنا:

كنا ضيوفا على الليل، وعلى الصحراء الشاسعة. أخرجنا طعاما ، وتمرًا، وجبنا وخبزًا ، وملأنا سطلا من ماء الطائف الرائق الصافي: الوحيد الذي لم يأكل كان هو الشريف نصير. يا أسفاه! فقد غامرت بالمجيء إلى الطائف ؛ كما أن الشريف ، كان قد أصدر أمرا بأن، يقوم الشريف نصير بمرافقتي إلى جدة. وأن تلك الليلة التي رحلت فيها كان مفترضا أن تكون ليلة عرسه! هذا الشريف البدوي المترحل اللطيف أحب فتاة من فتيات عتيبة، ابنة واحد من الشيوخ ، أحبها حبا جما. كان الرجل قد مشط شعره وهذبه في الفترة الأخيرة: وكانت أصابع تلك الفتاة هي التي صفت شعره الطويل الذي يدخل ضمن جمال الرجال، على شكل مائة خصلة من الخصلات الصغيرة، وهذه الفتاة هي التي جمعت تلك الخصلات في منتصف رأس هذا الرجل، الذي كان ينتظر الحب والزواج كان يبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عاما، جلس صامتا وغارقا في التفكير؛ وأثناء هذه الفتازيا (الإغراق في الخيال) كان يبتسم فيما بينه وبين نفسه؛ ولكن الرفاق البيشيين كانوا يتندرون بشوقه وحنينه . أعطيت هذا المسكين المريض شايًا فيه كثير من السكر؛ وبالرغم من أنه كان بدويا إلا أنه اعتاد على شرب شاي من هذا القبيل في بيوت مكة. وبعد تناول العشاء ، ركب حسن ناقته العمانية وذهب لزيارة أسرته في هجرة تبعد أميالا قليلة على جانب الطريق: والجيران العتبان يطلقون على نياقهم اسم الهدوج Haduj، وهي كلمة من الكلمات الساحرة: وهذه الكلمة معناها 'الكديش الطرماء العجوز'؛ وهم ويقولون للنياق أيضا "حرة" hurra - قال البيشيون: "احذر يا خليل! فكل الطريق مليء بالصيوع" وبعدها بدأ أولئك البيشيون يعدلون من أوضاعهم ليناموا من حولي ؛ وجعلوا من أنزعهم وبقجهم مخدات لهم: "لأن لصوص الطريق، على حد قول البيشيين، بوسعهم أن يسرقوا أي شيء من تحت رأس النائم."

ركبنا نياقنا قبل طلوع الفجر: وعندما بدأ نهار الصيف في الطلوع شاهدنا بدويا نحيفا راكبا ناقة، ويمشي في اتجاهنا - كان ذلك الرجل هو مذكر ! الذي ترك القافلة

بالأمس في حرّ مكة؛ وصعد إلى الطائف لتحية الشريف الجديد: هذا المذكر رحب بى ووقف يتكلم معنا. ونزلنا من جديد إلى ذلك المسار المرصوف الذى فيه نوع من الدّرج، ثم نزلنا بعد ذلك إلى ممرات ضيقة. التقتنا عائلة بدوية مترحلة (من الهزيل أو القريش) كانت تنتقل نحو الأعلى : كانت أجسام أفراد هذه العائلة نحيفة وبشرتهم تميل إلى الاسمرار ، أى أنهم كانوا نوعا من الأعراب المداريين؛ وحسب رؤيتى هم يشبهون الهنود: كانت ربة البيت تحمل طفلا يركب ممدداً على عظمة الإلية؛ وهذا منظر غير مألوف أو غير معروف فى شمال الجزيرة العربية. أكوام الحجارة التى تنتشر هنا وهناك هى التى تحدد مسار الطريق: بعض هذه الأحجار - كما هو الحال فى كل رمال العرب - يلعنّها الناس، وتوحى بالنحس وسوء الطالع [راجع يوشع Joshua وصامويل] التى يلقى عليها المسافر حجرا آخرًا [- على الجن أو شياطين الأرض؟]: وفى بعض الأماكن الأخرى هناك مظهر من مظاهر البناء.

عندما اقتربنا من السيل، اقتادونى نحو الأسفل، إلى جانب الطريق، داخل ممر برى قصير، وهم يطلقون على ذلك الممر البرى القصير اسم ريع Ria الزلالة ez-Zelala لكى يمكنونى، حسب أوامر الشريف ، من رؤية أو مشاهدة النقش الشهير . توقفوا فى المنتصف أمام صخرة رمادية اللون؛ استطعت أن أميز على وجهها الذى يشبه الحائط شكلا بشريا ضخما - إلى المنتصف (انظر الصورة رقم ١٠) ونقشا كتابيا . نزلت من فوق الناقة، وتجولت خلال الأشجار الشائكة (التي تنمو فى هذه الجبال المدارية) إلى أن وصلت إلى الصورة، التى لم تكن سوى حفر بحجر فوق الجرانيت الصلد؛ ويمكن تمييزها منذ الوهلة الأولى مع طلوع الشمس، وذلك على العكس من ضوء القمر. هذا الرجل القديم، وهو رجل عظيم من قبل ومن بعد، يبدو كما لو كان جالسا ويمسك فى يده مشعاب (جمل)؛ ومعه سطرين من الكتابة الحميرية: الكتابة عمودية - قرأنا ، أنه فى أزمان الوثنيين فى الجزيرة العربية، عبد الرجال صخرة فى هذا المكان .[راجع كتاب داي Die التى Alte جغرافية الجزيرة العربية] وإذا ماكانت الصورة صنما، شأنها

شأن صخرة أبى زيد التى فى أرض البشر فى نجد؛[انظر الجزء الأول] فالمؤكد أن تلك الصور التى على صخور الصحراء كانت أشياء شهيرة بين الأعراب.

أرانى رفاقى أيضا أربعة أوخمسة نقوش أخرى فى ذلك الممر. كانت تلك النقوش كوفية: ومضيت قدما لأنى أعفيت من آلام نقلها أو شفها - لأن الإنسان هنا لا يطيق تحمل حتى مجرد وزن ملابس على جسده. فهمت أيضا أن الشريف نصير لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة، شأنه شأن البدو تماما ! ولكنه حفاظا على مكانته كواحد من الأشراف لم يكن يعترف بذلك أمام أى أحد من الناس . ومن هذه المنطقة يتبقى أمامنا قبل الوصول إلى السيل مسافة ميلين فقط: وبالفعل وصلنا السيل فى ساعة مبكرة، ونزلنا فيه لقضاء وتمضية ساعات الحرارة.

ومحطة السيل هذه، هى بلا أدنى شك، واحدة من المحطات المرموقة والشهيرة فى شبه الجزيرة العربية؛ وهذه المحطة هى المكان الذى يتوقف عنده الحجاج القادمون من نجد؛ كما يتوقف فيها أيضا التجار القادمين من الأجزاء الشمالية الذين يتجرون مع بكة Bocca أو إن شئت فقل: مكة Mecca - ونحن نسمع عن مآثورات فى الجزيرة العربية عن أماكن أخرى للحج طبقا للأديان القديمة ، والتى منها على سبيل المثال قارة Garat أوشيفية Owsheyfia أو الطيرى el-Teyry (وهى فيما بين ثرمدة Thermedda والأوشيفى Owsheyfy، فى منطقة الوشم)، التى يظن العرب أنهم يرون فيها أماكن للصلاة، متجهة فى كل ناحية؛ وفى سدوس Siddus أيضا.

نمنا طوال ساعات الحر فى ظل الصخور: وبدأنا مسيرنا من جديد فى فترة العصر - هذه المرة الثالثة، التى يتعين على فيها قياس الوادى الطويل الممتد إلى عين الزيمة: هذا الوادى ليس كثيبا اليوم، والسبب فى ذلك أنى كنت أنتقل راكبا فى شمس كرم الأمير وحظوته. وأرانى الشريف نصير شيئا فشيئا فى الجبه اليسرى جبل البنت الذى يقولون له: طلاع Thulla البنت el-Bint؛ ورفع الرفاق الثلاثة أيديهم اليمنى ليشيروا بها إلى قمة مستدقة يراها الناظر إليها كما لو كانت عموداً من خلال الهواء (الصورة رقم ١١). وصاح الثلاثة مفسرين وهم يقولون : " العمود الموجود هناك كان

راعية من راعيات الماعز من بين الأعرب ؛ وتحولت هذه الراعية إلى حجر عندما لعن محمد (ﷺ) أهل هذا الوادى ، لأنهم لم يستمعوا إلى وعظه. والبنت تقف مثلما كانت تغزل عندما كانت على قيد الحياة، بعد أن نزل عليها قضاء الله: إى ، ولو أمكنك الذهاب إلى هناك فسوف ترى المغزل فى يدها، وترى بعض الماعز راقدة حولها، وبعض آخر كما لو كان يرعى، وبعض ثالث واقف على أرجله الخلفية كما لو كان يقطف الأغصان البرية! كل ذلك الآن عبارة عن أحجار سوداء ، تستطيع أن تتبين فيها بوضوح شكل الفتاه بالكامل، وشكل الماشية أيضا - القرون وكل شئ! "أخبرنا رشيد أنه تسلق ذات مرة ووصل إلى ذلك المكان ، ليرى تلك الأعجوبة؛ وأنه رأى كل ذلك ، والله! - وهذه حكاية من حكايات الجهلة (هذه الحكايه كافية لأن تحيرهم وتحير الآخرين) ألبسوها للأحجار؛ وهامم يأخذون الأحجار دليلا وبرهانا على المعجزة المزعومة!

فى منطقة منخفضة من الوادى أرانى الشريف نصير مزيدا من الزلط المكوم على جانب الطريق: فقد أصدر الشريف أمرا بحفر بئر فى تلك المنطقة - لتكون تلك البئر سبيلا لعابرى الطريق المسافرين: قال :إن البئر جرى تصميمها لتكون كبيرة العمق، وبالرغم من ذلك لم يعثروا على الماء فى ذلك المكان؛ ولكن الماء بدأ يظهر مؤخراً - وعند الشفق وصلنا مرة ثانية إلى عين الزيمة ؛ ونزلنا عن راحلتنا بين الأحجار فى وسط الوادى - وأكد نصير لى، أن تهامة هنا فى هذا المكان؛ وأن شعاره، على حد قوله ، فى نجد: هذا يعنى أن الأراضى الواقعة فوق مجرى السيل، هى وشواطئ الملح فى كل من الكتبان والحرث إنما تنحدر ناحية المدينة (النورة) ، بمعنى أنها تتجه إلى الأسفل نحو وادى الحمض. ولما كنت قد استعدت جهاز البارومتر من أيدي كل من سالم وفهيد العنيفة، وكنت قد فقدت الأمل فى استعادة هذا الجهاز: بالرغم من كل ذلك وجدت أن الارتفاع هنا هو نفس الارتفاع الذى قسسته قبل سبعة أيام . وأنا أرجح أن يكون ارتفاع الطائف عن مستوى سطح البحر حوالى ٦٠٠٠ قدم. هذا الجهاز الدقيق البسيط لم يطاله الأذى - وقام رجل من رجال هجرة (كفر) قريبة من البحر بإحضار بشائر التمر الناضج ، أوإن شئت فقل : بشائر البلح bellah الرطب Rattub، وذلك مقابل ثمن دفعناه : كان اليوم يصادف اليوم التاسع من شهر أغسطس . وشاهدنا من

حولنا حشداً كبيراً من النمل؛ وكان صوت نقيق الضفادع ينبعث قادماً إلينا من قاع الوادى: وأنا لم أسمع صوت نقيق الضفادع منذ أن كنت فى خير؛ كان النقيق على النحو التالى أورك _ كيو urk-kiow كور-كور-كور kur-kur-kur كيروك! Kreurk

ركبنا راحلتنا مرة ثانية مع طلوع الزهرة Zohra، نجم الصباح لنصل إلى مقيل الظهيرة قبل اشتداد حر (تهامة). التزمنا مجرى الوادى ؛ وبعد حوالى نصف ساعة مررنا بمكان عامر بالبساتين ، يطلقون عليه اسم الصولة Sola. والذى ينطقه البدو الرجل على أنه 'صاله' Sala. فى هذا المكان يوجد نبع كبير ومسورات فيها أشجار الليمون والتوت، وهى من ممتلكات الشريف حسين؛ الفلاحون العاملون فى هذه البساتين هم من عبيد الشريف حسين الذين يخدمونه. وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أميال ، شاهدت مع طلوع النهار على الجانب الأيمن ، مصب وادى المتيك el-mothich الذى يعد مخرجاً لوادى الليمون الذى ينحدر نازلاً من السيل إلى وادى فاطمة، ذلك الوادى واصلنا السير فيه منذ أن غادرنا عيون الزيمة . وفى وادى الليمون توجد قرى الحرّاث ، وهم من الأشراف: والأمير الشريف له ممتلكات وسط قرى الحرّاث Hurrath؛ وأعراب هذه الجبال من الحطيل Hatheyi وعين الليمون، تقع فى هذا الوادى: والوادى من فوق عين الليمون قاحل فى اتجاه السيل Seyl. درب derb الشركى es-Sherky يمر خلال وادى الموثيك Mothik؛ والاسم الآخر لدرب الشركى ، هو طريق شرقى الحج القادم من المدينة المنورة، وهناك أيضاً درب der السلطانى es-Sultany القادم من القصيم ومن شرقى نجد. ومحطات هذا الطريق من مكة هى البارود Barrud، حيث توجد ظلال أشجار التين، وأبار الماء البارد؛ ثم بعد ذلك محطتى البردة el-Bertha ويبر (بئر) bir الحطيل Hatheyi، وهما عبارة عن بئر فى وسط وادى الليمون؛ ثم بعد ذلك محطة الزريبي eth-Therriby، [التي يقولون لها أيضاً ذات That العرق Irk]، وفيها أنقاض قرية من القرى؛ ثم بعد ذلك محطة بركت Birket فى Fi الركابة Rukkaba، وفيها هى الأخرى بعض الأنقاض؛ ثم بعد ذلك محطة المصالح el-Muslah حيث يوجد خزان للماء وبعض الأنقاض؛ وعلى يسار الطريق توجد قرية الفرية el-Fereya؛ ثم بعد ذلك محطة هاتة Hatha حيث توجد فيها حقول القمح وبعض الأنقاض؛ ثم تجيء بعد ذلك محطة العين

el-Ayn ابن ibn غروب Ghrobn التي يزرع فيها النخيل وفيها أيضا بعض الأنقاض؛ وبعد ذلك تجيء محطة السفينة ess-sfeynaah والسويرجية Swergieh. إلى آخر كل هذه المحطات. رأيت قرية اسمها الجديدة Jedida، عند مصب الوادي فيها نخيل وحقول القمح، وهي تروى من آبار وينابيع وفيها عيدان السرغم (الذرة العويجة) الخضراء الطويلة، والناس هنا يزرعون السرغم ويزرعونه بعد حصاد (القمح والشعير المبكرين): وهم يحصدون هذه الذرة العويجة في فصل الخريف. قال لي الشريف نصير: إن حقول القمح فيما بين الطائف واليمن (التي يصل ارتفاعها إلى حوالي ٦٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر) تروى من مياه الأمطار فقط!

وادي فاطمة الذي يقع خلف هذه المنطقة عبارة عن مجرى سيل واسع خال من السكان! مررنا على بعض الضفاف العالية المسورة بكتل غشيمة (من البازلت) ، ونحن في أوروبا نطلق على هذه الأعمال القديمة اسم المباني الأثرية القديمة الضخمة: وهنا رد على الشريف نصير قائلا: 'هذه الضفاف تنتمي إلى بني هلال'. ضفاف السيل هذه تنمو عليها أشجار برية يطلقون عليها اسم الثثوب Thanthub، وهذه الأشجار عبارة عن سيقان خضراء، الأشواك فيها هي التي تمثل الأوراق، وهذه الأشجار مرة الطعم؛ والشريف نصير يقول: إن هذه الأشجار علاج للأسنان. وقد شاهدت هنا، في تهامة، المدارية أشواك أشجار الصمغ التي يحاصرها نبات طفيلي (يطلقون عليه اسم الجشع el-gusha) الذي يتدلى على شكل عناقيد من السيقان المتشابكة؛ والماعز فقط هي التي تأكل هذا النبات الطفيلي.

والى الأسفل قليلا من هذا المكان نرى الجهود الإنسانية التي دخلت لتوجيه وإخضاع هذه الطبيعة الصحراوية. شاهدنا كيف يستعمل الناس سيقان الأشجار والأدغال، عندما يفيض الوادي بالسيول، في توجيه الماء إلى الجانب الأيمن من الوادي؛ ثم يجرى سحبها إلى قطعة من الأرض جرى تنظيفها من الأحجار حتى يمكن زراعتها. ويجرى أيضا سحب هذا الماء من مياه الأمطار، عن طريق قناة إلى حقل في منطقة أكثر انخفاضا في الوادي؛ وهذه المنطقة عبارة عن حقل كبير له سور من

اللبن؛ وأسفل هذا الحقل توجد حقول أخرى مماثلة. والوادي عندما يفيض نتيجة للسيول تفيض تلك المسورات أيضا وتغمرها كميات ضخمة من الماء، تستمر طيلة سبع أو ثمانية أيام. وهنا يتحتم بعد ذلك مباشرة بذر البنور في التربة الزلطية ؛ وعلى حد قولهم فإن القمح الذي ينمو بعد ذلك يستمر بدون رى إلى يوم الحصاد. كل وسيلة من هذه الوسائل والابتكارات العربية بسيطة وعلى درجة عالية من الكفاية؛ وبذلك يتمكنون من أكل الخبز من ذلك الوادي الحجري المهجور - خلف الوادي شاهدت تنفيذ كثير من هذه الأعمال الضخامية، أوإن شئت فقل : السودية، وبالطريقة نفسها التي يجرى اتباعها في مصر. وهم يحفرون التربة ويحرثون باستعمال الثيران، والمحراث عندما يسير في الأرض يقلبها على الجانبين ؛ وسرعان ما يرى المرء أكواما من التراب: واسم المكان الذي نحن فيه هو الزبارة ez-Zibbara شاهدت هنا بعض العلامات الدالة على زراعة قديمة من نوع أفضل: والسبب في ذلك، أننا عندما كنا راكبين راحلتنا ، عبر الأرض المرتفعة ، استعدادا لعبور الوادي ، عثرنا على قنوات مشقوقة في الصخر كي تستعمل في رى الحدائق والبساتين.

من هذه المنطقة تبدى لنا اسوداد ضخمة - هضبة جبلية أمامنا ، فيها جرف يصل اتحداره إلى مايقرب من ألف قدم. يقع على جانب من جانبي الوادي : من الواضح أن تلك الهضبة عبارة عن حرة أخرى! ورد على الشريف نصير قائلا: " هذه حرة Harrat عجيفة Ajeyfa ". ومن خلف هذه الحرة شاهدت أثر الفيضان البركاني مترسبا فوق الجبال البلورية : وتلك أعجوبة من الأعاجيب - وبالرغم مما سبق ذكره فإن بعض الحقول البركانية تتكون على مراحل - التي يندى لها الجبين ! قال الشريف نصير: " الحليان عالية وبعيدة وأنا لم أر أية واحدة من تلك الحليان عند هذا الأفق . حرة عجيفة عبارة عن واحدة ضمن سلسلة كبيرة من الحرات ، ويقال إنها قارة هي وحررة العشيرى Ashiry ". ونقلا عن كل من مذكر ونصير فإن هذه الحررات تنتشر على شكل حزام، في المنطقة ما بين الحرمين [وهذا هو ما رأيناه على شكل حرة خبير وحررة العويرضى].

سألت نصيرا عن الوديان الموجودة جنوبي الطائف في اتجاه وادي بيشة - قال: وادي ودج [widj] يقع على بعد مسير 'ساعتين' من الطائف - ثم بعد ذلك مسير 'ساعتين' آخرين إلى وادي النخيب en-Nkhib ؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادي الليح Lieh؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادي بسيل Bissel . [هذه الوديان يبلغ طولها مسير حوالي خمس رحلات، كما أن مسارات تلك الوديان تتجه شمالا، إلى أن تضيق أخيرا في الرمال: وكل هذه الوديان عامرة بالقرى]. والمسافة إلى وادي ترابة Turraba تقدر بمسير أربعة أيام ؛ وهذا الوادي يعيش فيه أعراب البجوم، كما أن فيه أيضا بعض القرى. وادي الترابية هذا يتصل بوادي العرق el-Erk [الذي لايبعد كثيرا عن شكيرة Shukera في الوشم]؛ وفي هذه المنطقة تتجمع مياه الأمطار لتكون مستنقعا راكدا ، يقد إليه البلولكي يقيموا حوله: وادي السبيع Sbeya أوإن شئت فقل: وادي رونيه Runnya الذي يقول عنه بعض الناس إنه واديان ، وقريتا الخورمة Khorma والقنصولية Konasolieh موجودتان في وادي السبيع - أما الوادي الثاني، أي وادي الرونية ففيه قرية كبيرة من قرى النخيل. وادي بيشة فيه قرى كثيرة تنتشر في كل أنحاء، ولكن هذه القرى في عداء مستمر فيما بينها . وبنى Beny أوكليب uklib هم وبنى شرعان Sharan هم الأعراب الذين يسكنون هذا الوادي. وبداية هذا الوادي تقع في عسير : وطول هذا الوادي يقدر بمسير رحلات كثيرة؛ ومياه السيل تنتهي إلى رمال الصحراء.

وادي فاطمة في هذه المنطقة أرض شديدة القحولة: ويندر أن يمر فيه أحد من البشر . ونصير لم يحضر إلى هذا الجزء من الوادي سوى مرة واحدة فقط، وكان في مهمة خاصة بالشريف حسين. وأرض هذا الجزء من وادي فاطمة المكونة من الزلط والحصى لا ينبت فيها أي شيء، والشئ الوحيد الذي ينمو في هذه التربة عبارة عن نباتات تصدر عنها في ضوء الشمس رائحة غريبة. وعندما نظر البيشي الصغير إلى الرمل السائب ووجد عليه أثارا كثيرة (السواد الأعظم منها متخلف عن سحالي رمادية اللون صغيرة الحجم يطلق الناس عليها هنا اسم الخوسي el-Khossi) ، صاح قائلا:

"والله، لا يوجد فى هذا الوادى سوى الثعابين!" تجاوزنا رأس هذا النبع ، ونزلنا إلى الأسفل عن طريق ممر (من الحجر) لنصل بعد ذلك إلى قرية إمبراك Imbarak، وهذه أول قرية من القرى الواحية فى وادى فاطمة- وهذه القرية تبعد مسافة مسير ساعة واحدة عن المكان الذى كنا فيه.

عندما مررنا على قرية إمبراك شاهدت سباطات البلح وهى تتدلى ناضجة من أشجار النخيل؛ كما شاهدت أيضا على الضفاف الطينية على جانبى الوادى الكثير من نباتات الذرة الخضراء. كما شاهدت هنا للمرة الأولى أكواخا مصنوعة من القش وجريد النخل تشبه خلية النحل (هذه الأكواخ مبنية على الطريقة الحبشية)، ويشيع بناؤها فى هذه المنطقة؛ قال نصير: هذه الأكواخ خاصة بخدم الأشراف. - وابتداء بهذه المنطقة الترية هنا عبارة عن زلط ورمل حتى مدينة جدة. والقرية التالية لقرية إمبراك هى قرية الريان er-Rayyan التى يزرع فيها النخيل أيضا وتبعد ثلاثة أميال عن قرية إمبراك. هذه الواحات التى فى وادى فاطمة عبارة عن مستوطنات حول بعض العيون أو إن شئت فقل : الينابيع. وسكان هذه الواحات من الأشراف، ومن المزارعين ، وكلهم تقريبا أصحاب بشرة سمراء؛ وعمال الزراعة هنا خليط من العبيد والأحرار. امتدحت الحياة البدوية: "قال نصير: نعم، لبن الناقة فريد." وحكى نصير لى، كيف تربص بهم بعض بدو هذه المنطقة ، ذات مرة ، عندما كان ذاهبا برفقة جماعة صغيرة إلى الجنوب، قادما من الطائف، لقضاء أمر من أمور الشريف حسين؛ وكيف راح يجرى على قدميه بجوار النياق إلى أن دخل عليه وقت العصر، وكان مايزال يجرى ويفتح النار على أولئك المتربصين ؛ كل ذلك وهو صائم! ورد على: أن أولئك الأعراب لو علموا أنه شريف لما حاولوا قتله! ولكن كيف يمكن أن يصدقوه حتى لو قال لهم ذلك؟

تجاوزنا الحرارة شديدة الرطوبة فى الأرض المدارية المنخفضة؛ وبعد أن شرب رفاقى كل ما فى القرية من ماء؛ بدعوا يستشعرون الضيق والقلق من حرارة الشمس. وهذا حامد، ذلك الشاب الزنجى بدأ يضيق ذرعا بحياته :مما جعله ينزل عن ناقته ويتخلى عن رفيقه وعنا ويمضى ماشيا على قدميه! اقتربنا من ريان Rayyan ووجدنا

أنه لاذ بالنخيل على بعد مسافة ميل تقريبا . سألته: " ماذا جرى! ألن يعود معنا؟" ورد على رفيقه، " فليعد، إذا ما أراد ذلك ، وإلا فليذهب إلى الجحيم؛" وهنا لعن الشريف نصير والده هو الآخر ولكن هذا الرفيق الساذج، الذى مشى على قدميه أملا فى تخفيف العطش، انضم إلينا بعد ذلك بساعة، فى المكان الذى كنا ننال فيه قسطا من الراحة [ربما وقع الاختيار على ذلك الزنجرى، نظرا لأنه سبق له التعامل والتواصل مع الإفرنج : والسبب فى ذلك أن حامداً، تطلعا منه إلى كسب شئ من المال كى يشتري به سلاحا ويدخل السرور إلى نفسه، كان قد سبق له العمل بضعة أشهر مع الوقادين على ظهر سفينة تجارية فرنسية كانت تمر خلال البحر الأحمر]. وقرية الريان تقع حاليا وسط الوادى الكبير الواسع ، واصلنا مسيرنا راكبين على ظهور راحلاتنا واتجهنا شرقا إلى خليج صغير؛ ثم نزلنا أمام كوخ جديد مبنى بطريقة جيدة من الحجر: أصبحنا الآن فى جزء متمدن من البلاد كما هو الحال فى سوريا - الجزء المكي من الجزيرة العربية. يسكن فى هذا المكان رجل كان غنيا فى العالمين! يوزع من ثروته على الجيران الفقراء وكرمه يعم الجميع - والناس هنا يرون أن من اللائق النزول أمام بيت شريف من الأشراف! وهنا توقفنا بعد أن قطعنا مسافة نصف فيرلنج(*) Furlong، ثم بدأنا نقتاد نياقنا نحو الأمام؛ ثم توقفنا بالقرب من باب منزل الشريف. وبعد ذلك بلحظة، جاء المضيف لاستقبالنا؛ هذا المضيف كان شيخا للمكان ، وكان لونه ، أوسمرته تشبه سمرة الأحباش؛ وأدخلنا ذلك المضيف إلى قاعته، التى كانت واسعة ومبنية من الحجر، وكانت مفروشة بالحصير النظيف وتشبه الكنيس الصغير؛ وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة للضيوف فى الجانب الأيسر من القاعة - سبق لنا أن شاهدنا هجرة (كفر) جديدة من الأكواخ منبسطة الأسطح ومبنية من الحجر من حول منزل هذا الشريف، وكانت هناك بئر أيضا ؛ وكل ذلك كان من عمل ذلك الرجل الطيب وعلى حسابه؛ كما شاهدنا أيضا بعض أكواخ مبنية من القش لإقامة الخدم كبار السن: هذا الرجل يمد يد خيرة أيضا إلى البدو الرحل المساكين ، الذين ضربوا

(*) فيرلنج: بكسر الفاء وضم اللام: مقياس طولى يساوى ٢٢٠ ياردة. (المترجم)

خيامهم بالقرب من بيته - كنا فى ذلك المكان قبل دخول وقت الظهر بساعتين ، ولم يكن النهار راكد الهواء: ومع ذلك وجدت أن درجة الحرارة كانت ٩٩° فهرنهايت .

قدم لنا الإفطار على وجه السرعة: قدموا لنا صوانى عرض الواحدة منها ياردة واحدة ومن فوقها الخبز المخمر والسمن وأفضل أنواع التمور وأسطال مليئة باللبن. وبعد أن تناولنا الإفطار وسمعوا حكاية مغامرتى فى عين الزيمة، قال الشيخ الطيب، وهو ينظر إلى نظرة ود وحنان : 'إننى لو كنت قد ذهبت إليه فى ذلك الوقت لأرسلنى مباشرة إلى جدة - ولكن لماذا لاأتحول إلى الإسلام وأسكن وأقيم هنا فى الأراضى المقدسة، فى رعاية الشريف ؟ قرأ الرجل فى عيناى أنتى كنت قريباً جداً من المسلمين: - ونبح الرجل لنا خروفاً؛ وقدمت لنا وجبة الغداء قبيل دخول وقت العصر . هذا البيت المتمدن وهذا الكرم الحاتمى لم يسبق لى أن وجدت له مثيلاً فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

وبعد أن استأننا من ذلك الرجل الطيب مشيت نياقنا مسافة مائة خطوة، متلماً فعلنا عندما وصلنا ، ثم ركبنا راحلاتنا من جديد واستأنفنا مسيرتنا. وبعد أن تركنا الوادى، الذى يتجه ناحية الغرب، صعدنا إلى الساحل الصحراوى ، ومن فوق ذلك الساحل الصحراوى شاهدت ذلك المنحدر المفاجئ الذى كان عبارة عن هضبة ضمن حرة ضخمة - مر علينا بعض المساكين الذين كانوا يركبون حميراً، وقد حملوها بحطب الوقود كى يبيعونه فى السوق: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الناس من القوراش Korash - وعند غروب الشمس نزلت جماعتى عن راحلاتها بالقرب من بئر من الآبار يقولون له: بير Bir الغرنم el-Ghrannem، لكى يؤدوا الصلاة؛ وعرفت من وجوههم أن مكة تقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشرق. مرت علينا طوابير كثيرة من الإبل ، من الناحية اليسرى، وكانت محملة بالتمر الجديد الذى جاءت به من وادى فاطمة لكى يباع فى مكة. مضينا قدماً فى طريقنا، وعند مجرى من مجارى السيل بدأنا نسير فى طريق الحج السورى الذى يطلقون عليه اسم (درب derb الحج el-Haj الشامى es-Shamy)؛ والمسافة من هذه النقطة إلى مكة تقدر بحوالى اثنين وعشرين ميلاً. وحل

الليل علينا بهواء دافئ محمل بالرطوبة؛ وفهمنا من نباح الكلاب، أن هذا الجزء من البلاد كان مليئاً بالبؤس الرحل. وبعد ثلاث ساعات من غروب الشمس عدنا مرة ثانية إلى وادى فاطمة؛ وفيه نزلنا عن راحلتنا فى منطقة رملية، ورقدنا على الأرض كى ننال قسطاً من النوم.

استيقظنا قبل طلوع النهار، وكانت تلك الرحلة الرابعة من رحلتنا الطويلة، وشاهدت أمامى قرية، هى فى الأصل واحة، والناس هنا يسمون هذا القرية أبو Abu Sheab ، كما شاهدت أيضاً كثيراً من خيام البؤس الرحل المصنوعة من الشعر: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الأعراب كانوا من اللحيان Laheyen، الذين هم من الحطيل Hatheyi. تلك القرية تشبه تلك المنازل التى تشبه خلية النحل وسبق الإشارة إليها. والناس هنا يطلقون على هذا النوع من المنازل اسم عوشة usha ، وهى تصنع من الحطب والقش، وأمام كل كوخ، أوإن شئت فقل : كل عوشة من تلك العوشات، فناء مسور: بعض هذه العوشات كانت متهاكة بسبب القدم؛ والبعض الآخر تولى عنه ساكنوه بسبب القذارة والتعفن. يقال إن تلك العوشات ،أوإن شئت فقل: تلك الأكواخ التى تبنى من الحطب والقش يقدر عمرها بحوالى خمسين عاماً؛ وأن تلك الأكواخ صحية وتصلح للعيش فيها. وهنا شاهدنا أيضاً قلعة عالية من الحجر الغشيم، وقد تحولت إلى أنقاض، وذلك بفعل عمل قدامى الوهابيين هذا هو الطريق الذى نسير فيه يعود ثانية إلى الوادى: ركبنا أميالا عدة؛ وعبرنا غديرا أونهرافغيرا، لايزيد عرضه على ياردتين، وماؤه شديد الجريان! هذا الجزء المنخفض من تهامة عامر بالماء؛ ومع ذلك لاينساب أى شىء من ذلك الماء إلى البحر، التقينا هنا بعضا من أعراب Aarab دايد Daed، وهم من الحطيل ، وكانوا ينتقلون إلى مكان آخر غير المكان الذى كانوا فيه: كانت النساء يلبسن تنورات قصيرة تصل إلى ركبهن، ومن تحت التنورة سروال طويل! كانت بشرة هؤلاء النسوة سوداء ولامعة؛ كما أن قسما أولئك النسوة (فى هذا الجزء المدارى من الجزيرة العربية) لم تكن غائرة، بل كانت مستديرة وبضة: وكان هناك

كلب يتبعهن. وإلى جانب كل من الحطيلان والبدو الآخرين، هناك أيضا بعض من الحطيم في هذا الجزء من تهامة، وذلك في أعالي جدة وفي المناطق المنخفضة منها. كنا نشاهد في كثير من الأحيان خياما بائسة لبعض البدو الرحل في هذا الجزء من البلاد، الذين صنعوا تلك الخيام، في بعض أجزائها، من الحصير المصنوع من سعف النخيل. والفقراء المعدمون من بين هؤلاء البدو سوف ينسحبون إلى الواحات، لكي يستأجرهم الغير في عملية حصاد التمر. في تلك الفترة يكون ملاك النخيل طيبين وعطوفين على سكان تلك الخيام الضعفاء الذين لا يملكون شيئا ولا حول لهم ولا قوة؛ هؤلاء الملاك هم أيضا الذين يتوجب عليهم أن يأكلوا حلى المستوطنات، وهم يرددون الكلام الجارح القاسى على مسامع أولئك البدو المساكين المعدمين: الذين يوضعون موضع الكلاب إذا ما ارتكبوا أى خطأ مهما صغر شأنه.

عند الساعة التاسعة تقريبا وصلنا إلى قرية الدويح ed-Doeh الواحية؛ ونزلنا عن راحلتنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان، وأوان شئت فقل: عند العوشة usha الجديدة؛ هذه العوشة بناها أحد الأثرياء للتسرية عن المسافرين. ومن باب اهتمام الشريف الطيب بأحوالى الصحية، كلف الشريف نصير بأن يقدمنى لبيوت الأشخاص الأثرياء والميسورين؛ وكان الشريف الطيب قد أمرهم أيضا بالسير ببطئ بصورة دائمة، وأنهم إذا ما أحسوا بأنى أصبت بالإعياء الشديد وأنا فوق الناقة، فإنهم يتعين عليهم النزول عن الراحلات عند بيوت أولئك الأثرياء والميسورين. كان ذلك الدويح (أوان شئت فقل: الكابينة) مبنية من الصخر، وسمك الجدار يصل إلى قدم واحدة على وجه التقريب، وكانت تلك الصخور مربوطة إلى بعضها بطريقة محكمة؛ أما الجدران، التى كانت على شكل مربع، فكانت تنتهى نحو الأعلى بتجويف. وكان من رأى المرافقين لى أن تلك العوشة، التى كانت دفاعا أكيدا ضد الشمس، ولم تكن صغيرة أيضا، لابد أن تكون قد كلفت مالها عشرة كراونات (أى ما يقل عن ثلاثة جنيهات إنجليزيه). بالقرب من القرية يوجد نبع، تأتى إليه النساء المقتنعات (الصورة رقم ١٢) اللاتى يحملن جرارا أثرية الشكل، يحملنها مائلات على رءوسهن، لكى يجلبن الماء من ذالك النبع.

كان الارتفاع فى هذه المنطقة حوالى ١١٠٠ قدم. أحسسنا بالبرودة ونحن جالسين لانتردى سوى قمصاننا، داخل تلك العوشة التى لاياب لها، وكانت تهب علينا نسمة خفيفة، وكانت درجة الحرارة ١٠.٢ فهرنهايتية. هذا العامل الزراعى التابع للأسرة - وهو رجل متين البنية، كث اللحية ومن أهل الطائف - هو الذى سبق أن أحضر لنا الحصير والمخاد؛ هذا الرجل راح يجفف العرق من فوق جبهته بين الحين والآخر وهو يتعجب قائلاً: آه! من حرارة تهامة هذه! الوادى فى هذه المنطقة تسده ثلاث كتل من الصخر البازلتى (المقصر Mokesser والزعاف Thaf، وسدر Sidr) وتحول بين الوادى وريح الشمال، ثم أردف الضيف الذى دخل علينا: "الحرارة هنا فى وادى فاطمة بلغت من الشدة حدًا يجعل الناس لا يرغبون فى تناول الطعام: ووالله، الناس لا يسافرون هنا بعد طلوع الشمس". سألته، ماذا كانت درجة الحرارة فى جدة؟ أجابنى، أف، لا تطاق. نصير: يا خليل، ألم تسمع ذلك الذى قاله سعود بن سعود بعد احتلال مكة - لقد حاصر جدة [فى العام ١٨٠٣]؛ ولم يستطع الاستيلاء عليها: سوف أتخلى عنها، وأنا لا أستطيع مقاتلة مدينة حارة بهذا الشكل: والأكيد أن هؤلاء الناس إذا لم يكونوا شياطين، فإنهم لابد أن يكونوا جيرانا قريبين للشيطان.."

- دخل علينا صبى بدوى فى تلك اللحظة ونظر إلينا من النافذة! وهنا تعالت الأصوات كلها، "أنكش وأغرب عن هنا!" أنا ana من min ديرة dirat بيت beyt الله ullah، "أنا من دائرة بيت الله أى إنتى من أحباب الله! وبالرغم من كل ذلك لم يسمخوا له بالدخول. قام مضيفنا، الشاب الصغير بتعنيف ذلك الصبى تعنيفاً شديداً؛ قم، أقصد العوشة التالية - بمعنى لا تجلس هنا! أنكش وأذهب إلى النخيل؛ فيه fi خير kheyrr واجد wajid، بمعنى [ستجد فيه ما تأكله] وهذا يكفى: أنكش عن هنا حالاً! ولكن هذا الصبى المسكين لم يتحرك قيد أنملة بالرغم مما قالوه من كلام موجه ومؤلم - لا يمكن لأحد أن يؤذى ضيفاً من ضيوف الله! بعد أن قدمولنا (صوانى كبيرة من الطعام) فى وجبة الإفطار، جرى استدعاء ذلك الصبى هو وبعض الأشخاص البؤساء الآخرين لكى يأكلوا من فضلات الطعام المتبقى من مائدة كرم ذلك الرجل الثرى. لكن أيها المضيف! هل ستكون جوالاً فى مأمن؟ يصيح الشريف (البدوى

المترحل) متسائلا: هل دخل الصبي (البدوي)؟" - "إي، منذ أن تناول الخبز معك." وهنا نهض ذلك الشاب البدوي، الذي عرف نفسه بأنه من الحطيل ، وانتهى من تناول الطعام وهو يبتسم ؛ وراح يغسل يديه برقة من إناء الغسيل: ثم ذهب لحال سبيله دون أن يقول كلمة واحدة - بعد ذلك وبينما كنا نائمين دخل علينا بدوي آخر: "قال: أنا عطشان : ولكنهم جعلوه يشرب من أعلى الدورق، ثم راحت كل الأصوات تطارده كي يرحل لحال سبيله!- بقينا فى تلك العوشة إلى حين تناول العشاء، الذى جهزوه لعابري السبيل قبيل صلاة العصر. قام المضيف بذبح خروف سمين، قدموه لنا مطهيا على ثلاثة صوانى كبيرة مع الأرز؛ وكانت هناك صينية كبيرة أخرى عامرة بالتمر الجديد الجميل: ولم ينسوا إكرام راحلتنا أيضا.

ركبنا نياقنا ، واستأنفنا مسيرنا، ومررنا على خيام أعراب Aarab المياتان meyatan؛ والمياتان هؤلاء ، على حد قول الشريف نصير، هم بحد ذاتهم يشكلون قبيلة كنت أعجب وأنا أرى هذا العدد الضخم من البدو الرحل فى هذا القسم من الصحراء: كانت بشرة هؤلاء البدو بلون القهوة - عندما أوشكت الشمس على إرغام المرافقين على النزول من على راحلاتهم، نزلوا وراحوا يصلون مستقبليين الاتجاه الشمالى الشرقى. هنا فى قاع هذا الوادى القاحل، المكون من الزلط والرمل، ينمو الكثير من الحمض humth؛ والناس هنا يطلقون على ذلك الحمض اسم حمض humth الإصلاح el-aslah؛ والبدو يصنعون من الرماد المتخلف عن حرق ذلك الحمض شيئا يطلقون عليه اسم شب Shub الإبل el-bil وهم يستخدمونه علاجاً للماشية الكبيرة - كان بوسع الشريف نصير أن يواصل السير أثناء الليل كي يصل جدة فى صباح اليوم التالى: ولكن حب الشريف للعزائم تغلب عليه قبل أن يصل إلى الهدا Hadda، التى هى آخر قرى وادى فاطمة. وعندما وصلنا أثناء الظلام إلى مكان مأهول، قال الشريف: حسن، هيا بنا ننام هنا؛ هذه هى ممتلكات الشريف حسين، وكل الناس هنا من رعاياه وخدم له." نزلنا فى عوشة، تقع على تل صغير ؛ حيث تقيم أسرة زنجية صغيرة. هذا الزنجى المسكين الذى كان من معارف البيشيين، شب نارا وصلح لنا قهوة، وقدم علفا [يسمونه هنا برسيم Bersim كما هو الحال فى سوريا] لنياقنا. ولكن هذا المكان لم يكن طيبا، واستنشقتنا

هواء غير نظيف. وبينما كنت أنام فى العراء، فرض الشريف نصير كرما جديدا على هؤلاء الناس المساكين ، وبخاصة ذلك الرجل الذى كان يشعر بمنتهى الحرج والخجل عندما جلس معنا لتناول القهوة. ونصير باعتباره من الأشراف ، وباعتباره أيضا من ضباط الشريف حسين، يود الحصول على ذلك الكرم فى هذه الدنيا؛ وجاءت مائدة ذلك الكرم مليئة بما لذ وطاب، وذلك على العكس من المائدة البدوية المتقشفة - أيقظونى عند منتصف الليل على ذلك الكرم الكبير! وسمعنا اعتذار ذلك الزوجى المسكين أمامنا، لأنه لم يضع أمامنا سوى العنزة التى كانت لديه، ومعها وجبة كبيرة من الثريد.

مع طلوع نجمة الصباح ركبنا راحلتنا واستأنفنا مسيرتنا؛ قطعنا مسافة نصف ساعة فى السهل : ثم بدأنا نسلك طريق الدرب السلطاني es-Sultany، أوإن شئت فقل : الطريق السريع فيما بين مكة وميناء جدة- مرت علينا طوابير طويلة من الإبل، وهى تسير ببطئ صاعدة نحو الأعلى ؛ ومن فوق ظهور تلك الإبل شاهدنا الحجاج شبه العارين ، إذ لم يكونوا مرتدين شيئا غير ملابس الإحرام ihram. هؤلاء الحجاج كانوا من الحجاج الهنود، ومن اليمنيين ، وكانوا قد وصلوا يوم أمس إلى جدة: وقد بكروا بالقدوم إلى الأراضى المقدسة لكى يصوموا شهر رمضان ، ضمن تعبدهم فى المدينة المقدسة- شاهدت فى ضوء الفسق، أن جبال وادى فاطمة أصبحت إلى الخلف منا [هذه الجبال يمكن مشاهدتها من مدينة جدة]، وشاهدت أمامنا أرضا جرداء شاسعة،(الناس هنا يطلقون عليها اسم خبت khobt)؛ هذا الخبت عبارة عن أرض من الزلط والرمل - وتستمر إلى أن تصل البحر الأحمر. فى هذه المنطقة كان مجرى السيل القادم من وادى فاطمة، يقع على الجانب الأيسر ؛ أما نهر الطريق فكان محفورا بفعل اندفاعات المياه النازلة من الجبال- والتى تتجه ناحية الشمال فى هذه المنطقة. بعد أن انقضت علينا ساعتان اعتبارا من مغادرتنا الهدا، مررنا على بعض الحظائر المصنوعة من القش، ويثر من آبار المياه؛ كان ذلك المكان محطة لفصيل من الخيالة الخفيفة ومعه بعض من ركاب النياق المسلحين بأسلحة خفيفة، وكانت مهمة هذه القوة حراسة الطريق

المقدس.. وعلى مقربة من تلك المحطة شاهدت واحدة من المقاهى؛ هذا الطريق القصير من طرق الحج تنتشر عليه المقاهى، إذ يرى السائر فيه المقهى على بعد أميال قليلة من المقهى السابق عليها.

كان الحمام يشيل ويحط على الطريق من أمامنا . قال لى الرفاق: إن صيد هذا الحمام أو اليمام أمر لايجوز شرعاً، وبخاصة داخل حدود منطقة الحرم! والسبب فى ذلك أن هذا هو حمام ويمام الحرم؛ وأن ذلك الحمام يجرى تغذيته فى مكة من مخصصات (تصل إلى حوالى عشرين إردباً ardubs كل شهر) من حبوب القمح. وحبوب القمح عندما تنتثر أمام الحمام، فإنه يهبط عليها بأعداد هائلة، بالرغم من أنه لايمكن مشاهدة سوى القليل جداً من ذلك الحمام، فيما قبل تثر حبوب القمح: هذا الحمام يتعرض لإمساك الناس به. على جانبى هذا الطريق، وكما هو الحال فى الطرق السريعة كلها فى البلدان المحيطة، توجد هياكل عظمية كثيرة لكثير من الإبل؛ والسبب فى ذلك أن الناس هنا يتركون جثث تلك الحيوانات، فى العراء دون أن يدفنوها. [وقد جرت العادة هنا أن يجرى سحب أى حيوان أوأى كلب عندما ينفق، إلى خارج بوابات البلدة]. مررنا بولى wely من الأولياء، أو إن شئت فقل: بقبر قديس من القديسين. وهذا القبر، جرى العرف أن يكون مكاناً للصلاة، فى البلدان غير الوهابية. هذا القبر معلق عليه خرق من ملابس الحجاج.

شاهدت بعد ذلك، على جانب الطريق السريع، ضفة كبيرة من الأحجار؛ هذه الضفة كانت تطبق على الطريق فى هذه المنطقة. قال الرفاق، إن الحاج الذى يلقي حجراً على تلك الضفة إنما يكون قد ترك شاهداً على نفسه [راجع العهد القديم]؛ لأن حجره هذا سوف يشهد له يوم البعث، أنه أدى الحج. الصحراء على جانبى هذا الطريق تنمو فيها بعض الأدغال؛ والناس هنا يقولون لتلك الأدغال: ريم reym؛ قال الشريف نصير: إن قرون أشجار السنط بما فى داخلها من حبوب تعد طعاماً للقردة والنسانيس التى تعيش فى الجبل الواقع خلف ذلك الطريق؛ شاهدنا سطحية مثل تلك

التي يطلقون عليها اسم الورور wurrur، [بمعنى 'مبتلع أو ملتهم الثعابين في نجد']؛ هذه السحلية يصل طولها إلى حوالي ياردة، ويكون ذيلها مرفوعا إلى الأعلى ، كما لو كان عنق طائر من الطيور . الطريق في هذه المنطقة يرتفع فوق مستوى أرض الوادي ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى مقهى من المقاهي، وعندها نزلنا عن راحلتنا ؛ ثم قيدنا نياقنا من أرجلها الأمامية، وتركناها وقصدنا المظلة العامة لتمضية ساعات الظهيرة تحتها - وبينما كان صاحب المقهى يحاول خدمتنا، وهو أصلا رجل لطيف، سحب غترتي (غطاء رأسي) إلى الخلف . ولكن هذا الرجل الطيب ، عندما شاهد شعر الفرنجي من ناحية الجنب، صاح متعجبا ،أنتى لابد أن أكون قد جئت على هذا الحال من مكة . وابتسم ذلك الرجل لى، ثم قال:فى ود وحنان "لاتخش شيئا !لأن وصولك إلى هنا ينهى كل الأخطار. " - عثرت بالقرب من هذه المحطة على نوع معين من الأعراب، الذين يطلقون عليهم هنا اسم العبايده Abida، حيث كانوا يسقون قطعانهم (ذات الأصواف بيضاء اللون) من بئر جرى حفرها فى مجرى السيل: وعندما أدخلوا إبلهم كى تشرب ،أقنعت واحداً من أولئك البدو الرحل أن يعطينى قليلا من الحليب (والسبب فى ذلك أن المكان هنا عبارة عن طريق وعليه مرور كثير). وعلى المنطقة المرتفعة التى تقع أمامى شاهدت محطة من محطات شرطة الجمالة.

- عندما مالت شمس العصر إلى الغروب، مضينا قدما فى طريقنا: وانضم إلينا أثناء رحيلنا عن تلك المحطة رجل مكى لطيف، خال من التشدد، ومعه ولده. " قال رفاقى: افرح ، يا خليل، سوف نريك جدة اعتبارا من المرتفع القادم. " - وهنا بدأت أرى البحر أبيض اللون، وهو يلمع فى ضوء الشمس، كما شاهدت أيضا السفن الطويلة وهى فوق سطح الماء، كما تراءت لى أيضا منارات أو إن شئت فقل: مآذن مساجد المدينة. " كان من رأى رفاقى أنى يتعين على أن أجعل من ذلك الحدث مناسبة مفرحة لنفسى. - فى ذلك السهل شاهدت آخر خيام المسلمين المصنوعة من الشعر؛ هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الخيام ،أوإن شئت فقل : بيوت الشعر، يطلق الناس عليهم هنا أيضا البشر (نسبة إلى قبيله بشر).

الأرض الرملية المنخفضة الواقعة أمام مدينة جدة فيها الكثير من حقول القرع العسلى، أحمر اللون، وحقول البطيخ الذى تجود زراعته فى هذه الأرض - بدون ري بفضل الرطوبة المدارية! نادى بعض الرفاق المصاحبين لى على بستانى زنجى، وطلبوا منه أن يحضر لنا شيئاً من ذلك القرع العسلى ومن البطيخ، كى نسرى به عن أنفسنا ؛ ووعدوا الرجل بإعطائه شيئاً من النقود كى يشتري بها لنفسه شيئاً من التبغ - وقد امتدحت ذلك العبد عندما رفض أن يعطينا بضاعة سيده؛ ولكنهم لعنوا أباه، وعيروه بزنجته ، كما وسموه بأنه حيوان ووغد. وعندما وجدت أن رفاقى بدعوا يتوانون بعض الشيء ، طلبت منهم إسراع الخطى فى اتجاه المدينة ، نظرا لأن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب . ولكن العبيد ربوا على قائلين : "نحن لانستطيع دخول المدينة وعلينا غبار السفر وترابيه! سنقوم بتبديل ملابسنا فى بداية الأمر." - وبالإضافة إلى ذلك أرغمونى، وزينونى كى أكون " أمير الأعراب"، على حد قولهم ،بأن ألبسونى الملابس الطبية التى أعطانى الشريف الطيب إياها.

واصلنا مسيرتنا؛ وقالوا لى بلغة أهل الجزيرة العربية من الحضر: " عندما نصل ، يجب أن نتكلم على النحو الفلانى والعلانى(كما لو كنت بدويا، وأن يكون الصوت صادرا من قصبك الهوائية الجافة)، جَواك Gowak يا ya المحافظ el-Mohafuth! كيف keyf عندكم endakom الإبل el-bil ؟ الثمن eth-themn الغنم el-ghrannem إيش eysh؛ و wa إيش eysh أجيب ijib السمن es-Samn ؟ هذه العبارات تعنى: قَواك الله، يأيها المحافظ! كم أسعار الإبل هنا؟ وماهى أسعار الأغنام ؟ وماهى أسعار السمن أيضا ؟ وهنا بدأت أشاهد صحراء ساحل البحر أمام ناظرى! - شاهدت أيضا أعمال المحارث ، التى كانت على شكل قنوات فى اتجاه المدينة، وكانت كل قناة من تلك القنوات تنتهى بخزان له غطاء. تجار الماء الأثرياء هم الذين يمتلكون هذه البرك Birkets: مياه الآبار فى كل أنحاء جدة مالغة المذاق ، وكل فرد من أهل المدينة يتعين عليه شرب ذلك الماء المالح نظير ثمن يدفعه . أرى عن يمينى هنا " قبر حواء Howwa التى تعد حسب الموروث الإبراهيمى الأم التعيسة للجنس البشرى : لقد وضعوا "قبر حواء"، يصل عرض ذلك

القبر إلى ياردة واحدة أما طوله فيقرب من نصف فيرلونغ furlong . تجاوزنا بوابات المدينة وسرنا خلال الشارع إلى قصر الشريف: ولكن هذا القصر أصبح ملكا لواحد من التجار (واحد من أتباع الشريف وعملائه) ، وهو الذى بنى هذا القصر الفخم مؤخرا فى هذه المنطقة - وهذا القصر هو أعلى مباني جدة قاطبة. وفى صباح اليوم التالى دعيت إلى كرم القنصلية البريطانية الوفير.

ملحق الجزء الثانى

جيولوجيا شبه الجزيرة العربية هى من النوع العربى البسيط: فهى عبارة عن رف صخرى، من فوقه أحجار رملية، ومن فوق هذا الحجر الرملى توجد صخور رملية، ثم طبقة من الحجر الجيرى (الصورة رقم ١٣). هناك أيضا اتساعات أرضية شاسعة (كما هو الحال فى مرتفعات الحوران فى سوريا) من الصخور البركانية والبراكين الخامدة. والصخور النارية هنا عبارة عن جرانيت رمادى اللون وأحمر اللون، فضلا عن البازلت بأنواعه المختلفة؛ لقد عثرت على هذه الصخور فى الجزء الأوسط من الأرض المرتفعة من الجزيرة العربية [وهى تمتد من جبل الشمر إلى مدينة جدة أى حوالى ٥٠٠ ميل] والصخر الرملى يشكل المنطقة المحفور فيها آثار كل من بئرا Petra ومدائن صالح؛ وقد تتبععت ذلك الصخر الرملى من هذه المنطقة التى تمتد جنوبا لتصل إلى منطقة قريبة من المدينة (المنورة) [حوالى ٥٠٠ ميل] إلى صحراء النفود، وإن شئت فقل: إن الصحراء الجرداء فى الجزيرة العربية تنتمى إلى هذا التكوين الصخرى الرملى. وطريق الحج الذى يبدأ من دمشق يمتد خلال منحدر مرتفع من الحجر الجيرى [لمسافة تزيد على ٢٠٠ ميل]، ويمر خلال عمون Ammon، وموآب وآثار سكير Seir إلى أن يصل إلى معان (فى إيدوم Edom). هذا الحجر الجيرى موجود أيضا فى جبال سكير Seir، ومعه عروق من الصوان الذى نشاهده أسفل بيت لحم، خلف البحر الميت. لم أعثر إلا على قليل جداً من الأصداف فى الحجر الجيرى فى منطقة معان. كما عثرت أيضا على بعض النقوش التى تشبه المحار فى الحجر الجيرى (خارج منطقة الصوان) فى صحراء موآب.

الباحث يشاهد فى الصخر الرملى واسع الانتشار فى الجزيرة العربية، وجود أحزمة وطبقات من الفقايع البللورية الزجاجية؛ ولكن مع كل ذلك لم أعثر على أى شكل

من أشكال النباتات أو الحيوانات - يضاف إلى ذلك أن منظر الصخور الرملية والصخور الجيرية، وكذلك المناطق البركانية، أوإن شئت فقل: الحُرات يراه الرائي في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها . وتقدر المنطقة غير المعروفة لى، فيما بين دمشق ومكة، بحوالى ٢٠٠٠٠ ميل مربع. الحرات ، على الحدود الغربية لشمال الجزيرة العربية ، والتي تبدأ من تبوك - تستمر إلى مسافة حوالى ٦٥٠ ميل إلى أن تصل إلى مكة . [الحرات الأخرى، التي ليست موقعة على الخارطة، والمعروفة لى أنا شخصيا هي: حرة الحمراء - بالقرب من وادى الدواسر ، وحرّة السوداء - فى جبل طويق Tueyk.

الكلمات العربية عند دوتى(*)

(*) هذه الكلمات جرى استعمالها وشرحها في متن الكتاب .

'Aad	عاد: قبيلة قديمة فى جنوب الجزيرة العربية
A'addi'aley-na	عدى علينا
'Aarab	أعراب
'Aarab Zamil	أعراب الزامل
Araron , Harûn	مارون
El-Âb	الآب: قرية من قرى مدينة حرب
Ab el-Ghrennem	آب الغرنم: عميد أعراب بقاء
Aba Rasheyd	حرة أبا رشيد
El-'Abàdella	العبادلة: قبيلة من الأشراف
J. Abàn	جبل أبان: جبل أبناث
Abànàt	أبناث: جبال أبناث
'Abâra	عبارة: طريقة
'Abbas	العباس: عم محمد (ص)
Abbasieh	عباسية: ساحل حجرى بالقرب من مسمة
'Abd	عبد
'Abd-el'Azîz, le-Bessàm	عبد العزيز البسام
'Abd-el'Azîz	عبد العزيز: أمير بريدة الأسبق
'Abd el-Azîz, el- Metaals, Ibn Rashid	عبد العزيز المتعب بن الرشيد
'Abd-el-'Azîz, er-Román	عبد العزيز الرومان: شيخ تيماء
'Abd el-'Azîz	عبد العزيز

'Abd-el-Hâdy	عبد الهادى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: الشريف الجزائرى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: حارس القلعة الشاب
'Abd-er-Rahmân	عبد الرحمن: ولد عبد الله البسام
'Abd-el-W?hâb	عبد الوهاب
Abda, Shammar	عبدة شمر
B. Abdillah, Harra	حرة بنى عبد الله
'Abdillah Pasha	عبد الله باشا
'Abdullah ibn Abbas	عبد الله بن عباس
'Abduallah, el-Bessâm	عبد الله البسام
"Abdullah el-'Aly	عبد الله العلى
'Abdullah el-;Azîz	عبد الله العزيز المحمد: أمير بريدة الراحل
'Abdullah	عبد الله: أمير سابق من أمراء بريدة
'Abdullah	عبد الله: مسيحى غريب زار حائل
'Abdullah	عبد الله: أصغر أبناء حمود العبيدى
'Abdullah el-Kennèyny	عبد الله الكنينى
'Abdullah weled Mahanna	عبد الله: ولد مهنا
'Abdullah el-Moslemanny	عبد الله المسلمنى
'Abdullah ibn Rashîd	عبد الله بن الرشيد
'Abdullah ibn S'aûd	عبد الله بن سعود

'Abdullah ibn Sellàm	عبد الله بن سلام
'Abdullah	عبد الله شريف مكة
'Abdullah, es-Siruân	عبد الله السروان (أبو علي)
'Abdullah	عبد الله: ولد طلق
'Abdullah el-Yahîya	عبد الله الياحي
'Abdullah ibn Yahya ibn Selèym	عبد الله بن يحيى بن سليم
'Abdullah	عبد الله: ولد الزامل أمير عنيزة
'Abeyd ibn Rashîd	عبيد بن الرشيد
'Abdeydillah	عبيد الله السحيمي
J. el-Abiath	الجيل الأبيض: البيضاء
'Abîda	عبيدة: فرع من القحطان
'Abuida	عبايدة: أعراب بالقرب من جدة
Abu, abûy	أبو: أبوي: أب
Abu 'Aly	أبو علي
Abu Bâkkar	أبو بكر
Abu Bàtn	أبو بطن
Abu Daûd	أبو داود
Abu Fâris	أبو فارس
"Abu Fâris	أبو فارس: سليمان
Abu Feyd	أبو فيض: موقع قريب من بريدة

Abu Khalīl	أبو خليل
Abu Krûn	أبو قرون
Abu Middeyn	أبو مدّين: قروى من خيبر
Abu Moghrair	أبو مغرير
Abu ['Bû] Ras	أبوراس
Abu Rashīd	أبورشيد: سائق فى موسم الحج
Abu Rashīd	أبورشيد: تاجر فى قرية العلا
Abu Robai	أبوروبى: أسم قرية
Abu Sammakh	أبوسماخ
Abu shamah	أبو شامة
Abu Selim	أبو سليم
Abu Sháhr	بوشهر: مدينة فارسية
Abu Shauk	أبو شوك: قنّذ
Abu She'ab	أبو شعب: واحة فى وادى فاطمة
Abu Sinnán	أبو سنان
Abu Sinûn	أبو سنون
J. Abu Tâka	جبل أبو طاقة
Abu Towfish	أبو توفيش: مرض الكوليرا
Abu Thain	أبو طين: بحيرة فى العويرض
Abu Zeyd	أبو زيد

Abūd	عبود: خبر غير مخمور مخبوز على الحجر
'Ad	عاد
Beny Adam	بنى آدم
Adamy	أدمى
'Adan	عدن
Adilla	عديلة: اسم كلب
W. Adīra	وادی الديرة: وادی الحسی
'Adu	عدو
Adu ed-dīn	عدو الدين
Aduàn	عدوان: فرع من المعازى
Aduàn	عدوان: سم كلب
W. Adzīz	وادی عدزیز
Aed, Ad	عايد (عد): مسقى
El-'Aerīn	العرين
Afāra	عفارة: من أقارب أهل خيبر
Afarīt	عفاريت: فرع من العُمُر
'Afarīt	عفاريت: جمع عفريت
Affārim!	عفرام (كلمة تركية)
El-'Āffery	العفرى: غزال لا يشرب الماء
'Affinīn	عفنين: فاسدين

'Affn	عفن
'Affûn	عقون: جمع عفن
'Afia	عافية: صحة
'Afîf	عفيف: بئر قديمة بين مكة والقصيم
El-Aflâj	الأفلاج
'Afrît	عفريت: جن
El-'Afu	العفو
'Afuah	عفوه: عفواً
Afûn	عقون: فاسد
'Âfy aleyk	عافية عليك
El-'Agab	العقاب: نوع من النسور
El-'Agab	العقاب: جمع عقبة
El-'Agaba	أعراب العقابة
'Agâl	عقال
El-'Agal	العقال
El-'Agal Ullah	العاقل الله
El-Âgel	العقيل: محطة صحراوية
El- É thelly	الإثيلي: موقع خرب من بالقرب من حرادة أو حردة
Éthla	أثلة: شجرة طرفاء
J. Éthlib	جبل إثلب

J. Ethmâd	جبل إثماد
J. Ethnân	جبل إثنان
Ethn'asher kelb	اثنتي عشر كلب
El-'Etîm	العتم: شجرة الزيتون التي جُلِبَت من سوريا
Étrush	اطرش: تقدم نحو الأمام
Ey kh?bar	إيه الخبر: ما هي الأخبار
Eyâd	إياد
Eyâd	إياد: شخص من البشر
Eyâda	عياده بن عجوين: شيخ الحطيم
El-Eyàlla	العيال: فرع من عتبية
Eyâr	عيار: مؤسس العيارية
El-Eyarîeh	العيارية
Eysh b'hu	أيش بو: مالذي يؤله
'Eyyâl 'amm	عيال عم: أبناء عم
'Eyyâl es-sheukh	عيال الشيوخ: أبناء الشيوخ
Faddaghra	الفداغرة: فرع من الشمر
El-Faera	الفايرة: قرية من قرى بنى سالم
Fáhd	فهد: حيوان
Fáhd	فهد: أكبر أبناء عبيد بن الرشيد
Beny Fàhm	بنى فهم

Fâiz	فيز: رجل ماهوي
Fakir	فقير
Fálaj	فلج جمعه أفلاج
Far'aoun	فرعون
Fáras	فرس
Fardûs	فردوس: فهجي
Fâsid	فاسد
El-Fasîha	الفصيحة: اسم أثنى بدوية .
El-Fâtha	الفاتحة: فاتحة القرآن
Fâtima	فاطمة
W. Fâtima	وادي فاطمة
Fâtir	فاتر: رجل كبير السن: عجوز
Fattish	فتش: أبحث
Fatya	فتية: سلة
El-Faur	الفور: قبيلة من الأشراف
Fedd'an	القدان: فخذ من البشر
Fehját.	زبائن فطراء الحطيم للفكارة
Féhjy	فهجي، مفرد فهجات
El-Fejîr	الفقير، مفرد الفقارة
Fejjuân	فحوان: اسم كلب

Féjr	فجر: قروي من تيماء
El- Féjr	الفجر
w. Fellah	وادي الفلاح/ وادي الحسى
Felûs	قلوس/ نقود
Fen el-ma'aziba	فين المعزبة
Fen Rubbuk	فين ربك
Fend	فخذ من قبيلة
Fenjèyl	فنجال
Fenjèyn	فنجين: فنجال القهوة الصغير
Ferâ	فرعة
El-Fer'a	الفراع
El-Duffîr	الظفير
Dúksa	دكسة
Dulàb	دولاب
Dullû	دلو
Ed-Dumm thekîl	الدم ثقيل
Dungola	دنقلة
Durf ed-Drawish	ظرف الدراويش
Dazt (That)	ذات: قلعة من قلاع الحج
'Ebbeden Effendy	أفندى الفايز: شيخ بنى صخر فى موآب

Eflah	إفلا
J. Éhad	جبل أحد
Eherrij	هرج
Éherris	أحرز
Ejja	جبل أجأ
'Ekîm	إكيم
Eljy	إلجى: قرية قريبة من بيترا
El-'Elk	علك
Ellathi th?bah	الذى نبحه
El-'Elûm	العلوم
Elyâs	إلياس، شقيق قيس
Emir	أمير
Ēmir el-Hâj	أمير الحج
Emir el-kâfily	أمير القفيلي
Ems,	أمس
El-Engéll	الإنجيل
El-Engleys	الإنجليز
El-Engleysy	الإنجليزى
Enhaj	إنهاج

Ensheyfa	النشيفة: أنقاض في مواب
Enshèynish	أنشينش: أنقاض في مواب
Entha	أنثى
Ent kelb	إنت كلب
Enzân	إنزان: ساحل جبلى فى تيماء
Ephraim	أفرايم : قبيلة
Erb'a	إربعة: فرع من عتيبة
Erbah	إرباح: إنقاض قرية بالقرب من تيماء
Erbeylát	أربيلات: فرع من ولاد على
El-'Erk	العرق: فى الوشم
Erka	عرقة: جيبيل
'Er'n	عرن: بنات
El-'Erudda	الروضة: مسقى من مساقى الفكارة
El-Esha	عشة: نوع العشب
Eskîny	أسقنى
Éslam	السلام: فرع من الشمر
Ésm'a	اسمع
El-Ésmar	الأسمر: جبل من الجبال
El-Esomma	الأسومة: فرع من عتيبة
El-Éswad	الأسود: الجبل الشمالى من الأبنات

El-Éswad	الأسود: سائق من السائقين فى الحج
Ethbah-hu!	أنبحه
El-Âgella	العقيلة
Âgera	عجيرة: المياه القريبة من سطح التربة
'Ageyl	عقيل: أحد راكبي الجمال من نجد
'ageylát	عقيلات/ عقيل
El-Ageylát	العقيلات: من أقارب بنى عطية
Aghrûty	أغروطى
'Agîd	عقيد: جارى القافلة
W. 'Agîg	وادي عقيق، بالقرب من شعارة
El-'Âgorra	الأجورة/ شوك العجوز
Ahl el-aard	أهل الأرض/ الجان
Ahl Athab	أهل عذاب
Ahl byût	أهل بيوت
Ahl Gibly	أهل قبلى
Ahl Hàjjur	أهل حجور
Ahl hàwâ	أهل هوى
Ahl kellimy	أهل كلام
Ahl es-Shemâl	أهل الشمال
Ahl Theyma	أهل تيماء

Ahl tîn	أهل طين: ساكنو بيوت من الطين
El-Ahmar	الأحمر، الجبل الجنوبي من أبنات
Ahmed	أحمد (شقيق محمد النجومي)
Ahmed	أحمد (محمد ص)
Ahrâr	أحرار
Aida	عيدة: اسم كلب
Ainât	العينات: أقارب الفكارة
Aiûn	عيون: فراشة
'Ajâj	عجاج
'Ajamy	أعجمي
'Ajeýfa	حرة عجيفة
'Ajilân	عجيلان: اسم كلب
J. Ajja	جبل أجأ
'Ajjâj	عجاج: الريح المحملة بالرمل
Âjjidât	عقدات (كلمة قصصية)
Âjjilla	أجيلة: جبل بين القصيم ومكة
'Ajjr	عافر
Aj(k)eyl	عقيل: قروي من تيماء
Ajlâb	أجلاب: يقال للحيوانات سواء كانت إبل أم خيول
El-'Ajmán	العجمان

Ajūj	يأجوج
El-Ak(Ach)	الأك: ممر في جبال الطويق
'Akaba	عَقَب: فسَّر
'Akaba Alya	عقبة عالية
'Akaba es-Shemīya	عقبة الشامية
'Akaerīt	عكاريت: كلمة مصرية وسورية
Akhabāra-'d-Dūal	أخبار الدول: اسم كتاب
Akhdar	أخضر
El-Akhma	الأخمة: الصخور التحتية في حرة سهل مدين
Akhu	أخو: شقيق
Akhu Noora	أخو نورة
Akh?ey	أخي: تصغير أخ
Akilla	عقيلة: موقع صحراوي الماء فيه قريب من سطح الأرض
'Akkām	عكام
El-'Alem	العَلَم: اسم جبل
'Alemny	علمنى
'Aleyī	على: قرية في العروض
'Aleyk 'áhad Ullah wa amán Ullah, in mâ akhûnak	عليك عهد الله وأمان الله أن ما أخوتك
Aleykom es-salaam	عليكم السلام
Aleynak sâdik	عليناك صادق

'Alīa	عالية: زوجة أبو زيد
'Alīy	علی: قرية من قرى بنى سالم
Allah	الله
Allāyda	العلايدة: شيوخ فرع ولاد على
'Allowīy	العلوی: شيخ شيوخ ولاد على
El-Ally	العلا: اسم قرية
'Alowna	العلاونة
'Alowwy	العلاونة
'Aly	علوی
'Aly 'aklu	على عقله
'Aly	على: الأمير التنفيذي في عنيزة
'Aly	على: رقيب زنجى مع أمير عنيزة
'Aly	على: قصائد فقير من بنى عطية
'Aly el-A?id	على العيد: جار في حائل
El-'Aly	العلی: فرع من البشر
El-'Aly	العلی: حرب بنى على
B. 'Aly	بنى على: فرع من حرب مصروح
'Aly	على: حربى مسكين من بنى على
Ibn 'Aly	ابن على: أسرة من أسر حائل
'Aly houn-ak	على هونك

'Aly	على: شيخ متدين من خير
'Alylahyaty	على لحيته
'Aly	على: أحد أتباع مجيد الحمود
'Aly	على: الإمام على كرم الله وجهه
'Aly el-Rasheyd	على الرشيد: من عزيزة
'Aly es-Sweysy	على السويسي
Aly	على: الابن الصغير من أبناء الزامل
Amân	أمان: عبد حبشي معتوق
Amân	عمان:
El-'Amâra	العمارة: حقل من حقول القمح في البصرة
'Ambar	عنبر: ضابط من الجلا في حائل
'Am'dân	عمدان: جمع عمود
Ameah	أمياه حكران
'Amed	أعمد: أذهب مباشرة إلى
'Amik	عميق
'Amm	عم
'Ammân	عمان: عمون
'Ammar	حلة عمار
'Ammarát	العمارات: فرع من البشر
'Ammatak	عمتك

Ammera	أميرة: اسم كلب
Beny 'Amr	بنى عمر: فرع من حرب مصروح
Beny 'Amr	بنى عمر: من حرب بنى سالم
'Amr Ullah	أمر الله
'Amûd	عمود
'Amûd	عمود: فرع من الشمر
W. Amud?n	وادی عمودان فى تهامة
Ana abûk	أنا أبوك
Ana ajizt	أنا عجزت
Ana akhtak	أنا أختك
Ana akhu chokty	أنا أخو شوكتى
Ana bi wéjhak yâ sheikh	أنا بوجهك يا شيخ
Ana efla yowwella	أنا أفلح إى والله
Ana meyet	أنا ميت
Ana min dīrat beyt Ullah	أنا من ديرة بيت الله
Ana nusîk	أنا أنسك
Ana sabáktahum	أنا سبقتهم
Ana ummak	أنا أمك
Ana ússhud!	أنا أشهد
Ana weled abûy	أذا ولد أبوى

Ana werrik	أنا أوري؛
El-Anâbis	حرة العنابس بالقرب من المدينة المنورة
Anâg	عناق: ربعية صغيرة من الماعز
Anatoly	أناضولى
'Anâz	عناز: عميد العنزى
'Anâz	عناز: تل فى حرة العويرض
Andalûs	الأندلس
'Aneybar	عنيبر
'Aneyza	عنيزة
'Anezy, kellâ	قلعة العنزى
Anfâd	أنفار: جمع نفر
Anmâr	عمار: عميد من عمداء العرب
El-Ânezezy	العنزى
'Antara	عنتره
El-'Antarîeh	العترية
El-'Anûz	العنوز
Aorfy	عرفى
El-'Arab 'akl-hum nâkis	العرب عقلهم ناقص
'Araba	وادي العرابة
L'Arabie avant	العرب قبل

'Araby	عربي: اللغة العربية
Aradát	العراادات: فرع من البلوى
'Arafát	عرفات
El-Aránta	الأرنطة: قبيلة من الأشراف
El-'Arár	العرار: نوع من الأشجار
El-'Arbân	العربان
Ard ba'al	أرض بعل
Ard Jiddâr	أرض جدّار
Ard el-Kelby	أرض الكلبى
Ard (es) Suwwan	أرض الصوّان
Ardub	أردب
Areyj	أريج: محطة صحراوية بالقرب من تيماء
Areymîsh	عريميش: اسم جمل
'Aridàn	عريضان: جبل صحراوى بين مكة والقصيم
El-Arîsh	نفود العريش
Aroa	الأروة: فرع من جهينة
Arrobûn	عربون
El-'Arrafej	العرفج
Arrak'i	العراكى: موقع صحراوى بين حائل والكويت
El-'Aruth	العروض

'As'	عسى
'As' Ullah	عسى الله
Ashâb en-Néby	أصحاب النبی
Asheyfât	عصيفات: أقارب أهل خير
Ashîrat	عشيرة
'Ashîry Harra	حرة العشیری
El-Ashrâf	الأشراف
Asîly	أصيل
El-Asîr	عسير
'Askar	عسكر
Askar	عسكر: ولد مشهل العواجی
Asl	أصل
El-Asmîeh	العازيمة: قرية الفجير
Asnâm	أصنام
b. Assad	بنی أسد
Beny Ass'm	بنی أسوم: فرع من حرب مصروح
El-Assr	العصر
Aswâk	أسواق
'Asyîn	عاصین
Âtâfa	عطافة

'Ateja	عتيقة: اسم أنثى بدوية
Atèwy	عطوي: شيخ فى خير
El-Ateyàt	العطيات: فرع من عتيبة
'Ateyba	عتيبة
Atèyfa	عطيفة
El-Atreyfàt	العطيفات: أقارب أهل خير
El-'Athab	العذب: مصل جدرى البقر
Athan 'lak 'oweyish	أطحن لك عويش: أعد لك طعامك
Atheba	عذبة: اسم أنثى بدوية
El-'Atheyb	العذيب: آبار بين مدائن صالح والعلى
Athubba	الذبة: النحل البرى
Beny 'Atîeh	بنى عطية
El-Atóylî	العطيلى: مسقى من عدة آبار فى ديرة ولاد سليمان
'Atr, 'Attar	عطر، عطار
Atsha	أتشه: اسم جمل
'Attar	عطر الورد
El-Atthar	العطار: قرية فى وسط نجد
Atûla	عطولة: جبل بين القصيم ومكة
Âtullah	عطا الله: قروى ثرى فى تيماء
J. Atwa	جبل عطوة بجوار خير

'Auâfy	عوافى
'Auàjy	عواجى فرع شيوخ البشر فى نجد
Auâzim	العوازم
'Aud	عود: بخور
Auda	عودة: اسم كلب
El-Auellîn	الأولين: أهل الأزمان القديمة
'Aueynat Masallat	عونيات مسلات الأمان
'Aueyrid Harra	حرة العويرض
El-'Aueyrid	العويرض
El-'Auf	العوف
'Aufy	عوفى
'Auhellàn	عويهلان: مكان تجمع بالقرب من عنيزة
'Aul	العول: مكان للتجمع فى جبل شمر
'Aunâk!	عونك
W. 'Aûrush	وادی عروش، فى الحرة
'Authèm	عثيم: هجرة فى بلاد بن الرشيد
Auwàd	عواد: قاضى فى حائل
Auwàd	عواد: قاضى فى خيبر
El-Auwâli Harra	حرة العوالى بالقرب من المدينة المنورة
Auweytha	عويذة: اسم أنثى بدوية

'Awaj	عواج
El-Ayathat	العياذات: قرية فى وادى النواصر
'Aÿb	عيب
'Aÿb	عيد: شخص ماهوى
'Aÿb eth-thahîa	عيد الضحية
'Aÿb-ak mubâarak	عيدك مبارك
Aydân	عيدان: جمع عود
Ayeyna	العيينة، فى وادى حنيفة
'Aÿid ibn Mertaad	عايد بن مرتاد
'Ayîna	عينة: عيون وأنقاض: محطة صيفية
Ibn 'Ayith	ابن عايض: شيخ زنجى مُتدين فى عنيزة
Ayla	عيلة: قرية على رأس خليج العقبة
El-Âyn	العين: عين الحسود
'Ayn 'Aly	عين على: ينبع فى خيبر
'Ayn ibn Ghróbon	عين بن غربون: محطة شرقى طريق الحج
'Ayn er-Reyh	عين الريح: نبع بالقرب من خيبر
'Ayn Seleîm	عين سليم: بالقرب من خيبر
'Ayn es-Sweyna	عين السويينة: قرية فى غرب السد
'Any ez-Zeyma	عين الزيمة
'Aysa-bin-Marim	عيسى بن مريم

'Aysa	عيسى
'Aysh	عيش
'Aysht	عشت: شكراً
El-'Ayûn	العيون
'Ayûn bilâ simûm	عيون بلا سموم
'Azîz	عزيز
Azzuâl	أزوال، جمع زول: رجل
Bab	باب
Bab el-'Aarab	باب الأعراب
Bab el-'Aly	الباب العالي
Bab Tooma	باب القديس طوماس في دمشق
Bab es-Seyl	باب السيل
Bâch (&) ir	بكير: غداً
El-Bâdia	البادية
Baedi	بئيدى: موقع للتخييم في حرة خير
Bagdad	بغداد
Baggi	يكل: لبن مجفف
Bàghrila	بغلة
Bahâim	بهائم
Bahhir!	بحر

Bahr eth-Thellam	بحر الظلام
Bairàm	بيرم: عيد
Baith Naam	بيض نعام
El-baitha	البيضة
Baitha Nethîl	بيضاء التل
Bak'a	بقعة: بين حائل والكويت
Bakhil	بخيل
Bakhorra	باكورة
El-Bakht	البخت
Bakhûr	بخور
J. Bákr	جبل بكر
Bakr el-Wahashy	البقر الوحشى
Bakshîsh	بقشيش
Bâmiya	بامية
Banna	بنة: اسم امرأة بدوية
Barâd	براد: هواء معتدل الحرارة منعش
W. Bárada	وادي بردى بالقرب من دمشق
Barâhimma	براهيم، من بنى إبراهيم
Bàrak	بيرق: علم
Barakát	بركات: فرع من البلوى

Baris	باريس
El-Barràcheda	البراشدة: قبيلة من الأشراف
Barraga	برأج/ برأجة
Ibn Barrák	ابن براك: فرع من الحطيم
Ibn Barrák	ابن برأك: عميد بنى رشيد من الحطيم
Barrûd	برود: قرية فى وسط نجد
Bashy Bazûk	باشى بزوك
Bâtin el-Ghrôl	بطن الغول
El-Bat'neyn	الباطنين: فرع من عتيبة
Battâl	بطال
Bawl Iblîs	بول إبليس
Bayâdiyyeh	الإباضية
Bayir	باير: مكان فى الصحراء السورية
B'dûr	يدور: صنف من العنزى
Bébàn	بيبان: جمع باب
Béda	بدا: قرية مدمرة فى تهامة
Bédan	بدان: ماعز برى
Beddaûwy	بدوى
Beddur	بدور: قرية من قرى بنى سالم
El-Bedbwna	البداونة: فرع فقير من الحطيم

Bedr Honeyn	بدور حنين
Bédr ibn Jôhr	بدر بن جوهر
Bédr ibn Telâl	بدر بن طلال
Bedûn	بدون جمع بدنة: بقرة برية
El-Beduw	البدو
Beduwîa	بدوية
Beduwiyât	بدويات
Bedûwy	بدوى
Begeya	بجاية (قرية من أربعين منزلاً)
Bejaida	البجايدة: فرع من البشر
Bejaija	البجاجة: فرع من البشر
Bélah	بلح
Belais	البليس: أقارب العنزى
Béled	بلاد
Béled el-Aarab	بلاد الأعراب
Béled amân	بلاد عُمان
Béled el-'Asîr	بلاد عسير
Béled mât	بلد مات
Béled er-Rûm	بلاد الروم
Belka	بلقاء

Belka, Kellât el	قلعة البقاء
Bellah	بلح
Bellezzîeh	بلزّية: مستوطنة لزراعة القمح في بلاد الرشيد
El-Bellush	البلوشي: مرض الكوليرا
Banana	بنانة: مسقى في جبل شمر
Benât	بنات
Benât et-Tî	بنات التيه: أعظم نياق الحطيم
Beneyyi	بنىي: شخص من الماهوي
Bény el-Bint	بنى البنت: أنقاص سد بالقرب من خير
Berber	بربر
Berdân	بردان: بشوت من الصوف الخشن
Berkû'a	برقع
Bernéta	برنيطة
Bérni	البرنى: نوع من التمر في قرية العلا
El-Berrarij	البراريج: بطن من بطون عتيبة
Bersîm	برسيم
El-Bertha	البرثة: بير الحطيل بالقرب من مكة
Bess	بس: كفى
Bessâm	بسام: عائلة ثرية في عنيزة
Bessâm	عبد الله البسام

El-Bessàm	بسام آخر رحال
Bessàm	البسام: أسرة أخرى غير بسام عنيزة
Bessàm	بسام: اسم قرية
Bethra	بذرة: بذرة التمر
B'ethrak	بتراك: بإذنك
El-Bettera	البتيرة: أنقاض بلدة في جبل سعين
Beylàn	بيلان: قرية تركمانية في أعالي سوريا
El-Beyrih	البيريج: أمس
Beyrût	بيروتى: بستانى من بيروت يعيش مع العرب في الجزيرة العربية
Beyt	بيت
Beyt Akhreymát	بيت أخريعات: أثر جميل في مدائن صالح
Beyt el-mâl	بيت المال
Beyt	بيت
Beyt es-shaar	بيت شعر
Beyt es-Sherèyfa	بيت الشريفة
Beyt es-Sheykh	بيت الشيخ
Bezîr	بزير: قصر الشبيب
B'goom Aarab	أعراب البجوم
Bî wéjhy	بوجهى
Bîa'a el-má	بياع الماء

Bîát	بيات: لعبة من لعب خبير
Biddīa	بدية: هجرة من هجر جبل شمر
El-'bil	البل: الإبل
B'il kheyer insh' Ullah	بالخير إن شاء الله
Billah	بالله
Billī	بلى: جد البلوى
Billī	البلى: قبيله قديمة فى تهامة
Billy	بلى: اللفظ البدوى للكلمة السابقة
Bīm-bashy	بمباشى: لقب عسكرى تركى
Bint	بنت: ابنة
Bintu	بنته: ابنته
Bīr	بير: بئر
Bīr el-Ghrannem	بير الغنم بالقرب من وادى فاطمة
Bīr en-Nāga	بير الناقة
Birket	بركة: خزان ماء
Birket el-Englepsy	بركة الإنجليزى
Birket Mo'addam	بركة معظم
Birkets	برك تجار الماء فى جدة
J. (Thul'a)	جبل طلاع أو الطور
Bīsan	بيزان: الكلمة الحبشية الدالة على الماء

W. (el) Bīsha	وادی بيشة
Bishr	بشر: قبيلة فرعية من العنزي
Bisher	بشر: بطن من حرب مصروح
Bisher Aarab	أعراب البشر
Bishrīa	بشرية: امرأة من البشر
El-Bishy	البيشي: جماعة مسلحة من الجنود لخدمة شريف مكة
Bismillah	بسم الله
J. Biss	جبل بس
W. Bissl	وادی بسل
Bīurúldi	بيورولدي: جواز سفر تركي
Bizr et-támr	بذر التمر
Blat, Kellâ	قلعة بلات
Bludàn	بلودان
Boabat	بوابة
Bocca	بكة: مكة
Boghrâz	بوغراز (بوغاز) : ممر بين الصخور
Bokhâra	بخارى
Bokhÿta	بخيته: اسم لامرأة بدوية
Boreyda	بريدة
Borghrol	برغل (وجبة سورية من القمح)

Borj	برج دفاعى
Borj Selmàn	برج سلمان (أرض صحراوية فى ديرة الفقير)
Borma	بورما (بلدة مهدمة فى جبل سغير)
Borrûd	بورْد (قرية غربى شقراء)
Borusia	بروسيا
Bosra	بُصرى: (أنقاض مدينة فى الحوران)
Bosra	البصرة (مدينة على نهر دجلة)
Bosra	بصرة فى إيدوم
Bothra	بثرة: مجموعة جبال
Bottîn	بطين
Bou	بو: اللفظة المغربية لـ 'أبو'
Braitshàn	برتشان: شيخ بدوى من الشمر
Brik	إبريق
Brim	بريم
Brûssia	بروسيا
W. el-Bûg	وادی البق (فى الجزء الشرقى من حرة العويرض)
Buggân	بوجان: اسم كلب
Buggila	بكلة (شرائح لبن مجفف)
El-Bukkerîeh	البكيرية
Bukkra	بقرة

Bulbul	بلبل
Bullah	بالله !
El-Bûma	البومة: اسم فرس
Búnder el-Telâl ibn Rashîd	بندر طلال بن الرشيد
Búnder's	بندر: طفل يتيم
Búndur	بندر
Búndur 'Aul?nshy	بندر عولانشى: اسم قرية العلا القديم
El-Bunn	البن
Búrghrol	برغل
Burjésba	برجسبة: مكان صحراوي
Búrjess	برجس: شيخ علايدى شاب
Bmûs	برنس: رداء أبيض يلبسه البربر من المغاربة
Burr	بر
Burr el-'Ajam	بر العجم
Busatîn	بساتين
Busîyeh	بشية: اسم أنثى
Bystân	بستان
Bystâny	البستاني: طباع فى بيروت
El-Búthenah	البوزنة: هجرة من جهينة
J. Búthra	جبل بثرة

Bútm	بطم: نوع من خشب الأرو
Câbul	مدينة كابول
Caesarea Philippi	قيصر فيلبى
Ch	ك
Chai	شاي
Châsim	قصيم: القصيم
J. Chhebàd	جبل شيباد
Beny	بنى
Ch(k)essab	كسب
Cheyf-ent	شيف (شوف) أنت
Cheyf Nasrâny	شيف (شوف) النصرانى؟
Chôl	شول
Circass	شركسى
Dab	داب: ثعبان
Daed	دايد: أعراب الهذيل
Ed-D'aika	الدعيكة
Dafina	دفينة: حفر مياه بين القصيم ومكة
El-Dâha	الداحة: محطة صحراوية شمال تيماء
Dâhir	ضاهر: شيخ قرية العلا
Ed-Dâhy	الضاحى: النفود التى بين تيماء والجوف وحائل

Ed-Dajīn	الداجين: بطن من عتبية
Dakhálakom	دخيلكم
El-Dakhīl	الدخيل
Dakhīl	دخيل
Dakhīlak	دخيلك
Dakhīlullah	دخيل الله
Dalèyel	دليل: اسم أنتى بدوية
Dalīl	دليل الحج
El-Dām	الدام : قرية فى وادى الدواسر
Ibn Dammûk	ابن داموك: شيخ من شيوخ الحطيم
Dánna	دنة: اسم جمل
Dàr el-'Aarab	دار الأعراب
Dàr el-Hamra	الدار الحمراء
Dàr el-M?ghr	دار المغرب: محطة من محطات الحج
Dareyem	داريم: شيخ تيماء
Darraga	درقة: هدف
Drÿesh	داريش: شيخ من الماهوبى
Dat Ras	ذات راس: أنقاض فى أعالي كيراك
Dathyna	دفيئة
Aarab Dauâsir	أعراب الدواسر

W. Dauâsir	وادی النواسر
Daûd	داود
Dawwa	نواء
J. Debby	جبل ديبى: جبل قريب من سليمى
Debîbat	ديبية الشام
Deffafiat	الدفاعيات
Deghrèyma	دغريمة: اسم أنثى بدوية
Dehgreyrât	دغريات: بطن من الشمر
Deh !	ده: صوت طلقة البندقية
Ed-Deheysa	الدهيسة: اسم فرس
Ed-Dehússa	الدهوسة: بطن من عتيبة
Ed-Deir	الدير
Dellâl	دلال: أوانى القهوة
Dellâi	دلال: سمسار
Ed-Dellam	الدلم: بين الحريق والحوطة
Ed-Dellamîeh	الدلامية: مسقى فى القصيم
Deraan	الدرعان: أقارب العنزى
derâhim	دراهم
Derb el-bukkra	درب البكرة: طريق بين تبوك والدار الحمراء
Derb el-Hâj	درب الحج

Derb es-Sherky	الدرب الشرقي
Derb es Suftâny	الدرب السلطاني
Derb Zillâj	درب زلاج
Derrúby	دروبي: من أقارب الصلوبة
Derwîsh	درويش
Deybàn	ديبان: ثعبان
W. Deydibbàn	وادي الديدبان
Deyik es-sudr	ضيق الصدر
Diànat el-Mohammedia	الديانة المحمدية
Dìbàn	الديبان: قرية مدمرة في موآب
Dibba	دبّاء: نوع من القرع
Ed-Dillum	الديلم: مكان في وسط نجد
Ed-Dîmn	الزمن
Dims	دمص: كتل البازلت
Dîn el-'Aarab	دين الأعراب
Dîn néjis	دين نجس
Dînya	دنيا
Dîra	ديرة
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
El-Diwán	الديوان

Doàdamy	الدوامى
Ed-Dôeh	الدوحة: قرية واحة فى وادى فاطمة
Ferâdessa	الفرداسة: من أقارب الحطيم
Feraij	فريج (فريق)
Feràya	قبلى من الفجير
El-Feréya	الفراية: قرية من قُرى المطير
Ferij	فريج (فريق)
Ferjàn	فرقان (هجر بدوية)
Ferjèyn	الفرجين (قمة صحراوية جنوب القصيم)
Fernèyny	فرنينى
El-Ferra	الفراد (الفراع): قاع وادى جزل
El-Ferrâ	الفراع (على طريق الحج الأوسط)
Wady Ferr'a	وادى الفراع
El-Ferr'a	الفراع: قرية فى القصيم
Ferrah	فراح: بدوى من الشمر
Ferth	جيرة: ما يجتره الحيوان
El-Ferùdda	الفرودة: فرع من حرب مصروح
El-Fesas	الفصاص: محطة بين حائل والكويت
Feyd	فيض: قرية فى ممتلكات ابن الرشيد

Feyd	فائد: غنيمة
Fèysal	فيصل
Fèysal ibn s'aûd	فيصل بن سعود
Feythàh	فيضة (قرية)
Fez	فزان: واحدة من مناطق البربري
El-figgera	الفجارة: حرف الحرة
El-Fil	الفيل
Firmàn	فرمان
J. Fittij	جبل فتيج
Flamingies	فلمنكين
F'lûs	فلوس
Fòdil	فُذيل: شيخ من البلوى
El-Fosiha	الفصيحة: اسم أنثى
Frankistàn	أرض الفرنجة
Fransa	فرنسا
Frenjy	فرنجي
Fuàra	الفوارة (مسقى مائى)
Fuddân	فدآن
Fuggar	فجار
Fueyhy	الفويهي

Fuèylik	فويليق
El-Fúggera	الفقارة
Fúk er-rîg	فك الريق
El-Fúkàra	الفكارة:
El-Fúlsifa	الفلسفة
Fulûs	فلوس
Fumm es-seyf	فم السيف: أعراف جنائزية
Fúrja	فرجة: اسم بدوى لأنثى
Furkân	الفرقان: القرآن
Furrík	فرقع
El-Fushîla	الفشيلة: اسم أنثى بدوية
Fustân	فستان (معطف)
Futîs	فطيس
Future	فطور: إفطار
Fuzzna	فُزنا: انتصرنا
Gā'	قاع
Gaaja	الجااجة: فرع من العنوز
El-gá	القاع: مكان مفتوح فى عنيزة
El-Gabîd	القايبيد: الجايبيد: فرع من الحطيم

Gabbily	جبيلي: جبل فى جنوب القصيم
El-Gâbily	جبيلي: غداً
Gadyta	جديته: جبل الشيخ
Gahwa	قهوة
El-Gaila	القائلة: حرارة الظهيرة
Galla Land	أرض الجالا : أرض الحبشة
Galliûn	غليون
gamel	جمل
gamerèyn	جمالة
Ganna	جنا: عكاز
Gâra	قرية: أرض الواحة
Gârat el-Hajâj	قرية الحجاج
Gârat Owsheyfia	قرية عويشيف
W. Gârib	وادي قريب
Garra	جرّة: برج مراقبة
Garr'a	جرّة: وعاء لحمل الماء
Garrôra	قارورة
Gassa	قشّه: قرية فى القصيم
Gathowra	قثورة: فريج من البشر
Gatta	القطا

G'atûny	جاطونى
G'aud	قعود
El-Gâyth	القيظ
G'dah	القعدة (فرع من جهينة)
Gell'a	قلعة
Genna	جنة: اسم جبل
Gennas	قناص
Gerabis	القرابين (الجرايين)
El-Gerèyeh	القرى فى خيبر
Gèreyih	القرية فى تبوك
El-Géria	القرية
Gériat Abu Robai	قرية أبو ربيع
Gerîsh	جرش بالقرب من تيماء
Gerýa	قرية: هجرات من الخيام
El-Gerýen	القرين: قرية فى الوشم
Gey'atin	قياطين
Gh-r	صوت الغين
Ghradir et-Teyr	غدران الطير
Ghradir	غدير
Ghradràn	غدران

Ghrallah	غزاله: اسم جمل
Ghramîk	عميق
Ghrânim	غانم: حداد فى حائل
Ghrannem	غنم
Ghranèym	غرانيم شيخ العنوز
El-Ghrârb	الغرب
Ghrarîb	الغريب
Ghrashîm	غشيم
Ghrátta	غطه: أحجبه عن الرؤية
Ghraymàr	مسقى فى نجد
Ghrazzu	غزو
El-Ghrenèym	الغنيم: جبل فى تيماء
El-Ghrerb	الواحة الغربية فى تيماء
Ghrerra	غرّه
Ghreyth	غريث: فرع من الشمر
Ghrobny	غروبنى
Ghroceyb	غروسيب
Ghrûg	غروق (اسم حصان)
Ghrôl	غول
El-Ghrôl	الغول: مسقى فى جنوب القصيم

Ghrólfa	الغرفة
Ghrór	الغور: أرض جرداء عالية
Ghrormûl	أرض تخييم
Ghrótb	غصبا
Ghróttha	غروطة: نبات الغاضة
Ghroweysh	غواش: ضوضاء
El-Ghrullathî	الغلثى: صُبِير
El-Ghrúnemy	الغرونمى: صليبي
Ghrunèym	غروينم: اسم شخص
Ghrûta	غوطة (دمشق)
Ghrurrub	غُرُوب: مكان صحراوي
Ginniyát	جنية
Griby	قربة (الماء)
El-girmella	جرملة: اسم فرس
El-Girt	القُرط
Girtha	جرثة: اسم أنثى
El-Girthieh	جرثية: اسم فرس
Gitthera	جثرة: اسم أنثى بدوية
Gluck	قوق: قرق
Gô	قو: قوم: اذهب

Goâra	قوارة
Goayîeh	قويعية
Gôba	قوبا (جوبا)
Gôfar	قفار (جوفار)
Golbân	جلبان (آبار)
Gôm	قوم
Gomâny	قومانى: عدو
Goom	قم
Wâdy el-Gôras	وادي الجوارس
Gorèytha Harra	حرّة الغريثة
Gorma	قورمة: اسم أنثى بدوية
Gors	قرص خبز
gòrta	أورطة (تركية)
Gòtar	قوטר
Gottha	قطّة: جطة: اسم أنثى
Goukh	جوخ
Gowwak	قوأك
Gowak yâ Mohâfuth	غواك الله أيها المحافظ
Gowwich	قويك
Graaf	جرف

grashimîn	غشيم (جاهل)
Grâuty	قروطى (فرع من البلوى)
Graya	الجراية (فرع من البلوى)
Greyth	قريث (اسم شخص)
Grûn	قرون (فرع من جهينة)
guâd	قُواد
Gubba	جُبَّة
El-Gùeyîn	القوين: فرع من البلوى
Gueyrîa	جويرية
Gûm	قم
G. Gurs	جبل قورس
Él-Gúsh	القش
El-Gúsh	قشعة
El-Gush'a	القشعة
El-Gussa	القصة
Gussha	قشة
Gutîa	قطعية
Guwiyîn	قوين

Habalīs	حباليص
Habâra	حبارى
e-Hâbash	الحبش
Hâbashy	حبشى
Habīb	حبيب
HabībUllah	حبيب الله
Yâ Habīby	يا حبيبي
Hablūs	حبلوص
Habûsh	حبوش
Hâchim	حكيم
Hadâd	حداد
Hadâj	حداج
El-Hadda	الهدا
Hadda	هذا: قرية فى وادى فاطمة.
El-Haddàj	الحدّاج
El-Hâddefa	الهديفة
El-Hâdduj	الحدوج
Haderûn	حاضرون
el-Hadèyd	الحديد
Hadû	حدو

Haddùj	حَدُّوجْ
Hadùj	مدوج
Hâdy	حادى
Had?d	حديد
Hàf	حاف
El-Hâfera	الحفيرة (اسم كلب)
Hâfrat Zeylul	حفرة زيلول
El-Hafr	الحفر
Hàg eth thúba	حق الذیابة
Hàg Ullah	حق الله
Haggu	حقو (حزام)
hágub	حاجوب
El-Hahlih	الحالية
Hail	حائل
Hâj	حج
El-Hâj	الحج: اسم قلعة
Hâj el-Kasîm	حج القصيم
Hajellán	حجيلان
El-Hajîa	الحاجية
Hajîn	هجين

B. Haajir	بنى حجير
Hajjāj	حجاج
Hàjjar	حجّار
hajjilân	حجيلان
Hajjir	حجّير
Ahl Hàjjur	الحجور
El-hajnowwy	الحجنوى
Hajya	أعراب حاجية
Hâkim	حكيم
Hakîm	عاقل
El- Hakîm	الحكيم (من أسماء الله)
J. Hakrân	جبل حكران
Hâ' l hazza	ها الحزّة
Hâ' l hôf	ها الحوف
halâl	حلال
Haleyfa	حليفة
halâyma	حليمة
El-H?lhal	الحلال
Halîb	حليب
W. Halîb	وادي حليب

Halla	حَلَّة
Hallat 'Ammàr	حَلَّة عمار
Halleyfàt	حليقات
Hàllughra	حالفرة: خزام الأنف
haltîta	حلطيطة
Ham	حام (ولد نوح)
hamâta	حماطة
Hamd	حمد
El-hamda	الحمد
Hamda	حمده: اسم أنثى
hamdán	حمدان
El-hamdu	الحمد
Hamdy	حمدي: اسم أنثى
Hámed	حامد
B. Hamèdy	بني حميدي
Hameydy	حميدي
El-hamèdy	الحميدي
Hamîn	حميم
Hámmám	حمام: بركة ماء
Hamman	حمام (كيس نقود)

El-Hammam	الحمام (اسم قرية)
Hammazàn	حمازان
Hámmr	حمر
Hamô	حامو
El-Hamra	الحمرة
El-Hamthal	حنظل
Hamûd	حمود
Hamzy	حمزى
Hánash	حنش
Háni	هنى
B. Hanîfa	بنى حنيفة
Hánnas ibn Nômus	هناس بن نومس
El-Háram	الحرم
El-Harameyn	الحرمين
Harâmy	حرامى
Harrârs	حرار
Hârrat	حرة
El-Harb	الحرب
Harb el-awwel	الحرب الأولى
Harb eth-thâny	الحرب الثانية

Harreem	حریم
El-Harèyry	الحریری
Harik	الحریق
Harra	حرّة
Harratharûn	حرّة هارون
El-Hása	الحسا (الإحساء)
Hásan	الحسن
Hâj Hásan	الحاج حسن
Hashîah	حشیة
Hâshy	حاشی
El-Hassaniéh	الحسانیة
Beny Hassèyn	بنی حسین
Hasseyn	حسین
El-Hassîd	الخصید
Wady el-Hassîd	وادی الخصید
El-Hâsy	الحسی
Hât-hât-hât	هات - هات
Hátab	حطب
Hátha	هذا
Hathariyât	حضریات

Hatheyi	هنيل (حطيل)
Hâthi	حاطى (اسم قرية)
Hâthir	حضير (حضر)
Hâthîre	حظيرة
F. Hatthon	جبل حطون
Hauràn	هارون
Hauta	حوطة
El-Hauta	الحوطة
Hâwas	حواس
Hawd	حوض (غدير)
Hawwa	حواء
Hawwâma	حوامة
El-Hâyat	الحايط
hayâtak	حياتك
Hâyer	حاير (حائر)
Hayfa	هيفاء
Hâyil	حائل
Hayzàn	حيزان
Házam	حزام
Házim	حزيم (فرع من حرب)

Hazkiyal	حزقيال
Házm	حزم
El-Házzam	الحزّام
Hazzel	مسقى الحذيل
Hazzeym	حزيم (بيارة شجر سنط)
J. el-Hébeshy	جبل الحبشى
Hebrân	حبران
Heddajor	حدجار
Hedîeh khellâ	حيدية خلاّ
Héj	حق
Hejâz	حجاز
El-Hejella	الحجيلة (اسم جبل)
Jebâl Hejjûr	جبل حجور
El-Héjr	الحجر
Héjra	حجرة
Hejûr	حجور (أقارب الفكرة)
Helaima	حليمة (جبل قريب من تيماء)
El-Helalât	الهلالات
El-Helàfieh	الهلالية
Helbon	حلبون

El-Hélissa	الحليسة (فرع من عتيبة)
Hellayey	حلية (تل صغير)
Hellowát	حلاوات (تلال)
Hellowia	حلوية (تل)
Helly	حلاء
Helw	حلو
El-Helwa	الحلوة
Helwàn	جبل حلوان
Thull'a	طُلُاع
Helwîat en-Nâga	حلوات الناقة
Hemorrhoids	مرض
Henàba	هنابة (إناء لبن)
Henakîeh	الحنكية
Henna	حنا
El-Hennaba	الحنابة (اسم فرس)
Hennânia	الحنانية
El-Henneytát	الحنيات
Henshûly	حنشولى (لص الصحراء)
El-herreyik	الحريق
Hesban	حشبون

Hess ez-zillamy	حس الزلّة (صوت الرجل)
El-Hessánna	الحصامة (فرع من عتبية)
El-Heteym	الخطيم
Sueyder	السويدير
Hetheylân	الخطيلان
Hetigy	هتيجى
El-Heyàderra	الحيادرة
Heyennieh	الحنية
Hèykal	هيكل
Ibn Hezyán	ابن حيزان
Hezyán	حيزان (فرع من الخطيم)
El-Hīara	الحيارة
Hijābs	أحجبة
El-Hijr	الحجر
El-Hilâl	الهلال
Hilla or hilly	تل
Hilliân	حليان
Himmarîr	حميرية
Himyâry	حميرى
El-Hind	الهند

Hindy	هندي
Hinûd	هنود
Hirfa	حرفة
El-Hisma or Hessma	الحسمة
H'má	حمى
Hollanda	هولندا
Horèymia	حريملاء
Horeysh	حوريش
Hórma	حُرمة
El-Hosenīeh	الحسونية
Hosennat	حُصنات (ذيل الجربوع)
El-Hósenny	الحصيني (فرع من الروالة)
Hósn	حُصن (هجرة)
Hossený	حصيني
Hóth	حظ
Hòwama	هوامة (اسم كلب)
El-Howayrîa	الخوارية (تل رملى)
Howèytat	الحويطات
Howeych(k)im	هويشم
Howeytát	حويطات

Saidīn	سايدين (الصوص حول العلا)
W. el-Howga	وادی الهوجا
Howihi	هويهية
Howsa	هوسة (اسم موقع)
Howsha	هوشه (اسم أنثى)
Howwàr	حوار
El-Howwâr	الهوار
El-H'roof	الحروف
Hu sâdik	هو صادق
El-Huâzim	الهوازم (فرع من حرب)
Hub	حب
Húb et-támr	مرض جلدى
Húbbal	هُبَل (صنم)
Hubbàra	الحبارة (اسم فرس)
Hubt	حبط
Hud	هود
Huddebân	هوديان (اسم كلب)
Hulk	حلق
Yâ Hullah	يا حَلَّة

El-Humeydàt	الحميدات
El-Hummu	الحُمّ
El-Humràn	الحرمان (فرع من حرب)
Hums	حمص
Humsîs	حمصيص
Humth	حمض
Wady el-Hum?h	وادي الحميض
El-Húrda	الحدودة
Hurr	حر
Hurra	حرة
El-Hurrath	الحراث (قبيلة من الأشراف)
Hurri	حرّى (نوع من البازلت)
El-Husn	الحصن
Hût	حط (توبيخ للإبل)
Hutch	حُطْك (توبيخ للإبل)
Humth	حمض
El-Hûtheba	الخطيبة
Hyak	حياك
Hyâtak	حياتك
Hyha	هياها (اسم فرس)

El-Hyza	الحيزة (بئر فى النفود)
Iblis	إبليس
Ibn	ابن
Ibn akhy	ابن أخى
Ibn juâd	ابن جواد
Ibn Náhl	ابن ناحال
Beny Ibrahîm	بنى إبراهيم
Ibrahîm	إبراهيم
Ibrahîm el-Kâdy	إبراهيم القاضى
Ibrahîm Pasha	إبراهيم باشا
J. Ibrân	جبل إبران
El-Iddimy	الإدمى
Iftah 'ayûnak	افتح عيونك
Ighrte big	أغتيق (الجهل)
El-Jahalîat	الجاهليات
Ihràm	إحرام
Fijrî	فجرى
Ikh-kh-kh	أخ
Filuk-heylo	قلوك حيلو
Imâm	إمام

Imbâarak	إمبارك (اسم هجرة من هجرات الحرب)
Imbâarak!	إمبارك (مبارك)
Fmshy hâl-ak	مشى حالك
Inhaddem beytich	انهدم بيتك
Inny mâ adeshurak	إنى ماعاد شورك
Insha 'llah	إن شاء الله
Insh' Ullah ma teshûf es-shurr	إن شاء الله ماتشوف الشر
El-Irâk	العراق
Irem	إرم
Irkud	اركض
J. Irnân	جبل إرنان
Irtugh	إرتغى
Irzûm	إرزوم (تل رملى يحدث صوتاً)
Iskander	إسكندر
I?hin Ullah	إذن الله
Jaafar	جعفر
Jab-hum	جابههم
Jabâbara	جبابرة
Jâbbar	جبار (عظام)

Jabbâr	جبار (ظالم)
El-Jabbâr	الجبار (شيخ متوفى فى حائل)
Ibn Jahd	ابن جاد
Jaddar	جدّار
Jáhash	جحش
Jàhil	جاهل
El-jàhm	الجهنم (فرع من حرب مصروح)
El-jahrâ	الجهرة
Jam(n)bîeh	جنبية
Ej-Jammera	الجميرة (اسم فرس)
Jân	جان
Janâbak	جنابك
Jannah	جنة
Jar	جار
Jâr Ullah	جار الله
Jâra	جارة (ربه بيت)
Jarâd	جراد
Jârada	جرادة
Jarda	جرادة
Jardaniâ	الجردانية: أنقاض بلدة فى جبل شرّات

JarJa	جرفة: بالقرب من كيراك
Jâsim	قاسم
Ibn Jâsy	ابن جيسى
El-Jau	الفاو
Jau	جَوْ (مستقى)
Jauf (el-Amir)	جوف (الأمير)
Béled Jawwa	بلاد جاوة
Jaysh	جيش
Jâzy	واحد من الفجير
El-Jebâl	الجبال
Jebbâra	الجبارة: فخذ من ولاد على
Jebel Tar	جبل طار: جبل طارق
Jebel Tarik	جبل طارق
Jebèyly	الجبيلي
El-Jedèyda	الجديدة: قرية من قرى حرب
Jedîd	جديد: قرية من قرى بنى سالم
Jedîda	الجديدة: قرية عند بداية وادى الليمون
Jedûm	قدوم
Jefèyfa	جفيفة: اسم قرية
Jehâd	جهاد

Jéhemma	جهيمة: عشق الفجر
Jehendem	جهندم باشا: حاكم مكة
Jehennem	جهنم (عبرية)
Jeheyne	جهينة
Gehèyna	جهينة
Jelàmy	جلامى: سحلية صحراوية
Jeljul	جلجول: أنقاض بلد فى مؤاب
Jella	جلة: روث الإبل
Ibn gelladàn	فرع من فروع حطيم الوسط
Ibn gelladàn	فرع من فروع حطيم الوسط
El-gellàs	الجلاس: أقارب العنوز
Wady Jellàs	وادي جلاس فى خيبر
J(k)ellâb	جلاب: بئر الماء
Jellowwy ibn S'aûd	جلوى بن سعود
Jèllowwy	جلوى: قبلى ماهوى منفى
Jemân	الجيمان: فرع من بلوى
Jémei	جمل
El-Jémēila	فرع من حرب بنى سالم
Jemla	جملة: تل بالقرب من المدينة المنورة
Jemmâl	جمال: صاحب إبل

Jemmamîl	جمع جمال
Jenèynat el-Kâdy	جنينة القاضي
Jenèyny	جنينة (حديقة)
Jèrad	كثبان رملية في النفود
Jeraida	جريدة: موقع في صحراء تيماء
El-Jeràjera	الجراجرة: فرع من حرب مصروح
Jerash	جراش
Jerbo'a	جربوع
J. Jerbûa	جبل جربوع
Jerèyda	جريدة: موقع في صحراء تيماء
Ek-Jereyfa	الجريفع: قرية في القصيم
Jériat	القریات (القرى)
Jériat Bisher	قرية البشر في خيبر
Jériat el-Fejîr	قرية الفجير
Jériat W. Aly	قرية ولاد على
Jerîd	جريد: رمح خفيف
Jerm	جرم: جلد عنزة أو تيس
El-Jerrèr	الجرار: أقارب قروبي خيبر
Wady Jerrîr	وادي جرير
Jerrîsh	جريش: ثريد

Jérula	جرولة: غريلة
Jerûm	جروم: جمع جُرْم
Aarab Jessàs	أعراب جساس
Jet	قت: نوع من علف إبل جلب الماء
El-Jethemma	الحثمة: بطن من عتية
Jèyber	جابر: رجل من القحطان
El-Jèyn	الجين (القين): محطة صحراوية شمال تيماء
Ibn Jèysey	ابن جيسى (قيسى)
Jezîrat el-'Arab	جزيرة العرب
Jezzîn	جزين: الإبل الصائمة عن الطعام
Jiâfera	الحيافرة: أقارب البشر
Jid	جد: عميد القبيلة
Jidda	مدينة جدة
Jidda (jidra)	جدة: جذرة: قدر: وعاء
Jiddàr	جدار
Jiddàr (jiddrâ)	جدار: الجمع جدران
Jidd?ha	قديحة: وعاء للحليب
Jidery	الجدري
Jiffar	جيفار: قرية من قُرى بني تميم
Jildîyyah	جلدية: جبل قريب من حائل

El-Jimerieh	القمرية: اسم فرس
Jin	جن
Jindal	جندل
Jinnat ed-dinnea	جنة الدنيا (دمشق)
El-Jinny	جنى
Jips	جيس
Jir-ak	جراك (تبغ)
Jisan	جيسان (قيسان) سهل قريب من حائل
Jiss	جص: جيس
Jith'a	جذع
Jizak	جزاك: أعطاك
Jizzat	جيزة: زيجة (لنصارى)
W. el-Jizzi	وادي الجزل
Job	جوب: وحيد القرن
Jorda	الجوردة: حى من أحياء القصيم
Jowla	الجولة: جبل فى تهامة
Jowwár	جوار: زوجات
Ju'a	جوع
El-Juâberra	الجوابرة: فرع من حرب مصروح
Jubba	جبة

Juhâl	جهال (جهلة)
jumma'a	جماعة
Jummâr	جُمَار (قلب ساق النخلة من الداخل)
Júrda	جردة: كُتِب رملی
Jurdy	جردة: (أورطة) عسكرية
Jurn	جرن: (غدران من الحجر في مدائن صالح)
Jurraba	جرأبة: (جرباء)
El-Ka (el-Ká'a)	القاع
El-ka'aba	الكعبة
Ka'abeny 'Arab	عرب كعبانى
ka'ak	كعك
Kabâil	قبائل: قبائل
Kabâila	قبيلة
Kábr ed-dunnia	قبر الدنيا
Kábres-sâny	قبر الصانى
Kabshàn	كبشان: جبل ومسقى جنوب القصيم
Kâdy	قاضى
El-Kâdy Músr	القاضى مسور
Káfer	كافر: قرية قريبة من بريدة

Kâfir	كافر: الجمع كفار وكافرون
Kafûr	كافور: مادة عطرية
Káhatîn	قحطان
Kahl	كحل للعيون
El Kahtân	القحطان
Káhwa	قهوة
Káhwa	قهوة
Káhwajy	قهوجى
Kahwat Abeyd	قهوة عبيد
Kaif	كيف: قرية من قُرى بنى سالم
Kaimakàm	قائمقام
El-Kalandâry	الكلندرى
El-Kàmîm	القميم
El-Kamûs	القاموس
Kanakîna	الكانكينا (الكنين)
K'ar	قعر (قاع)
Káramak	أكرمك
Karîm	كريم
Karra	قرّة: تل
Kasaîsd	قصاصيد: شعراء

El-Kasîm	القصيم
Kâsîm	قصيم
Kasr	قصر
Kasr Arbîyyah	قصر إربياح: فى حائل
El-Kasr	القصر
Kasr el-Bint	قصر البنت
Kasr	قلعة حائل
Kasra	كسرى
Kassab	كسَّاب (قصيبا): قرية فى القصيم
Kassâd	قصاد: شاعر
Kasîda	قصيدة
Kassûr B'thèyny	قصور البيتنى
Kasyîn	قاسيين: قُساة
kat'a `l-kalb	قطع القلب: مُحزن
Kathâfa	قحطفة: اسم امرأة
Káthir Ullah Iebànakom	كثُر الله لبنكم
El-Kâthy	القاضى
Katràn kellâ	قلعة قطران
Kawàs	قواس: رامى رماح
Kef	كف: راحة اليد

Keffy	كفّى: كافٍ
B. Kelàb (chelb)	بنى كلاب
Kelàm Ullah	كلام الله
Beny Kelb	بنى كلب
Kellâ	كلا: قلعة
El-Kellâ	القلعة
Kellâjy	راعى القلعة
El-Kennèyny	الكنينى وتقرأ الخنينى
El-Khàrram (Khúrram)	الخرّام/ الخرّام
Kharûf	خروف
El-Khasir	الخصيرة
Khathrâ	خصيرة
El-Khâtm	الختم
Khawâja	خواجة
Khayin	خائن
Khedéwy	خديوى
El-Kherèyby	الخرىبى (الخريبة)
El-Kherèysy	الجريسى
Kherèyta	خريطة
El-Kherj	الخرج

Kheyâbara	الخبيرة (الخبراء)
El-Khéyba	الخبية: اسم فرس أو حمار
Khybar	خيبر
Kheyr	خير
Kheyer-elbarr	خير البر
Khey-beyt	حيث بيت
El-Khiarát	الخيرات
Khibel	خبل: مجنون
Khidàd	خداد: أنقاض قرية
El-Khithr	الخضر
El-Khlûa	الخلوة: الصلوة
Kh'lûy	الخليوى
Khûaf	خوف
Khóbra	خبرة
Khóbt	خبت: أرض مُنبسطة
Khorbêb'ha	الخرابية
Khórma	خرمة
El-Khorma	الخرمة
Khormán	خرمان
El-Khosâba	الخصابة: اسم بغلة

Khósh	خوش
Khossî	خوسى
Khóthra	خُصرة: اسم امرأة
Khótr	قوطر: ينزل
Khóweylid	الخويليد
El-Khrèyby	الخريبي
El-Khrèmy	الخريمى
El-Kh'tâm	الخطام: جبل فى حرة خيبر
Khûa	خوة : ضريبة تدفع للبدو
Khûak	خوك : رفيق فى الطريق – زميل
Khubbat	قبة
Khubbera	الخبيرة (الخبراء): واحة فى القصيم
El-Khubbu	الخبو: مقبره تيماء قديما
Khubithîn	خبيثين : مرض خبيث (جمع)
El-Khuèyra	الخويرة : ناقة تعرق كثيراً
Khùiân	خويان : رفاق فى الطريق
Khumsha	خمشة: فرع من البشر
Khurbet	خربت: حطام
Khurrfa	الخرفة
Khúrusy	الخروسى: فرع من الشمر

Khûsa	سكين
Khussherkîsh	خوصر كيش
Khusshm	خشم
Khusshm es Sefsàfa	خشم الصفصافة
El-Khúthar	الخضار
El-Khuthéra	الخضيرة
Khúthera	خضيرة
Khútherân	خضيران
Khúthery	خضيري
Khúthery Harra	حرة الخضيري
El-Khúthr	الخضر
Khuzèyn	خزين: اسم كلب
Khuzna	خزنة
Kh'zâm	خزام: من أبناء البلوى
El-Kîbd	الكبد
Kiddamîyyah	قدامية
Khánjar	خنجر
Kilâb	كلاب
Kilâb el-kh?la	كلاب الخلا
Kîniy	معبد: كنيسة

El-Kîr	الكير
Kirra	الكرا
El-Kirrân	الكرآن
El-Kirrèya	القرينة
Kirwa or kerwa or kirra	كروة-كيرا: يستأجر
El-Kissa	القصة: قرية من قرى حرب
Kisshub	كشوب
Kitâb	كتاب
El-Kleb	الكلب
El-Kleyb 'Arab	أعراب الكلب
El-Kleybât	الكلبيات
Kleyfât	الخليفات
Kleys	كليس
El-Klîb	الكلب: قبيلة من القبائل
Koátcheba	كوتشيبا
Koba	قوبة
Koleyb	كليب
Kôm	كوم
Konsolîeh	قرية
Konsul	قنصل

Konsulato	قنصلية
W. Koora	وادی القرى
Koowy	كوع
Kör	كور: غبی (ترکیة)
W. Kara	وادی القرى
W. Kôra	وادی قورة
W. Kora	وادی قورة فى حرة خيبر
G. Kora	جبل قورة
El-Kôrân	القرآن
Koreysh	قريش
Korh	قورح
Koronát	كورونات: دول أوربا
Kosyer	القصير
Kottîb	كُتیب
El-kowwâ	الكوَّاح: السَّواح
Kreybîsh	خرييش: صبی ماهوی
Krîm	قرم
Krun	قرون
K'seyberra	كسبيرة
Kubbak	كُبَّك: أغرب عنى

El-Kuds	القدس
Kudsh	كدش: مجموعة من الخيول
Kûfa	كوفة: أنقاض
El-kuffâr	الكفار
Kufic	كوفى
Kûfi	قفل
Kul wâhed	كل واحد
Kum(n)bâz	كومباز
Kúmr	كمر: حزام
Kúnfid	قنفد
Kúnfuth	قنفذ
Kurbân	قربان: عبرية
Kurd	كورد: قلعة من قلاع الحج
Kurnel-el-Menâzil	قرن المنازل
W. el-Kurra	وادي القرى
Kurra	قرة: قورة
Kúrsy	كرسى
Kurunîyah	قرونية: قرويون من أقارب الشمر
El-Kurzân	القريزان: فرع من عتيبة
Kuseyby	النصيبى: اسم قرية

Kusmân	القصمان
Kut'aat ghránem	قطعة غنم: قطيع
Kuweyt	الكويت
La!ameymy	لا، يا عمى
La ilâh ill' Ullah	لا إله إلا الله
La túnshud	لا تتشد
La'ab	لعاب
Lâba	لابة: حمة بركانية (لافا)
Lâbat el-Agûl	لابات العجول
Labbeyk	ليبك
El-Lahd	اسم فرس
Ladabba	اللحابة
Laheyân Aarab	أعراب اللحيان
Lahyat-hu taîba	لحيته طيبة
El-Lâta	اللات
Latákia	اللاذقية
La tanshud	لا تتشد: لا تطلب
W. Laymûn	وادي الليمون

El-Lazzáry	بنادق اللازاري القتيلية
Léban	لبن: اللبن الحامض
Lebeid	ليبيد: مؤلف إحدى المَعلقات
Léja	ليجة: أرض اللابا في الحوران
El-Lejīma	الحيمة: اسم أنثى بدوية
Lejūn	ليجون: أنقاض بلدة قديمة
Ley	لى: تخوم
Lèyla	ليلي
Leyta	ليطة
Libbun	ليبون
Gebel Libnàn	جبل لبنان
Libeny	لبنى: جمل في عامه الثاني
W. Līea	وادي لية: بالقرب من الطائف
Lira fransâwy	ليرة فرنسية
W. Lithm	وادي لضم
El-Liwàn	الليوان
Loghra(t)	لهجة: لغة
El-Loghrfy	اللغراف: اسم قرية
Londra	لندن

Lubbekyk	لببك
Lullul- lullul- lullul-la	زغاريد
Mâ'aleyk	ما عليك
Mâ b'ak kheyrr	ما بك خير
M? el-' enab	ماء العنب
Mâ fî árzal minhum	ما فى أرذل منهم
Mâ láhu kalb	ما له قلب
Mâ lihu lahya	ما له لحية
Mâ li-hum asl	ما لهم أصل
Mâ ly ghreyr	ما لى غير
Mâ n' âsh	ما معنا شئ نأكله
Mâ sâb-hu	ما صابه
Má es-Sáma	ماء السماء
Mâ yarúdd	ما يرد
Má yet'aabûn	ما يربون
Má yunf 'a	ما يتفع
Maa salâmy	مع السلامة
Maa samawwy	مع السماوى
Ma' abûb	معبوب
Ma'an	معان

Mâana lôn	معنا لون
Ma'araka	معركة
Ma'ausb	معصوب: قال
Maatuk	معتوق
Ma'aun	ماعون
Ma'az	معاز: عميد المعازي
Ma'aazib	معزب
Ma'aziba	معزبة
El- Ma'azy	المعازي
Màfrak	مفرق: قلعة
Mágdala	المجدلة: في الحبشة
Mághrib	المغرب
Máhal	محال
Mahâl	محل
Mahál el-Mejlis	محل المجلس
Mahál el-W?i	محل الوعي
Máhallīb	محاليب
Mahanna	مهنا
Mahanna	مهنا: شيخ السحامة
Mahjil	دهجيل

Mah'leb nâkat neby Sâlih	محب ناقة النبي صالح
Máhmai	محمل
mahmûd	محمود
Mahmûd Ag(hr) a	محمود أغا
Mahmûd	محمود
Mahûby	ماهوبي
Maibi	مائبي
El-májar	المجار: بندقية فتيلية
Mâjid	مجيد
Majûj	مأجوج
Makam	مقام
Makám er-râs	مقام الرأس
Mákbara	مقبرة
Makh'aul	مخول
Mákhzan el-Gindy	مخزن الجندي
Mákhzans	مخازن
Mákrûha	مكرومة
El-Malakîeh	الملائكة
El-Hejâz	الحجاز
Mambûl	إسطمبول (تقال للسخرية "مامبول")

Mandīl	منديل
Manèṁ	منيم
Manôkh	منوخ
Mantar	منظر
Marâkish	مراكش
Marbût el-hosàn	مربط الحصان
Mâreb	مأرب
Márhāb	مرحاب
Márhábá	مرحباً
Mârid	مارد
Marra	مرة: امرأة
Marràn	مرآن: مسقى
Marrat	مرأت
El-Màs	الماس: اسم جمل
Mas(k)at	مسقط
Mashàrif es-Shem	مشارف الشام
M'ashush	معشش
Masîr	معاصير : إعصار
Máskhara	مسخرة
Másr	ماصر: موقع فى خير

Mâsul es-Sudda	ماسول السوداء
Masully	مُصَلَّى
Mátar	مطار: صلوبي في تيماء
Matàra	مطارة: زمزمية
Mâtha tarîd	ماذا تريد
M'athûd	معضد: معضاد
Matîn	متين
Mâtîyah	مطية
Mâ úkdar	ما أقدر
Maweyrid	مواريد
Mecca	مكة
Medáin	مدائن
Medáin Lût	مدائن لوط
Medáin Sâlih	مدائن صالح
El-Medân	الميدان
Meddiân	مدين
Medega	مديقة: مكيال في خيبر
Medeybîa	مديبية
Med'hunna	مدهونة
Medina	المدينة (المنورة)

Meddowwara, Kellâ	قلعة المدورة
Med'hunna	مدهونة: قرية الزيد
Medsûs	مدسوس: اسم قرية
Mehàditha	المُحادثة
Methai	ميهاي: قرية قديمة فى موأب
Mehaineh	محنة: موقع قديم فى جبل كيراك
Mehján	محجن: عصا لقيادة الجمال
El-Mehmel	المحمل
Mehnûwara	المنورة
Mehrûd	مهروء
Mehsan	محسن: رجل أعمى
Mehsan	محسن: شيخ الفقيرى
Mejanîn	مجنون
Mejarîd	مجاريد
Mejdûr	مجنور
Mejellád	مجلد: مكيال للتمر
Mejīdy	مجيدى
Mejlis	مجلس
Mejlis	مجلس: مكان الجلوس
Mejmaâ	مُجمعة

Mejnûn	مجنون
Mekky	مكة
Meláika	ملائكة
Mel'aun el-weyladèyn	ملعون الوالدين
Mel'aunát ej-jins	ملعونات الجنس
Mel'aunnîn	ملعونين
Melh	ملح
Melons	شمام
Melûk	ملوك قوة الريح
Melûn Tâlibu	ملون طاليبو
Memlahát Teyma	مملاحات تيماء
Menâbaha	المنابها
Menâhil	المناهيل
El-Menajîm	المناجيم
El-Men'ama	المناعمة
Menhél	منهل
Ménzil	منزل
Menzil' Eyár	منزل عيار
Menzil el-Hâj	منزل الحج

Menzil B. Helâl	منزل بنى هلال
Menzil es-sheukh	منزل الشيوخ
Mer'ai	مراعى
Mêrbrak	مبرك
Merdàha	مرادهة: مقلاع
Mérdumma	مربومة
Meressy	مريسى
Mergab er-Ràfa	مرقاب الرفاع
Mergab	مرقاب
Mérguba	مرقبة
Merimsát	مرسمات
Merján	مرجان
Merkez	مركز
El-meroeîn	المروين: فرع من جهيئة
Mèrshaha	مرشحة
Ibn Mertaad	ابن مرتاد
J. Merzûm	جبل مرزوم
Mes'âed	المساعيد
Mesakîn	مساكين
Mesgeda	مسجدة: آرامية

El-Méshab	المسحاب
J. Meshàf	جبل مسحاب
El-Meshâhada	المشاهدة
Méshed 'Aly	مشهد على
Meshetta	مشتة: أنقاض
Meshetta	مشتة: فرع من ولاد على
Mesihyûn	مسيحيون
Mesîhy	مسيحي
Mesjid	مسجد
Meskîn	مسكين
Messîahi	مسيحي
El-Messîh	المسيح
El-Mestewwy	المستوى
Met'aab ib Rashîd	متعب بن الرشيد
Metaad	ماهوبى
Metteyr	مطير
Methâlitha	مثالته: تلال على طريق القصيم مكة
Metówali	المتأولة: الشيعة فى سوريا
El-Meyatân	أعراب الميطان فى وادى فاطمة

Meyhsub	معصوب: عقال
El-Mèzham	المزحام: مبرك الناقة عند السوريين
Mez'ûna	مزيونه: امرأة جميلة
M'hai	ماحاي: موقع صحراوي قرب تيماء
Miblis	مبلس: امرأة ماهوية
Midd	مد: مكيال
Midda	مدة: دية
Middiân	مدين
Mijwel	مجل
Mîl	ميل
Min	من؟
Min	من: حرف جر
Min'ashîraty	من عشيرتي
Min ha'l shottût	من هنا الشطوط
Min hâtha?	من هذا؟
Minkhilk Ullah	من خلق الله
Min y'âmir-ly	من يُعمر لي
Minkala	منقلة: لعبة عربية
Minnîeh	مينية: جبال في جنوب الرس
Minsilla	منسيلة: اسم فرس وحصان

Miriam	مريم
Miriam	مريام
Mîry	ميرى: جزية
Mish'aab	مشعاب
Mishlah	مشلح
Mishmish	مشمش
Mishûr	مسحور
Mishwat	مشوات: رجل ماهوبى
Miskeh	مسكة
G. Misma	جبل مسمة
Misshel el-Auájy	مشهل العواجى
Mithil el-jerâd	مثل الجراد
Mithil el-mawat	مثل الموات
Mithil en-nimml	مثل النمل
Mîthil es-seyd	مثل الصيد
Mithil tájir	مثل التاجر
El-Mithinb	المذبذب
Mizamîr	مزامير
Mizàn el-Hak	ميزان الحق
Mizmàr	مزمار

M'khâlid	مخاليد: صبي من البلوى
Melyîeh	مليلية: مكان على طريق الحج
El-M'nîf	المنيف: جزء من جبل أجأ
Mo'addam	معضم
Moahîb, Abu Shâmah	المواهيب، أبو شامة
Mo'allak el-Hamèydy	معلق الحميدى: جزء من الحرة بالقرب من قرية العلا
Moallakât	المُعلقات
El-Moârae	المُعارة: فخذ بنى سالم من قبيلة حرب
Moâtidal	المُعْتدل: جبل بالقرب من قرية العلا
Mogeyra	المجيرة: آبار أسفل الحجر فى ديرة ولاد على
Moghrair	مغير: كهف
Moghraâreba	مغاربة: جمع مغربى
El-Moghrássîb	المغراسيب: فرع من أقارب الفكارة
Móghreby	مغربى: رجل من المغرب
Môgug	مجوج: قرية فى جبل شمر
Mogÿil	مقيل: مكان الراحة أثناء الظهيرة
Mohâfuz	محافظ: راعى
Mohamîd	المحاميد: بطن من حرب بنى سالم
Mohammed	محمد (ص)
Mohammed ibn Abd-el-Wáhâb	محمد بن عبد الوهاب

Mohammed Ag(hr)	محمد أغا
Mohammed 'Ali	محمد على
Mohammed 'Ali el-Mahjûb	محمد على المحجوب
Sheykh Mohammed	الشيخ محمد
Mohammed	محمد: تاجر القماش فى عنيزة
Mohammed ed-Deybis	محمد الديس
Mohammed Kheiry	محمد خيرى
Mohammed	محمد ولد عبد الله الكينى
Mohammed el-Kurdy	محمد الكردى
Mohammed	محمد: جندى بلوى فى مدائن صالح
Mohammed Mejelly	محمد مجلى
Mohammed en-Nefis	محمد النفيسى
Mohammed en-Nejûmy	محمد النجومى
Mohammed ibn Rashîd	محمد بن الرشيد
Mohammed Sa'id	محمد سعيد
Mohammed Sa'ûd	محمد سعود
Mohamed es-Sherâry	محمد الشرارى
Mohammed abu Sinûn	محمد أبو سنون
Mohammed Tâhir	محمد طاهر
W. Mójeb	وادی مجيب: غدير عرنون

Mokesser	مقصر: جبل بازلت فى وادى فاطمة
Mokka	مكة
Môna	منى
El-Monasîr	المناصير: فرع من عتيبة
Móngora	منقورة: فرع من أعراب البلوى
El-Moristân	الموريسستان: مستشفى
Beny Morr	بنى مر
Morra	مرة: أعراب مرة
Mortrâb	مرترب قرية محطمة
Moseilima	مسيلمة
Moslem	مسلم
Moslemanny	مسلمانى
El-Moslemîn	المسلمين
Mosque	مسجد
Mosrûh	مصروح: فخذ من حرب
El-Motàl'ha	المطالعة
Mothâbara	المضابرة: فرع من الحطيم
Motheyîf	مضيف
El-Mothîch	المضيق
Laymûn	ليمون

Mothîf	مضيف
Motlog Allayda	مطلق العلايدة
Motlog	مطلق
Mottehma	متيمة: حطام قرية فى جبل سغير
El-Móttî	المطى: نوع من العشب
Moutullij	مطلج: من أقارب الصلوية
El-Mowla	المولى: الله
El-Moy	الموى
Mozàyna	مزينة: فرع من حرب
'Mraikhàn	مريكهان: فرع من ولاد على
Mu'afin	معافين
Mu' allakát	معلقات
Mu' allem	معلم
Muâmir	معامير: اسم علم
Muâra	مؤارة: مكيال تمر فى خير
Mu' atterîn	معترين
Mubârak	مبارك
El-Mubârak	المبارك
El-Mubbiát	المبيات

Mûbrak en-Nâga	مبرك الناقة
Múbt?y	مبطئ
Mudérris	مدرس
Mudîr el-Màl	مدير المال
Mudowwy	مداوى
Muéthin	مؤذن
Mueylih	مويلح
Mufârish	مفارش
El-Mufarrij	المفرج
El-Mufeyrij	المفريج
Mùfter	مقطر
Mughraz	مغراز: برج فى صحراء المواع
El-Mugóttá	المجوطه: فرع من عتيبة
Muhâfiz	محافظ
Muhafûth	محافظ
Muhâkimîn	محكمين
Muhállif	محلف
Muharram	محرم
Muházimîn	محزمين

Ibn Mujálled	ابن مجلد
Mujeddir	مجدر
Mujellad	مجلد: مكيال عرفى قرية العلا
El-Mujjir	المجرة: طريق اللبانة
Mujúbbub	مجبب: عريش
Múk'aad	مقعد
Mukâry	موكارى
Wady Mukhèyat	وادی مخياط
El-Mukhtelif	المختلف
Mukkarî	مكارى
B. Muklib	بنى مكلب
Mukowwems	مقومون: أصحاب إبل
Muksir	مقصر: صناديق حمل زوجات الشيوخ
Mumbir	منبر: اسم جبل
Mûna	منى
Munâkh	مناخ
Munbir	منبر
Mundel	مندل
Múngola	منتقولة

Munókh	منوخ
Muntar	منطار
Múntefik	منتفق
Murabb'a	مربعة
Murâd	مراد
Murra or Marra	مرّة/ مرّة
B. murra or morr	بنى مر
El-Murràshedda	المراشدة
Mûsa	موسى
Ayn Mûsa	عين موسى
Mûsa the kâdy	موسى القاضى
Wady Mûsa	وادی موسى
Musâfir	مسافر
El-Musellîkh	المسلخ
Musherif	مشرف
Musheyikh	مشايخ
Mushîr	مشير
Mushowwam	مشومّ
Múshrak	مشارك
Mushrakîn	مشاركين

Mushy	موشى
El_muskôv	المسكوف
Musky	مسكى
El_muslah	المصلى
Musslim	مسلم
El_mustajidda	المستجدة
musubba	موسبة/أم سبة
musullies	مصلون/واحد مصلى
mutasállim	متأسلم
Mùthir	مذير: فقير من البشر فى خير
Mùthir	مضير/مريسى
Mùthkir	مذكر: شيخ من شيوخ عتبية
Muttoww'a	مطوع
Muwalladîn	مولدين
Muzayyin	مُزين
Muzeyrîb	مزيريب
El-Muzzeh 'ma	المزاحمة
Ibn Múzzeyed	ابن مزيد
Nablus	نابلس

Nabût	نابوت
Nâdem	نادم
Nâga	ناقة
Nagûs	ناقوس
J. Nagûs	جبل ناقوس
Nâgûs	ناقوس
Naha	ناها: اسم أنتى بين البدو
Náhab	نهاب: لص
Najàn	ناجان: بلد فى وسط نجد
En-Najjeyl	النجيل: قرية من حرب بنى سالم
Náksh	نقش
Nâmûs	ناموس
Ibn Nâmus	ابن ناموس
Namûs	ناموس
Naós	ناعوس
Nargīly	نرجيلة
El-Nasâra	النصارى
Sherîf Nâsir	الشريف نصير
Nasr	نصر
Nàsr	نصر (رجل من العواجى)

Nasr	نصر (من قبيلة حرب)
Nasr	نصر (سكرتير بن الرشيد)
Nasr	نصر (شمرى من العراق)
Nasrâny	نصرانى
Nasrâwy	نصراوى (بمعنى نصرانى)
Naoûs	ناعوس: جبانة (مقابر)
Nabâ	نبع
Nebhanîeh	نبهانية
Nêby	بنى
Nef d	نقد (جمعه أنقاد)
Nèfer	نفر (جندى)
Neffera	نافرة (خجلة) -
Nefûd	نفود
Nèfur el-Tarik	نفور الطريق: جبل على الطريق إلى مكة قادم من وسط نجد
Negâba	نجابة (اسم جبل فى تهامة)
Negro	زنجى
Hâyat	حيات
Nejd	نجد
W. Nejd	وادي نجد
Néjis	نجس

Néjis ed-dinya	نجس الدنيا
Nejjàb	نجا ب (ساعى بريد)
Néjar	نجر (غدير من الحجر فى مدائن صالح)
Nejjel	نجل (أنقاض قرية فى جبل سعين)
Wady Néjl	وادي النجيل
Nejm	نجم
Nejm:Hâj	الحاج نجم
Nejowwazak	نزوجك
Nejràn	نجران
Nejûmy	نجومى
Nelnokh	تلنوخ (أنقاض قرية فى مؤاب)
El-Nemsa	النمسا
Nenhash	نهاش
Neskhi	نسخى
Nesma	نسمة
Nessellem 'aleyk	نسلم عليك
Nibs (nibz)	نيز (إهانة باللفظ)
Niggera	نقرة
Nikkel	نكل (موقع مخرب فى مؤاب)
Nimmr	نمر

Nimrân	اسم كلب (نمران)
Thul. 'a 'an en-Nîr	طلائع النير (بين القصيم ومكة)
Nîs	نيس: حيوان الشيهم
W. en-N'kîb	وادي النقب (بالقرب من الطائف)
En-N'kussa	النقوشة (فرع من عتبية)
Noâba	النوابة (فرع من قروى خيبر)
Nôakh	نوخ (مكان تبريك الإبل)
Noâmsy	نعموسى
Noâsera	النواصرة
Nôkh	تبريك الجمل
Ibn Nômus	ابن نعموس
Noora	نورة
Noweyr	نوير
Nuhéj	نهيج
Nûn	نون (حرف النون العربى)
En-Nuseyrîeh	النصيرية
Nûshud el-Jemâl	ناشد الجمال
El-Nussîr	النصير: من أقارب العنوز
Nussy	نوسى (نوع من الحشائش)
Nuzzân	نوزان: اسم كلب

'Okâtz	عكاظ
Okilla	عكيلة: اسم عبد
'Omân	عمان
'Omanîa	ناقة عمانية
'Omar	عمر
Oreymát	عريصات: فرع من حرب في نجد
Orghra	رغوة الحليب
Oshèyjir	أشيقر: اسم واحة في الوشم
Osmully	عثمانلى
'Otheym	عثيم: قرية في حائل
Otheythia	عزيزية: واحة في الوشم
'Othÿ'hi	وضيحي
Ouadam	أوادم: جمع آدمى
Oweyish	عويش: اسم كلب
Owèynat el-Béden	عوينات البدن
Owlàd el-wátan	أولاد الوطن
Owshâz	عوشاز
El-Owshazîeh	العواشيزية
Owshyfy	عوشيفى
Ozmát	بقسماط

Pilaw	بلاو: أكلة تركية
Port Sa'id	بورسعيد
Pahppah	صوت الأبكى العربى
Rabba	ربا (فى مؤاب)
Rabèyby	ربيبى
Rabî 'a	ربيع
Sheykh Rabî 'a	الشيخ ربيع
Rabugh	رابغ
Radîf	رديف
Ráduffa	رديفة
Rafik	رفيق
Râfuthy	رفوضى
Rafÿa	رافية: واحة فى الرس
Ràgel	راجل
Er-Ràna	الرانا: منطقة فى الحرة
Ráhal	راحال
Rahala	رحالة: فرع من حرب بنى سالم
Rahmna	رحمنا
er-Raheydân	الرحيدان: اسم فرس
Er-Rahîfa	الرحيفة: اسم جمل

Rahîl	رحيل
Rihla	رحلة
Rahma	رحمة
Rahn	رهن
Rahôl	رحول: اسم جمل
Rahyel	رحيل: اسم شخص
Râ 'iyat	راعية
Rajaîl	رجايل
Rájjal	رجّال
Rájl	راجل
Rákham	رخام: اسم نسر
Rakhÿeh	راخية
Rakÿyeh	راقية: اسم فتاة
Ramathán	رمضان
Ramta	رماطا: مكان للتخيم
Râs	رأس
Râs el-'Aÿn	رأس العين
Rashèyd	رشيد
Beny Rashîd	بنى رشيد
Ibn Rashîd	ابن الرشيد

Rashîd es-Shûbramy	رشيد الشبرامى
Rashîdy	راشيدى
Rasûl	رسول
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
Rautha	روضة
Er-Rautha	الروضة
Rayls	ريس
Rayyàn	ريان: اسم واحة فى وادى فاطمة
Rayyan	ريان: اسم شخص من النعومسى
Real	ريال
Beny Rechab	بنى رشاب
Reem	ريم
Reym	رم: اسم عشب فى تهامة
Rî 'a	ريعة: ممر بين الجبال
Er- Rî 'a	الريع
Rî 'a Agda	ريع عقدة: بالقرب من حائل
Rî 'a es-Self	ريع السلف
Rî 'a ez-Zelâla	ريع الزلالة
Er-Riâth	الرياض
Ribshàn	ريشان

Er-Rîhh	الريح
Rîj	ريق
Rijjûm	رجوم
Rikàb	ركاب
Rikb el-Héjr	ركاب الحجر
Er-Rimth	الرمض (عشب)
Rîsh	ريش
Risshán	الرشان: مدينة قديمة في مؤاب
Rizelleyn	رذيلين
J. Roaf	جبل روف
Róbb 'a el-Khâly	الربع الخالي
Róbb 'a	الربع: اسم قرية صغيرة
J. Rodwa	جبل روضة
Rodwa Harra	روضة الحرة
Roghrwa	رغوة الحليب
Rohòl	رحول: اسم جمل
Rókhal	رخال: نعجة صغيرة
Er-Romàn	الرومان: اسم شيخ في تيماء
Romhk	رمح
Er-Romla	الرملة: اسم أنثى بدوية

Rótb	رطب
Róthm	رضم: بازلت
Er-Rotham	الرضام: مجرى سيل فى تيماء
Rótn	رطن
Rowsa	الروسة: فى النفود
Er-Ruâge	الرواقة: من الأشراف
Rubb	رب (الله)
Rubba	رباً: اسم راعى
Rubbâ	ربّه: رفيقة الحياة
Ya Rubby	يا ربى
Rubîa	ربيعة
Ruèyht	رويت: أطفأت الظمأ
Rueytha	رويضة: إحدى واحات الرس
Rúfaka	الرُفاقة: جمع رفيق
Rûh-hu	روحه
Ruhh	روح: أنصرف أو أغرب عن هذا المكان
Er-Rúkhsa	الرخصة: اسم فرس
Er-Rukka	الرُّكة: حفر ماء فى الصحراء جنوب الرس
Er-Rukkaba	الرُّكبة: جزء من الصحراء العالية بين القصيم ومكة
Rûm	الروم

J. Rumm	جبل الروم: بالقرب من قرية العلا
W. er-Rummah	وادي الرماح
Rúmmaky	رمكة: اسم فرس
W. Rumûtha	وادي رموضة
Runnya	رونية
Rúnya	رونية: قرية من قرى السبيع في وادي السبيع
Rupî	روبية: عملة هندية
Rushdân	رشدان: اسم كلب
Russ	رس: رى الأرض من بئر ضحلة
Er-Russ	الرس: مكان به حفرماء للرى
Er-Ruthán	الروثان: فخذ من عتية
Ruwàlla	الرولة: قبيلة فرعية من قبائل العنزي
Sa'adi	سعادى: فخذ من مصروح من قبيلة حرب
Saadîn	سعادين: صيغة الجمع
Sa'ady	سعدى: حيوان مائى
Saafa	سعاقة: اسم فرس
sa'at	ساعة
Sâbera	صابرة
Sabigát	سبيحات: اسم فرس

Sabra	سابرة: اسم موقع
Sábry	صبرى
Sàbt	سبت: يوم السبت
Sabûny	صابونى: صابون
Sacrifice	ساكرىفايس: ذبيحة
Es-s'ada	السعادة: قبيلة من الأشراف
Sádaka	صدقة
Sadûk	صندوق
Saera	سايرة: اسم فرس
Sáfr	شهر صفر
Es-Safy, Hàmed	حامد الصافى
Sàg	ساق
Sah	صاع
Sàhah	صحاح
Sàhar	سحار: ساحر
Sàhara	صحراء الجزائر
Es-Saheyn	الصحن
Sahiby	صاحبى
Sâhilat el-Khamasshieh	سهيلات الخماشية
Sa'îd	سعيد: اسم علم

Beny S'īd	بنى سعيد
Sâiehh	سايح: سائح
Saiyeh	السيح: فرع من الشجر
Sajjèdy	سجيدى: سجادة الصلاة
Sàk	ساق
Es-sakhf	السخف: مسقى من مساقى الثمر
Sâla	صلاة
Salaam	سلام
Salâmîn	سلامين: اسم قرية
Salâmy	سلامى: ماهوبى
Salâmy	سلامى: شيخ من شيوخ تيماء
Es-salat wa es-salaâm	الصلاة والسلام
Beny Sâlem	بنى سالم
Sâlem	سالم: بدوى من خُبير
Sâlem	سالم: شيخ من شيوخ حرب
Sâlem	سالم: واحد من الأشراف
Sâlema	سالمة: امرأة ماهوبية
Salewwa	سلوّه: جن: عفريت
Saleyta	سليطة: قماش بفتة
Sâlih	سيدنا صالح (نبي)

Sâlih	صالح: قريب شيخ الفكرة
Sâlih	صالح: أحد رجال القوافل في عنيزة
Sâlih	الشقيق الأصغر للشيخ مطلق
Sâlih	صالح: شخص في حائل
Sâlih	صالح: رفيق من الحطيم
Sâlih	صالح الكنيني
Sâlih	صالح: شيخ من خيبر
Sâlih	اسم أطلق على أجنبي دخل في الإسلام
Sâlih el-Rashèyd	صالح الرشيد من عنيزة
Sâlih Zeyd	صالح زيد
Sâlim lb ez-Zir	سالم بن الزير
Es-Salt	السلط: اسم قرية
Asâk	عساک
Sammara (Sam'ra)	سمّارة (سمرة): شجرة سنط
Sammat or summat	سمّات (غير مملح)
Sammh	سمح
Sâmn	سمن
Sâmn	سمن: قافلة السمن
Samra	سمرة: شجرة سنط
Yâ Sâmy	ياسمى: أى اسمى: باسمى

Sàny	صانع
Wady es-Sàny	وادي الصانع
Sàra	سارة: ساحل من الحجر الرملي
Saràbta	سرابطة: فرع من البلوى
Sarah	سارة
Sàrhah	سرحة: منهل
Sarsar	صرصر: ريح شديدة
Sarûk	ساروق: لص
Sa'ud ibn 'Abd-el'Aziz	سعود بن عبد العزيز
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود (الكبير)
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود العرافة
Ibn Sa'ud, el-Wah?by	ابن سعود الوهابي
Sawra	سورة: قلعة على طريق الحج
Sayàl	سيال: نوع من الشرطة المرافقة للحج
Sayer	ساير: موضع سخرية واستهزاء
Sbà	سباع: فرع من البشر
Es-Sb'aa	السباعة: قبيلة من العنوز
Sbeya	سبيع: قبيلة من أعراب نجد (من قيس)
W. es-sbeya	وادي السبيع
Derb Wâdy Sbeye	درب وادي السبيع

Sbeydy	زيادى: نبات برى صحراوى
Sbeyîeh	صبيح: قرية فى القصيم
Sbût	السبوت: فرع من بنى عطية
Sebbâ	سبّه: اسم أنثى
Sebba'an	سبعان: قرية فى جبل شمر
Es-Sebbâha	السباحة: فرع من عتيبة
Sebil	سبيل
Sedeyr	سديز
Seffer	سفر: شروق الشمس
Seffua	سفوة: جبل بين القصيم ومكة
Séfn	سفن
El-Sefsáfa	الصفصافة
Sehamma	السحامة: فرع من البلوى
Sehely	سحيلي
Seherân	سهران: اسم كلب
Seleyma	سليمة: قرية من قرى الشمر
Beny Selèyta	بنى سليطة
Selim	سليم العلوى
Selim	سليم: ماهوى
Selim	سليم ولد زيد الشيكان

Selim	السلطان سليم
Sélla	سلا
Ibn Sellem	ابن سلّم
Sellimt	سلمت
Selma	سليمة: اسم امرأة
G. Selma	جبل سلمى
Sem	سام: بن نوح
Sema	سماء
Semīly	سميلي
Semīra	سميراء: اسم قرية
Senna	سنا: اسم نبات
Serahīn	السراحين: فرع من المواهب
Serai	سراى: قصر
Seràserra	السراسرة: فرع من جهينة
Serifat	سريفات: زريبة
Es-Seriàha	السراحة: فرع من حرب
Settàm	سطام
Settatásher kelb	سنة عشر كلب
Seyàd	صياد
Seyadīn	صيادين

Es-Seyd	الصيد
Seyd	جبل سيد
Seydàn	سيدان: شيخ ماهوبى
Seydàn	سيدان: صانع فى تيماء
Seydein	سيادين: عشيرة من الحويطات
Es-Seyeh	السيح: قرية فى وسط نجد
Seyf	سيف
Seyfieh	سيفية: مجرى سيل
Sèyid	سيد
Seyl	سيل
Es-Seyl	السيل
Bab es- Seyl	باب السيل
Seyl el-Arem	سيل العرم
Seyl , of Hâyil	سيل حائل
Wady es-Seyl	وادي السيل
Seyyid	سيد
Seyyid Mahmûd	سيد محمد
Safá	الصفاء
'Safán	صفان
Es-Sferry	السفرى: فصل الخريف

Sfeynah	سفينة: قرية من قُرى المُطير
S'goor	صقور: فرع من البشر
Sgoora	صقورا: فرع من الفكرة
Shaab en-Naam	شعاب النام
Shaaba	شعبة: منطقة صحراوية
Sha'abân	شعبان (شهر)
sh'aara	شعارة: مسقى فى الصحراء
Sh'aara	شعارة: اسم فرس أو جحش
Shâba	جبل شابا
sh'aeb	شعب
Shaeh	شيخ
Shâer	شاعر
Shâfy	شافى
G. Shâfy	جبل شافى
Shâgg en-nâba	شق النابة
Shahûd	شاهود: شهيد
Shàjr	شجر
Ibn Shalân	ابن شالان
Shaiân	شالان: فرع من الجلاس
Shalân	شالان: اسم كلب

Es-Sham	الشام
Es-Sham	الشام: منطقة دمشق
Shamir	شامير: قبيلة
Shammar	الشمر
Gebel Shammar	جبل شمر
Shammar Prince	أمير الشمر
Shammar-Toga	شمر توقا
Shâmy	شامي
Sharân	شاران: عرب وادي بيشة
Shatâra	شطارة
Shâtha	شاذا: بني سالم
Esh-Shazlîeh	الشاذلية
Sh'brâmy	الشبرامي
Es-She'ab	الشعاب
G. She'aba	جبل شعابة
Es-She'abin	الشعابين
Es-She'adda	الشعادة: فرع من عقيبة
G. She'ar	جبل شيعار
Shebbaan	شيبان
Shebîb ibn Tubbai	شعيب بن تُبأى

Shebrûm	شبروم
Sháfa	الشفأ
Shehîeh	الشيحية: هجرة فى القصيم
Shelásh	شيلاش: اسم علم
Shelfa	شلفة
W. Shellál	وادی شلال
Shellafî	شلالى
Es-Shem	الشام
Shemân	شيمان
Shemlân	شملان: فرع من البشر
Shemmîa	شمية
Es-Shenàberra	الشنابرة
Shenna	شنة
Sher'aan	شرعان
Es-Sherâfa	الشرافة
Sherarát	شرارات
Es-Sherg	الشرق
Sherîf	شريف (واحد من الأشراف)
A Sherîf	شريف (شحاذا فى المدينة المنورة)
Sherîf of Suâka	شريف سواكة

Es-Sherkiyîn	الشرقيين
Sherm	شرم: خليج
Sherôra	شرورة
J. Sherra	جبل شرات
Sherrâbs	مدخنو التبغ
Sherrân	أقارب الخيابة
Sherrâra	شرارة
Shérri	شرى: نوع من القرع
Sheukh	شيوخ
Sheyabîn Aarab	أعراب الشيايين
J. es-Sh'eyb	جبل الشعيب
Sheybân	شبيان: اسم جبل
Sheykh	شيخ
Sheykh el-Aueyrid	شيخ العويرض
Sheykh el-mushèyik	شيخ المشايخ
Sheykha	شيخة
Sheytàn	شيطان
Es-Sh'hebbâ	الشحيبة
Shî 'as	شيعة
Es-Shibbebîeh	الشبيبة (أراضي زراعية)

Es- Shibbebîeh	الشبيبية (حفر مياه)
Shibrîyyah	شبرية
Shidàd	شداد: عدة الجمل
Es-Shiffa	الشفاء
Es-Shî-îl	الشيل
Shîl !	شيل
Shimbel	شمبل
Shimmer	شمر (عميد الشمر)
Shinàny	شيناني (واحة في الرس)
Es-Shitá	الشتاء
Shittr	شتر: جمال
sh'kâky	شعكى
Shôbek	الشوبك
Es-Shór	الشور: الشورى
Shórafat en-Nejid	شرفات النجيد
Es-Shotb	الشطب
J. Shotb	جبل شطب
Es-Shotibba	الشطبية
Shottifa	شطيفة: اسم فرس
Es-Show yîg	الشويج: قرية

Shu bitekûn ent	شو بتكون أنت
Shubàramy	شبرامى: أهل سميراء نسبة إلى شيخهم راشد الشبرامى
Shubb ej-jemâl	شب الجمال
Shubb el-'bil	شب البيل
Es-Shûberamy	الشبرامى: اسم عائلة
Shubúb	شبوب: شباب
Es-shûel	الشيول: اسم فرس
Shûf	شوف: انظر
Shûf f'il ghraib	شوف الغريب
Shuggéra	شقيراء
Es-Shuggera	اسم فرس
Shuggery	الشقيرى
Shujjer	شقيير
Shuk el-'Ajûz	شوك العجوز
Shukkûk	شكوك العجوز
Shûkkra	شكوك
Es-Shukkra	شقرة: شقراء
Shûn	شوم
Shurma	شرماء
Shurra	شرماً: مسقى صحراوى

shwâm	شوام
Shwóysh	شويش: ماهوي
Sîah	سياح: قرية فى الأفلاج
Siah	سياح
Siâla	سيالة: نوع من شجر السنط
Es-Sidd	السُد
Siddes	السديس: جمل عمره سبع سنوات
Siddîr	سدير
Siddûs	سدوس
Sidényîn	سدنين: أقارب بنى عطية
Sidr	سدر: نوع من الشجر
Sidr	سدر: قمة بازلتية فى وادى فاطمة
Sieyda	سيدا: فرع من جهيئة
Sihh	السيح: اسم قرية
The Sîk	السيق
W. es-Sillima	وادى السليمة
Sillima	مسلمة: من شجر السنط
Sillimât	السليمات: فرع من البشر
Simm	سُم
Simrân	سمران: اسم كلب

Ibn Sim'ry	ابن سمري: فرع من الحطيم
Simûm	ريح السموم
Sinjâra	سنتجارة: فرع من الشمر
Sîr Amîn	السير أمين: أمير حائل
W. Sirhân	وادي السرحان
Wady es-Sirr	وادي السر
Sirrûk	سرُّوك
Sîrûr	سرور: اسم علم
Sheirât	شيرات: اسم قرية
J. Sleih	جبل سليح
Es-S'lèyb	الصليب: الصلوبة
Seleymàn	سليمان
Sleymàn	سليمان: بائع التبغ
Sleymàn Abu Daûd	سليمان أبو داود
Sleymàn	سليمان: محصن سوري
Sleymàn	سليمان: ولد البسام
Sleymàn	سليمان: شقيق حامد العبيد
Sleymàn	سليمان: شخص من حائل
Sleymàn el-Khenneyny	سليمان الخنيني
Sleymàn	سليمان التيماي

W. Sleyman	ولاد سليمان
Slim	سليم: من أشجار السنط
Es-Smiry	السميري
Sobh	الصبح: قبيلة من بني سالم
W. Sódr	وادي سدر
Beny S ókhr	بني صخر
Sokr	صقر
Sôla	صولة
Es-Soleyil	السلييل
Solubba	الصلوبة
Solubbâ	صلوبية
Solubby	الصلبيي
Softan	سلطان
Sotwh	سطوح
Es-Sowwa	السوة: اسم فرس
Sowwân	سوان: اسم كلب
Stambûl	إسطنبول
Es-Suâda	السوادة: اسم فرس
Sûah	صوع: جمع صاع
Suáka	صواكة: اسم هجرة

Suâki	سواكى: من أقارب الحويطات
Suâkim	سواكيم (سواكن)
Suâlîf	سوالف: حكايات
Sualma	سوالمة
Suâny	سوانى
Subbâk	سبك الله
Súbbakha	سبخة
Subbîa	سبية: تل رملى
Subîa	سوبية: مشروب مُتخمّر
Sudân	السودان
Es-Suedda	السويدة: أهل شقيراء
Es-Suergîeh	السورجية: قرية حرب
Sueygy	السويجى
Suffa	صُفة: صخرة أرضية
Suffa	صفة: الغرفة العلوية من المنزل
W. es-Suffera	وادی الصفيرة
Es-Suffuk	الشقوق
Sufra	سفرة
Sújwa	سجوة: قلعة خلف الحجر
Sûk	سوق

Sûk	سوق: شارع
Sûk er-Ruwàlla	سوق الرولة
Sûk es-Sheukh	سوق الشيوخ
Es- Sulât	الصلاة
El-Sulèyl	السليل
Sull yâ, ta'all sull !	صلى يا
Sully 'alâ hô'l ghrâdâ	صلى على ها الغادة
Sully ' aly en-Neby	صلى على النبي
Sully Ullah'aley-hu	صلى الله عليه
Wady es-Sulsilla	وادي السلسلة
Súltàn	سلطان
Derb es-Sultny	الدرب السلطاني
Suml	سُم
Summ	سُم
Súmmakha	سمخة
Summat	سامط: غير مُملح
Sumrâ	سمرا
Sûmt	سمط: مكان حجرى
Sunna	سُنّة
Súnn' aa	صنعة

Sunnî	سننى
Sûr	سور
Surbût	شربوط: شربات
Surra	صرة نقود
Suryân	سريان
Sûs	سوس: فى المغرب
Es-Sûta	السوطة: فرع من عتية
Sûwahh	سواح
Swergîeh	سويرجية
W. Swergîeh	وادی سويرجية
Sweydia	سوادية
Swefly	سويقلی: منطقة فى حائل
Es- Swefly	السويقلی: أقارب الشرارات
Sweyga	سويحة
SweyImát	السويلمات: فرع من البشر
Sweymly	السويلمى
Ta'al hennéyi	تعال هنا
Ta'al húbbiny	تعال حبينى (قبلىنى)
Ta'al yâ mel'aun	تعال يا ملعون

Ta'am	طعام
Beny Taâmir	بنى تعمير
Tâga	طاقة
Táhal	طحال
Et-Tâif	الطيف
Taif?t	طيفات: فرع من ولاد على
T?jir	تاجر
Takht	تخت
Taliâny	طليانى
Tambur	طمبور
Tammerra	تامرة: قرية فى وادى الدواسر
Támr	تمر
Tamyîz	تميز
Tannúr	تنور
Tarbûsh	طربوش
Târiba	تربية: اسم علم
Tarkîy	طراقى
T ' âus	طاوس
Tâyib	طيب
El-Tâyif	الطائف

Techôi	تخوى: أستبس بغداد
Tebûk	تبوك
Teghrurriz el-ghrannem	تغرز الغنم
Tegúf	تقف
Teháma	تهامة: الأرض المنخفضة
Teháma	وادي تهامة
Teháma	تهامة مكة
Tekhálliny-aném fī hothank	تخلينى أنام فى حضنك
Telâl ibn Rashîd	طلال بن الرشيد
Temathîl el-Helalât	تماثيل بنى هلال
Temîm	تميم
Bnenu Temîm	بنى تميم
Temmn	تمن: أرز هندی
Temút	تموت
Terabîn	ترابين: عشيرة من الحويطات
Terâgy	طراقى: عابرو سبيل
Terâny	ترانى
Terky	تركى: شيخ من القحطان
Terky	تركى: قبلى من قبيلة حرب
Térrai	تراى: مجرى سيل

Térras	ترس
Teslīm	تسليم
Teyâmena	تيامنة
Temya	تيمة
Teymâny	تيمانى
Et-Teyry	التيرى
W. Thá	وادی ظا (فى العويرض)
Thá el-melûk	داء الملوك
Thâbit	ثابت: فرع من الشمر
Th'af	ثعاف: صخرة مازالت فى وادى فاطمة
Thafya	ظافية: جبل من تيماء وتبوك
Thâhab el-asfr	الذهب الأصفر
Thâhir	ظاهر: قروى من تيماء
Thâhir	ظاهر: ماهوى
Thâhir's daughter	ابنة ظاهر
'ayd eth- thah	عيد الضحية
Eth- Thâhy	الضاهى
Thaif	ضيف
Thaif- Ullah	ضيف الله
Thaifullah	ضيف الله من ولاد على

Thaifullah	ضيف الله الحطيمي
Thail	ذيل
Thakîf	ثقيف
Esh-Th'al	الذعال: جبل بين القصيم ومكة
Eth- Thâleba	الذالية: قبيلة من الأشراف
Thalûk	ذالوق: طيب المذاق ذميم
Thâmin	ذميم
Thmmad	ثمّاد: جبال
Wady Thammud	وادي ثمود
Thamûd	ثمود
Than-ak	ولداك
Thanthub	تنضب
Thanwa	ذانوة: امرأة ماهوية
Thâr	ثار
Thât el-Hâj	ذات الحج: اسم قلعة
Thât 'Irk	ذات عرق
Ullah y'aâyna-kom	الله يعينكم
Ullah yerham weyladeyk	الله يرحم والديك
Ullah yesellîmk	الله يسلمك

Ullah yethkirak	الله يذكرك
Ullah la yubâarak fîk	الله لا يبارك فيك
Ullah yubèyith wejh	الله يبيض وجه
Ullah yul'aan abu ha''l hubûb	الله يلعن أبوها الهبوب
Ullah yul'aan Thegîf	الله يلعن ثقيف
Ullah yúnsur	الله ينصر
Ullah yusullat	الله يسلط
Ullah yutowil "umr hâl weled!	الله يطول عمرها الوليد
Ullah yuwasselak b'il-kheyer	الله يوصلك بالخير
Ullema	علماء
Umgassur	أم قصور
Umjemmîn	مُقيمين
Umjeyd	أعراب أمجد
Umm Arkab	أم أركاب
Umm Arthama	أم أرضمة
Umm Gemâl	أم جمال
Umm-Jenàyb	أم جنيب
Umm Kîda	أم كيدة
Umm Meshe'aib	أم مشاعيب
Umm Nejd	أم نجد

Umm Rosàs	أم رصاص
Umm R?kaba	أم ركبة
Umm Sâlema	أم سليمة
Umm ws-Sghrar	أم الصفار: أسم فرس
Umm es-ûf	أم السيوف
Umm Theyàn	أم ديان: أسم قرية
Umm Tÿeh	أم تيه
J. Ummry	جبل أمرى
Ummshásh	أم شاش
Ummthail	أم ذيل: اسم كلب
Umseylmy	أم مسيلمى: مسيلمه
Umshetta	أم شتا: فرع من ولاد على
Umsubba	أم سباً
Umteyra	أم طيرة: اسم أنثى
Un'aam Ullah 'aleyk'	أنعم الله عليك
Unseir	أونسير: أقارب العنزى
Urhum	أرحم
Urraie	أتبعنى
El-'Urruk	العروق: الأجور
Usha	عُشّة

Ustibbah	اصطبح
El-Usshb	العشب
G. Usshúb	جبل عشب
Usshud	أشهد
Utherah	عذيرة: بلدة مخربة في جبل سعين
El-Úthub	الأثب: شجرة تين برية
El-'Uzza	العزى
Waar	وعر
Wa ent sélm	وأنت سليم
Wa fúkny rubby	وفقنى ربي
Wa hu fībant-ak	وهو فى بطنك
Wā hyāt	وحياة
Wa hyāt dūkny	وحياة ذقنى
Wa hyāt ibny	وحياة ابنى
Wa hyāt el-messīh hātha	وحياة المسيح هذا
Wa hyāt rukbátak	وحياة ركبتك
Wa hyāt rukbaty	وحياة ركبتى
Wa hyāt Ullah	وحياة الله
Wa hyāt weyladich	وحياة ولادك

Wa low	ولو
Wa shûghrol-hum bez en náhab	وشغلهم بالتهب
Wâba	وباء: طاعون
Wábar	وبر: اسم حيوان
Wabbar	وبر: اسم حيوان
Wâbissa	وبيسة: فرع من البلوى
wád' el-kebîr	الوادی الكبير
Wadda	وداً: أسم كلب
Wadiàn	وديان
Wâdy	وادی
Wâdy	وادی: اسم علم
Wâdy Mûsa	وادی موسى
El- Wâdy	الوادی
Wâdy	وادی السر
Wafiyat	وفية: جمل عمره ٨ سنوات
Wâga	واقا: اسم كلب
El-Wàgilla	الوقيلة: اسم فرس
Beny Wáhab	بنی وهاب
El-Waháby	الوهايى
Waháby	وهايى

Wáhamy	وهمى
Wahîby	وهيبى
Wàil	وعيل
Wàilyin	وعيلين
Wājed	واجد
Wajjâ	وجع
Wajjàj	وجاج: اسم بئر
Wajjid	وجيد: اسم أنثى بدوية
Wajjidàn	الوجدان: فرع من عتيبة
El-Wakbâ	الوكبة
Wák'm	وخم
Wakîd	وكيد: مؤكد
Wàly	والى
Warak	وراعك
Wareysîeh	وريسية
Wâsit	وسيط
El-Wàsitâ	الوسيطه
Wásm	وسم
Wa'ul	وعول
Wâyil	وعيل: اسم علم

Wâyil	وعيل: شيخ ماهوي
Wedduk	ودك
Weeaho	ويّه: نداء للإبل
El-Wejh	الوجه: بلدة
Wélad' Aly	ولاد على
Wélad Selīm	ولاد سليم
Wéled	ولد
Wélad 'ammy	ولد عمي
Wélad Mahanna	ولد مهنا
Wellah	والله
Wellah Fulàn	والله يا فلان
Wèly	ولي: ودي
Wennys	ونيس
El-Wéshm	الوشم
Weyley	ويلي
Wèyrid	وريد: مصدر ماء
Wèyrid	وريد: شخص من الفجيري
Weysh 'aad	ويش عاد
Weysh 'aleyk	ويش عليك
Weysh yúnsurhu	ويش ينصره

Widd el-ghrarīb ahlhu a 'an el-ájnaby

ود الغريب أهله عن الأجنبى

W. Widj

وادی ودج

Wilàyat Konia

ولاية قونية

El-Withanîn

الوزانين: فرع من عتيبة

Witr

وتر: اسم جبل

Witr

وتر: عرّاقة للجمل

Wòh-ho !

وو-هو: نداء على الإبل

Wolloo-wolloo-wooloo

نداء على الإبل

Worma

ورماء: اسم بدوى لأنثى

Wothÿhî

الوضيحي

El-Wuffiàn

الوفيان: فرع من حرب

Wurrùr

ورور: وزن

Wúttid

وتيد: جبل فى تهامة

Yâ ahl el-karîm

يا أهل الكريم

Yâ ent rākabîn

يا أنت ركابين

Yâ fárkah

يا فركة

Yâ hulla

ياحول الله

Yâ latîf !

يا لطيف

Yâ mâl ej-ju'a

يامال الجوع

Yâ mâl et-teyr	يا مال الطير
Yâ mâl eth-thubbah	يا مال الضبعة
Yâ Rasûl Ullah	يا رسول الله
Yâ Rubby !	يا ربى
Yaarud'aley	يعرض على
Yâfet	يافت: ولد نوح
Yagût	ياقوت
Yahûd	يهود
Yahûd Kheyber	يهود خيبر
Yahûdy	يهودى
Yahya es-Sâlih	يحيى الصليح
Yahya	يحيى
Yajiddûn	يجنّون (النخيل)
Yakt'a	يقطع
Yakubb-hu	يُكَبِّه
El-Yâm	اليام: سلاله عربية
Yânb 'a el-Bahr	ينبع البحر
Yanb 'a en-N?khl	ينبع النخل
Wady Yanb'a	وادی ينبع
Yáthrib	يثرب

Ybba	يابا
Ybba Moghrair	يابا مغرير
Yegôtarun	يقاطرون
Yéhia	يحيى
Yel'aan	يلعن
Yelduz	يلدز: اسم كوردى
Yellah yâ sitterak	الله يسترك
El-Yemâma	اليمامة
El-Yemâna	اليمانة
El-Yémén	اليمن
Yémeny	يمنى
Yémeny	يمنى (مادة من اليمن)
Yemmen	أبار اليمن
Yerhamak Ullah	يرحمك الله
Yeterôha	يتروها
Yeteyr	يطير
Ymgebâs	أم حبيبة: بومة الصحراء
Yoktân	يكتان
El-Yôm neĵîm	اليوم نقيم
Yugaialûn	يقيلون

Yuháshimûm	يَحْشَمُون (يَحْتَرَمُون)
Yuhowwishûn	يَهْوشُون
Yujassas	يُجَسَس: يَتَجَسَس
Ykdur Ullah	الله قادر
Yulubbûn	يلبون
Yun 'aam Ullah 'aleyk	يَنْعَم الله عليك
Yunâny	يوناني
Yûntun	يَنْطُون
Yurussun	يرشون (الماء)
Yûsef Khâlidy	يوسف الخالدي
Yusb 'ak ent !	يَسْبِعْكَ أَنْت
Yusuddirûn	يَصْدُرُون
Za 'al	زعل
Zabtîyah	ضبطية
Zâd	زاد
Zahlân	زعلان
Zâmil	زامل
Zanzibar	زَنْزِبَار
Ez-Zbèyd	الزبيد

Zbeyer	الزبير
Ez-Zelakát	الزلاقات
Zellûm	مجرى سيل
Zemmel	زمل (إبل الحمل)
Zemzemîeh	زمزية
Zenaiba	زنية
Zerka	زرقة
Zêy êl-fil	زى الفيل
Beny Zeyd	بنى زيد
Zeyd	زيد الحربى
Zeyd	زيد راعى الماشية
Zeyd	زيد السبيكان
W. Zeydîeh	وادي زيدية
'Aÿn ez-Zeyma	عين الزيمة
Ziarra	زيارة: من أقارب أهل خبير
Ez-Zibbâra	الزيارة
Zibdâny	زبيداني
Zighreybiéh	زغربية
Zika	زكاة
Zikma	زكمة

W. Zilèyly	وادی زلیلی
Zilfa	زلفی
Ez-Zilfy	الزلفی
Zmèyem	زمیم
Zmurrûd	زمرد
Zófr	زوفر (نوع من الأصدا ف)
Zóhra	زهرة
Zôl	زل
Zôra	زوره
Zuâmil	زوامیل: رجال الزامل
Zuâra	زواره: أقارب الفقارة
Zûba	زوبا: فرع من الشجر
Zubbàla	زبالة: فرع من البلوى
Zubbiàn	زبيان: فرع من جهينة
Zuggimân	زوجمان: اسم كلب
Ez-Zumèyl	الزمیل: فرع من الشمر
Ez-Zurán	الزوران: فرع من عتيبة
Zymat	زيمات

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل



مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم ، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم ، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها . وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى . ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوروبيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفاصيل حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع ما شاهده لهم خلال رحلته .

